المملكة الأردنية الهاشمية
جمعية المحافظة على القرآن الكريم

التلقي النبوي

للفظ القرآني

دراسة تأصيلية لكيفية تلقي
النبي صلى الله عليه وآله وسلم
القرآن الكريم عن جبريل عليه السلام عن الله عز وجل

الأستاذ الدكتور
عبد السلام مقبل المجيدي
أستاذ القراءات والدراسات القرآنية

82

التلقي النبوي
للفظ القرآني

محفوظة جميع الحقوق

الطبعة الأولى

١٤٣٧ هـ - ٢٠١٦ م

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٢٠١٦/١/٩٩)

ISBN (ردمك)

من منشورات
جمعية المحافظة على القرآن الكريم
المملكة الأردنية الهاشمية

هاتف: ٤٦٢٨٣٣٤ ٦ ٩٦٢+ - فاكس: ٤٦٢٨٣٣٦ ٦ ٩٦٢+
ص.ب: ٩٢٥٨٩٤ - الرمز البريدي: ١١١٩٠
حسابنا لدى البنك الإسلامي الأردني / فرع الحسين (١٧٦٧١)
حسابنا لدى البنك العربي الإسلامي الدولي / فرع الحسين (١٠٢٠٠)
حسابنا لدى بنك الأردن دبي الإسلامي / فرع الشميساني (١٠٥٥٩٧)
عمان - الأردن
www.hoffaz.org
E-mail: hoffaz@hoffaz.org

التلقي النبوي

للفظ القرآني

تأليف

جمعية المحافظة على القرآن الكريم

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلۡقُرۡءَانَ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾

﴿ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ
ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾

إهداء

إلى: سيدي **رسول الله** ﷺ... صاحب خبر السماء ﷺ... نفسي له الفداء... أنفاسُك الطاهرة... طالما أقْرَأت الكتاب المجيد... فكان من يديك -يا سيدي- كلُّ برٍّ أمينٍ مبينٍ رشيد... فخلف من بعدهم -يا سيدي- خلفٌ ورثوا الكتاب... يأخذون عرض هذا الأدنى... طمعاً في السراب... وبَلِيَ القرآن في صدور أقوامٍ كما تبلى الثياب... وانطلق الملأ منهم يتنجون: إن سيرهم على حرف الكتاب لفي ضلالٍ مبين... فحرفوه، ورموا به في غيابات الجب، وكانوا فاعلين... وهم يُصعِدون... يُصعِدون -يا سيدي- ولا يلوون على أحد... واشْتُرِيَ بآيات الله ثمنٌ قليل... وحشرج الصدر لذلك بعويل الأسوار، وسُمِعت آهات نداء الحق خلف أسوار العويل... وملأٌ من المؤمنين للحق كارهون... يجادلون في الحق بعدما تبين، وهم ينظرون... وأحلوا الخُسْر؛ إذ حطموا باستكبارهم التواصي بحقٍ وصبر، وهم لا يشعرون... وصار ما سوى الكتاب المجيد عندهم هو العُجاب... فمسنا حينٌ من الدهر تاهت عنا فيه حقيقة المتاب... وأَفَلَ عنا كل نورٍ صالح، وتركتنا شفقة عبدٍ لله ناصح، ولَغِبنا بعوج ماديات المصالح، ونأت خلفنا هدايات عليٍّ حكيم... فذهبت الريح.. وبكى الغار... وأنَّ أُحُد ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ [الحج: ١٨]... ألم تدعُهم في أُخراهم... وأُخِذ عليهم ميثاق الكتاب ألا يقولوا على الله إلا الحق...

فكان نداؤك -يا حبيبي- يشق الأزمان للولهى، ويغيث أمةً من اضطرام الفتنة حيرى: «هذا الكتاب... فتمسكوا به فإنكم لن تضلوا بعده أبداً»، فسارع إلى الخيرات كلُّ مُمَسِّكٍ بالكتاب يهدي إلى الحق وإلى طريقٍ مستقيم... يبتغي الحق مظانه، وعلى شدة القروح انقلبوا بنعمةٍ من الله وفضلٍ... لم يمسسهم سوء... فإذا سعيهم مُحَمَّدٌ محمودٌ أحمد... بما علمتهم من الكتاب المجيد... حتى كادوا يكونون عليه -لهفاً وشوقاً- لبداً... ينتظرون ورود الحوض، وشروق شمسك أمامه... كأن وجهك ورقة

مصحفٍ عَلَّمْته... وما زالوا -يا حبيبي- يخرون للأذقان... يبكون ابتغـاء شـربةٍ هنيئـةٍ لا تظمأ بعدها قلوبٌ لهفى طالما ظمئت إلى يدك الشريفة- أبداً... يرددون مـع الحبيـب الجليل ابن أم عبدٍ -إذ أمرتهم بالتمسك بعهده-:

اللهم أسالك إيماناً لا يرتد... ونعيماً لا ينفد... ومرافقة نبينا محمـدٍ ﷺ في أعلـى جنان الخلد...

شُكْرٌ

إلى: الذين سارعوا في الخيرات، وسابقوا إلى مغفرةٍ من ربهم، بإزجاء **أفنان** المساعدة، للباحث في بحثه، فازدانت **بميسان** الإحسان، وارتفعت **بعز** التواضع، وعبقت بالصالحات:

يتصدر محرابهم القانت: شيخي/ **شيخ الإقراء: إسماعيل عبد العال أحمد الشرقاوي**(١)،

أُشربتَ منك حب التعلق بكل ما اتصل بكتاب الله سبحانه وتعالى؛ إذ كنتَ للمتقين إماماً.. وجعلك الله جل وعز سبباً في أن يكون القرآن نوراً لي وحساماً صمصاماً، وشعوراً فياضاً يملأ جسدي، وروحاً تسري في جوانحي، وعواطفي، وأحاسيسي ينبغي أن يعيش به المرء نهاره، ويحيى ليله سجوداً وقياماً...

أنبتَ في نفسي أن القرآن هو القول الثقيل، والذكر المجيد، فمن رام التشرف بالدخول في زمرة حفاظه فليعد العدة لمناجاة الملك القدير الولي الحميد..

وما رأيتَ منك على طول المدى إلا أن أسقامك تزداد فيكون القرآن **سميرَك** غير المفارق، والشفاء، والهدى، والموعظة، والحبيب الماتع الرائق، وهبَ الله لك بذلك رحمةً من ربك؛ إن فضله كان عليك كبيراً، فعسى مجمعٌ بك في ظل العرش يزدان منيراً، ويتألق بسعي متقبلٍ مبرور صار عند ربنا مشكوراً.

ويؤمهم شيخي الشيخ المبجل: الأستاذ الدكتور / أحمد علي الإمام(٢)، إذ حفَّتني بنعمة صحبته رحمةٌ من ربي أرجوها، فرأيت فيه معنى ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا﴾ قد تجسدت بشراً سوياً، وتوسمتُ فيه معنى الصدِّيقية، هاتُفها: (اتبعني على أن أعلمك مما علمتُ رشداً)، ولسان حالها: (اتبعني أهدك صراطاً سوياً).. بذر فيّ معاني: (ربِّ علمني

---

(١) شيخ المؤلف الذي تلقى منه ألفاظ القرآن الكريم بقراءاته العشر من طرق الشاطبية والدرة والطيبة، وقد مضى إلى رب عفوٍ ودود غفور عسى أن يرفعه الله مكاناً علياً، ويكون به حفياً، ويجعله عنده مرضيا.

(٢) شيخ المؤلف ووالده الذي أشرف عليه في مرحلتي الماجستير والدكتوراه، وقد مضى إلى رب عفوٍ ودود غفور عسى أن يرفعه مكاناً علياً، ويكون به حفياً، ويجعله عنده مرضيا.

الكتاب والحكمة، وعلمني ما لم أكن أعلم، واجعل فضلك عليَّ عظيماً)، وقد آتاني الله بصحبته من لدنه حناناً، وزكاة، وكان بي حفياً، لكم أخذ بيدي لاجتياز صراط من كان تقياً.

وإلى الربيين من أهل القرآن،

جعل نور السموات والأرض في قلوبكم نوراً، تقتفون به آثار رسولكم ﷺ: نبيلاً إثر نبيلٍ، على صراط عليٍّ مستقيم، تغدق عليكم بينات الصحف المطهرة هداها، فإذا سيركم قد حُسم بحسام الفرقان، وسيف العزم، فبارك الله ذلك المسعى، فهدى، ثم بارك فيه فزاد فيه زيداً صالحاً مُحَمَّداً طيباً مباركاً فيه كرتين، في زمن قرحٍ وبأساء وضراء، يُتَرَبَص فيه بدينكم الدوائر، فما وهنتم لما أصابكم في سبيل الله، وما ضعفتم، وما استكنتم، فارتقيتم أوج الربانية؛ إذ كلٌ منكم عبد الله، فإذا أنتم عباده المخلصون، تَسْعَون في كمال النعمة بعد إذ تمت بكمال الدين، رياضُكم: دمعةٌ في محراب الماجدين من المتهجدين، ونغمتُكم: تهاليلُ السفائن الفاتحة للمدائن، وسميرُكم: تراتيل التنزيل، وغوثُكم المساعِد: السكينةُ المنزلةُ -دوماً- على المؤمنين، وسائقُكم ابتسامة رسول الله ﷺ مخترقةً الحجب الساترة، أمَّا أمينُ القافلة، ورقيبها، وعاصمُها: فحبٌ هو، وليدُ الهيام بالعودة لأيام الفاروق، وفقه النعمان[1]، وشوقٌ إلى مَيَسانٍ في أفنان الجنان، وإن لقيتم في سفر الدنيا نصباً، ففيصل رؤاكم الكلية -جلال الدنيا وجمالها-: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾[البقرة: ١٤٣].

إليهم: إذ رفعوا عني بسيف العزم ضعف اليقين، ووعثاء الطريق، وقلة الصدق، وندرة الصديق، تعلو جمعنا منائر العودة لأعلى رفيق، وتذكر بعزم أبي بكر، وعظمة الفاروق، وجلال ذي النورين، وصدق أبي الحسنيين، فتخفت كرب الحصار عند التهاب المضيق، والله على رجع أيام الصِّدِّيق لقادر، فهو المعتصَم سبحانه خير واهبٍ وناصر.

---

(١) أبو حنيفة -رحمه الله تعالى-، وهو إشارةٌ إلى أئمة السلف عموماً، والنعمان أقدم الأربعة -رحمهم الله تعالى.

تقديم فضيلة الأستاذ الدكتور/ أحمد بن علي الإمام❁

الحمد لله الذي هدانا بالقرآن الكريم ذي الذكر، وجعل قُرَّاءه أهل الله وخاصته، ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾[يونس:٥٨]، وصلوات الله المباركات، وتسليماته الزاكيات على سيدنا محمد عبد الله ورسوله خاتم الأنبياء والمرسلين، من نزل عليه القرآن العظيم فتلقاه لفظاً وأداءً، فأدى الأمانة، ونصح الأمة، وعَلَّم أصحابه، فاتصل سند التعليم بهم في الأجيال، وسيبقى محفوظاً بحفظ الله تعالى أبداً ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾[الحجر: ٩].

ثم أما بعد:

فلقد سعدت في جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية بمعرفة الباحث عبد السلام مقبل المجيدي من خلال إشرافي على بحثه لنيل درجة التخصص الأولى (الماجستير) في التفسير وعلوم القرآن الكريم بعنوان (تلقي النبي ﷺ ألفاظ القرآن الكريم)، وهي دراسة تأصيلية لكيفية تلقي النبي ﷺ ألفاظ القرآن الكريم عن جبريل عليه السلام عن الله جل جلاله.

وقد ساعد الباحث حفظه للقرآن الكريم وتجويده، وإتقانه، وجمعه للقراءات القرآنية، ومقدرته البحثية، وهمته العالية، وجده في التحصيل، وتفرغه لذلك في حبٍّ، وشوقٍ، وأدبٍ ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١، الجمعة: ٤].

أما الدراسة فقد خلصت إلى توثيق النص القرآني، وذلك داخل فيما ضمن الله تعالى من حفظ كتابه العزيز: لا يصيبه تحريفٌ في لفظه، ولا في أدائه.

❁ مستشار رئيس جمهورية السودان لشؤون التأصيل والتخطيط الاستراتيجي، ومدير جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية في أمدرمان سابقاً.

كما تناول البحث مراتب اللفظ القرآني، وتوقيفية نقل ألفاظ القرآن الكريم أصلاً وأداءً، وأحسن الباحث استخدام مصادر بحثه في دوائر واسعة من العلوم في أصول الدين، والتفسير، وعلوم القرآن، والسنة، وأصول الحديث، والفقه وأصوله، واللغة العربية.

هذا وقد أُجيز البحث، ونال درجة الامتياز، مع التوصية بطباعته.

ونسأل الله تعالى أن ينفع بالكتاب وكاتبه المسلمين، ويوفقه لما يستقبل من عمل، وأن يجعل عملنا وإياه صالحاً، ولوجهه خالصاً متقبلاً عنده.

المقدمة

"اللهم إنا نحمدك أقصى مدى الحامدين، ونعترف بآلائك كما أوجبت على المطيعين، من عبادك المعترفين، ونسألك أن تصلي على نبيك المرتضى محمد وآله الطاهرين، وصحبه الراشدين، وأن تحسن العون والتسديد على ما أُجمع فيه القربة إليك، بما يحظي بالزلفة لديك، وأن تجعل العمل لك، والاتصال بك، والمطالب مقصورةً على مرضاتك، وإن قصرت الأفعال عن مفروضاتك، وصلتها برأفتك، وجعلتها مما شملته بركات رحمتك"[(١)].

وبعد:

تمت كلمات الله صدقاً في الأخبار وعدلاً في الأحكام، وكان مما تم أنه: ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ [الأنعام: ١١٥] ويجتمع النفي في آية الأنعام المتقدمة مع الإثبات في آية الحجر ﴿ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر:٩] ليظهر السياج الإلهي المتين الذي حفظ لفظ القرآن الكريم من أن يطرأ عليه أدنى تغيير، أو أن تعتريه شائبة تطوير سواء أكان ذلك من ساهٍ أو من متعمد تأكيداً على أهمية الحفاظ على لفظ القرآن؛ إذ هو المعبر الوحيد، والسبيل الفريد لتأويل معناه، وسبر غوره، وإدراك مغزاه، وأي تبديلٍ في لفظه، أو تحريف في أدائه، مُلْبِسٌ لمعناه بما اكتنفته عقول البشر من معانٍ.

والفهم العملي القائم على أسس البناء الفقهي ارتكازاً على تقريرات أصول الفقه في باب الخبر والأمر– يحتم جعل هذه الحقيقة الإلهية في إطارها الواقعي، ومن ثم تكوين أدوات التنفيذ لإحالة هذه الحقيقة إلى واقع، مع اليقين بأن حدوث ذلك

(١) بتصرف من استهلال الإمام أبي الفتح بن جني في كتابه (المحتسَب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها) تحقيق : علي النجدي ناصف وآخرون ، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية – لجنة إحياء كتب السنة – القاهرة ١٤١٥هـ – ١٩٩٤م.

أمر قدر كوني، للضمان الإلهي الظاهر في الآية السابقة، فتكوين الأدوات الواقعية لحفظ ألفاظ القرآن الكريم إنما هو تناغم مع الحقيقة الإلهية الحتمية.

وإذا كان اللفظ هو سبيل المعنى فإن أداء اللفظ هو سبيل إخراجه، وإبانتُه هو طريق إدراكه، فالقدح في اللفظ قدح في المعنى، والخلل في أداء اللفظ خلل في اللفظ ذاته. فقد اجتمع من هذا الارتباط: أهمية كل واحد من الثلاثة (المعنى، اللفظ، أداء اللفظ) للآخر، وشدة تعلق كل بالآخر، والمُطَلِّعُ على مفاهيم اللغة، ودلالات الألفاظ، يعلم اعتراء التغير فيها بمجرد تغير أدائها، فكيف تغير لفظها؟[1].

وكانت الجهود الكثيفة التي وجهت للاعتناء بلفظ القرآن الكريم، وطريقة أدائه مكونة الإطار الواقعي لحقيقة الحفظ الإلهي قد بدئت من لدن جبريل عليه السلام الذي علم النبي ﷺ أضرب الوحي يقدمها الوحي القرآني، وبقيت هذه الجهود متتابعة إلى أيامنا، نقلاً للفظ القرآن، وطريقة أدائه، وهيئات ضبطه، وسبل رسم ألفاظه، ودروب الوقف والابتداء في آياته، وعدد تلك الآيات، وأزمنة حفظه، ومراجعته، وقراءته، وإقرائه، وهذه ونحوها جهود من حيث المحافظة على اللفظ.

وأساس الأسس في الأدوات الواقعية للمحافظة على اللفظ وأدائه هو المشافهة (التلقي)، وما زال المسلمون يقررون –لذلك– أن القراءة سنة يتلقاها الآخر عن الأول[2]، لا يدخلها اجتهاد بشري، ولا قياس عقلي، ورسخ فيهم ذلك حتى صار معلوماً من الدين بالضرورة، فاتفقوا على أن أول شروط نقل القرآن التلقي المسنِد

---

(١) وهذا على تفصيل في أنواع الأداء؛ إذ منه ما يرجع إلى الصفات الذاتية للفظ، فلا يستقيم اللفظ بدونها كالاستعلاء، والاستفال، والجهر، والشدة، ومنه ما يرجع إلى الصفات العارضة كالتفخيم، والترقيق، والفتح، والإمالة؛ إذ هي راجعة إلى الاستعلاء، والاستفال، فلا يتأثر أصل اللفظ بأدائه هنا، بل إن الدراسات الصوتية، والملاحظات العابرة لهيئات أداء الكلمات، ونطق الجمل، قد أثبتت تغير المعنى بتغير الهيئات الفرعية للأداء، كتغير النبر، وهو من الهيئات الموغلة في الفرعية من حيث نطق الألفاظ، انظر: د. يوسف الخليفة أبو بكر: البحث التربوي واللغوي في مجال تعليم القرآن الكريم، بحث منشور في مجلة جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية، العدد الأول، ذو القعدة ١٤١٥هـ.

(٢) انظر لمعرفة بعض الآثار الدالة على ذلك: (ابن الجزري) أبو الخير محمد بن محمد بن محمد: منجد المقرئين ومرشد الطالبين ص٢٠-دار زاهد المقدسي، تفضل بقراءته بعد طبعه: الشيخ محمد حبيب الله الشنقيطي، والشيخ أحمد محمد شاكر.

من الشيخ إلى الطالب، وإن اختلفوا في بقية الشروط بعد ذلك، وأصل أصول هذا التلقي: هو التلقي الذي نقل القرآن من السماء إلى الأرض، وهو تلقي النبي ﷺ من جبريل عليه السلام، ودراسته تضع الدارس على أصل أصول الأسس المنهجية في الهيئة التعليمية لألفاظ القرآن الكريم، وتمكنه من تحليل ما يتناقله المسلمون من تلك الهيئات.

لذا استحق هذا الموضوع الجليل إفراده بالبحث والدراسة ليُعْلم من خلاله كيف كان تلقي الرسول ﷺ ألفاظ القرآن من جبريل عليه السلام، وكيف كان أداء جبريل عليه السلام لتلك الألفاظ عند تعليمه للنبي ﷺ كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾[النمل: ٦](١)؛ ومن أهم دواعي ذلك غير الاطمئنان السابغ على حقيقة الحفظ الإلهي لألفاظ القرآن الكريم أن تُتخَذ التفصيلات المنهجية في طريقة تلقين جبريل عليه السلام سبيلاً منهجياً في الخطة التعليمية لألفاظ القرآن يُرْجَعُ إليها، ويُتَحاكَمُ عند الاختلاف إلى مُتَضَمَناتِها، ما دامت موضوعة ضمن دائرة الأسوة والطاقة البشرية.

ويصبح طرق هذا الموضوع في حيز الضرورة في آنٍ تعالت فيه أصوات الانهزام أمام الضغط الثقافي المستعلي الوافد، فنادت بعدم التزام اللفظ، وأنكرت التزام الأداء من حيث الأصل(٢)، بل حاولت فيها أن تجعل القرآن كأي بناء لغوي منطوق يُكَوِّن صورة أدائية، تتغير بتغير الزمن، ولا يعوق هذا التغيير عوامل التقديس(١).

(١) راجع: (الطاهر بن عاشور): التحرير والتنوير ١٩ / ٢٢٣، لم تذكر الطبعة، ولا الناشر، و (الآلوسي) محمود شكري البغدادي ت١٢٧٠هـ: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ١٩/٢٣٧، دار الفكر، بيروت، ١٤١٧هـ ١٩٩٧م- قرأه وصححه: محمد حسين العرب؛ إذ رجحا ككثير من المفسرين أن المُلْقِي المراد في الآية هو جبريل عليه السلام وأن صفتي العلم والحكمة إليه ترجع.

(٢) انظر: مثال ذلك في كتاب: الفرقان لمن رمز لاسمه بابن الخطيب، وهو محمد محمد عبد اللطيف، الطبعة لم تذكر - دار الكتب العلمية - بيروت، وقد طبع هذا الكتاب، ومما زعمه أن القرآن حفظ بمعناه لا بلفظه، وأن القرآن لا يجب تلقيه من القراء، فأصدر شيخ الأزهر بعد طبعه قراراً بتشكيل لجنة من ثلاثة من العلماء لمناقشة ما جاء فيه، فوضعت اللجنة تقريرها المتضمن ذكر أباطيله عام ١٩٤٨م، وصودر الكتاب، واختفى

فهاهنا أصلان استلزما البحث في هذا الموضوع:

إيجابي: وهو معرفة أصل أصول الأسس المنهجية في الخطة التعليمية لألفاظ القرآن الكريم، والتأكيد الواقعي لحقيقة الحفظ الإلهي لألفاظ القرآن الكريم وأدائه.

سلبي: وهو التأكيد على المتَضَمَنات الذاتية التي ضمتها عملية تلقي النبي ﷺ ألفاظ القرآن الكريم من جبريل عليه السلام مما يظهر معها تهافت أي طرح غريب في ميدان تلقي اللفظ القرآني.

اقتضى ذلك كله أن تُدْرَسَ - بالتفصيل- هيئة إلقاء جبريل عليه السلام ألفاظ القرآن الكريم، وهيئة تلقي النبي ﷺ لها، وتُقَعَّدَ قواعِدُها، وتُبَيَّين محكماتُها؛ إذ ذلك أصل أصول الكليات العلمية الإسلامية، كما هو قاطع لمختلف الأقوال، ومتنازَع التأويلات في الجوانب التي تُتَعلم في القرآن الكريم من حيث لفظه، ودخول طريقة أدائه في ذلك التعليم.

ويلاحظ في منهج البحث ما يلي:

١- الجمع بين الأقوال المختلفة في اللفظ عند عدم التنافي، مع دلالة السياق، أو غيره على إرادة الجمع(٢)، وذلك عند بحث مسائل الكتاب العلمية، وما حال كثير من

من أيدي الناس على أن مصيره كان الإهمال قبل ذلك، وهو كذلك بعد ذلك. وانظر: غانم قدوري الحمد: رسم المصحف دراسة لغوية تاريخية، ط١، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢ م، ص٢١٢.

(١) انظر: (عرجون) الشيخ محمد الصادق (عميد كلية أصول الدين):بحث علمي لنقد مزاعم حول قراءات القرآن في رسالة: (أصوات المد في القرآن الكريم) بكلية الآداب - جامعة الإسكندرية،، جامعة الأزهر، اتحاد الطلاب بكلية أصول الدين، اللجنة الاجتماعية ١٣٨٦هـ - ١٩٦٦م.

(٢) وهو نهج المحققين من العلماء، انظر مثلاً: (ابن القيم) أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب الزُرعي (٦٩١هـ -٧٥١هـ): تهذيب مدارج السالكين١/ ٣٩، عند الكلام على قوله تعالى: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيۡنِ أَحَدُهُمَآ أَبۡكَمُ ﴾ [النحل:٧٦]، ط٥، ١٤١٤-١٩٩٤م، وهذبه: عبد المنعم صالح العلي العزي - مؤسسة الرسالة، بيروت.

الأقوال الواردة في المسألة الواحدة إلا كما قال الإمام أبو إسحاق الشاطبي -رحمه الله تعالى-: "إذا تعددت الجهات زال التدافع، وذهب التنافي، وأمكن الجمع"[1].

٢- قد يسمي الباحث بعض النصوص بتسميات خاصة من حيث تعلقها بالبحث نسبة وتمييزاً واختصاراً، اجتهاداً منه لا لنص خاص ورد فيها، كالتسمية بآية طه، فيرجع عند الإحالة إلى الآية المخصوصة التي وردت في ثنايا البحث من سورة طه، ولا تكون التسمية إلا لما تكرر دورانه في البحث.

٣- يكرر الباحث استعمال عبارة: (كما هو المعمول به عند المسلمين) في أدق الدقائق في نقل لفظ القرآن الكريم، وتلاوته كمسألة كيفيات الترتيل، أو الوقت المستغرق للمد أو الغنّ، تحقيقاً لأمرين:

أ- ليكون دليلاً عملياً متواتراً عاماً يأخذ صفة نقل الأمم عن الأمم، ويقمع زَبَداً من الأفكار التي تحاول الطفو في واقع المسلمين، زاعمة أن أسلوب نقل القرآن إنما هو اجتهاد من بعض القراء لا غير؛ إذ إيقاف المتقول أمام هذه الحقيقة الصارخة يجعله أمام أمرين لا بد له من أحدهما:

إما التسليم بذلك ونبذ فكرته، وإما معارضتها بدليل يبرزه، وهو أسلوب في الحوار مأخوذ من مفهوم قوله تعالى ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [النمل: ٦٤].

ب- ليستبين به مقدار الحفظ الإلهي لكتاب الله الكريم على هيئة إجماعية للأمة في كل ما يتعلق باللفظ القرآني، حتى في أدق التفاصيل، وهو أمر يدعو للدهشة ليس له تفسير إلا أن الحفظ للكتاب الكريم إلهي.

٤- ولأن الكلام في هذا البحث دائر حول أمر سمعي لا عقلي، فالشأن فيه يرجع إلى النقل، ومجال العقل الاستنباط وفق قواعد وأصول الاستنباط، ولذا يلتزم الباحث بإيراد نصوص القرآن الكريم وصحاح الأحاديث عند الاستدلال للحقيقة أو تقعيد القاعدة فيما يتعلق بالموضوع، ولكن قد يرد - في النادر- حديث ضعف عند

---

(١) (الشاطبي) أبو إسحاق إبراهيم بن موسى اللخمي ت٧٩٠هـ: الموافقات في أصول الشريعة ١/٣١٣، توزيع عباس أحمد الباز، الطبعة لم تذكر.

بعض صيارفة الحديث فيما كان سبيله الاستئناس لا التقعيد والتأصيل، وهذا منهج مقبول على تفصيل معلوم عند علماء الحديث وأصول الفقه.

الهيكل العام للبحث:

يتكون البحث من خمسة فصول:

ووجه هذه القسمة: أن (تلقي النبي ﷺ ألفاظ القرآن) يستلزم الإحاطة العلمية بـ (التلقي)، و(المتلقي) وهو النبي ﷺ، و(المُلْقِي) وهو جبريل عليه السلام، و(المُلْقَى) وهو القرآن، و(الخاص من ذلك، وهو ألفاظ القرآن)، فتلك خمسة محاور، تُفَصَّلُ في خمسة فصول إيماء وإشارة، أو تبيناً بالقصد الأصلي، وصريح العبارة، وبيان ذلك أن يقال:

لما كان البحث دائراً حول كيفية تعليم جبريل عليه السلام؛ فقد لزم أن تعرف مؤهلات المعلم من حيث هو معلم خاص من عالم غيبي؛ فتظهر من خلال ذلك صورة تفرغه لهذه المهمة الجليلة، وجدارته القائمة على إعداده الإلهي، واستعداده الخَلْقِي، والخُلُقِي (المهاري)؛ فكان الفصل الأول منعقداً لهذه الغاية، وعنوانه: مؤهلات المعلم.

ولأن المعلم الملقي ينتمي من حيث جنسه إلى عالم الغيب بالنسبة للبشر، وذا يقتضي عدم قدرة الإنسان في أحواله الطبيعية على الالتقاء بعالم غيبي أو الاتصال به؛ فقد لزم أن يُعْلَمَ تفصيل السبل التي جعلت الاتصال بين المعلم جبريل عليه السلام والمتعلم وهو النبي ﷺ ميسوراً بل أكثر يسراً من اتصال البشر بالبشر، فتخبت عند ذاك قلوب الذين أوتوا العلم بأن جبريل عليه السلام كان يأتي النبي ﷺ في كل لحظة زمانية، في أي حيز مكاني ليؤدي مهمته التعليمية إنشاءً، أو متابعة ما دام قد أمره الله -تعالى ذكره- بالنزول، وذلك مفصل في الفصل الثاني، وعنوانه: اتصال جبريل عليه السلام بالنبي ﷺ للوحي القرآني.

ولما كان ما سبق تقدمةً لغاية البحث الأساسية: وهي بيان أوجه تعليم جبريل عليه السلام لفظ القرآن، ومتعلقات ذلك؛ وتلقي النبي ﷺ ألفاظ القرآن منه، فقد

كان الفصل الثالث منعقداً لتلك الغاية، وعنوانه: هيئة تلقي النبي ﷺ ألفاظ القرآن الكريم من جبريل عليه السلام بما يحتويه من مباحثه التسعة.

وإذ توجد في كل موضوع جوانب تقرب من محور البحث عَرَضاً أو غَرَضاً؛ فقد كان الفصل الرابع منعقداً لهذه الغاية، وعنوانه: الأصول العامة في تعليم جبريل عليه السلام القرآن من حيث اللفظ، وهو يرمي لتحقيق هذا الهدف لا لغيره، كما أن فيه بيان لمظاهر الصحبة المتميزة بين جبريل عليه السلام والنبي ﷺ، والارتباط الوثيق بينهما، والعلاقة الحميمة التي تمثل أوج الروابط بين مقرئ ملقي، وقارئ متلقي.

ولأن محور البحث وهو (التلقي) قد يجابه بجملة انتقادات في دقته، أو بقدحٍ في هيئته، ويُرَشِّح ذلك غرابة الاتصال بين مخلوقين من مستويين فيزيائيين مختلفين، وخصوصيته بين طرفي العملية التعليمية التلقينية؛ فقد انعقد الفصل الأخير لمعالجة جانب السلب في موضوع البحث، بعد أن سبقته الفصول الأربعة بمعالجة جوانب الإيجاب فيه، ولذا كان الفصل الخامس، وعنوانه: دمغ الباطل، وفيه يذكر الباحث بعض الشبهات المقدوح بها في دقة تلقي النبي ﷺ ألفاظ القرآن الكريم، دامغاً باطلها بحقائق التلقي اليقينية التي حفت العملية التعليمية بين النبي ﷺ وجبريل عليه السلام، ولذا فتناولها سيكون من هذه الزاوية لا غير.

ولأن البحث دائر حول منهج يُعلَّم ويُتعلم تلقياً فقد أُلحق بالبحث مناقشة علمية حول ماهية المنهج المتلقى (القرآن الكريم) من حيث حدوده اللفظية كنوع من المعرفة لمذاهب العلماء حول الحدود الفاصلة في تعريف القرآن الكريم، وللتأكيد على أن اختلاف ألفاظهم في تعريفه، إن هو إلا زيادة تأكيد منهم على بدهية حدوده اللفظية عند المسلمين، والمنهج التلقيني في تعلمه وتعليمه ليُعلَم أن التلقي صفة ذاتية للقرآن الكريم.

وقد حذف الباحث من هذه الطبعة بعض المباحث، والتراجم، والحواشي التي لم يرها ضرورية في النشر العام[1]، وكانت من أصل الرسالة، كما أن الباحث يعتذر عن

(١) أصل هذا البحث رسالة علمية قدمت لنيل درجة التخصص الأولي (الماجستير) من قسم التفسير وعلوم القرآن في جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية في السودان تحت إشراف فضيلة الأستاذ الدكتور/ أحمد

الطبيعة الجدلية التي كانت تسوق إليها طبيعة المسألة المبحوثة سوقاً، كما عمد إلى تزكية الجو العلمي للبحث بجمل أدبية في آخر كل مرحلة من مراحل البحث التي عبرت عنها الفصول والمباحث.

ومن الله – وحده- يُلتمس التوفيق والسداد،

والحمد لله رب العالمين.

علي الإمام مدير جامعة القرآن الكريم سابقاً ومستشار الرئاسة لشؤون التأصيل، ونالت درجة ممتاز مع التوصية بطباعتها.

الفصل الأول

مؤهلات المعلم المُلقي

﴿ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ ﴾

يتألف هذا الفصل من مقدمة وأربعة مباحث:

فالمقدمة لبيان جلية الأمر في ألفاظ القرآن الكريم وأنها ألفاظ رب العزّة جل وعز وكلامه، وليس لجبريل عليه السلام فيها سوى صفة المُرْسَل المُعلِّم، وليس للنبي ﷺ فيها سوى صفة المُرْسَل المبلِّغ.

والمبحث الأول يتكلم عن أهمية الحديث عن موضوع جبريل عليه السلام في بعده التاريخي وأهدافه المنهجية.

والمبحث الثاني يفصل صفات جبريل عليه السلام التي صار بموجبها جديراً بتحمل الوحي القرآني، وتعليمه للنبي ﷺ في طبيعته الخَلقية، وسجاياه الخُلقية.

والمبحث الثالث يتحدث عن كون جبريل عليه السلام هو المختار الوحيد من بين الملائكة ليكون أمين وحي الله جل جلاله لأهل السماء.

والمبحث الرابع يتحدث عن نتيجة ذلك وهو أن جبريل عليه السلام هو الأمين على وحي الله جل جلاله لأهل الأرض، كما يتكلم هذا المبحث عن المقتضى المنهجي لذلك، وهو سد ذريعة القدح في الوحي.

مقدمة

مَن الموحِي بالقرآن؟ مَن المتكلم به؟

وهي أهم مسالة منهجية يرتكز عليها البحث على الرغم من صغر الحيز المحدد لها، ولن تجيب الدراسة على هذا السؤال بل إن الإجابة التي في القرآن الكريم كافية بعد اطراح ما اعترى علماء الكلام من خلل ودخل؛ إذ يقول الله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ

﴿يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾[الشورى: ٣]، وحسبك عظمة أن المتكلم بالقرآن هو الله الذي من عظمته ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّ﴾[الشورى: ٥]، فليس لأعلى رجل في البشر وهو النبي ﷺ مقدار قطمير فيه ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ﴾[الشورى: ٥٢]، ويبقى بعد ذلك تحديد أطر المحافظة على القرآن بعد وصوله إلى البشر ليبقى متلواً كما تكلم به الله، ومقروءاً كما أنزله الله، بما أنزله الله لفظاً وأداء، لم يطرأ عليه تغيير لفظي، ولم يشبه زيفٌ من تطوير لغوي، أو تحريف لهجي باقياً مستقراً في الحدود التي أرادها الله - تعالى ذكره-.

وأول هذه الأطر: أن الذي تولى أمر المحافظة عليه هو الله جل وعز منزله كما قال تعالى مثبتاً الحفظ ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[الحجر: ٩]، وقال جل جلاله نافياً طروء أدنى تغيير ﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ [الأنعام: ١١٥]، فهذا في كلامه من حيث هو كلام مقول، وأما فيه من حيث هو كلام مكتوب فقد قال - جل ذكره- إثباتاً للحفظ ونفياً لإمكان التغيير: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ٤١ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ﴾[فصلت: ٤١-٤٢].

والحفظ هنا ينصرف انصرافاً أولياً إلى حفظ الألفاظ؛ لأنه قد عُلم أن المعنى غير منضبط إلا بضبط لفظه له، فحفظ اللفظ مقتضٍ لحفظ المعنى، وحفظ المعنى مستلزِم لحفظ اللفظ.

وإذا كان ذلك كذلك، فما نوع نسبة القرآن في قوله-تعالى ذكره-: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾[الحاقة: ٤٠، التكوير: ١٩]؟.

لا يشك من له علم في كلام العرب، وتصاريف أنواع خطابه، بل من يعاصر الأقوام في عاداتهم الكلامية أن النسبة إلى جبريل عليه السلام نسبة أداء، لا نسبة إنشاء، وهو لازم وصفه بالرسالة؛لأنه واسطة فيه، وناقل له عن مُرْسِله، وهو الله -

تعالى ذكره-؛ إذ إضافة القول إلى الرسـول إنما هـو لأدنـى ملابسـة لأن جبريـل عليـه السلام يبلغ ألفاظ القرآن إلى النبي ﷺ فيحكيها كما أمره الله جل جلاله، فهـو قائلـها أي صادرةٌ منه ألفاظُها، لا أنه منشئ ألفاظِها، لذا قـال القـرطبي -رحمـه الله تعـالى- في تفسير سورة التكوير: "وأضاف الكلام إلى جبريـل عليـه السـلام ثـم عـداه عنـه بقولـه ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الحاقة: ٤٣]؛ ليعلم أهل التحقيق في التصديق أن الكلام لله جـل جلاله"[(١)]، وبذلك صرح سائر العلماء[(٢)]، فقوله تعالى ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾[التكوير: ١٩] معناه لقول الرسول أي لقوله المبلغ له عن الله جل وعـز، فقرينـة ذكـر الرسـول تـدل على انه إنما يبلـغ شـيئاً أرسـل بـه؛ فـالكلام كـلام الله جـل وعـز: ألفاظـه، ومعانيـه، وجبريل عليه السلام مبلغ عن الله، وبهذا الاعتبار نسب القول له[(٣)].

فنسبة كلام الله -تعالى ذكره- لجبريل عليه السلام نسبة أداء (أي تبليغ الرسول ما أمره الله جل وعز بتبليغه) لا نسبة إنشاء.

وكذلك يقال في آية الحاقة بالنسبة للرسول ﷺ، فالنطق نطـق القـارئ، والكـلام كلام الباري، كما يُقال هذا قرآن ابن مسعود رضي الله عنـه، أو قـرآن علـى بـن أبـي طالب رضي الله عنه، أو قراءة فلان، عنوا به أنه خارج بصوته لا أنه كلامه.

---

(١) (القرطبي) أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ٩/ ٢٤٠، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م، دار إحياء التراث العربي - بيروت.

(٢) انظر: تفسير الجلالين، وبهامشه حاشية الصاوي ٤/ ٣٨٩، دار الفكر بيروت١٤١٤ هـ - ١٩٩٣م، قدم له وأشرف على تصحيحه: صدقي محمد جميل، والتحرير والتنوير ٣٠/ ١٥٥، مرجع سابق، وروح المعاني٣٠/ ١٠٤.

(٣) (الشنقيطي) محمد الأمين بن محمد المختار الجكني: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ٧ / ٧٠٣، عالم الكتب - بيروت، فالقول الذي ينزل به على قلب النبي ﷺ ليس قوله من حيث الحقيقة كما تقدم، بل يأخذ فيه صفة الرسالة، قال في التحرير والتنوير ٣٠/ ١٥٥، مرجع سابق: "وفي التعبير عن جبريل يوصف رسول إيماء إلى أن القول الذي يبلغه هو رسالة من الله مأمور بإبلاغها كما هي".

المبحث الأول: أهمية موضوع تعليم جبريل عليه السلام:

يتحدث هذا المبحث عن أهمية موضوع تعليم جبريل عليه السلام النبي ﷺ في إطاره التاريخي، وتعلق ذلك بألفاظ القرآن الكريم، وما تحققه دراسة هذا الموضوع من أهداف؛ ذاك بأن هذا الموضوع هو الوجه الآخر لموضوع تلقي النبي ﷺ ألفاظ القرآن الكريم من جبريل عليه السلام.

ويتألف هذا المبحث من مطلبين:

المطلب الأول: البُعد التاريخي والموضوعي للاهتمام بهذا الموضوع.

المطلب الثاني: أهداف دراسة هذا الموضوع.

المطلب الأول: البُعد التاريخي والموضوعي للاهتمام بهذا الموضوع:

إذا كان جبريل عليه السلام هو الذي بلغ رسول الله ﷺ القرآن الكريم، وعلمه إياه فإن جبريل عليه السلام قد جُعل بأمر الله شيخاً للنبي ﷺ، ومعلماً له بصريح قوله جل وعز: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾[النجم: ٥]، فقد بات حتماً على متتبعي علوم القرآن الكريم أن يتتبعوا تفصيلاً كيفية تعليم جبريل عليه السلام القرآن الكريم؛ إذ يأخذ حيز الأهمية الأولى في دراسة العلوم الإسلامية الشرعية، ومن هاهنا اهتم العلماء بهذا الموضوع اهتماماً بالغاً، فإن كان الأمر كذلك؛ فليس الباحث بدعاً في اهتمامه بذا الموضوع، بل كان هذا الموضوع كما لم يزل على رأس قائمة المفردات العلمية والشرعية التي يمارس درايتها أولوا النهى من المسلمين فضلاً عن أرباب الحجى من العلماء.

وأول من أثاره: الصحابة تعبدًا وازدياداً في طمأنينة قلبٍ، فقد روت عائشة -رضي الله تعالى عنها- أن الحارث بن هشام رضي الله عنه سأل رسول الله، فقال: يا رسول الله! كيف يأتيك الوحي؟ الحديث(١).

(١) يأتي بتمامه -إن شاء الله تعالى- في الفصل الثاني- المبحث الثالث.

قال السندي-رحمه الله تعالى-: "ظاهره أن السؤال عن كيفية الوحي نفسه، لا عن كيفية الملك الحامل له، ويدل عليه أول الجواب، لكن آخر الجواب يميل إلى أن المقصود بيان كيفية الملك الحامل، فيقال يلزم من كون الملك في صورة الإنسان كون الوحي في صورة مفهوم مُتَبَيَّن أول الوهلة، فبالنظر إلى هذا اللازم صار بياناً لكيفية الوحي، فلذلك قوبل بصلصلة الجرس، ويحتمل أن المراد للسؤال عن كيفية الحامل أي كيف يأتيك حامل الوحي"(١).

ولم تنقله عائشة -رضي الله تعالى عنها- ثم من بعدها إلا لجلالته عندهم، فليست المسألة فضول قول، ونافلة كلم.

وقد قال الواقدي -فيما حكاه عنه ابن سعد-: "حج أمير المؤمنين هارون الرشيد فورد المدينة فقال ليحيى بن خالد: ارتد لي رجلاً عارفاً بالمدينة والمشاهد، وكيف كان نزول جبريل عليه السلام على النبي ﷺ ومن أي وجه كان يأتيه"(٢).

وجعل ابن حبان -رحمه الله تعالى-مسألة بدء الوحي وكيفية تلقيه أول أنواع يحتاج إلى معرفتها من أخبار النبي ﷺ، حيث قال: "وأما أخبار النبي ﷺ عما احتيج إلى معرفتها، فقد تأملت جوامع فصولها، وأنواع ورودها، لأسهل إدراكها على من رام حفظها، فرأيتها تدور على ثمانين نوعاً: النوع الأول: إخباره ﷺ عن بدء الوحي وكيفيته..."(٣).

بل هو رأس المفردات الأصولية، ويظهر هذا في صنيع الإمام البخاري -رحمه الله تعالى- في صحيحه؛ إذ جعل كتاب بدء الوحي أول كتب الصحيح، وإنما فعله دليلاً على المنهج العلمي المسلوك عند المسلمين في عد العلوم النافعة، مما يُطَمْئِنُ إلى صواب

---

(١) (السندي) أبو الحسن نور الدين عبد الهادي ت ١١٣٨هـ: حاشية السندي ٢/ ١٥٠، مراجعة: عبد الفتاح أبو غدة، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م، مكتبة المطبوعات الإسلامية، حلب.

(٢) (ابن سعد) محمد بن سعد بن منيع البصري الزهري (١٦٨هـ - ت ٢٣٠هـ): الطبقات الكبرى٥/ ٤٩٣، دار صادر بيروت.

(٣) (ابن حبان) محمد بن حبان بن أحمد التميمي البستي ت٣٥٤هـ: صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان ١/ ١٣١، مراجعة: شعيب الأرناؤوط، ١٣٩٩هـ- ١٩٧٩م، مؤسسة الرسالة، بيروت.

هذا الفقه في أهمية موضوع جبريل عليه السلام. وفي وصف ابن عباس رضي الله عنه لقراءة النبي ﷺ إثر تعليم جبريل عليه السلام له بأنه (قرأه –أي القرآن– كما قرأه) داعٍ للعلماء عموماً، وللمتخصصين في علوم القرآن خصوصاً ليتعرفوا على كنه تعليم جبريل عليه السلام للنبي ﷺ القرآن من حيث لفظه؛ إذ يتوقف عليه معرفة هيئة نقل أصل الأصول الإسلامية.

وهل نحتاج أن نعلل لأهمية هذا المبحث يذهب هذا المذهب في الاستدلال على أمر وضوحه جلي كالشمس؟، وقد كان كافياً ما يظهر من كثرة الآيات التي تتحدث عن جبريل عليه السلام وتعليمه للنبي ﷺ ألفاظ القرآن دليلاً على صحة هذا المرام؟.

المطلب الثاني: أهداف دراسة هذا الموضوع:

تحقق دراسة تعليم جبريل عليه السلام النبي ﷺ ألفاظ القرآن الأهداف التالية:

١- غرس الاهتمام بالأصول الكلية في هذه الشريعة المطهرة؛ إذ عنها تنبثق بقية جزئياتها، ولذا تكرر موضوع تعليم جبريل عليه السلام ألفاظ القرآن في القرآن، حتى ذكر إنزال القرآن على قلب الرسول ﷺ مرتين، وهي جزئية صغيرة من جزئيات هذا الموضوع، مع أن الوضوء بجميع متعلقاته من حيث هو وضوء لأهم ركن عملي في الإسلام لم يذكر في القرآن إلا مرة واحدة.

٢- بيان الطريقة المنهجية التي علم بها جبريل عليه السلام، وتعلم بها النبي ﷺ ألفاظ القرآن، وتأصيلها، ثم اتخاذها منهجاً في تعلم ألفاظ القرآن، ما دامت في حدود الطاقة البشرية الفردية، وتوزيعها على الأمة إن استدعى صبغها بالجماعية.

٣- الاستشعار النفسي لما اعترى عملية نقل الكلام الإلهي القرآني من السماء إلى الأرض من مُثبِتاتٍ للحفظ، ومؤيدات لمنع شوائب الدخل، وهذا يكون مقدمةً لرفع مستوى الإجلال الذاتي المصبوغ بالصبغة العقائدية في نفس المسلم لكلام الله جل جلاله.

٤- أن تحاول الأمة بمجموعها جعل جهودها لحفظ كتاب الله أداة من الأدوات الواقعية لحقيقة الحفظ الإلهية تقارب ما بذله طرفا الاتصال السماوي والأرضي لأجل

ذلك، وكما رعى الله –تعالى ذكره- طرفي الاتصال في هذا السبيل سيرعى الله جل جلاله الأمة في السبيل ذاته، وقد فعل جل وعز.

المبحث الثاني: صفات جبريل عليه السلام:

سيقتصر الباحث هاهنا على الصفات التي ترتبط بموضوع البحث، وهي الصفات التي حبا الله بها جبريل عليه السلام ليقوم بهذه المهمة الجليلة، وهي ما أعده الله جل جلاله فيه من السجايا الخَلْقِية والخُلُقية من حيث إنه الرسول الذي يحمل الوحي، ويعلمه للرسول الذي يعلمه لأهل الأرض، وكلامنا عن هذه الصفات مقتصرٌ عليها من حيث إن جبريل عليه السلام هو الناقل للقرآن من السماء إلى الأرض، وينقسم هذا المبحث إلى مطلبين من حيث عودة هذه الصفات إلى الطبيعة الخَلقية، أو إلى السجايا الخُلُقية، وقد يتداخلان:

المطلب الأول: صفاته من حيث طبيعته الخَلْقية:

الصفة الأولى: عظمة الخلقة: فعن ابن عباس رضي الله عنه أن النبي ﷺ سئل: يا محمد كيف يأتيك الذي يأتيك؟ يعني جبريل عليه السلام، فقال رسول الله ﷺ: «يأتيني من السماء جناحاه لؤلؤ، وباطن قدميه أخضر»[(١)]، ويؤيده: ما رواه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت جبريل عليه السلام عند سدرة المنتهى وعليه ستمائة جناح ينثر من ريشه تهاويل الدر والياقوت»[(٢)]. وتهاويل الدر والياقوت قال ابن الأثير -رحمه الله تعالى- في تفسيرها: "أي الأشياء المختلفة الألوَان، ومنه يقال لما يخرج في الرِّياض من ألْوان الزَّهر التَهاويل، وكذلك لما يُعَلَّق

---

(١) الطبراني في الكبير١٦/ ٢٥، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨ / ٢٠٢): "رواه الطبراني في الكبير والأوسط، عن شيخه المقدام بن داود وهو ضعيف".

(٢) صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان١٤/ ٣٣٧، مرجع سابق، وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط: " إسناده حسن ".

على الهَوادِج من ألـوان العِهْـنِ والزِّينـة، وكـأن واحِـدُها تَهـوال، وأصـلها ممـا يهـول الإنسان ويُحيّره"[1].

ولجبريل عليه السلام القدرة على التشكل إلى أجسام أخرى، ولكنه كان أكثـر مـا كان يأتيه في صورة الصحابي الجليل (دِحْيـة الكلـبي)، فعـن جـابر رضـي الله عنـه أن رسول الله ﷺ قال: «عرض علي الأنبياء، ورأيت جبريـل، فـإذا أقـرب مـن رأيـت شبهاً به دحية بن خليفة»[2].

وقد قدمتُ هذه الصفة على غيرها لارتباطها بالقدرة التي أودعهـا الله في جبريـل عليه السلام ليأتي النبي ﷺ فيعلمه القرآن بإطلاق الزمـان والمكـان، وعلـى أي هيئـة كان، وتأتي أمثلة على ذلك -إن شاء الله تعالى-[3].

وهل كان النبي ﷺ يرى جبريل عليه السلام في خلقته الأصلية دائماً؟.

الجواب: لم يره كذلك إلا مرتين فقد ثبت في صحيح مسلم عن عائشة-رضي الله تعالى عنها- مرفوعاً: «لم أره يعني جبريل عليه السلام على صورته التي خلق عليهـا إلا

---

(١) (ابن الأثير) المبارك بن محمد بن محمد بن عبدالكريم أبو السعادات الجزري ت٦٠٦هـ: النهاية في غريب الأثر ٥/ ٢٨٢، النهاية في غريب الأثر تحقيق: طاهر أحمد الزاوي و محمود محمد الطباخي، ١٣٩٩ هـ – ١٩٧٩م، دار الفكر -بيروت.

(٢) صحيح مسلم ١/ ١٥٣، مرجع سابق، وراجع: (الدينوري) عبد الله بن مسلم بن قتيبة ت٢٧٦ هـ: تأويل مختلف الحديث، مراجعة: محمد زهري النجار، ١٩٧٢م – ١٣٩٣هـ، دار الجيل –بيروت، ففيه ردٌ على من استنكر وجود خلق له قدرة على التشكل، وقد أُتِيَ هذا المستنكِر مِنْ كِبْرٍ في نفسه ما هو ببالغه، وأول كلام ابن قتيبة –رحمه الله تعالى-: "ولم يأت أهل التكذيب بهذا وأشباهه، إلا لردهم الغائب عنهم إلى الحاضر عندهم، وحملهم الأشياء على ما يعرفون من أنفسهم، ومن الحيوان، والموات، واستعمالهم حكم ذوي الجثث في الروحانيين،".

(٣) انظر: الفصل الثاني- المبحث الثاني.

مرتين»[1]، وبين أحمد في حديث ابن مسعود أن الأولى كانت عند سؤاله إياه أن يريه صورته التي خُلِق عليها، والثانية عند المعراج[2].

والأمر لا يستدعي البحث بدقة في عدد المرات التي رأى النبي ﷺ فيها جبريل عليه السلام؛ إذ المراد بيان أن رؤيته لجبريل عليه السلام مرة تحقق جملة أمور من حيث نقل القرآن:

منها: إيقاع الطمأنينة في قلب النبي ﷺ برؤيته لعظيم قدرة الله جل جلاله تتجلى في جبريل عليه السلام من جهة، ومن جهة أخرى لطمأنته، وتثبيت قلبه على قدرة جبريل عليه السلام على نقل القرآن، وتبليغ رسالة ربه دون توانٍ، وزادت هذه الطمأنينة تأكيداً برؤيته له مرة أخرى.

ومنها: دفع توهم أن الذي يأتيه شيطان لا من قلبه فقط، بل من قلب غيره.

الصفة الثانية: أنه مَلَك: والمَلَك واحد الملائكةُ، وقد تحذفُ الهاء فيقال مَلائِك، وهو في الأصل جمع مَلأكٍ ثم حُذفَتْ همزتُه ونقلت حركتها إلى اللام قبلها لكثرة الاستعمال فقيل مَلَكٌ، وقيل أصلُه مَألَكٌ بتقديم الهمزة من الأَلُوك الرسالة، ومن ذلك قول القائل:

أيُّها القاتلونَ ظلماً حُسيناً ... أبشِروا بالعذابِ والتنكيلِ

كلُّ أهل السماءِ يدعو عليكم ... من نبيٍ وملأكٍ ورسولِ

قد لعنتم على لسانِ ابنِ داودَ ... وموسى وحاملِ الإنجيلِ[3]

---

(١) مسلم ١/ ١٥٣، مرجع سابق.

(٢) (ابن حنبل) أبو عبد الله أحمد بن حنبل الشيباني ت٢٤١ هـ: مسند الإمام أحمد ٣/ ١٢٠ ـ مؤسسة قرطبة- مصر. وللترمذي من طريق مسروق عن عائشة -رضي الله تعالى عنها -: (لم ير محمد جبريل في صورته إلا مرتين: مرة عند سدرة المنتهى، ومرة في أجياد).

(٣) النهاية في غريب الأثر ٤/ ٣٥٨، مرجع سابق، وفيه: "وفي حديث جرير: عليه مَسْحَةُ مَلَكٍ، أي أثرٌ من الجمال لأنهم أبداً يصِفُون الملائكةَ بالجَمالِ". وهذه صفة خَلْقية أخرى إلا أنه لا يتعلق بها كبير أمر هنا، الزاهر في معاني كلمات الناس٢/ ٢٥٥.

فالرسالة طبيعة ذاتية ملازمة لكون الملك ملكاً، وهذه الرسالة هي ما يصدر إلى الملائكة من أوامر فيؤدونها أدق أداء، وأتمه؛ لأن الرسالة طبيعة ذاتية فيهم، وليس يخفى أن هذه هي أولى وسائل اليقين في نقل القرآن، إذ كون الرسالة طبيعة ذاتية في الملائكة يستلزم: الأمانة في نقلها، وإتقان النقل، ويعضد هذا أنهم المختارون ليكونوا وسائط بين الله جل جلاله وخلقه، ولذا فقوله تعالى ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾[الأنبياء:٢٧] إيضاحٌ لحال الملائكة، وليس بتأسيس لصفة جديدة بعد نعتهم بالملائكية، واقتضى هذا الإيضاحَ دحضُ تخرصات الشرك وأهله في طبيعة الملائكة.

الصفة الثالثة: الروح: وقد وردت هذه اللفظة على خمس معانٍ في القرآن الكريم[(١)]، ولا خلاف ين المفسرين وغيرهم في أن المراد بها في قوله تعالى ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٤] هو جبريل عليه السلام [(٢)]، ويسمى جبريل عليه السلام روح القدس لأنه خُلِق من طَهارة[(٣)].

وهذه الصفة الجليلة لجبريل عليه السلام ورد مدحه بها في معرض التأكيد على سلامة نقل القرآن، وبيان خصائص لفظه من سورة الشعراء، وذلك دالٌ على مبلغها من جلالة القدر في نقل القرآن من السماء إلى الأرض، ولعل من أسرارها في هذا الباب أن الروح فيه معنى الحياة والحركة، ويومئ ذلك إلى أن تلقي جبريل عليه السلام للقرآن من الله جل وعز تلقٍ حي لا يعروه شائبة كسل، أو موات؛ إذ كون

(١) (ابن القيم) شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب الزُّرعي الدمشقي، الروح لابن القيم ص٢٠٦ - عالم الكتب بيروت، وذكر ابن حجر -رحمه الله تعالى- نقلاً عن ابن التين في معنى لفظ الروح حيث ورد في القرآن الكريم تسعة معان، وأما حقيقتها فقد ذكر أنهم اختلفوا فيها على أكثر من مائة قول، وذا تكلف جلي فيما لا طائل من تحته.

(٢) وعند (ابن سعد) أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع البصري الزُّهري (١٦٨- ٢٣٠): الطبقات الكبرى ١/١٩٤، دار صادر -بيروت: عن قتادة في قوله تعالى ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾[البقرة: ٨٧] قال: "هو جبريل".

(٣) النهاية في غريب الأثر ٤/ ٢٣، مرجع سابق.

الناقل مخلوقاً واحداً وهو جبريل عليه السلام مدعاة لأن يشكك في نقله أقوام اعتـادوا الجدل وألفوه.

ويزيد هذا المعنى إيضاحاً أن لفظـة (روح) لا تـرد في القـرآن الكـريم إلا للأمـور التي استأثر الله جل جلاله بها بأحد أنواع الاستئثار علماً (كـروح الإنسـان)، أو قـولاً (كالقرآن)، ولذا ذكر الله جل وعز خلق آدم، وعَظَّم خلقه عندما بين أنه نفخ فيـه مـن روحـه ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [ص: ٧٢] وهـي المنقبـة الـتي يـذكرها لـه النـاس يـوم القيامة في حديث الشفاعة الكبرى، وهذا يثبت ما ذُكِرَ من علاقـة سـلامة نقـل القـرآن من السماء إلى الأرض، ودقة نقله كمـا قالـه الله جـل جلالـه، بوصـف جبريـل عليـه السلام بالروح.

كما أن من أهم مقتضيات كونه روحاً: إمكانية الاتصال المطلق، مـع خفـاء ذلـك على من حوله، وذاك يمكنه من المجيء إلى النبي ﷺ دون أن يشعر به أحد، وذلـك لأن الروح تطلق على ما خفي(١).

الصفة الرابعة: السرعة والفورية في النزول بالوحي القرآني: حتى لو كان جبريل عليه السلام نازلاً بهيئتـه الشـديدة علـى الـنبي ﷺ، وذلـك عنـد الاقتضـاء إنشـاء أو استدراكاً، وهذه الصفة إحدى التطبيقات للصفات الأخرى كالقوة، والأمانة، وليُـذكر ها هنا نموذجان عن هذه السرعة من حيث البلاغ العام، والبلاغ القرآني:

فنموذج البلاغ العام: ما قاله صهيب رضي الله عنه: (يـا رسـول الله! مـا سـبقني إليك أحد، وما أخـبرك إلا جبريـل)(٢). وهـذا في الأحـداث الواقعيـة، فكيـف يكـون

---

(١) انظر: المبحث الثاني من الفصل الثاني .

(٢) المستدرك على الصحيحين٣/ ٤٥٢، مرجع سابق، عن صهيب قال: قال رسول الله ﷺ : (أريت دار هجرتكم سبخة بين ظهراني حرة، فإما أن تكون هجراً، أو تكون يثرب).قال: وخرج رسول الله ﷺ إلى المدينة وخرج معه أبو بكر ﷺ، وكنت قد هممت بالخروج معه فصدني فتيان من قريش فجعلت ليلتي تلك أقوم ولا أقعد فقالوا: قد شغله الله عنكم ببطنه، ولم أكن شاكياً. فقاموا فلحقني منهم ناس بعدما سرت بريداً ليردوني، فقلت لهم: هل لكم أن أعطيكم أواقي من ذهب وتخلون سبيلي وتفون لي؟. فتبعتهم إلى مكة فقلت لهم: احفروا تحت أسكفة الباب فإن تحتها الأواق واذهبوا إلى فلانة فخذوا الحلتين. وخرجت حتى

الشأن في أمر يتعلق بالوحي القرآني الإلهي، وقد اتُخِذَت له كل الوسائل الإلهية المحضة، والبشرية المُعانة إعانة إلهية ليقرأه كما أنزله الله وهو البلاغ الخاص؟، ونموذج ذلك: ما رواه سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه أنه قال: رأيت مروان بن الحكم جالساً في المسجد، فأقبلت حتى جلست إلى جنبه فأخبرنا أن زيد بن ثابت أخبره أن رسول الله ﷺ أملى عليه ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ [النساء: ٩٥] -قال-: فجاء ابن أم مكتوم وهو يمليها عليّ، فقال: يا رسول الله! لو أستطيع الجهاد لجاهدت، وكان رجلاً أعمى، فأنزل الله جل وعز على رسوله ﷺ وفخذه على فخذي، فثقلت علي حتى خفت أن تُرَض فخذي، ثم سُرِّي عنه، فأنزل الله جل جلاله ﴿غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ﴾[1].

الصفة الخامسة: القوة: كما قال تعالى: ﴿ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ﴾[النجم: ٦] أي هو صاحب جسمٍ "في قوة وقدرة عظيمة على الذهاب فيما أمر به، وطاقةٍ لحمله في غير آية النشاط والحدة، كأنه ذو مزاج غلبت عليه الحدة[2]، فهو صعب المراس، ماضٍ في مرارته، على طريقة واحدة على غاية من الشدة لا توصف"[3].

ويأتي تفصيلها في المطلب الثاني -إن شاء الله تعالى-.

على أنه ينبغي التنبيه من خلال الاستعراض لمظاهر قوة جبريل عليه السلام الخلقية أن هذه الخلقة العظيمة التي هيأه الله - تعالى ذكره- بها تحمل في طياتها تهيئته بحمل الأجهزة التكوينية المناسبة لحفظ كلام الجبار جل وعز عند استماعه، ثم نقله له

قدمت على رسول الله ﷺ قبل أن يتحول منها -يعني قباء- فلما رآني قال: (يا أبا يحيى ربح البيع) ثلاثاً. فقلت: يا رسول الله! ما سبقني إليك أحد وما أخبرك إلا جبريل عليه السلام . وقال الحاكم : "هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه".

(١) صحيح البخاري ٣/ ١٠٤٢، مرجع سابق.

(٢) المراد الجد والقوة، وليس الغضب.

(٣) انظر: (البقاعي) برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر (ت٨٨٥هـ): نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ١٩/ ٤٤، ١٤١٣هـ، ١٩٩٢م، ط٣، المكتبة التجارية، مكة المكرمة.

كما هو إلى النبي ﷺ بالسرعة المطلوبة في الوقت المعين، ولذا كان جبريل عليه السلام أول من يقوم من الصعق عندما يتكلم الله جل جلاله بالوحي -كما سيأتي إن شاء الله تعالى-[1].

المطلب الثاني: صفاته عليه السلام من حيث سجاياه الخُلُقية:

الصفة الأولى: كريم: كما في قوله جل وعز ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾[التكوير: ١٩]، وهي صفة تقتضي نفي المذام كلها، وإثبات صفات المدح اللائقة به[2]، وفي تفسيرها يقول الآلوسي -رحمه الله تعالى-: "عزيز على الله سبحانه وتعالى"[3]، وقال ابن كثير -رحمه الله تعالى-: "ملك حسن الخلق بهي المنظر"[4]، وفي التحرير والتنوير في معنى كريم أنه: "النفيس في نوعه"[5].

فقد جمعت له كلمة "كريم" كل المحامد، كما أظهرت تميزه بخصائص لا توجد لسواه من الملائكة، فهو نفيس بين الملائكة.

الصفة الثانية: ذو قوة: "أي شديد، وقيل: المراد القوة في أداء طاعة الله جل وعز، وترك الإخلال بها من أول الخلق إلى آخر زمان التكليف، وقيل: لا يبعد أن يكون المراد قوة الحفظ، والبعد عن النسيان، والخلط"[6].

ولا يستبعد شمول وصف ﴿ذِى قُوَّةٍ﴾[التكوير: ٢٠] لذلك كله؛ إذ يقتضي ذلك إطلاقُها، وعدم تقييد النكرة ﴿قُوَّةٍ﴾ بشيء! بل ذلك هو الأظهر، ويُستظْهَرُ هذا المعنى حتى يصير في حيز الحقيقة المقررة: بمجيء كلمة (قوة) مجموعة في قوله جل

(١) انظر: المبحث الثالث من هذا الفصل.
(٢) البحر المحيط ٨/ ٤٣٤، مرجع سابق.
(٣) روح المعاني ٣٠/ ١٠٤، مرجع سابق.
(٤) ابن كثير٤/ ٤٠٩، مرجع سابق.
(٥) انظر: التحرير والتنوير٣٠/ ١٥٣، مرجع سابق.
(٦) روح المعاني ٣٠/ ١٠٤، مرجع سابق.

جلاله ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ [النجم: ٥]، ومن حيث خصوص مناط البحث فإنه يظهر من خلال هذا الوصف قوته في أداء هذه الأمانة الشاملة لكل أنواع القوة.

والمراد الكلي من هذا الوصف: قدرته على أداء مهمته التعليمية، ف﴿ذِى قُوَّةٍ﴾ يعني أن جبريل عليه السلام ما كُلِّف به من أمر غير عاجز[(١)].

ويدخل في هذه القوة دخولاً أولياً:

أ- قوة الحفظ.

ب- وقوة الوصول إلى الرسول من البشر.

ج-وتلطف المجيء، له بما يحتاج من خصال يحتاجها الملك، ليعوض بها ضعف البشر عن إدراك الملأ الغيبي؛ لذا قال الشوكاني: "ذي قوة شديدة في القيام بما كلف به"[(٢)].

د- وقوة البدن المتعددة المناحي لازمة للتنقل بين هذه المسافات الهائلة في وقته الذي أمر بالتبليغ فيه بشكل دقيق، قال الصاوي -رحمه الله تعالى - ذاكراً بعض قوته: "فكان من قوته: أن اقتلع قرى قوم لوط من الماء الأسود[(٣)]، وحملها على جناحه فرفعها إلى السماء، ثم قلبها، وأنه صاح بثمود صيحة فأصبحوا جاثمين، وأنه يهبط من السماء إلى الأرض، ثم يصعد في أسرع من رد الطرف"[(٤)].

وهذا الأخير الذي ذكره الصاوي هو المراد، وما قبله خادم للإيراد، وتناقل المفسرون هذا المعنى في أداء الرسالة التي كلف بها جبريل عليه السلام على أتم وجه وأتقنه، بل جعل ذلك الإتقان هو طبيعة جبريل عليه السلام، فقوله ﴿كَرِيمٍ﴾

(١) انظر: تفسير الطبري ٣٠/ ٨٠، مرجع سابق.

(٢) فتح القدير ٥/ ٤٨١، مرجع سابق.

(٣) لعله يعني البحر الميت، أو النفط الأسود؛ إذ إن موضعه غائر في الأرض أكثر من الماء،فعبر بموضعه دلالة على اجتثاث القرى من أصلها في الأرض.

(٤) حاشية الصاوي ٤/ ٣٨٩، مرجع سابق.

يحتمل أن تكون الصفة المشبهة تدل على الطبيعة والسجية الذاتية لا المتكلفة[1]، "فالقوة حقيقتها مقدرة الذات على الأعمال العظيمة التي لا يقدر عليها غالباً، وتطلق مجازاً على ثبات النفس على مرادها، والإقدام على رباطة الجأش قال جل جلاله: ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖ﴾ [مريم: ١٢] ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ﴾[البقرة: ٦٣]، فوصف جبريل عليه السلام بـ ﴿ذِي﴾ قوة يجوز أن يكون شدة المقدرة، كما وصف بذلك في قوله ﴿ذُو مِرَّةٖ﴾، ويجوز أن يكون من القوة المجازية، وهي الثبات في أداء ما أرسل به، كما قال جل وعز ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ﴾ [النجم: ٥]؛ لأن المناسب للتعليم هو قوة النفس، ولذا وصف في النجم بـ﴿شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ﴾، والمراد بـ﴿ٱلۡقُوَىٰ﴾ استطاعته تنفيذ ما أمر الله جل وعز به من الأعمال العظيمة القلبية والجسمانية، فهو الملك الذي ينزل على الرسل بالتبليغ، وقوته شملت قوة العقل، إضافة إلى قوة الجسم وقوة أداء المهمة، وإتقانها؛ ولذا وصف بقوله ﴿ذُو مِرَّةٖ﴾، والمرة تطلق على الذات، وتطلق على متانة العقل، وأصالته، وهو المراد هنا، واتفق المفسرون على أن المراد جبريل عليه السلام"[2].

فإذا جُمِعَ هذا مع ما قرره أبو حيان -رحمه الله تعالى- في معنى صفة ﴿كَرِيمٖ﴾ وهو أنها صفة تقتضي نفي المذام؛ اتضحت إصرارية تثبيت قوة الحفظ وشدة الملكة التي بها يبلغ وحي ربه، وتعليمه رسول الله ﷺ القرآن الكريم تفصيلاً لكل حرف، وتبياناً لكل كلمة، من غير أن يقال أن ذلك مبالغ فيه، أو أنه ليس في مقدرة جبريل عليه السلام من حيث الحركة، أو من حيث الحفظ.

---

(١) كما في فقيه من فقُه بضم القاف.

(٢) التحرير والتنوير ٣٠/ ١٥٥، مرجع سابق، وانظر: البحر المحيط ٨/ ١٥٤، مرجع سابق، وقد ذكر فيه عن الحسن أن "شديد القوى" هو الله، واستبعده، وكذا تفسير الشوكاني٥/ ١٣٠، مرجع سابق، وأورد ابن كثير ٤/ ٢١٠ قولاً لابن عباس وقتادة: "منظرحسن"، ثم قال: "ولا منافاة بين القولين".

الصفة الثالثة: ﴿مُّطَاعٍ﴾ [التكوير: ٢١]: فهو مطاع في ملائكة الله المقربين يصدرون عن أمره، وهو مؤكد لحقيقة ائتمارهم بأمره، ومن أسباب ذلك أنه أمين الوحي في السماء لأهل السماء -ويرد تفصيل ذلك إن شاء الله تعالى-[1]، ومن صور طاعة الملائكة لجبريل عليه السلام طاعة خازن السماء له، كما في حديث الإسراء[2]، وذلك كله مؤثر في الشعور بمقدرة هذا المعلم.

الصفة الرابعة: ﴿أَمِينٍ﴾[التكوير: ٢١]: فهو أمين الأمانة التي تقتضي القيام بالتبليغ الذي يصل إلى درجة من الدقة حتى في هيئات الألفاظ الداخلية والخارجية، وقد اتخذت هذه الأمانة طابعين:

أ- طابع العموم في كل ما أؤتمن عليه: قال الطبري: "أمين عند الله على وحيه، ورسالته، وغير ذلك مما ائتمنه عليه"[3].

ب- طابع الدقة والتفصيل: إذ يتسع أُفق فهمها ليشمل هيئات الألفاظ الداخلية فذلك مقتضى الإطلاق في وصفه بالأمانة هنا.

وأمانته من حيث الأصالة تتسم بسمتين:

فهي ملكةٌ دائمةٌ ثابتةٌ، وسجيةٌ متجددةٌ: إذ الأمين هو الذي يحفظ ما عُهِدَ له به حتى يؤديه دون نقص، ولا تغيير.

وأمين (فعيل) إما بمعنى مفعول: أي مأمون من أمنته على كذا، وإما صفة مشبهة من أمُن بضم الميم، إذا صارت الأمانة سجيته[4].

---

(١) في المبحث الثالث من هذا الفصل.

(٢) ففيه: قال النبي ﷺ : فلما جئت إلى السماء الدنيا، قال جبريل عليه السلام لخازن السماء: افتح. قال: من هذا ؟ قال: هذا جبريل عليه السلام قال: هل معك أحد ؟ قال: نعم ! معي محمد ﷺ فقال: أرسل إليه ؟. قال: نعم. فلما فتح علونا السماء الدنيا ،) الحديث ،صحيح البخاري ١/ ٣٠٠، مرجع سابق.

(٣) تفسير الطبري٣٠/ ٨٠، مرجع سابق.

(٤) التحرير والتنوير ٣٠/ ١٥٧، مرجع سابق، وكذا روح المعاني٣٠/ ١٠٤، مرجع سابق.

وسر الإتيان بقوله تعالى ﴿ثَمَّ﴾ بين هاتين الصفتين (مطاع، أمين) في قوله جل جلاله ﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾: أن ﴿ثَمَّ﴾ ظرف مكان للبعيد، والمراد أنه موصوف بذلك في السماء، وهو يوحي بلزوم اكتفائكم بهذه الأوصاف المطمئنة القاذفة لليقين بسلامة الرسالة، ودقتها، وأنها كما أرادها الله جل وعز، وكما قالها فهي قرآن لم تطرأ عليها بارقة تغيير من أحد من المخلوقين؛ إذ الكلام عن غيب ما أدراكم به أنتم؟ فلتسمعوا وصفه من مرسله، وخالقه، وحسبكم أنه بهذه المكانة في ذلك المكان الأعلى، ولو شاء الله جل جلاله ما تلا عليكم ما أُمر بتبليغه، ولذا قال الآلوسي: "والمقام يقتضي تعظيم الأمانة؛ لأن دفع كون القرآن افتراء منوط بأمانة الرسول"(١)، كيف وقد قال جل جلاله: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ﴾[الحاقة: ٤٤]؟، وقرئ ثُم (بالضم) تعظيماً لوصف الأمانة، وتفضيلاً على سائر الأوصاف(٢)، فالعطف بها للتراخي في الرتبة؛ لأن ما بعدها أعظم مما قبلها(٣)، وقال الزمخشري: "وقرئ ثُم تعظيماً للأمانة وبياناً؛ لأنها أفضل صفاته المعدودة"(٤).

ولهذه الأمانة مقتضاها العملي الهام في جهتين:

- **جهة في ذاته:** بأن يكون في أعلى درجات الخشية لله تعالى، والمراقبة له: وهذه وإن كانت سجية دائمة ملازمة للملك من حيث هو ملك، إلا أنها في جبريل عليه السلام ظاهرة التميز، فعن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «مررت ليلة أسري بي بالملأ الأعلى، وجبريل عليه السلام كالحلس البالي من خشية الله تعالى»(٥).

---

(١) روح المعاني ٣٠/ ١٠٥، مرجع سابق.

(٢) انظر: تفسير أبي السعود ٥/ ٤٨٩، مرجع سابق، والقراءة المذكورة قراءة شاذة.

(٣) انظر: فتح القدير ٥ / ٤٨١، مرجع سابق.

(٤) الكشاف ٤/ ١٩١، مرجع سابق.

(٥) رواه الطبراني في الأوسط ٢/ ١٣٤، (الطبراني)مسند الدنيا أبوالقاسم سليمان بن أحمد بن أيوب ت٣٦٠:المعجم الأوسط، مراجعة: محمود الطحان، ١٤٠٥-١٩٨٥، مكتبة المعارف -الرياض، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٨٦٤، انظر: (الألباني) محمد ناصر الدين: صحيح الجامع الصغير وزيادته، أشرف على طبعه: زهير الشاويش، ط٣ ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م، المكتب الإسلامي – بيروت.

- **جهة في غيره:** وهو أن يكون جبريل عليه السلام إذ اتصف بها: مقبول القول، يصدق فيما يقول، مؤتمن على ما يرسل به من وحي، وامتثال أمر، مؤدياً لما أؤتمن عليه أحسن الأداء، وأدقه فدخل في ذلك أن يؤدي لفظ القرآن أحسن أداء، وأتقنه، بل أن ينقله على أقوم هيئة أُمر بها، فأعظم ما أؤتمن عليه تأدية ألفاظ القرآن.

الصفة الخامسة: ﴿عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير: ٢٠]: أي هو ذو مكانة رفيعة عند الله العظيم جل جلاله، فـ﴿مَكِينٍ﴾ (فعيل) من مكن إذا علت رتبته عند غيره، يعني هو ليس من أفناد الملائكة، بل هو من السادة الأشراف معتنى به انتخب لهذه الرسالة العظيمة، وعدل عن اسم الجلالة إلى (ذي العرش) بالنسبة لجبريل عليه السلام لتمثيل حال جبريل عليه السلام ومكانته عند الله جل وعز بحالة الأمير الماضي في تنفيذ أمر الملك، وهو بمحل الكرامة لديه(١).

ومما يُتَفَطَن للتأمل فيه في قوله جل جلاله في وصف جبريل عليه السلام: ﴿ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾[التكوير:٢٠]: تَوَسُطُ ﴿عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ﴾ بين ﴿ذِى قُوَّةٍ﴾ و﴿مَكِينٍ﴾، وسر ذلك: ليتنازعه كلا الوصفين على وجه الإيجاز، أي هو ذو قوة عند الله جل جلاله، أي جعل الله جل وعز مقدرة جبريل عليه السلام تخوله أن يقوم بعظيم ما يوكله الله جل جلاله به مما يحتاج إلى قوة القدرة، وقوة التدبير، وهو ذو مكانة عند الله وزلفى.

الصفة السادسة: اقتصار مهمته في المحتوى العام على أنه رسول: فليس له من أمر مضمون الرسالة شيء، بل هو مبلغ له، كما أمر قال القرطبي: "إنه لقول رسول عن الله، كريم على الله"(٢).

---

(١) التحرير والتنوير ٣٠/ ١٥٦، مرجع سابق.

(٢) تفسير القرطبي١٩/ ٢٤٠، مرجع سابق.

أفيحل لقائل أن يقول: يمكن أن يجتهد البشر في قول الله جل جلاله، وقد منع منه جبريل عليه السلام؟!.

الصفة السابعة: تمرسه على الرسالة التي تماثل هذا النوع: إذ يظهر من وصفه بقوله: ﴿رسول﴾ هذا التمرس على الرسالة، وذلك بدلاً من أن يقول لقول ملك كريم، ويتأكد هذا بأنه هو الذي كان ينزل على الأنبياء، كما قال ورقة بن نوفل: "هذا الناموس الذي أنزل على موسى"[1]، وكما قالجل وعز ﴿فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا﴾ [مريم: ١٧]، ولا خلاف أنه جبريل عليه السلام هنا، ولذا جاء في تفسير التحرير والتنوير عند الكلام على سورة النجم: "وتخصيص جبريل عليه السلام بهذا الوصف يشعر بأنه المَلَك الذي ينزل بفيوضات الحكمة على الرسل والأنبياء، ولذلك لما ناول الملك رسول الله ليلة الإسراء كأس لبن وكأس خمر، فاختار اللبن قال له جبريل عليه السلام: (أخذت الفطرة ولو أخذت الخمر غوت أمتك)"[2].

فإن اعتُرض معترض بالقول: قد وُصِفَ بهذا الوصف النبي ﷺ في سورة الحاقة وبالصيغة ذاتها، ولمّا يكن متمرساً على الرسالة -بعد-، فلا يستقيم هذا الاستنباط.

فالجواب: لا نسلم أنه لم يكن متمرساً، إذ ما غشيه من تهيئة لتبليغ الرسالة، قائم مقام ذلك، وسيأتي من هذه التهيئة ما يجلي ذا المعنى[3].

ويقال تنزلاً: هناك فرق بين جبريل عليه السلام والنبي ﷺ من حيث قيام القرينة الحالية في كلٍ على هذا التمرس أو عدمه.

ومن أجل هذا التمرس يعهد لجبريل عليه السلام بالمهمات الجليلة، ومنها -بعد الوحي- نقل النبي ﷺ في عالم السماء ليلة الإسراء: فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان أبو ذر يحدث أن رسول الله ﷺ قال: «فرج عن سقف بيتي وأنا بمكة

---

(١) صحيح البخاري ١/ ٤، مرجع سابق.

(٢) التحرير والتنوير٢٦/ ٩٥، مرجع سابق، والحديث المذكور أخرجه الشيخان: البخاري ٦/ ٣٠٨، مرجع سابق، ومسلم ١/ ١٢٥، مرجع سابق.

(٣) انظر: الفصل الثاني– المبحث الأول.

فنزل جبريل عليه السلام ففرج صدري، ثم غسله بماء زمزم، ثم جاء بطست من ذهب ممتلئ حكمة وإيماناً، فأفرغه في صدري، ثم أطبقه، ثم أخذ بيدي، فعرج بي إلى السماء الدنيا، فلما جئت إلى السماء الدنيا، قال جبريل عليه السلام لخازن السماء: افتح. قال: من هذا؟ قال: هذا جبريل عليه السلام قال: هل معك أحد؟ قال: نعم! معي محمد ﷺ فقال: أرسل إليه؟. قال: نعم. فلما فتح علونا السماء الدنيا...» الحديث[1].

الصفة الثامنة: حكيم عليم: كما قال جل وعز: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [النمل:٦]؛ إذ الأكثر على أنها في نعت جبريل عليه السلام فالمعلم **المُلْقِي لا** يلقي شيئاً إلا بعلمه، وليس دوره دوراً آلياً في النقل، بل يعلمه من حيث الجملة والتفصيل، ويعلمه من حيث الأداء، وأصل اللفظ، كما يتسم بالحكمة التي بها يضع الأمور في مواضعها، ومن ذاك وقت تعليم الألفاظ ومكانه.

فهذه صفات جبريل الخَلْقية والخُلُقية التي تمنحه القدرة الأمينة الدقيقة على تعليم ألفاظ القرآن في وقتها الذي أمر الله جل وعز به بأمانة ودقةٍ وحسن تأتٍ.

فإن اعتُرض معترض على الاستطراد في ذكر صفات الرسول الذي حمله وليس يرجع ذا إلى لب البحث؛ **فالجواب**: في ذلك من الحكم:

الثناء على الرسول المُلْقِي للقرآن، والمبلِّغ له إلى الأرض **أولاً**، وفيه تنويه بالقرآن، وتأكيد لصدقه وعظمته من حيث عظمة من قام بتبليغه **ثانياً**، وفيه تأكيد على الصفات التي جعلت هذا الرسول المتحمل أهلاً لأدائه لفظاً وأداء **ثالثاً**، وفيه تحديد لحجم الاجتهاد البشري فيه من حيث حجم اجتهاد المَلَك فيه **رابعا**، وبيان لأصلية التوقيف في لفظه وفرعيته من حيث مؤهلات هذا الرسول المعنوية، وإمكاناته الحسية على نقل القرآن، ومتابعته بدقة؛ إذ منعه من إدخال اجتهاده مع عظيم مكانته من الله جل وعز، منعٌ لغيره من ضَعَفَة المخلوقين من باب أولى، وهذا **خامساً**.

---

(١) صحيح البخاري ١/ ٣٠٠، مرجع سابق.

ولذا كان قسم الله جل وعز في سورة التكوير بقوله: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ١٥ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ﴾ [التكوير: ١٥]، "لبيان صدق الوحي القرآني، وتمت هذه الغاية صدقاً وعدلاً بالثناء على طرفي الاتصال، والنقل القرآني بين السماء والأرض ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ١٩ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ﴾[التكوير: ١٩-٢٠]، فإجراء أوصاف الثناء على الرسول للتنويه به أيضاً، وللكناية على أن ما نزل به صدق؛ لأن كمال القائل يدل على صدق القول"[١]، وانظر كيف زاد في ذكر صفات جبريل عليه السلام إذ هو خبر عما عنده سبحانه وهو غيب عنهم، فكثرة صفاته أدعى لطمأنتهم، ثم أخبرهم عمن عندهم بما يوفونه فلا يحتاج إلى مزيد كلام، **ومما** جاء **في** حواشي الكشاف تعليقاً على تأويل آيات التكوير: "إنما ذكر جبريل عليه السلام بتلك الصفات واقتصر على نفي الجنون عن النبي ﷺ لأن جبريل عليه السلام مجهول"[٢] أي عند البشر.

المبحث الثالث: أمين الوحي في السماء لأهل السماء:

في هذا المبحث تتضح المكانة الخاصة لجبريل عليه السلام من ربه جل وعز، بعد أن اتضحت المكانة العامة له من خلال المبحث السابق، إذ هو أمين الوحي الإلهي مطلقاً، وأول ذلك أنه أمين الوحي في السماء لأهل السماء، وتلك من أسباب جدارته الفائقة لأمانة الوحي النازل لأهل الأرض.

فعن النواس بن سمعان رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله إذا أراد أن يأمر بأمر تكلم به، فإذا تكلم به أخذت السماء رجفة، أو قال رعدة شديدة فإذا سمع بذلك أهل السماء، [وفي رواية متداخلة بين البخاري وغيره: ضَرَبَتِ الْمَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ يسمع أهل السموات صلصلة كصلصلة السِّلْسِلَةِ عَلَى صَفْوَانٍ فيفزعون] صعقوا فيخرون سجداً، فيكون أول من يرفع رأسه جبريل عليه السلام فيكلمه الله من وحيه بما أراد فيمر به جبريل عليه السلام على

(١) التحرير والتنوير ٣٠/ ١٧٥، مرجع سابق.

(٢) محمد عليان المزروقي الشافعي: حاشيته على الكشاف ٤/ ٦٩١، دار المعرفة - بيروت.

الملائكة، فكلما مر بسماء سألته ملائكتها: ماذا قال ربنا؟. قال جبريل عليه السلام: قال ربكم الحق وهو العلي الكبير. فيقولون كلهم كما قال جبريل عليه السلام، [وفي رواية: وقرأ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣] وعند ابن مردويه: «ما نزل جبريل بالوحي، فزع أهل السماء لانحطاطه، وسمعوا صوت الوحي، كأشد ما يكون من صوت الحديد على الصفا فيقولون: يا جبريل بما أمرت» فينتهي جبريل عليه السلام بالوحي حيث أمر من سماء وأرض»[1].

فجبريل هو الذي ينقل الخبر لأهل السموات فيتناقلونه ويتعلمون من جبريل عليه السلام بدء الكلام عما في الوحي بالتسبيح والتمجيد كما في مسلم عن ابْن عَبَّاسٍ قَالَ أَخْبَرَنِى رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِىِّ ﷺ مِنَ الأَنْصَارِ أَنَّهُمْ بَيْنَمَا هُمْ جُلُوسٌ لَيْلَةً مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ رُمِىَ بِنَجْمٍ فَاسْتَنَارَ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «مَاذَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ فِى الْجَاهِلِيَّةِ إِذَا رُمِىَ بِمِثْلِ هَذَا». قَالُوا اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ كُنَّا نَقُولُ وُلِدَ اللَّيْلَةَ رَجُلٌ عَظِيمٌ وَمَاتَ رَجُلٌ عَظِيمٌ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «فَإِنَّهَا لاَ يُرْمَى بِهَا لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلاَ لِحَيَاتِهِ وَلَكِنْ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى اسْمُهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا سَبَّحَ حَمَلَةُ الْعَرْشِ ثُمَّ سَبَّحَ أَهْلُ السَّمَاءِ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ حَتَّى يَبْلُغَ التَّسْبِيحُ أَهْلَ هَذِهِ السَّمَاءِ الدُّنْيَا ثُمَّ قَالَ الَّذِينَ يَلُونَ حَمَلَةَ الْعَرْشِ لِحَمَلَةِ الْعَرْشِ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ فَيُخْبِرُونَهُمْ مَاذَا قَالَ-قَالَ- فَيَسْتَخْبِرُ بَعْضُ أَهْلِ السَّمَوَاتِ بَعْضًا حَتَّى يَبْلُغَ الْخَبَرُ هَذِهِ السَّمَاءَ الدُّنْيَا فَتَخْطَفُ الْجِنُّ السَّمْعَ فَيَقْذِفُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ وَيُرْمَوْنَ بِهِ فَمَا جَاءُوا بِهِ عَلَى وَجْهِهِ فَهُوَ حَقٌّ وَلَكِنَّهُمْ يَقْرِفُونَ فِيهِ وَيَزِيدُونَ».

فجبريل عليه السلام هو أمين الوحي الإلهي سواء كان هذا الوحي **أرضياً**، وموضوع (تلقي النبي ﷺ) يشكل أنموذجه، أو **سماوياً** كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إذا أحب الله العبد نادى جبريل: إن الله يحب فلانا فأحببه، فيحبه جبريل، فينادي جبريل في أهل السماء: إن الله يحب فلاناً، فأحبوه،

(١) الطبراني في مسند الشاميين، وأصله عند البخاري وابن حبان.

فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض»[1]، وقال ﷺ: «إن العبد ليلتمس مرضاة الله، ولا يزال بذلك فيقول الله جل جلاله لجبريل: إن فلاناً عبدي يلتمس أن يرضيني، ألا وإن رحمتي عليه، فيقول جبريل: رحمة الله على فلان، ويقولها حملة العرش، ويقولها من حولهم حتى يقولها أهل السماوات السبع، ثم تهبط له إلى الأرض»[2].

وقد روى ابن مردويه من حديث ابن مسعود رفعه: «إذا تكلم الله بالوحي يسمع أهل السماوات صلصلة كصلصلة السلسلة على الصفوان فيفزعون ويرون أنه من أمر الساعة وقرأ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ﴾ الآية»[3]، وقد وقع في بعض روايات حديث النواس ابن سمعان السابق ما نصه: (أخذت أهل السماوات منه رعدة خوفا من الله وخروا سجدا فيكون أول من يرفع رأسه جبريل، فيكلمه الله بما أراد، فيمضي به على الملائكة، من سماء إلى سماء»، وفي حديث ابن عباس رضي الله عنه عند ابن خزيمة وابن مردويه: «كمر السلسلة على الصفوان، فلا ينزل على أهل السماء إلا صعقوا، فإذا فزع عن قلوبهم إلى آخر الآية، ثم يقول: يكون العام كذا، فيسمعه الجن...»، وعند ابن مردويه من طريق بهز بن حكيم عن أبيه عن جده رضي الله عنه: «ما نزل جبريل بالوحي، فزع أهل السماء لانحطاطه، وسمعوا صوت الوحي، كأشد ما يكون من صوت الحديد على الصفا فيقولون: يا جبريل بما أمرت ...»[4]الحديث.

وقد لا يكون الوحي أمراً إلهياً لأحد من المخلوقين، بل هو حديث بين الجبار جل جلاله وبين جبريل عليه السلام، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لما خلق الله الجنة، قال لجبريل: اذهب، فانظر إليها. فذهب، فنظر

---

(١) صحيح البخاري ٣/ ١١٧٥، مرجع سابق.
(٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل ٥/ ٢٧٩، مرجع سابق.
(٣) فتح الباري ٨/ ٧٢١، مرجع سابق، وقال: "وأصله عند أبي داود وغيره، وعلقه المصنف موقوفاً.
(٤) انظر هذه الروايات وغيرها: في فتح الباري ٨/ ٧٢١، مرجع سابق.

إليها، ثم جاء، فقال: أي رب، وعزتك، لا يسمع بها أحد إلا دخلها، ثم حفها بالمكاره، ثم قال: يا جبريل اذهب، فانظر إليها. فذهب، فنظر إليها، ثم جاء، فقال: أي رب، وعزتك لقد خشيت أن لا يدخلها أحد. -قال- فلما خلق الله النار، قال: يا جبريل اذهب، فانظر إليها. فذهب، فنظر إليها، ثم جاء. فقال: أي رب، وعزتك لا يسمع بها أحد فيدخلها، فحفها بالشهوات، ثم قال: يا جبريل اذهب، فانظر إليها. فذهب، فنظر إليها، ثم جاء، فقال: أي رب وعزتك، لقد خشيت أن لا يبقى أحد إلا دخلها»[1].

وقد أُريد من التفصيل السالف أن تُبَيِّن مكانة جبريل عليه السلام من الملك جل وعز، ويربط بين ذلك وبين قوله تعالى ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ [النجم: ٥]، فيستبين جلالة تعليم لفظ القرآن، وأنه ليس مجرد لفظ يرمى من فم لفم، بل لو ادعى مدعٍ أن تلقي النبي ﷺ للفظ القرآن من جبريل عليه السلام اعتراه من التوقيف، ومنع الاجتهاد أكثر مما اعترى معناه لما بعد عن إصابة سهم فكره لعين الحقيقة، وذلك واضح من حيث إن عتاب الله جل جلاله لنبيه في القرآن الكريم إنما هو لصواب في أمر غير ما ذهب إليه في فهم معنى معين، بخلاف اللفظ، فليس له فيه إلا ما لُقِّنَه، وقد حاول الاجتهاد في هيئة التلقي فمنع من ذلك[2].

وما سبق من أدلة توصلنا إلى نتيجة على قدر جليل من الأهمية هي: أن جبريل عليه السلام هو الوسيط بين الله جل وعز وأنبيائه، وهو المبحث التالي:

المبحث الرابع: اختيار جبريل عليه السلام ليكون الوسيط بين الله جل جلاله ورسله:

ويتفرع هذا المبحث إلى ثلاث جهات:

---

(١) صحيح ابن حبان ١٦/٤٠٦، مرجع سابق، والمستدرك ١/٧٩، مرجع سابق.

(٢) انظر: حديث المعالجة: الفصل الثالث -المبحث السادس.

جهة من حيث عموم الرسالات السماوية، وجهة من حيث خصوص رسالة النبي ﷺ، وجهة من حيث خصوص الخصوص وهو كون جبريل عليه السلام هو مقرئ النبي ﷺ وتلك الجهات تُشكل ثلاثة مطالب للمبحث:

المطلب الأول: من حيث عموم الرسالات السماوية.

المطلب الثاني: من حيث خصوص رسالة النبي ﷺ .

المطلب الثالث: من حيث خصوص الخصوص وهو الإقراء.

المطلب الأول: من حيث عموم الرسالات السماوية:

ومن أدلتها غير ما تقدم قول الله جل وعز: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾[النساء: ١٦٣]، ومن ذلك حديث عائشة رضي الله عنه في بدء الوحي: فقال له ورقة: (هذا الناموس الذي نزل الله على موسى)[(١)].

فقد قال البخاري في معناه:"الناموس صاحب السر الذي يطلعه بما يستره عن غيره"[(٢)]، وقال ابن الأثير: "في حديث المَبْعَث[(٣)]: (إنه لَيأْتيه النَّامُوس الأكبر) الناموسُ صاحبُ سرِّ المَلِك، وهو خاصُّه الذي يطلعه على ما يطويه من غيره من سرائره، وأراد به جبريل عليه السلام؛ لأن الله تعالى خصَّه بالوحي والغيب اللذَّين لا يَطَّلِعُ عليهما غَيره"[(٤)]، وقال شارح الطحاوية في قوله جل جلاله ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴾ [الشعراء: ١٩٣] "هو جبرائيل عليه السلام، سمي روحاً لأنه حامل الوحي الذي به حياة القلوب إلى الرسل من البشر صلوات الله عليهم أجمعين"[(٥)].

---

(١) صحيح البخاري ١/ ٤ مرجع سابق.

(٢) صحيح البخاري ٣/ ١٢٤١، مرجع سابق.

(٣) يعني الحديث الذي رواه البخاري عن عائشة عن أول بعثته وفيه: قال ورقة بن نوفل: هذا الناموس الذي نزل الله على موسى،.

(٤) النهاية في غريب الأثر ٥/ ١١٩، مرجع سابق.

(٥) شرح العقيدة الطحاوية ٣١٥، مرجع سابق.

وأهمية هذه النتيجة في هذه الدراسة: كامنةٌ في: أن انفراد ملك واحد من عالم الغيب ليكون الوسيط بين الله جل وعز وبين نبيه ﷺ في نقل كلام الله جل جلاله يزيل كل وسوسة يقذفها الشيطان في نفس الإنسان، تشكك في أنه يحتمل أن أحد الشياطين المتصورة في صورة معينة قد ألقى كلاماً على رسول الله ﷺ، وعده رسول الله ﷺ وحياً، وهو ما يدفع عاملاً خطيراً ومنطقياً من عوامل التشكيك في نقل كلام الله جل وعز، وقد أدرك الإمام السيوطي أهمية هذا المسألة، فألف رسالة بعنوان "لبس اليَلَب في الجواب عن إيراد أهل حلب"، قال: "لما وصل كتاب الأعلام إلى حلب -وقف عليه واقف فرأى فيه قولي أن جبريل عليه السلام **هو السفير** بين الله جل وعز وبين أنبيائه، لا يعرف ذلك لغيره، فكتب على الهامش، بل قد عرف ذلك لغيره من الملائكة، فأجاب فأجبت، الخ"[1].

المطلب الثاني: من حيث خصوص رسالة النبي ﷺ:

يكفي دليلاً في التصريح بأن جبريل عليه السلام هو الوسيط بين الله تعالى وبين نبيه ﷺ قوله جل جلاله ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[البقرة: ٩٧]، وقوله جل وعز ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾[النجم: ٥]، **فإن ادُعي أن إطلاقها** قد يُخَصُّ بنزول جبريل عليه السلام بنوع من الوحي دون غيره، **اكتفي بالقول** رداً على ذلك: ذاك عارض يفتقر الدليل، فإن وُجِدَ، وإلا فهو عليل، فلا يُرتضى بمجرد التخمين، **ومن احتج بالعموم** للملائكة بقول النبي ﷺ : «وأحياناً يتمثل لي الملك...»[2] الحديث، **يُجاب عليه**: بأن أداة التعريف فيه للعهد لا للاستغراق، بقرينة التصريح بجبريل عليه السلام في رواية ابن سعد[3]. **وقد كان جبريل عليه السلام معلم الدين أصولاً وفروعاً**؛ فعن أبي

---

(١) (حاجي خليفة) مصطفى بن عبد الله القسطنطيني الرومي الحنفي ت ١٠٦٧هـ : كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ٢/ ١٥٤٧، ١٩٩٢م - ١٤١٣هـ، دار الكتب العلمية - بيروت -.

(٢) انظر: تخريجه في الفصل الثاني-المبحث الثالث.

(٣) طبقات ابن سعد ١/ ١٩٧، مرجع سابق، وانظر فتح الباري ١٢/ ٤٤٢، مرجع سابق.

هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «هذا جبريل عليه السلام يعلمكم دينكم» ثم ذكر مواقيت الصلاة[1]، ونحوه حديث جبريل عليه السلام المشهور عن عمر ابن الخطاب عند البخاري ومسلم[2]، ومثله عن أبي هريرة رضي الله عنه عند مسلم[3].

ومما يدل على قرب جبريل عليه السلام، ومتابعته، وكونه الواسطة التعليمية للنبي ﷺ:

ما جاء عن أنس رضي الله عنه قال: بلغ عبد الله بن سلام مقدم رسول الله ﷺ المدينة، فأتاه، فقال: إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي: ما أول أشراط الساعة؟، وما أول طعام يأكله أهل الجنة؟، ومن أي شيء ينزع الولد إلى أبيه؟، ومن أي شيء ينزع إلى أخواله؟. فقال رسول الله ﷺ: «خبرني بهن آنفا جبريل عليه السلام» فقال عبد الله: ذاك عدو اليهود من الملائكة، الحديث[4].

كما أن جبريل عليه السلام **هو واسطة النبي ﷺ التعليمية الوحيدة إلى عالم الغيب**: فلا يتعرف على العالم الغيبي إلا بواسطة جبريل عليه السلام.

ومن ذلك أن جبريل عليه السلام واسطته التعليمية إلى أهم عالمين غيبين يوازيان عالم البشر: عالم الملائكة، وعالم الجن:

فأما عالم الملائكة: فعن عائشة رضي الله عنه زوج النبي ﷺ أن النبي ﷺ قال في حديث ذهابه إلى ثقيف: «فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي، فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت، فإذا فيها جبريل عليه السلام فناداني، فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك، وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما

---

(١) (البيهقي) أبوبكر أحمد بن الحسين بن علي بن موسى (٣٨٤هـ -ت٤٥٨هـ): سنن البيهقي الكبرى، مراجعة: محمد عبد القادر عطا، ١٩٩٤م-١٤١٤هـ، مكتبة دار الباز – مكة المكرمة ٠.

(٢) رواه البخاري ١/ ١٥، مرجع سابق، ومسلم ١/ ٤، مرجع سابق.

(٣) رواه مسلم ١/ ٤٩، مرجع سابق.

(٤) صحيح البخاري ٣/ ١٢١١، مرجع سابق.

شئت فيهم، فناداني ملك الجبال، فسلم علي، ثم قال: يا محمد! فقال: ذلك فيما شئت. إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين؟ فقال النبي ﷺ :بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً»[(١)].

ومن ذلك **تعرفه على ملائكة السماء** وخزنتها في حادثة الإسراء فقد كانت واسطته هي جبريل عليه السلام.

وأما عالم الجن: فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ ليلة الجن وهو مع جبريل عليه السلام وأنا معه، فجعل النبي ﷺ يقرأ، وجعل العفريت يدنو، ويزداد قرباً، فقال جبريل عليه السلام للنبي ﷺ: «**ألا أعلمك كلمات** تقولهن فيكب العفريت لوجهه، وتطفئ شعلته؟ قل أعوذ بوجه الله الكريم، وكلماته التامات التي لا يجاوزهن بر، ولا فاجر من شر ما ينزل من السماء، وما يعرج فيها، ومن شر ما ذرأ في الأرض، وما يخرج منها، ومن فتن الليل والنهار، ومن شر طوارق الليل والنهار، إلا طارقاً يطرق بخير يا رحمن.فكب العفريت لوجهه وانطفأت شعلته»[(٢)].

ولهذا التفريع فائدة منهجية بديعة فيما نحن بصدد جمع شتاته، من حيث واقع وجود عالمين معروفين غير مرئيين من عوالم الغيب هما: عالم الملائكة، وعالم الجن، تتمثل في حمايته من أن يتطرق إليه الشك عندما يبلغه غير جبريل عليه السلام من الملائكة الوحي، فيلقي الشيطان أنه ليس ملكاً، وحمايته من الشياطين أن يفكروا بالتلبيس عليه[(٣)].

---

(١) صحيح البخاري ٣/ ١١٨٠، مرجع سابق.

(٢) (النسائي) أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب ت٣٠٣ هـ: السنن الكبرى ٦/ ٢٣٧ مراجعة: د. عبد الغفار سليمان البنداري وسيد كسروي حسن، ١٤١١ه-/ ١٩٩١م دار الكتب العلمية - بيروت، وقد جاء في رواية: (علمنيهن جبريل وزعم أن عفريتاً يكيدني).

(٣) ونقل القاضي عياض الإجماع على عصمته ﷺ في الشفاء ٢ /١٤١، ولكن ذلك إجماع يفتقر إلى المستند، فليكن ذا في طريق ذاك المستند.

كما هو أيضاً واسطته إلى غيب خارج ذلك: فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أتاني جبريل عليه السلام فأخذ بيدي فأراني باب الجنة الذي تدخل منه أمتي»[(١)].

وبناء على أن جبريل هو الوسيط بين الله ورسله: **فهل كانت هيئات الوحي إلى النبي ﷺ كما كانت إلى الأنبياء السابقين على ما يظهر من قوله تعالى:** ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ﴾[النساء: ١٦٣]؟ والجواب: لا! فلا ريب في اشتراكهم في أصل الوحي، أما ما بعد ذلك فليس عندنا ما يشير إلى الهيئات التفصيلية لوحي الأنبياء السابقين حتى تتم المقارنة، ولا دليل في الآية على ترجيح أحد الأمرين إذ لو كانت تشبيهاً، فإن التشبيه لا يقتضي أن يكون المشَبَّه مساوياً للمشَبَّه به، وإن كانت إخباراً فهل المراد التفصيل أو القبيل، ولا دليل ثم على أحدهما، وما تطرق إليه الاحتمال سقط به الاستدلال، وعلى ضوء هذا التقرير يفهم قول ابن حجر-رحمه الله تعالى- في شرح هذه الآية: "ولما كان في الآية أن الوحي إليه نظير الوحي إلى الأنبياء قبله ناسب تقديم ما يتعلق بها، وهو صفة الوحي، وصفة حامله إشارة إلى أن الوحي إلى الأنبياء لا تباين فيه"[(٢)].

وإنما أورد هذا الكلام هاهنا لئلا يُفترَض أن القرآن نزل كما نزلت التوراة وحياً مكتوباً، لم تحتج إلى تلقين استدلالاً بهذه الآية، فيجاب بما سبق، ويضاف إليه أن ليس ثم تفصيل عن الهيئة التي تم بها إيحاء التوراة بدقة إلا قوله جل جلاله: ﴿ وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ ﴾ [الأعراف: ١٤٥] وهي لا تنفي التلقين صراحة، على أنها تبين المقدار الكبير في التغاير بين إيحاء التوراة والقرآن من حيث إن التوراة كتبت لموسى عليه السلام كتابة ولم تتلقن تلقيناً، **والقرآن سمي قرآناً علماً عليه أشهر من اسم كتاب مع كونه الاسم الثاني له في الشهرة، دلالة على**

---

(١) المستدرك ٣/ ٧٧، مرجع سابق.

(٢) فتح الباري ١/ ٥، مرجع سابق.

اجتماع القراءة والكتابة في الحفاظ على القرآن الكريم، لكن التلقين يسبق الكتابة عند ذكر أساليب تعلم القرآن الكريم كما يسبق اسم (القرآن) اسم (الكتاب)، وهو الجاري عند المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها.

وجماع القول أن جبريل عليه السلام قد بلغ أخص مبلغ في مكانته عند الله جل وعز من بين الملائكة، ولذا أسند إليه تعليم النبي ﷺ لفظ القرآن، فصار كل ما سبق خادماً لنقل القرآن الكريم.

المطلب الثالث: من حيث خصوص الخصوص:

أي من حيث كون جبريل عليه السلام هو المقرئ الوحيد للنبي ﷺ من الملائكة، فإن أبا حيان يُعَرِّفُ جبريل عليه السلام فيقول: "جبريل اسم ملك علم له، وهو الذي نزل بالقرآن على رسول الله ﷺ، وهو اسم أعجمي ممنوع من الصرف للعلمية والعجمة"[1].

وجبريل عليه السلام **هو المقرئ له صراحة**: فعن ابن عباس رضي الله عنه حدثه أن رسول الله ﷺ قال: «أقرأني جبريل على حرف، فراجعته، فلم أزل أستزيده ويزيدني حتى انتهى إلى سبعة أحرف»[2].

ولأنه الملقي للنبي ﷺ ألفاظ لقرآن الكريم: فقد باتت مسألة التلقي منه مصدر مرجعي بدهي في أوساط الأمة: يُرْجَعُ إلى طرقها عند الاختلاف، ويُحْتَجُ بثبوت النقل عنها عند التعليم، فعن الأعمش قال: سمعت الحجاج بن يوسف يقول وهو يخطب على المنبر: ألفوا القرآن كما ألفه جبريل عليه السلام السورة التي تذكر فيها البقرة، والسورة التي تذكر فيها النساء، والسورة التي يذكر فيها آل عمران، قال: فلقيت إبراهيم[3]، فأخبرته بقوله، فسبه، ثم قال: حدثني عبد الرحمن بن يزيد أنه كان مع عبد الله بن مسعود، فأتى جمرة العقبة، فاستبطن الوادي، فاستعرضها، فرماها من بطن الوادي بسبع حصيات يكبر مع كل حصاة، فقلت: يا أبا عبد الرحمن، إن الناس يرمونها من فوقها، فقال: هذا - والذي لا إله غيره - مقام الذي أنزلت عليه سورة البقرة[4].

---

(١) البحر المحيط ٣١٦/١، مرجع سابق.

(٢) صحيح البخاري ١٩٠٩/٤، مرجع سابق.

(٣) يعني: إبراهيم النخعي.

(٤) رواه مسلم ٩٤٢/٢، مرجع سابق.

و**(التأليف) في قول الحجاج**: هل هو الترتيب كما هو أصل معنى الكلمة، أم أنه تسمية السور كما يظهر من السياق؟ وعلى كلٍ فإن كان هذا في محله، أو في تسمية سوره، فكيف في وضعه وهيئات نطقه؟ والشاهد واضح من الإسناد إلى جبريل عليه السلام.

فإن اعتُرض معترض بآيتي خاتمة البقرة؛ إذ أنزلهما ملك غير جبريل عليه السلام؟ فعن ابن عباس رضي الله عنه قال: بينما جبريل عليه السلام قاعد عند النبي ﷺ سمع نقيضاً من فوقه، فرفع رأسه، فقال: «هذا باب من السماء فتح اليوم، لم يفتح قط إلا اليوم، فنزل منه ملك، فقال: هذا ملك نزل إلى الأرض لم ينزل قط إلا اليوم، فسلم، وقال: أبشر بنورين أوتيتهما، لم يؤتهما نبي قبلك: فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة، لن تقرأ بحرف منهما إلا أعطيته»[(١)].

فالجواب: إما أن يكون أنزلهما بعد نزولهما، أي تكرر النزول للاهتمام أو لأمر آخر، **وإما أن النزول كان للفضل** لا للإنزال ذاته، ويدل لهذا أنه لا مراء في نزول الفاتحة قبل ذلك في مكة، وواضح أن الحادثة في المدينة إذ قد صرح متتبعوا النزول بأن نزول البقرة كان في المدينة[(٢)].

ووجه ثالث هو أن الواسطة بين الملك والرسول ﷺ كان جبريل عليه السلام فيرجع الوحي هنا إليه، كحادثة الإسراء، وهذا الوجه يتعدى هذه الحادثة إلى كل حادثة جاء فيها ملك آخر مع جبريل عليه السلام كحديث طوفانه ﷺ في ليلة على بعض المعذبين من أمته[(٣)].

عداوة جبريل عليه السلام مقياس مطلق لعداوة الله –تعالى ذكره-:

ولما سبق كان التشديد، والإفزاع الأكيد للعقل والعاطفة من مجرد التفكير في الكلام على جبريل عليه السلام، أو عدائه؛ إذ صار مقياساً مطلقاً لعداوة الله ورسله

(١) السنن الكبرى للنسائي ٥/ ١٢، مرجع سابق.

(٢) انظر: الإتقان ١/ ٢٠، مرجع سابق، إتقان البرهان في علوم القرآن ١/ ٣٧٨، مرجع سابق.

(٣) رواه البخاري ٦/ ٣١٢٢، مرجع سابق، ونحو ما رواه البخاري في صحيحه ٣/ ١١٨٢ عن سمرة قال: قال النبي ﷺ: «رأيت الليلة رجلين أتياني، قالا: الذي يوقد النار مالك خازن النار، وأنا جبريل وهذا ميكائيل». وظاهرٌ أن المُعَرِّفَ هو جبريل عليه السلام.

وملائكته، ولذا كان قوله جل جلاله ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٩٨] عقب قوله جل وعز ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبۡرِيلَ﴾ [البقرة: ٩٧]، فعداوتهم لله جل جلاله بمنزلة المقدمة الكبرى؛ لأنها العلة في المعنى عند التأمل، وعداوتهم لرسوله جبريل عليه السلام بمنزلة المقدمة الصغرى لأنها السبب الجزئي المثبت(١).

وقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبۡرِيلَ﴾ لا يظهر فيها أن قوله ﴿نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلۡبِكَ﴾ جواب الشرط، لما تقرر في علم العربية أن اسم الشرط لا بد أن يكون في الجواب ضمير يعود عليه، وقوله ﴿نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلۡبِكَ﴾ ليس فيه ضمير يعود على من، وقد صرح بأنه جزاء للشرط الزمخشري وهو خطأ لما ذكرناه من عدم عود الضمير، ولمعنى فعل التنزيل، فلا يصح أن تكون الجملة جزاء، وإنما الجزاء محذوف لدلالة ما بعده عليه، والتقدير: فعداوته لا وجه لها، أو ما أشبه(٢)، كذا قال أبو حيان -رحمه الله تعالى-، ولو كان التقدير: فهو عدو لله أو فهو كافر بالوحي، لكان أظهر، وأولى، وأنسب لقوله ﴿فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ﴾ فأشار بأن إنزال الله جبريل عليه السلام بالقرآن قامعٌ لكل من تسول له نفسه عداوة جبريل عليه السلام . وقد صرح أبو حيان بتقديرين قريبين من هذا -بعد-، وهو إنما أورد أولاً عين ما قاله الزمخشري في التقدير(٣)، وقال الآلوسي: ﴿فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلۡبِكَ﴾: "جواب الشرط إما نيابة، أو حقيقة، والمعنى من عاداه منكم فقد خلع ربقة الإنصاف، أو كفر بما معه من الكتاب بمعاداته إياه لنزوله عليك بالوحي"(٤). **وموضع الاستشهاد من هذا الإيراد** ربط جبريل عليه السلام بإنزال القرآن

(١) انظر: التحرير والتنوير ١/ ٦٢٣، مرجع سابق.
(٢) انظر:البحر المحيط ١/ ٣١٩، مرجع سابق.
(٣) الكشاف ١/ ٨٤، مرجع سابق، وكذا فعل الشوكاني في فتح القدير١/ ١٥٠، مرجع سابق.
(٤) روح المعاني ١/ ٢٢٠، مرجع سابق.

الكريم[1]، وقد ذكر عبارة ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾، وهو ينصرف انصرافاً أولياً للقـرآن الكـريم، وجعل هذا كله خادماً للاطمئنان على نقـل القـرآن، وإيصـال كـلام الله إلى الأرض، وهو زاجر بالإشارة، وبصريح العبارة عن الطعن فيه بعد ذلك أيضاً.

إنه جبريل عليه السلام، **إنه القرآن الكريم، إنه رسول الله الأمـين** ﷺ، **فـأين أنت ياحافظ الذكر المبين؟**:

أيهـا الشـادي بقـرآن كـريم!	وهو في ركن مـن البيـت مقـيم
قـم! وأبلـغ نـوره للعـالمين	قـم! وأسمعـه البرايـا أجمعـين
من له من ثروة الهـادي نصـيب	فهو من جبريل في الدنيا قريـب

(١) إذ إن الضمير المنصوب في ﴿فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ﴾ عائد للقرآن: إما لأنه تقدم في قوله ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٩١]، وإما لأن الفعل لا يصلح إلا له هنا على حد ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾ [ص: ٣٢] ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ﴾ [الواقعة: ٨٣]، انظر: التحرير والتنوير ١/٦٢١، مرجع سابق، وإليه ذهب الكشاف١/ ٨٤، مرجع سابق، وقال: "إضماره فخامة لشأن صاحبه حيث يجعل لفرط شهرته كأنه يدل على نفسه، ويكتفي عن اسمه الصريح بذكر شيء من صفاته،".

الفصل الثاني

اتصال جبريل عليه السلام بالنبي ﷺ لتلقينه الوحي القرآني

وفيه ثلاثة مباحث:

يبحث هذا الفصل عن هيئة اتصال جبريل عليه السلام بالنبي ﷺ، ومدى ذلك الاتصال زماناً ومكاناً، ووقت امتناعه، وكيفية مجيء جبريل عليه السلام بالوحي القرآني من حيث عموم المجيء، لا من حيث تفصيل هيئة المجيء، واقتضى ذلك أن ينقسم هذا الفصل إلى ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: تهيئة النبي ﷺ للوحي القرآني والاتصال بالملَك.

المبحث الثاني: إمكانية الاتصال المطلق.

المبحث الثالث: هيئات مجيء المَلَك بالوحي القرآني (من حيث العموم).

المبحث الأول: تهيئة النبي ﷺ للوحي، والاتصالِ بالملَك:

اقتضت بشرية الرسول، وملكية الملك أن يهيأ النبي ﷺ لإمكانية لقاء الرسول الملك في أي وقت، على أي حال من حيث اختلاف الطبيعة في كل منهما، وقصور قدرة البشر طبيعةً عن إدراك الملَك أو غيره من العوالم الغيبية، كما أن من أهم أهداف هذه التهيئة إعداد النبي ﷺ ليستوعب كلام الله جل وعز، ويصير في مقام حمله وتبليغه، وليكون جهده لوحده في ذلك مساوياً لجهد الأمة في حفظ كلام الله جل جلاله بحفظ الله جل وعز له، كما سيأتي في حادثة شق الصدر الأولى، وتفرعت هذه التهيئة إلى فرعين هما مطلبا هذا المبحث، وهما:

المطلب الأول: التهيئة الإلهية للوحي.

المطلب الثاني: التهيئة البشرية للوحي.

المطلب الأول: التهيئة الإلهية للوحي:

تمثلت فيه هذه التهيئة في ستة مظاهر، وأولها:

الممهدات التي قيضها الله لنبيه ﷺ:وممن صرح بأن ثمت ممهدات للوحي ابن حجر -رحمه الله تعالى- حيث قال: وبدئ بذلك ليكون تمهيداً، وتوطئة لليقظة ثم مهد له في اليقظة أيضاً برؤية الضوء، وسماع الصوت، وسلام الحجر(١)، ومن أهم مظاهر هذه التهيئة:

١- حادثة شق الصدر: وقد وقعت مرتين: **أما المرة الأولى**: فعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل عليه السلام وهو يلعب مع الغلمان، فأخذه فصرعه، فشق قلبه فاستخرج منه علقة فقال: هذا حظ الشيطان منك، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم ثم لأمه، وأعاده في مكانه، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه -يعني ظئره- فقالوا: إن محمداً قد قتل، فاستقبلوه وهو ممتقع اللون، قال أنس: وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره(٢)، وفي لفظ [قلبه فاستخرج القلب ثم شق القلب فاستخرج...].

وأما المرة الثانية عن أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «بينا أنا عند البيت بين النائم واليقظان، وذكر يعني رجلاً بين الرجلين، فأتيت بطست من ذهب ملئ حكمة وإيماناً، فشق من النحر إلى مراق البطن، ثم غسل البطن بماء زمزم ثم ملئ حكمة وإيماناً، وأتيت **بدابة** أبيض دون البغل، وفوق الحمار يقال له: البراق فانطلقت مع جبريل حتى أتينا السماء الدنيا...»(٣)الحديث.

---

(١) فتح الباري ١/ ٢٣، مرجع سابق.

(٢) صحيح مسلم ١/ ١٤٧، مرجع سابق.

(٣) صحيح البخاري ٣/ ١١٧٣، مرجع سابق.

وفي معنى الحكمة يقول النووي -رحمه الله تعالى-: "العلم المشتمل على المعرفة بالله، مع نفاذ البصيرة، وتهذيب النفس، وتحقيق الحق للعمل به، والكف عن ضده، والحكيم من حاز ذلك"(١).

وعقب عليه ابن حجر -رحمه الله تعالى- قائلاً: "**وقد تطلق الحكمة على القرآن**، وهو مشتمل على ذلك كله، وعلى النبوة كذلك، وقد تطلق على العلم فقط، وعلى المعرفة فقط"(٢)، ويدل على صحة وجهة ابن حجر -رحمه الله تعالى- في دلالة الحكمة على القرآن قوله ﷺ: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله القرآن،، وفي لفظ: رجل آتاه الله الحكمة، فهو يقضي بها ويعلمها»(٣).

فقد وقعت حادثة الشق مرتين، لتحقيق غرضين مختلفين:

فالمرة الأولى: كان هدفها نزع حظ الشيطان:

وبين ذلك أبو حاتم بن حبان -رحمه الله تعالى- بقوله: "شق صدر النبي ﷺ وهو صبي يلعب مع الصبيان، وأخرج منه العلقة، ولما أراد الله جل جلاله الإسراء به أمر جبريل عليه السلام بشق صدره ثانياً، وأخرج قلبه فغسله، ثم أعاده مكانه مرتين في موضعين، وهما غير متضادين"(٤).

وفي **الديباج على صحيح مسلم**: " فإن قيل: إنما وقع شق الصدر وهو صغير؟ فالجواب كما قال السهيلي: إنه وقع مرتين، الثانية عند الإسراء تجديداً للتطهير"(٥).

قال ابن حجر -رحمه الله تعالى-: " قوله ففَرَج صدري هو بفتح الفاء والجيم أيضاً أي شقه، ورجح عياض -رحمه الله تعالى- أن شق الصدر كان وهو صغير عند مرضعته حليمة، وتعقبه السهيلي بأن ذلك وقع مرتين وهو الصواب، **ومحصله إن**

---

(١) فتح الباري ١/ ٤٦١، مرجع سابق.

(٢) فتح الباري ١/ ٤٦١، مرجع سابق.

(٣) البخاري ٦/ ٣٢١٢، مرجع سابق.

(٤) صحيح ابن حبان ١٤/ ٢٤٢، مرجع سابق.

(٥) الديباج على صحيح مسلم ١/ ٢٠٦، مرجع سابق.

الشق الأول كان لاستعداده لنزع العلقة التي قيل له عندها هذا حظ الشيطان منك، والشق الثاني: كان لاستعداده للتلقي الحاصل له في تلك الليلة(١).

والظاهر أن الشق الأول تعدت أهدافه ما ذكر ابن حجر -رحمه الله تعالى- إلى استعداده ﷺ للقاء الملك، وإيداع قلبه كلام الله، والنفي المبكر لحظ الشيطان من قلبه حتى لا يشوش وجوده على تحقيق هذه الأهداف، ويدل على أن هذا التقرير هو التحقيق في المسألة بقية حديث الشق الأول ففيه: **مسألة الوزن**، فعن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله! كيف علمت أنك نبي حين استنبئت؟ فقال: «يا أبا ذر! أتاني ملكان وأنا ببعض بطحاء مكة فوقع أحدهما على الأرض، وكان الآخر بين السماء والأرض، فقال أحدهما لصاحبه: أهو هو؟ قال: نعم! قال: فزنه برجل، فوزنت به فوزنته، ثم قال: فزنه بعشرة فوزنت بهم، فرجحتهم، ثم قال: زنه بمائة فوزنت بهم فرجحتهم، ثم قال: زنه بألف، فوزنت بهم، فرجحتهم كأني انظر إليهم ينتثرون علي من خفة الميزان، قال: فقال أحدهما لصاحبه: لو وزنته بأمته لرجحها»(٢).

وهذا يدل على أن جهده ﷺ في تلقي الوحي القرآني وحفظه، ينبغي أن يساوي جهد الأمة في ذلك، وقد ساواه وزاد بحمد الله جل وعز.

أما المرة الثانية: فمن أهدافها: استعداده للتلقي الحاصل في تلك الليلة من حيث عظم ما أخذ إليه ﷺ من الصعود إلى السموات، ورؤية الآيات الكبرى في سرعة لا تخطر على قلب بشر، وذاك أمر بحاجة إلى تهيئة لا تكفي فيها التهيئة الأولى.

وقد ورد ما يدل على أن شق الصدر وقع أكثر من مرة، فقد قال ﷺ: «فأردت أن أرجع، فإذا أنا به وبميكائيل، قد سدا الأفق فهبط جبريل عليه السلام فبقي ميكائيل

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري، مرجع سابق.

(٢)(الدارمي) أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن ت٢٥٥هـ: سنن الدارمي ١/ ٢١، تحقيق: أحمد فواز زمرلي، خالد السبع العلمي، ١٤٠٧هـ، دار الكتاب العربي - بيروت. وقد جاء التصريح بأن الوزن جاء عقب الشق الأول في عدد من الروايات منها ما أخرجه ابن سعد ١/ ١٥٠، مرجع سابق.

بين السماء والأرض فأخذني جبريل عليه السلام فسلقني بحلاوة القفا، ثم شق عن قلبي، فاستخرجه، ثم استخرج منه ما شاء الله أن يستخرج، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم، ثم أعاده مكانه، ثم لأمه، ثم أكفأني كما يكفأ الأديم أو الآنية، ثم ختم في ظهري حتى وجدت مس الخاتم في قلبي، ثم قال: اقرأ! **قلت**: ما قرأت كتابا قط. فلم أدر ما اقرأ! ثم قال: اقرأ. فقلت ما أقرأ؟ فقال ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ﴾ حتى انتهينا إلى خمس آيات منها، فما نسيت شيئاً بعد، ثم وزنني برجل، فوزنته ثم وزنني بآخر فوزنته، حتى وزنت بمائة رجل، فقال: ميكائيل من فوقه: أمة ورب الكعبة، ثم أقبلت فجعلت لا يلقاني حجر، ولا شجر إلا قال السلام عليك يا رسول الله!حتى دخلت على خديجة فقالت: السلام عليك، يا رسول الله!»[1].

قال ابن حجر -رحمه الله تعالى-: "ومناسبته ظاهرة"[2]. ولم يتكلم على إسناده فيكون حسنًا أو صحيحاً عنده على ما شرطه في المقدمة[3].

والمقتضى الفعلي لهذا الإعداد للقلب قد ترتب عليه أمور جليلة، بعد أن كانت هذه التهيئة له، **لعل أهمها**: نزول القرآن على قلبه، وقدرته على استيعابه وتحمله، **ومن صورها المحسوسة** أن قلبه لا ينام وإن كانت عينه تنام.

---

(١) (الهيثمي) الحافظ نور الدين: بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث ص ٢٣، للحارث بن أبي أسامة، تحقيق د.حسين أحمد صالح الباكري، ١٤١٣هـ-١٩٩٢م، مركز خدمة السنة والسيرة النبوية – المدينة المنورة.

(٢) قال ابن حجر -رحمه الله تعالى- ١/ ٤٦٤، مرجع سابق: "وقد روى الطيالسي والحارث في مسنديهما من حديث عائشة -رضي الله تعالى عنها -أن الشق وقع مرة أخرى عند مجيء جبريل له بالوحي في غار حراء، والله أعلم. وروى الشق أيضا وهو ابن عشر، أو نحوها في قصة له مع عبد المطلب أخرجها أبو نعيم في الدلائل، وروى مرة أخري خامسة ولا تثبت".

(٣) (ابن حجر) أحمد بن علي حجر العسقلاني: هدي الساري مقدمة فتح الباري ص٥، حقق أصولها: عبد العزيز بن باز رقم كتبها وأبوابها وأحاديثها محمد فؤاد عبد الباقي ط١، ١٤١٠هـ -١٩٨٩م، دار الكتب العلمية – بيروت، لبنان.

٢- ثم بدأ يتعدى القوى البشرية القاصرة: فكان يرى ما لا يستطيع البشر رؤيته، ويسمع مالا يستطيعون سماعه، وأخبر ﷺ عن ذلك فقال: «إني أرى ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون، أطت السماء، وحق لها أن تئط، ما فيها موضع أصبع إلا ملك ساجد...» الحديث(١).

ومن ذلك: أنه يمكن أن يرى بعض العوالم الغيبية في حدود ما أتاح الله جل وعز له كالملائكة والجن، فأما الملائكة فظاهر من هذا الحديث، ومن الحديث عن جبريل عليه السلام وأما الجن فنحو حديث كلامه ورؤيته لجن نصيبين(٢)، وقبضه على الشيطان الذي مر بين يديه(٣).

وأما **السماع** فكسمعه ﷺ للمعذبين في القبر، كما قال: «لولا أن تدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر ما أسمع»(٤)، وهذا الحديث دال على أنه أوتي قوى أخرى كالصبر على تحمل سماع عذاب القبر، وذلك كله في حدود معينة، لا أنه قد خرج عن طبيعته البشرية خروجاً كلياً، **ومن أهم ثمار ذلك مما له تعلق بموضوع البحث**: ترسيخ اليقين في نفسه بوحي ربه جل جلاله بصفة خاصة، وتأكده بأن الذي يأتيه ملَك لا شيطان.

وابتدأ ظهور إحساسه مادياً بالعوالم الغيبية، وبدايات تمييزها لكن دون يقين قبيل الوحي إليه تمهيداً لنزول الوحي عليه، ولأنه لم يأته الوحي صراحة فقد خاف من هذه

---

(١) مسند أحمد ٥/ ١٧٣، مرجع سابق، المستدرك ٢/ ٥٥٤، مرجع سابق.

(٢) وردت روايات في جن نصيبين منها: عن أبي هريرة ﷺ أنه كان يحمل مع النبي ﷺ إداوة لوضوئه وحاجته، فبينما هو يتبعه بها، قال: (من هذا)، فقال: أنا أبو هريرة. فقال: (أبغني أحجاراً أستنفض بها، ولا تأتني بعظم ولا بروثة)، فأتيته بأحجار أحملها في طرف ثوبي، حتى وضعت إلى جنبه، ثم انصرفت، حتى إذا فرغ مشيت، فقلت: ما بال العظم والروثة ؟ قال: (هما من طعام الجن، وإنه قد أتاني وفد جن نصيبين - ونعم الجن- فسألوني الزاد، فدعوت الله لهم ألا يمروا بعظم ولا بروثة إلا وجدوا عليها طعاماً) أخرجه البخاري ٣/ ١٤٠١، مرجع سابق، وانظر: قصةً أخرى في جن نصيبين: المستدرك للحاكم ١/ ٧٥١، مرجع سابق.

(٣) البخاري ٢/ ٩٠٠، مرجع سابق.

(٤) المستدرك على الصحيحين ١/ ٩٨، مرجع سابق.

الظواهر على نفسه: فقد قال رسول الله ﷺ لخديجة: «يا خديجة! إني أرى ضوءاً، وأسمع صوتاً، لقد خشيت أن أكون كاهناً فقالت: إن الله لا يفعل بك ذلك يا ابن عبد الله، إنك تصدق...» الحديث[1]، وعن ابن عباس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «يا خديجة! إني أسمع صوتاً، وأرى ضوءاً، وإني أخشى أن يكون في جنن»[2].

٣-وكان جبريل عليه السلام **يأتيه في المنام**: كنوع من التدريج في اعتياد الطبيعة البشرية لرسول الله عليه؛ ففي حديث عائشة –رضي الله تعالى عنها –في بدء الوحي قالت: أول ما بدئ به رسول الله الرؤيا[3]، قال ابن حجر –رحمه الله تعالى-: "(ما) في الحديث نكرة موصوفة، أي أول شيء، ووقع صريحاً في حديث ابن عباس رضي الله عنه عند ابن عائذ، ووقع في مراسيل عبد الله بن أبي بكر بن حزم عند الدولابي ما يدل على أن الذي كان يراه ﷺ هو جبريل، ولفظه: أنه قال لخديجة بعد أن أقرأه جبريل عليه السلام ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾: «أرأيتك الذي كنت أحدثك أني رأيته في المنام، فإنه جبريل عليه السلام استعلن»"[4].

٤-الرؤيا الصادقة: فقد جاء في حديث عائشة -رضي الله تعالى عنها- عند البخاري: «أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة، وفي لفظ له: الرؤيا الصادقة»، وقد ذُكِرَ في الحديث تفسيرها حيث قالت عائشة: «فكان لا يرى رؤيا إلا وقعت مثل فلق الصبح»[5]، **فالرؤيا الصادقة**: "هي التي ليس فيها ضغث، قال ابن المرابط: هي التي ليست ضغثاً، ولا من تلبيس الشيطان، ولا فيها ضرب مثلٍ

---

(١) الطبقات الكبرى ١/١٩٤، مرجع سابق.
(٢) الطبقات الكبرى ١/١٩٤، مرجع سابق.
(٣) البخاري ١/ ٣، مرجع سابق.
(٤) فتح الباري ١/ ١٤، مرجع سابق.
(٥) البخاري ١/ ٣، مرجع سابق.

مُشْكِل[1]، أي في أول المبتدءات من إيجاد الوحي الرؤيا[2]، وإنما شبهها بفلق الصبح دون غيره -كما قال ابن أبي جمرة- لأن شمس النبوة كانت الرؤيا مبادى أنوارها، فما زال ذلك النور يتسع حتى أشرقت الشمس[3].

وعن علقمة بن قيس صاحب ابن مسعود رضي الله عنه: «إن أول ما يؤتى به الأنبياء في المنام حتى تهدأ قلوبهم، ثم ينزل الوحي في اليقظة»[4].

وأكثر ما سبق من الممهدات في المنام، وذاك في ذاته تمهيد لليقظة.

٥- **الآيات التي كانت تظهر له**: مثل تسليم الحجر؛ كما ثبت عن جابر ابن سمرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم علي قبل أن أبعث إني لأعرفه الآن»[5].

وأول ذلك مطلقاً ما سمعه من بحيرى الراهب، ثم ما سمعه عند بناء الكعبة حيث قيل له اشدد عليك إزارك وهو في صحيح البخاري من حديث جابر رضي الله عنه[6].

٦-**التحنث**: فقد جاء في حديث عائشة -رضي الله تعالى عنها-: «ثم حبب إليه الخلاء فكان يتحنث في غار حراء...»[1].

---

(١) قال ابن حجر -رحمه الله تعالى- تعقيباً: "وتعقب الأخير بأنه إن أراد بالمشكل ما لا يوقف على تأويله، فمسلم وإلا فلا".

(٢) والعلاقة بين الرؤيا الصالحة والصادقة أنهما بمعنى واحد بالنسبة إلى أمور الآخرة في حق الأنبياء، وأما بالنسبة إلى أمور الدنيا، فالصالحة في الأصل أخص، فرؤيا النبي كلها صادقة، وقد تكون صالحة، وهي الأكثر، وغير صالحة بالنسبة للدنيا كما وقع في الرؤيا يوم أحد، وأما رؤيا غير الأنبياء: فبينهما عموم وخصوص، إن فسرنا الصادقة بأنها التي لا تحتاج إلى تعبير، وأما إن فسرناها بأنها غير الأضغاث، فالصالحة أخص مطلقاً، وقيل: الرؤيا الصادقة ما يقع بعينه، أو ما يعبر في المنام، أو يخبر به ما لا يكذب، والصالحة ما يسر.

(٣) فتح الباري ٨/ ٧١٧، مرجع سابق.

(٤) قال في فتح الباري ٨/ ٧١٩، مرجع سابق: "روه أبو نعيم في الدلائل بإسناد حسن".

(٥) صحيح مسلم ٤/ ١٧٨٢، مرجع سابق.

(٦) فتح الباري ٣/ ٤٤٣، مرجع سابق، وقال ابن حجر-رحمه الله تعالى- في حديث بحيرى الراهب: "وهو عند الترمذي عن أبي موسى بإسناد قوي".

فقولها (حبب): لم يسم فاعله؛ لعدم تحقق الباعث على ذلك، وإن كان كل من عند الله، أو ليُنَبَه على أنه لم يكن من باعث البشر، أو يكون ذلك من وحي الإلهام.

والخلاء بالمد الخلوة، **والسر فيه أن الخلوة** فراغ القلب لما يتوجه له(٢). وقد فُسِرَ في الحديث معنى التحنث من بعض رواته، فقال: (وهو التعبد الليالي ذوات العدد).

وقد قيل في تأويل التحنث أنه من الحنفية إذ تبدل الثاء من الفاء كثيراً، أو من إلقاء الحنث وهو الإثم(٣).

وحتى لا يتهم النبي ﷺ بالاتصال بالشياطين، أو بالفيض الفلسفي الذاتي من خلال الاستيحاش بالناس، والاستئناس بالخلوة؛ إذ ذاك مظنة لهما – فإن **من أبرز الحقائق التي صاحبت خلوته** ﷺ أنه لم يكن مبتدعها في قريش، بل كانت تلك عادة متأصلة فيهم، فإن الزمن الذي كان يخلو فيه كان شهر رمضان(٤)، وكانت قريش تفعله، كما كانت تصوم عاشوراء، وهم لم ينازعوا النبي ﷺ في غار حراء، مع مزيد الفضل فيه على غيره؛ لأن جده عبد المطلب أول من كان يخلو فيه من قريش، وكان يعظمونه لجلالته، وكبر سنه، فتبعه على ذلك من كان يتأله، فكان ﷺ يخلو بمكان جده، وسلم له ذلك أعمامه لكرامته عليهم(٥).

وهل كان النبي ﷺ متوقعاً للوحي بعد ظهور هذه العلامات كما يدل له كلام البلقيني، أم لا لشاهد فزعه، ولقول عائشة -رضي الله تعالى عنها-: فجئه الحق، وأيده النووي...؟. قال ابن حجر: الظاهر أن الأولى: ترك الجزم بأحد الأمرين(٦)، ولكن قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾[القصص: ٨٦] ظاهرٌ في نفي أن يكون النبي ﷺ كان يتوقع شيئاً من الوحي.

---

(١) البخاري ١/ ٣، مرجع سابق.
(٢) انظر: فتح الباري بشرح صحيح البخاري ١/ ١٣، مرجع سابق.
(٣) انظر: فتح الباري بشرح صحيح البخاري ١/ ١٣، مرجع سابق.
(٤) رواه ابن إسحاق كما قال ابن حجر -رحمه الله تعالى-في فتح الباري ١٢/ ٣٦١، مرجع سابق.
(٥) انظر: فتح الباري بشرح صحيح البخاري ١/ ١٣، مرجع سابق.
(٦) انظر: فتح الباري ١٢/ ٣٥٦، مرجع سابق.

المطلب الثاني: التهيئة البشرية للوحي:

فكما أن الله جل جلاله أمر جبريل عليه السلام ومن أعانه من الملائكة بتهيئة النبي ﷺ تهيئة إلهية مما هو خارج عن نطاق القدرة البشرية، فقد كان النبي ﷺ يهيئ نفسه ومحيطه تهيئة يلهمها الله جل جلاله له بطريق من طرق الوحي لكيما يتلقى الوحي الذي يأتيه متتابعاً قرآناً كان أو غيره وهذه التهيئة نوعان:

أ- التهيئة الذاتية: ويشير إليها ملمحان:

أولهما: معالجته الشدة في تلقي القرآن كما سيأتي في حديث المعالجة([1])؛ وما تلك المعالجة إلا لما أراد النبي ﷺ أن يبذله من طاقة مستطاعة لحفظ القرآن الكريم، بعد أن أخبر بثقله في قوله جل وعز ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: ٥]، فكأن هذه الآية كانت داعية تهيئته لتلقي لفظ القرآن الكريم.

وثانيهما: اجتنابه ﷺ للثوم ونحوها، مما تتأذى منه الملائكة، وعندما يخاف أن تظن أمته حرمتها يبين لهم العلة، وجاء بعض الصحابة رسولَ الله ﷺ بمرقة بقر فيها ثوم، فوجد رسول الله ﷺ ريح الثوم فقال:«أخرجها» قال: لم يا رسول الله؟! أحرام؟ فقال: «لا، ولكن جبريل عليه السلام يناجيني»([2]).

وعلل الشافعي -رحمه الله تعالى- ذلك بقوله:" امتنع من أكل الضب؛ لأنه عافه، لا لأنه حرمه، وقد امتنع من أكل البقول ذوات الريح لأن جبريل عليه السلام يكلمه"([3]).

ب-التهيئة البيئية: لمحيطه الذي يتلقى فيه الوحي:

---

(١) انظر: الفصل الثالث -المبحث السادس من هذه الدراسة.

(٢) (الطبراني) أبو القاسم مسند الدنيا سليمان بن أحمد بن أيوب: المعجم الكبير ٢/٤٥٦، مراجعة: حمدي عبد الحميد السلفي، ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٣م، مكتبة العلوم والحكم، الموصل، أصله في صحيح مسلم ٣/ ٢٠٠، مرجع سابق، دون ذكر جبريل.

(٣) تأويل مختلف الحديث ٣١٠، مرجع سابق.

وأنموذجه ما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ: «أتاني جبريل عليه السلام فقال أتيتك البارحة، فلم يمنعني أن أكون دخلت إلا أنه كان على الباب تماثيل، وكان في البيت قرام سترٍ فيه تماثيل، وكان في البيت كلب، فمر برأس التمثال الذي على باب البيت يقطع، فيصير كهيئة الشجرة، ومر بالستر فليقطع، فليجعل منه وسادتان منبوذتان توطآن، ومر بالكلب فليخرج، ففعل رسول الله ﷺ وفي رواية: إما أن تقطع رؤوسها، أو تجعل بسطاً توطأ»[(١)].

وعن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه:وعد النبي ﷺ جبريل عليه السلام فقال: «إنا لا ندخل بيتاً، فيه صورة، ولا كلب»[(٢)].

وهكذا كانت التهيئة الإلهية والتهيئة البشرية لاتصال أمين الوحي في السماء عليه السلام **بأمين الوحي في الأرض** ﷺ، **وتمضي هالات التعليم النورانية بين أشرف الخلق في السماء** عليه السلام، **وأشرف الخلق في الأرض والسماء** ﷺ،لتَعلُّم وتعليم خير الكلام في الأرض والسماء:

محمد في فؤاد الغار مرتجفُ ... في كفه الدهر والتاريخ والصحفُ
مزمل في رداء الطهر، قد صعدت ... أنفاسه في ربوع الكون تأتلفُ
جبريل يروي لنا الآيات في حُلَلٍ ... من القداسات والأفلاك قد دلفوا
من السموات تهمي كل غادية ... على ديارٍ بنوها بالهدى شغفوا

المبحث الثاني: إمكانية الاتصال المطلق بين جبريل عليه السلام والنبي ﷺ:

يدرس هذا المبحث مسألة الإطلاق في اتصال جبريل عليه السلام بالنبي ﷺ زماناً ومكاناً، فلا يحول دون لقائه به حائل، وذلك حتى تطمئن قلوب المؤمنين بدقة

---

(١) (الترمذي) أبو عيسى محمد بن عيسى السلمي ٢٧٩هـ : الجامع الصحيح سنن الترمذي ٣/ ٣٨١، مراجعة: أحمد محمد شاكر وآخرون، دار إحياء التراث العربي، وقال الترمذي: "حسن صحيح" وقال الشيخ الألباني: "صحيح".

(٢) صحيح البخاري٣/ ١١٧٩، مرجع سابق.

تلقي النبي ﷺ ألفاظ القرآن الكريم؛ إذ إن إمكانية الاتصال المطلق من أهم سمات اتصال جبريل عليه السلام به، ولقائه له، **ومن سمات هذا الإطلاق:**

١- الالتقاء الخفي، والكلام الخفي: فلا ضير في وجود بشر من حوله، أو عدم وجودهم لخفاء اتصاله، حيث كان مجيء جبريل عليه السلام دون أن يشعر به الناس، وحديثه مع النبي ﷺ أمامهم، ولا يسمعونه، ليدل بذلك على إمكانية الاتصال به في أي وقت دون عائق تثيره بشرية الرسول ﷺ أو غيره؛ إذ الاتصال به أمر خارج عن نطاق البشر، وكان هذا من أسباب التهيئة الإلهية للنبي ﷺ كما تقدم[1]، ومما يدل على ذلك ما في حديث ابن عباس رضي الله عنه قال: كنت مع أبي عند النبي ﷺ وعنده رجل يناجيه، وفي لفظ: وهو كالمعرض عن العباس رضي الله عنه فخرجنا من عنده، فقال: ألم تر إلى ابن عمك كالمعرض عني؟، فقلت: إنه كان عنده رجل يناجيه، وفي لفظ: فقال: أو كان عنده أحد؟ قلت: نعم! قال: فرجع إليه، فقال: يا رسول الله! هل كان عندك أحد؟؛ فإن عبد الله أخبرني أن عندك رجلاً تناجيه. قال: «هل رأيته يا عبد الله؟» قال: نعم! قال: «ذاك جبريل، وهو الذي شغلني عنك»[2]، وكما في حديث عائشة -رضي الله تعالى عنها- أن النبي ﷺ قال لها: «يا عائشة! هذا جبريل يقرأ عليك السلام» فقالت: وعليه السلام ورحمة الله وبركاته ترى ما لا أرى تريد النبي ﷺ[3].

٢- ويناديه ويكلمه دون أن يشعر أحد من حواليه غالباً سماعاً، كما هو رؤية: فعن عائشة -رضي الله تعالى عنها- :لما كانت ليلتي التي كان النبي ﷺ فيها عندي

---

(١) انظر: المبحث السابق من هذا الفصل- المطلب الأول .

(٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل ١/ ٢٩٣، مرجع سابق، وإنما لا يرى جبريل عليه السلام لأنه الروح، والروح: قال في النهاية: "ومنه الحديث الملائكة الرُّوحانِيُّون، يروي بضم الراء وفتحها، كأنه نسْبَة إلى الرُّوح، أو الرَّوح وهو نسيم الرّيح، والألفُ والنونُ من زيادات النَّسَب، ويريد به أنهم أجسامٌ لَطيفةٌ لا يُدركها البصر، ومنه: حديث ضماد: "إني أعَالِجُ من هذه الأرْواح: الأرواحُ هاهنا كِنايةٌ عن الجنّ، سُمُّوا أرْوَاحاً لكونهم لا يُرَوْن فهُم بمنزلة الأرْواحِ".

(٣) صحيح البخاري ٣/ ١١٧٧، مرجع سابق.

انقلب، فوضع رداءه، وخلع نعليه، فوضعهما عند رجليه، وبسط طرف إزاره على فراشه، فاضطجع، فلم يلبث إلا ريثما ظن أن قد رقدت، فأخذ رداءه رويداً، وانتعل رويداً، وفتح الباب، فخرج، ثم أجافه رويداً، فجعلت درعي في رأسي، واختمرت، وتقنعت إزاري، ثم انطلقت على إثره حتى جاء البقيع، فأطال القيام ثم رفع يديه ثلاث مرات، ثم انحرف، فانحرفت، فأسرع، فأسرعت، قال: «فإن جبريل أتاني حين رأيت، فناداني، فأخفاه منك، فأجبته، فأخفيته منك، ولم يكن يدخل عليك وقد وضعت ثيابك، وظننت أن قد رقدت، فكرهت أن أوقظك، وخشيت أن تستوحشي، فقال: إن ربك يأمرك أن تأتي أهل البقيع، فتستغفر لهم...» الحديث(١).

وغاية ما كانت تصل إليه قدراتهم، أن يظنوا وجود جبريل عليه السلام معه، أو يعتادوا على بعض علامات محسوسة تدل عليه فقط، مع كثرة معاشرتهم لرسول الله ﷺ وممارستهم لخبره عن مجيء الوحي له: فعن أنس ابن مالك رضي الله عنه قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ذات يوم وهو غضبان، ونحن نرى أن معه جبريل عليه السلام حتى صعد المنبر -إلى أن قال أنس- ثم التفت نحو الحائط فقال: «لم أر كاليوم في الخير والشر، أريت الجنة والنار وراء هذا الحائط»(٢).

وقد عبر أنس رضي الله عنه عن الظن بالفعل (نرى)(٣).

وكما رواه أبو سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ جلس ذات يوم على المنبر، وجلسنا حوله فقال: «إني مما أخاف عليكم من بعدي ما يفتح عليكم من زهرة

(١) صحيح مسلم ٢/ ٦٦٩، مرجع سابق.

(٢) (الموصلي) أبو يعلي أحمد بن علي بن المثنى التميمي (٢١٠ -ت٣٠٧هـ): مسند أبي يعلى ٤/ ٦٥، مراجعة: حسين سليم أسد، ١٤٠٤هـ -١٩٨٤م، دار المأمون للتراث – دمشق، وقال حسين أسد: "إسناده على شرط مسلم".

(٣) وهو يدل على الظن حيث كانت القرينة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ﴾[المعارج: ٦]، وهم إنما يظنون ظناً بدليل قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴾[الجاثية: ٣٢].

الدنيا وزينتها» فقال رجل:يا رسول الله! أويأتي الخير بالشر؟ فسكت النبي ﷺ فقيل له: ا شأنك تكلم النبي ﷺ ولا يكلمك، فرأينا أنه ينزل عليه. قال: فمسح عنه الرحضاء فقال: «أين السائل»، وكأنه حمده، فقال: «إنه لا يأتي الخير بالشر...» الحديث[1].

ومما يدل على رؤيتهم أو اعتيادهم لبعض العلامات الحسية المصاحبة لمجيء الملَك: علامات الكرب المصاحبة للوحي كما سيأتي -إن شاء الله تعالى-[2].

ومن هذه العلامات ما جاء عن عائشة -رضي الله تعالى عنها- أن رسول الله ﷺ لما فرغ من الأحزاب دخل المغتسل ليغتسل، فجاء جبريل عليه السلام فقال: أو قد وضعتم السلاح؟، ما وضعنا أسلحتنا بعد. انهد إلى بني قريظة، فقالت عائشة - رضي الله تعالى عنها-: كأني أنظر إلى جبريل عليه السلام من خلل الباب قد عصب رأسه من الغبار[3]، وعن أنس ابن مالك رضي الله عنه قال: كأني أنظر إلى غبار ساطع في سكة بني غنم موكب جبريل[4].

فالأذن المعتادة لا تسمع جبريل عليه السلام، **والعين المعتادة لا تراه، وذلك لأنه يصل إلى مركز الإبصار، ومركز السمع مباشرة، ولهذا قال** ﷺ: «**هذا جبريل جاء يعلمكم دينكم**» **فلما أراد جبريل** عليه السلام **أن يعلمهم كان لا بد من أن يتمثل لهم بشراً تدرك عيونهم صورته، وتدرك أسماعهم صوته.**

ولا يستطيع البشر أن يروا الملك إلا إذا تمثل لهم بشراً، فقرر النووي (في حديث أم سلمة -رضي الله تعالى عنها- حيث رأت جبريل على صورة دحية): أن "فيه جواز رؤية البشر غير الأنبياء للملائكة، ووقوع ذلك، ويرونهم على صورة الآدميين؛ لأنهم

---

(١) صحيح البخاري ٢/ ٥٣٢، مرجع سابق، وهو يدل على مجيء الوحي غير القرآني شديداً.

(٢) انظر: الفصل الثالث- المبحث الخامس.

(٣) مسند الإمام أحمد بن حنبل ٦/١٣١، مرجع سابق.

(٤) صحيح البخاري ٣/ ١١٧٦، مرجع سابق.

لا يقوون على رؤيتهم على صورهم[1]، ويشير إلى ذلك قوله تعالى ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا ﴾[الأنعام:٩]، وأوضح دليل على ذلك: كلام الملائكة مع مريم بنت عمران -عليها السلام- حيث تمثل لها الملك بشراً سوياً.

٣- **الإطلاق من حيث النداء والوقت**: فعن أنس رضي الله عنه:احفظوا هذا فإنه من كنز الحديث، قال: غزا النبي ﷺ فسار ذلك اليوم إلى الليل، فلما كان الليل نزل وعسكر الناس حوله ونام هو، وأبو طلحة زوج أم أنس، وفلان، وفلان، أربعة، فتوسد النبي ﷺ يد راحلته، ثم نام، ونام الأربعة إلى جنبه، فلما ذهب عتمة من الليل، رفعوا رؤوسهم فلم يجدوا النبي ﷺ عند راحلته، فذهبوا يلتمسون النبي ﷺ حتى يلقوه مقبلاً، فقالوا: جعلنا الله فداك، أين كنت؟ فإنا فزعنا لك؛ إذ لم نرك. فقال نبي الله ﷺ: «كنت نائماً حيث رأيتم، فسمعت في نومي دوياً كدوي الرحى، أوهزيزاً كهزيز الرحى، ففزعت في منامي، فوثبت، فمضيت فاستقبلني جبريل فقال: يا محمد! إن الله عز وجل بعثني إليك الساعة لأخيرك، فاختر إما أن يدخل نصف أمتك الجنة، وإما الشفاعة يوم القيامة...» الحديث[2].

ولنداء جبريل عليه السلام للنبي ﷺ علامات لا يحس بها الآخرون غالباً، فإن أحسوا بها كان إحساساً غير متميز: فعن أبي ذر رضي الله عنه قال: كنت مع النبي ﷺ فلما أبصر يعني أحداً قال: «ما أحب أنه يحول لي ذهباً يمكث عندي منه دينار فوق ثلاث إلا ديناراً أرصده لدين - ثم قال-: إن الأكثرين هم الأقلون إلا من قال بالمال هكذا وهكذا - وأشار أبو شهاب بين يديه وعن يمينه وعن شماله - وقليل ما هم« وقال: «مكانك» وتقدم غير بعيد، فسمعت صوتاً، فأردت أن آتيه، ثم ذكرت قوله مكانك حتى آتيك، فلما جاء، قلت: يا رسول الله! الذي سمعت -أو قال-: الصوت الذي سمعت، قال: «وهل سمعت؟» قلت: نعم قال: «أتاني جبريل فقال:

---

(١) فتح الباري ٤/ ٢٣٥، مرجع سابق.

(٢) المعجم الأوسط ٢ / ٢٣٣، مرجع سابق.

من مات من أمتك لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة. قلت: وإن فعل كذا وكذا؟ قال: نعم»[1].

٤- الإطلاق من حيث المكان: وكان يجيئه حيث كان عند اقتضاء المجيء، ووجود الأمر الإلهي بالنزول: فعن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه قال: دخلت المسجد فرأيت رسول الله ﷺ خارجاً من المسجد، فاتبعته أمشي وراءه، ولا يشعر حتى دخل نخلاً، فاستقبل القبلة، فسجد فأطال السجود، وأنا وراءه حتى ظننت أن الله جل جلاله قد توفاه فأقبلت أمشي حتى جئته فطأطأت رأسي أنظر في وجهه، فرفع رأسه، فقال: «ما لك يا عبد الرحمن؟» فقلت له: لما أطلت السجود يا رسول الله!خشيت أن يكون الله عز وجل قد توفى نفسك، فجئت أنظر، فقال: «إني لما دخلت النخل لقيت جبريل عليه السلام فقال:إني أبشرك أن الله عز وجل يقول: من سلم عليك سلمتُ عليه، ومن صلى عليك صليتُ عليه»[2].

بل يأتيه إلى أخص أماكنه: فعن عائشة -رضي الله تعالى عنها- أن رسول الله ﷺ لما رجع يوم الخندق، ووضع السلاح، واغتسل فأتاه جبريل عليه السلام وقد عصب رأسه الغبار، فقال:«وضعت السلاح؟ فوالله ما وضعته» فقال رسول الله ﷺ: فأين؟. قال: هاهنا، وأومأ إلى بني قريظة) قالت: فخرج إليهم رسول الله ﷺ [3]. وما سبق من أدلة تدل على هذا الإطلاق في المكان، في معسكره، وسفره، قاعداً أو قائماً أو مضطجعاً أو مقاتلاً.

وبعد: فلا إشكال ولا لبس في حدوث عملية الوحي بين عالم الملائكة متمثلاً بجبريل عليه السلام وبين عالم البشر متمثلاً بالنبي ﷺ حتى تتلقف من قبل بعض الألسنة بالغمز أو اللمز، تلك كانت شنشنة المستكبرين من قبل إذ قالوا ﴿ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ

(١) صحيح البخاري ٢/ ٨٤١، مرجع سابق.

(٢) سنن البيهقي الكبرى٩/ ٢٨٥، مرجع سابق.

(٣) صحيح البخاري ٣/ ١٠٣٥، مرجع سابق.

ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَاۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّن ذِكۡرِي﴾ [ص: ٨]، فلقد رأينا في عصرنا صوراً من الوحي الخفي الذي يقع بين الناس بعد أن يتوافر فيه شرطان: وسيلة الإرسال المناسبة، ووسيلة الاستقبال الخاصة، فترى شخصاً في قرية أو مجتمع يتلقى المعلومات من شخص آخر بعيد، يملك جهاز الإرسال المناسب، فيسمعه بأدق ما يكون السماع، ومن لا يملك جهاز الاستقبال بجواره لا يسمع شيئاً، بل يتعدى الأمر من السماع إلى الرؤية، فبواسطة الهاتف المرئي تستطيع أن تسمع بجهازك كما تستطيع أن ترى لكلام وصورة تبعد عنك آلاف الأميال وتحادثها، فالشرط هو وجود جهاز الإرسال والاستقبال، فإذا كان هذا صنع الإنسان، وهو ما يزال يعد بالمزيد مستقبلاً، فإن الذهن يتقبل بتلقائية شديدة أن يكون خالق الإنسان قد زود المصطفين من رسله من الملائكة ومن الناس بما يمكنهم من الاتصال المباشر، وقد تقدمت مظاهر الإعداد الإلهي لجبريل عليه السلام في الفصل الأول ليكون أمين وحي الله جل جلاله، كما سبقت آنفاً مظاهر من التهيئة الإلهية الخاصة للنبي الكريم ﷺ فهي لمحات تبين أن الاتصال بين المستويين الفيزيائيَين لعالمي الملائكة والبشر أيسر - حتى- من الاتصال بين البشر والبشر.

ولذا فإن الاتصال المباشر بين مستويين من عالم الوجود الملائكي والبشري دون واسطة آلات لا شك يتطلب قدرة خاصة ليتم التلقي، وقدرة أخرى عند الاثنين (جبريل عليه السلام والنبي ﷺ) ليتم الوحي، ولذلك كنا نرى الآثار الشديدة للاتصال بينهما تظهر على الرسول ﷺ وهو يتلقى الوحي بعد أن هيأه الله لذلك الاتصال، كما سيرد في المبحث الخامس من الفصل الثالث -إن شاء الله تعالى-.

المانع من قرب جبريل عليه السلام:

ويأتي جبريل عليه السلام النبي ﷺ حيث هو زماناً ومكاناً إلا أن يوجد مانع، كأن تكون امرأته ﷺ خلعت ثيابها، أو وجد في البيت ما يمنع الملك من الدخول[1]،

(١) انظر: المطلب الأول- المبحث الأول- من هذا الفصل.

وتقدم ما يدل على ذلك، ولا يعني أنه لا يكلمه إن وجد المانع، بل يكلمه، ولكن من مكان بعيد عن مكان المانع فعن عائشة -رضي الله تعالى عنها-أن النبي ﷺ: «فإن جبريل أتاني حين رأيت، فناداني فأخفاه منك، فأجبته فأخفيته منك، ولم يكن يدخل عليك، وقد وضعت ثيابك...» الحديث(١).

المبحث الثالث: هيئات مجيء الملك بالوحي القرآني (من حيث عموم الوحي):

تعددت الوسائط التي يأتي بها الوحي إلى رسول الله ﷺ هما المذكورتان في حديث عائشة -رضي الله تعالى عنها- أن الحارث بن هشام رضي الله عنه سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله! كيف يأتيك الوحي. فقال رسول الله ﷺ: «أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهوأشده علي، فيفصم عني، وقد وعيت عنه ما قال وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً، فيكلمني، فأعي ما يقول» قالت عائشة -رضي الله تعالى عنها-: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد، فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً(٢)، وفي لفظ له: «كل ذاك: يأتي الملك أحياناً في مثل صلصلة الجرس...».

قال ابن حجر -رحمه الله تعالى-: "فقوله «كيف يأتيك الوحي» يحتمل أن يكون المسئول عنه صفة الوحي نفسه، ويحتمل أن يكون صفة حامله، أو ما هو أعم من ذلك، وقوله: (كل ذلك يأتي الملك): أي كل ذلك حالتان"(٣).

وهل مجيء الوحي منحصر في الحالتين؟ ظاهر الحديث يشير إلى ذلك، خاصة مع قوله: «يأتيني على نحوين» في رواية ابن سعد(٤)، وقوله «كل ذاك يأتي الملك»، وفيه فائدة جليلة من حيث مجيء الوحي في صورة معلومة محسوسة لا يمكنه الشك فيها،

---

(١) صحيح مسلم ٢/ ٦٦٩، مرجع سابق.

(٢) صحيح البخاري ١/ ٤، مرجع سابق.

(٣) فتح الباري ١/ ٢٢، مرجع سابق.

(٤) الطبقات الكبرى ١/ ١٩٧، مرجع سابق، وقال عنها ابن حجر -رحمه الله تعالى-: "مرسل مع ثقة رجاله".

بخلاف ما لو كان إلهاماً مثلاً، وليس المراد هنا نفي الإلهام عن النبي ﷺ، بل هو ثابت، لكن لا لتبليغ الوحي المأمور بتبليغه؛ إذ هذا يرجع إلى هاتين الصورتين لذا الدليل، ومن قال بالعكس فضمان الدليل عليه.

والمقتضى المنهجي لذلك: غرس الاطمئنان على دقة نقل الوحي القرآني من حيث مجيئه في صورة محسوسة، فلا لبس فيها أولاً، ولا يتطرق القادح إليها بسبب الخفاء ثانياً، بخلاف الإلهام في كل ذلك حيث يمكن ادعاء ذلك فيه لخفائه.

وقد أُورِد على هذا الحصر أنه قد ثبت مجيئ الوحي في غير هاتين الصورتين، وقد ذكر ذلك ابن حجر-رحمه الله تعالى-وأجاب عليه[1]، **والجواب الجامع** أن يقال: ما ذكر من هيئات أخرى للوحي في ذاته، أوفي حامله لا تخلو من أحد أمرين:

أن تكون عامة في الأنبياء وغيرهم، كالإلهام، والرؤيا الصادقة، فليس حولها كلام، وليس السؤال واقعاً عنها[2].

أو أنها ترجع إلى أحد الصورتين كالنفث في الروع، ودوي النحل، فهو كصلصلة الجرس، أو تكليمه ﷺ لربه تعالى في المعراج فذاك كان بواسطة نقل جبريل عليه السلام له إلى السماء ابتداء، وقد قرر الحافظ ابن حجر -رحمه الله تعالى- ذلك -بعدُ- حيث قال: "وقد ذكر الحليمي أن الوحي كان يأتيه على ستة وأربعين نوعاً، فذكرها، وغالبها من صفات حامل الوحي، ومجموعها يدخل فيما ذكر"[3].

والمراد من هذا الاستطراد تثبيت مجيء الملك بصورة محسوسة حال الوحي بصورة عامة ليغدو مسلماً في الذهن: أن الوحي كان يأتيه ﷺ بطريق محسوس، فلا يطرأ

---

(١) انظر: فتح الباري ١٢ / ٤٣٦، مرجع سابق.

(٢) لكن قد قال البعض بالفرق بين رؤيا الأنبياء وغيرهم، فرؤيا الأنبياء وحي لا يدخله خلل. انظر: فتح الباري ١٢/ ٤٣٩، مرجع سابق، وعلى كلٍ فالوحي القرآني قد كان أكثر احتياطاً من أن يكون رؤيا منام، كما يلاحظ في عرض هذا الفصل وفيما يليه.

(٣) فتح الباري ١/ ٢٤، مرجع سابق.

عليه احتمال التخييل[1]، وأما الوحي القرآني فقد كانت الاحتياطات فيه أشد من حيث إنزاله على القلب[2].

وليس الداعي ملحاً للاسترسال في ذكر أنواع الوحي الشرعية، واستقصاء متعلقاتها، إذ المراد معرفة نوع خاص منه هو الوحي القرآني، تعرفاً على الطريقة المنهجية المتخذة من قبل جبريل عليه السلام، التي صاحبت تعليمه ألفاظ القرآن للرسول ﷺ، وتطميناً على هيئة نقله من حيث اللفظ، ولتُؤَسَسْ هذه القاعدة إذ قد أُشرعت مراكب الخوض في عمق البحث: بما أن الوحي القرآني نوع خاص من عموم الوحي، فسيذكر ما يتعلق به خاصاً من حيث اللفظ، كما سيذكر ما يتعلق به عاماً من حيث شدة ارتباطه بالخاص، فلا يرد على الباحث بعض أمور تتعلق بعموم الوحي قد ذكرت في ثنايا البحث.

وقد آن أوان الخوض في المقصود الأساسي من البحث بعد هذه التهيئة، بيد أن كل ماسبق وما سيتلو مبينٌ لعالم الضباب والتيه اليوم كيف حفظ الله جل وعز كلامه من كل شوائب الدخل، أو لوامع الدخن، ليبقى هدى الحيارى في أزمنة استعار الضلال، هدى سيبقى وما عشر وأربعة من الزمان سيبقى ما الزمان بقي، الله أنزله، والله حافظه، والله ينجي به الدنيا من الرهقِ.

(١) انظر: الفصل الخامس- المبحث الأول من هذه الدراسة.

(٢) انظر: الفصل الثالث- المبحث الثاني- المطلب الثاني من هذه الدراسة.

الفصل الثالث

هيئة تلقي النبي ﷺ ألفاظ القرآن من جبريل عليه السلام

وفيه تسعة مباحث:

إننا ندلف إلى هالات موكبٍ تعليمي تتضآل الكلمات عن وصفه، يرسم لعوالم الاغتراب: أيُ شيءٍ كان قادة هذه الأمة، وأيُ نورٍ كانت هذه الأمة من بعد،

أنا قصة من بدر أرسلها الهدى ... محمد يرويها، وجبريل يكتب

وكعبتي الغراء بيتي وقبلتي ... وبستاني المعمور بالحب يثرب

وهذا الفصل يشكل لُبَّ البحث ومداره، كما هو واضح من عنوانه، وما سبق من الفصول كان تقدمةً له من حيث إثبات العوامل الإيجابية التي تخدمه، وتلاه فصلان: الرابع مكملٌ له، خادمٌ لغرضه، والخامس خاتم له من حيث نفي العوامل السلبية، ولذا قُسِمَ هذا الفصل إلى تسعة مباحث يحاول الباحث من خلالها إعطاء صورة نموذجية واقعية لتلقي النبي ﷺ ألفاظ القرآن الكريم بأمر الله جل جلاله من جبريل عليه السلام منذ أن يأمر الله -تعالى ذكره- جبريل عليه السلام بتعليم الوحي القرآني للنبي ﷺ، وحتى تمام ذلك التعليم، وبلوغه الكمال بالمتابعة، والمراجعة والتعاهد، ولذا فمباحث هذا الفصل هي:

المبحث الأول: كيفية مجيء جبريل عليه السلام إلى النبي ﷺ عند تعليمه الوحي القرآني.

المبحث الثاني: هيئة إلقاء الوحي القرآني من جبريل عليه السلام على قلب النبي ﷺ .

المبحث الثالث: نزول جبريل عليه السلام توقيفي.

المبحث الرابع: مظاهر اجتهاد النبي ﷺ في تلقي القرآن الكريم قبل نزول التوقيف الإلهي.

المبحث الخامس: سمات الرسول ﷺ حين نزول الوحي القرآني عليه.

المبحث السادس: حديث المعالجة.

المبحث السابع: التلقي والتلقين.

المبحث الثامن: كيفية قراءة الرسول ﷺ على جبريل عليه السلام من حيث الأمر الشرعي، والواقع التطبيقي.

المبحث التاسع: حديث المدارسة.

المبحث الأول: كيفية مجيء جبريل عليه السلام إلى النبي٪ عند تلقينه الوحي القرآني[1]:

يدرس هذا المبحث هيئة مجيء جبريل عليه السلام ليلقي الوحي القرآني من أول أمر الله جل وعز له بالنزول حتى إلقائه القرآن على قلب النبي ﷺ، فقد وصف القرآن الكريم هيئة مجيء جبريل عليه السلام إلى النبي ﷺ عند إبلاغه الوحي القرآني وصفاً دقيقاً، وكان جل ذلك الوصف في سورة النجم[2]، التي صُدِّرت آياتها بإعلاء شأن النبي ﷺ بياناً للإرادة الإلهية في اختياره للنبوة، وإبلاغ كلام الله للناس، والهجوم

(١) المراد المجيء الخاص لأجل الوحي القرآني، فليُلحظ هذا الاختلاف بين ما ذكر هنا وما ذكر في المبحث الثالث من الفصل الثاني.

(٢) ولا ينكر منكر على البحث إظهارَ كيفية تعليم الوحي للنبي ﷺ من جبريل عليه السلام من خلال هذه الآيات فقد ذكر ذلك عدد من أرباب التفسير، قال أبو السعود في تفسيره (٥/ ٤٣)، مرجع سابق: "في قوله تعالى ﴿فَٱسْتَوَىٰ﴾ عطف على ﴿عَلَّمَهُۥ﴾ بطريق التفسير، فإنه إلى قوله تعالى ﴿مَآ أَوْحَىٰ﴾ بيان لكيفية التعليم"، **فإن اعتُرض** بأن هذا وصف للوحي في حالين فقط كان فيهما جبريل عليه السلام بخلقته الأصلية، وليس وصفاً للوحي بصورته الدائمة، **فالجواب**: فليكن كذلك، وكما وصف اتصال جبريل عليه السلام بذلك في حالين، هو دأبه في اتصاله به دائماً، ما خلا صورته الأصلية؛ إذ قام الدليل على حصرها، ولا دليل على حصر بقية الأوصاف في هذه السورة في الحالين، على أن الوحي القرآني النازل على القلب، يأخذ صورة غير الصورة التي يأتيه فيها الملك بصورة رجل، كما هو ظاهر من وصف نزوله بالقرآن بأنه (على القلب).

على قادحٍ في ذلك يلقيه شياطين الإنس والجن، فلما قال جل جلاله ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾[النجم: ٤]، استؤنف الكلام استئنافاً بيانياً، كأنه قيل: فكيف يأتيه هذا الوحي؟، ومن يأتيه به؟، وكيف يلقيه إليه فيعيه، ولا يفارقنا؟، وكيف يأتيه الوحي القرآني وهو كلام الله جل جلاله، فيطيقه وهو بشر؟، فقال الله جل وعز ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ [النجم: ٥]، فسورة النجم: "مقصودها ذم الهوى، لإنتاجه الضلال والعمى، والحث على اتباع النبي ﷺ في نذارته التي بينتها سورة (ق)، وصدقتها سورة الذاريات، وأوقعتها وعينتها الطور"[١].

ومن ثم فلا إنكار على سائل على كيفية اتصال الملك بالنبي ﷺ، للتفاوت في الخِلْقَة بين عالم الملائكة الذين هيأهم الله جل وعز بقوى بها يكونوا عنده، وبين البشر الذين الذين يضعفون عن مشاهدة عالم الملائكة أو الجن فضلاً عن تحملهم للوحي الإلهي، فاحتاجوا إلى الواسطة لنقل هذا الوحي"ولما كان الوحي ظاهراً في كونه بواسطة المَلَك، تشوف السامع إلى بيان ذلك؛لأن ذلك أضخم في حقه ﷺ وأعلى لمقداره"[٢].

فلنتتبع هذا الوصف القرآني[٣] لتلقي جبريل عليه السلام الوحي القرآني من الله جل جلاله[٤]، وكيفية نزوله إلى النبي ﷺ:

١- يسمع من الله جل وعز جبريل عليه السلام الوحي الذي ينزل به: كما في حديث النواس بن سمعان السابق[٥]، وفيه «فينتهي جبريل إلى حيث أُمر من سماء أو

(١) انظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ١٩/ ٤٠، مرجع سابق.

(٢) انظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ١٩/ ٤٠، مرجع سابق.

(٣) ففيه كما قال في التحرير والتنوير (٢٧/ ٩٥): "تمثيل لأحوال عجيبة بأقرب ما يفهمه الناس؛ لقصد بيان إمكان تلقي الوحي عن الله تعالى؛ إذ كان المشركون يحيلونه، فبين لهم إمكان الوحي بوصف طريق الوحي إجمالاً وهذه كيفية من صور الوحي".

(٤) وقد أعرض البحث عن الأقوال الواردة في كيفية تلقي الملك للوحي، لأنها محض تخمين في أمر غيبي، لا يظهر فيه للتحقيق العلمي أثر إلا بالتسليم لظاهر النصوص الدالة على السماع.

(٥) انظر: الفصل الأول-المبحث الثالث.

أرض». وجبريل عليه السلام هو الذي يُلقي على النبي ﷺ الوحي القرآني، وهو أمين الوحي في السماء والأرض، ورسول الله جل جلاله إلى رسله من البشر.

٢- وهو معلم النبي ﷺ ذي الصفات البالغة في قدرة حاملها على أداء هذه الرسالة على أتم وجه وأحسنه، فليس مُعَلِّم النبي ﷺ مخلوقاً عادياً بل لقد علم النبي ﷺ ﴿شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ﴾[النجم: ٥-٦] وقد تقدمت صفاته[١].

٣- لكن أبرز صفاته التي يشار إليها في هذا المقام -إذ أظهر الغَفَلَةُ تعجبهم من اتصال الملأ الأعلى بالبشر، وسرعة وصول الرسول السماوي إلى الرسول البشري مع وجود هذه المسافات الهائلة بينهما- أنه ﴿شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ﴾، وقد تقدم شرحها[٢].

٤- عندما يريد الله جل جلاله من جبريل عليه السلام الوصول إلى النبي ﷺ لتبليغه الوحي -إرادة أمر وإذن[٣] -فإنه يستعد للقيام بأمر الله، وهو بالأفق الأعلى، فاستعداده هنا فعليٌ بعد أن كان استعداداً فطرياً؛ ذلك بأن الأفق هو اسم للجو الذي يبدو للناظر ملتقى بين طرف منتهى النظر من الأرض وبين منتهى ما يلوح كالقبة الزرقاء، وغلب إطلاقه على ناحية بعيدة عن موطن القوم ومنه أفق المشرق وأفق المغرب، ووصفه بالأعلى ليفيد أنه من ناحية السماء[٤]، ويومئ لهذا قوله ﷺ: «إنما

(١) انظر: الفصل الأول- المبحث الثاني.

(٢) انظر: الفصل الأول- المبحث الثاني.

(٣) تفصيل هذه الإرادة الإلهية: في المبحث الثالث من هذا الفصل.

(٤) وقيل هي رؤيته له بجراء قد سد الأفق. انظر: (أبو حيان)محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان الأندلسي الغرناطي ت٧٥٤ هـ: البحر المحيط ١٥٧/٨، ط٢ ١٤١١هت -١٩٩٠م، دار إحياء التراث العربي-بيروت، وقوله ﴿دَنَا﴾ تبعد ذلك، وقيل فيها دنا: أي النبي ﷺ إلى جبريل عليه السلام. انظر: تفسير أبي السعود ٢١٨/٥، مرجع سابق، وواضح وهن هذا القول من حيث سياق الآيات، ومن حيث طبيعة قصة الإسراء.

ذلك جبريل، ما رأيته في الصورة التي خلق عليها غير هاتين المرتين: رأيته منهبطاً من السماء ساداً عظم خلقه ما بين السماء والأرض» [1].

فإن اعتُرض بأن: هذا دال على رؤيته له، لا على استعداده للنزول، فلا يستقيم الاستدلال! **فالجواب:** نعم!يدل على رؤيته له، ولكن تبقى الآية محتملة للأمرين إن كان بقية الحديث منقطعاً عما قبله، كأنه قال: المراد في الآيات هو جبريل عليه السلام، ثم استأنف فقال: ما رأيته...، والأقرب هو ما استدل به عليه هاهنا من حيث إن سياق الآيات وسببها بصدد تقرير صدق الوحي، وإمكانية اتصال الملك بالرسول [2].

واستعداده لأداء هذه الرسالة والنزول بها إلى العالم الأرضي كما قال جل وعز ﴿فَٱسۡتَوَىٰ﴾ في سورة النجم مفرع على ما تقدم من قوله ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ﴾[النجم: ٥]، والفاء لتفصيل ﴿عَلَّمَهُۥ﴾ والمستوي هو جبريل عليه السلام.

ومعنى استوائه: قيامه بعزيمة لتلقي رسالة الله جل وعز، كما يقال: استقل قائماً، ومثل بين يدي فلان، فاستواء جبريل عليه السلام هو مبدأ التهيؤ لقبول الرسالة من عند الله، وكذلك قيد هذا بجملة الحال في قوله ﴿وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾[النجم: ٧]، والضمير لجبريل عليه السلام لا محالة، أي قبل أن ينزل إلى العالم الأرضي [3].

٥- بعد استعداده لتنفيذ الأمر يبدأ بالنزول بسرعة يعلم مقدارها من أودع فيه القوة الهائلة لتبليغ الوحي القرآني إلى الرسول ﷺ حيث كان، فلا يبالي بمكانه في بيت أوفي فراش أو بين أصحابه أوفي جهاده كما تقدم [4]، ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾[النجم: ٨]،

---

(١) سنن الترمذي ٥/ ٢٦٢، مرجع سابق.

(٢) وسورة النجم أول أغراضها تحقيق: أن الرسول صادق فيما يبلغه عن الله تعالى، وأنه منزه عما ادعوه، وإثبات أن القرآن وحي من عند الله بواسطة جبريل عليه السلام ، وتقريب صفة نزول جبريل عليه السلام بالوحي في حالين زيادة في تقرير أنه وحي من الله واقع لا محالة. انظر: التحرير والتنوير ٩٦/٢٧، مرجع سابق.

(٣) التحرير والتنوير ٩٦/٢٧، مرجع سابق.

(٤) في الفصل الثاني- المبحث الثاني.

والدنو: هو القرب، والمراد إلى حيث يبلغ الوحي وذلك إلى مكانه المحدد من الأرض "وإذ كان فعل الدنو، قد عطف ب ﴿ ثُمَّ ﴾ على ﴿فَٱسْتَوَىٰ ﴾ ﴿بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ علم أنه دنا إلى العالم الأرضي، أي أخذ في الدنو بعد أن تلقى ما يبلغه إلى الرسول ﷺ، و﴿فَتَدَلَّىٰ ﴾ انخفض من علو قليلاً، أي ينزل من طبقات إلى ما تحتها، كما يتدلى الشيء المعلق في الهواء بحيث لو رآه الرائي يحسبه متدلياً، وهو ينزل إلى السماء غير منقضٍ"(١).

٦- يزداد اقترابه من النبي ﷺ حتى يصبح على مسافة قوسين منه أو أدنى ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾[النجم: ٩].

وفائدة قوله ﴿أَوْ أَدْنَىٰ ﴾ بيان دقة وصف المسافة بينهما؛ إذ ﴿أَوْ ﴾ فيه للتخيير في التقدير، وهو مستعمل في التقريب، أي إن أراد أحد تقريب هذه المسافة فهو مخير بين أن يجعلها قاب قوسين أو أدنى أي لا أزيد، إشارة إلى أن التقدير لا مبالغة فيه.

وفي قوله جل وعز: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴾[النجم: ١١]، تأكيدٌ على أن القُرْبَ قرب حسي لا مجرد اتصال روحاني، على قول من تأوله بأنه رد لتكذيب المشركين فيما بلغهم من الخبر عن رؤية النبي ﷺ الملك جبريل عليه السلام(٢)، ويؤيده ما رواه الإمام البخاري -رحمه الله تعالى- عن أبي إسحاق الشيباني قال: سألت زر بن حبيش عن قوله جل جلاله ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴾ [النجم: ١٠-١١](٣)، قال: حدثنا ابن مسعود رضي الله عنه أنه(١) رأى جبريل عليه السلام له

(١) انظر: التحرير والتنوير ٢٦/ ٩٦، مرجع سابق.

(٢) انظر: التحرير والتنوير ٢٦/ ٩٨، مرجع سابق.

(٣) قال ابن حجر -رحمه الله تعالى-: "كلام أكثر المفسرين من السلف يدل على أن الذي أوحى هو الله، أوحى إلى عبده محمد ."، وقد ظهر أن الراجح في نظر الباحث أن الكلام عن جبريل عليه السلام لوجوه منها: سبب الآيات وسياقها وقد مضى في المبحث الأول من هذا الفصل، ومنها ما يشعر بذلك نحو قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴾[النجم: ١٣]، ومنها: قدم سورة النجم في النزول فهي السورة الثالثة والعشرون، نزلت بعد سورة الإخلاص، وقبل سورة عبس (انظر: التحرير والتنوير ٢٦/ ٨٨، مرجع سابق)، وفي الأثر الذي رواه ابن الضريس في فضائل القرآن عن ابن عباس ﷺ: أنها الحادية والعشرون بين هاتين السورتين،

ستمائة جناح[٢]، وعن مسروق قال: قلت لعائشة: فأين قوله ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾؟. قالت: ذاك جبريل كان يأتيه في صورة الرجل، وإنه أتاه هذه المرة في صورته التي هي صورته فسد الأفق[٣].

والاستدلال هاهنا فيه الكلام السابق الوارد عند ذكر هذا الحديث آنفاً[٤].

انظر: الإتقان في علوم القرآن١/ ١١، مرجع سابق، على أنه لا تعارض بين أن يكون الموحي هو الله تعالى، وأن يكون ما قبله في جبريل عليه السلام ، بل كون ما قبله في جبريل عليه السلام هو قول أكثر المفسرين.

(١) يعني النبي ﷺ كما معلوم.

(٢) صحيح البخاري ٣/ ١١٨١، مرجع سابق.

(٣) صحيح البخاري ٣/ ١١٨١، مرجع سابق، وروى أبو يعلى في مسنده ٨/ ٣٠٤، مرجع سابق: عنها قالت: " أنا أعلم هذه الأمة بهذه، وأنا سألت رسول الله ﷺ عن ذلك قال: «رأيت جبريل» ثم قالت: من زعم أن محمداً رأى ربه فقد أعظم الكذب على الله"، وعند مسلم ١/ ١٥٩، مرجع سابق عن مسروق قال: كنت متكئاً عند عائشة -رضي الله تعالى عنها- فقالت: يا أبا عائشة ثلاث من تكلم بواحدة منهن فقد أعظم على الله الفرية، قلت: ما هن؟. قالت: من زعم أن محمداً ﷺ رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية، قال: وكنت متكئاً، فجلست، فقلت: يا أم المؤمنين! انظريني، ولا تعجليني، ألم يقل الله عز وجل ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴾[التكوير: ٢٣] ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴾[النجم: ١٣]؟. فقالت: أنا أول هذه الأمة سأل عن ذلك رسول الله ﷺ فقال: «إنما هو جبريل، لم أره على صورته التي خلق عليها غير هاتين المرتين: رأيته منهبطاً من السماء ساداً عظم خلقه ما بين السماء إلى الأرض». ومن فوائد هذه الروايات: إسناد عائشة قولها للرسول ﷺ صراحة، وقوله منهبطاً دال على رؤية النبي لجبريل عليه السلام حال نزول جبريل عليه السلام عليه منهبطاً من السماء لتبليغه الوحي.

(٤) * **فائدة**: قد تأول أكثر المفسرين آيات النجم والتكوير في جبريل عليه السلام ، واختلافهم في رؤية النبي ﷺ لربه إنما هو بأمر خارجهما، وليس ذا المعترك الكلامي ميداناً للبحث، إنما أُريد هاهنا بيان ضعف قول النووي في شرح مسلم ٢/ ٣٢١، مرجع سابق: "لم تنف عائشة -رضي الله تعالى عنها- وقوع الرؤية بحديث مرفوع، ولو كان معها لذكرته، وإنما اعتمدت الاستنباط على ما ذكرته من ظاهر الآية وقد خالفها غيرها من الصحابة، والصحابي إذا قال قولاً، وخالفه غيره منهم لم يكن ذلك القول حجة اتفاقاً، والمراد بالإدراك في الآية الإحاطة وذلك لا ينافي الرؤية" إذ قد ثبت الحديث المرفوع الوارد في تأويل الآيتين في مسلم، حتى تعجب ابن حجر -رحمه الله تعالى- من هذا الذهول فقال: "وجزمه بأن عائشة -رضي الله تعالى عنها- لم تنف الرؤية بحديث مرفوع تبع فيه ابن خزيمة، فإنه قال في كتاب التوحيد من صحيحه: النفي لا يوجب علماً، ولم تحك عائشة -رضي الله تعالى عنها- أن النبي ﷺ أخبرها أنه لم ير ربه، وإنما تأولت الآية انتهى، وهو عجيب! فقد ثبت ذلك عنها في صحيح مسلم الذي شرحه الشيخ فعنده من طريق داود بن أبي هند عن

وعلى هذا فإن النبي ﷺ كان يرى جبريل عليه السلام رؤيا حقيقية، لكنها رؤيا فؤاد كما أن العين ترى ضوءاً فترسل إشاراتها الضوئية إلى المخ فيتم وعيها في المخ، فهل كانت رؤية النبي ﷺ لجبريل عليه السلام تصل مباشرة إلى مركز الإبصار في المخ، كما أن استماعه لقراءته يصل إلى مركز السمع في المخ، والمخ متصل بالمركز العقلي المتحكم المسمى بالفؤاد،؟ قد يكون الأمر كذلك؛ إذ لو كانت رؤيا جارحة لرآها كل من له الجارحة ذاتها ممن يكون موجوداً مع الرسول ﷺ في مكان تلقي الوحي، وقد يقال باختلاف جارحة النبي ﷺ عن جارحة غيره، ولذا تمت تهيئته ﷺ لتلقي الوحي القرآني كما سبق في الفصل الثاني، ويُقَرِّبُ هذا: أننا نعلم أن الحيوانات تشترك في جارحة السمع والبصر مع تفاوتها في دقتها، ومدى تركيزهما، ولكن ذكر الفؤاد[1] يجعل الاحتمال الأول أرجح وأوقع، وإن كلن التفصيل غير مجزوم به؛ إذ قد يكون الاتصال بالمراكز الأساسية للسمع والبصر، والوعي في الفؤاد دون المرور بالمراكز التي في المخ، وقد يكون الأمر بصورة تفصيلية غير ذلك، ولكن لا شك أن الواقع العلمي الذي نعيشه اليوم قد قرب تصور هذه العملية كثيراً، وما ظَهَر يُقَرِّبُ فهم ما لم يظهر ﴿وَلَتَعۡلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعۡدَ حِينِۭ﴾[ص: ٨٨]، ويزيد هذا الاحتمال رجحاناً ما تم من إعداد خاص لفؤاد النبي ﷺ كما سبق التكلم عن ذلك في أول الفصل الثاني.

الشعبي عن مسروق في الطريق المذكورة، قال مسروق وكنت متكئاً ، - ثم ذكر طريقاً آخر، وفيه: فقلت: يا رسول الله! هل رأيت ربك فقال: لا إنما رأيت جبريل منهبطاً" فتح الباري ٨/ ٦١٠، مرجع سابق.

ورابط هذا الإيراد المعترض سبيل البحث بالبحث هو التأكيد على ما قُرِّر أعلاه من أن آيات النجم جاءت موضحة أنموذج الاتصال بين جبريل عليه السلام والنبي ﷺ.

(١) ويزيد الأمر جلاء ظهور الفرق بين ﴿مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾[النجم: ١١]، و﴿مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم: ١٧] إذ الأولى لرؤية النبي ﷺ لجبريل عليه السلام عند نزوله بالوحي عليه بصفة دائمة، والثانية لرؤيته له عياناً في خلقته الأصلية في المرة الثانية من المرتين اللتين شاهد فيهما الرسول ﷺ جبريل عليه السلام في خلقته الأصلية ،هذا إن جُعلت كلمة البصر واردة في معناها الحقيقي المباشر وهو الجارحة المعروفة، وهو الظاهر، كما أنه الذي يدل عليه السياق، ويحتمل أن يكون المراد مركز البصر في الدماغ أو الفؤاد،وعلى كلا الاحتمالين فإن ذكر الفؤاد في الآية الأولى مع علمنا أنه لم يكن الصحابة يشاهدون جبريل عليه السلام إن جاء في الصورة الشديدة للوحي، يؤكد أن الاتصال كان بالمركز الأصلي المباشر للإدراك عند النبي ﷺ، والأمر -بعد- بحاجة لمزيد تفصيل، لعله يكون في طبعات قادمة -إن شاء الله تعالى-.

فإن اعتُرض بالقول: إذا كان جبريل عليه السلام عند نزوله على قلب النبي لتلقينه الوحي القرآني على مسافة قاب قوسين أو أدنى- أفما كان يقرب من النبي ﷺ أكثر من ذلك، أو ينأى عنه أكثر؟. **فالجواب:** إما أن يكون هذا تصويراً للحالة الغيبية غير المشاهدة لغير الرسول ﷺ لنزول الملَك عليه بالوحي، وهي أشدها عليه، فتكون في غاية الدقة في وصف مكان الملَك،والمسافة التي تبعده عن النبي ﷺ في هذه الحالة، وإن كان من حواليه لا يراه، وإما أن يكون تصويراً لحالة المجيء المشاهد للملَك، وهو كائن عند تمثل الملَك رجلاً، فقد كان يتم للملَك القرب من النبي ﷺ أكثر كحديث عمر المشهور في مجيء جبريل عليه السلام يعلمهم أمر دينهم حيث جعل ركبتيه عند ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه، ولكن هذا المجيء المشاهد للملَك لا يتعلق به وحي قرآني؛ إذ هاهنا حقيقة تتعلق بهيئة الملَك عند الوحي القرآني هي أن الوحي القرآني لا يأتي الملَك فيه إلا بالصورة الأشد.

فإن اعتُرض بأنه قد جاء: الوحي القرآني في غار حراء والملَك متجسدٌ للنبي ﷺ ظاهرٌ بارز؟. **فالجواب:** بل كان الوحي في غار حراء من أشد ما لقيه النبي ﷺ في تلقي الوحي القرآني وذلك ظاهر، حتى رجع النبي ﷺ بالوحي ترجف بوادره(١)، ثم قد جاء أن النبي ﷺ قد شُقَّ صدره هناك، وحسبك بذاك تهيئةً وشدةً لو صح، على أن تجسد الملَك له في غار حراء كان في بدايات الوحي تمهيداً لأن يعتاد الاتصال بالملَك دون أن يعتريه ضعف جسماني، ولا شك عقلي في أن الذي يتصل به ليس إلا ملك، ولذا قال صاحب التحرير والتنوير: "فكانت قواه البشرية يومئذ غير معتادة لتحمل اتصال القوة الملكية بها مباشرة، فكان ذاك -يعني التجسد- رفقاً بالنبي ﷺ أن لا يتجشم شيئاً يشق عليه"(٢).

وبعد ذا القرب تكون مرحلة الإلقاء والتعليم: حيث يلقي الملَك على النبي ﷺ ما أمره الله جل جلاله به أن يلقيه ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾[النجم: ١٠]، وليس

---

(١) البخاري ١/ ٤، مرجع سابق.

(٢) التحرير والتنوير ٢٦/ ٩٧، مرجع سابق.

إلقاء المَلَك من فم إلى فمٍ فحسب، بل يلقيه على قلبه ﷺ، كأن جبريل عليه السلام يصل رأساً إلى مركز السمع والبصر والوعي الكامل في الفؤاد، إذ إن جارحة البصر (العين)، وجارحة السمع (الأذن) ما هما إلا تحويل وترجمة لما يُشاهَد ويُسْمَعُ من العالم الخارجي إلى مراكز وعيها في الدماغ ومنه إلى المركز الأصلي للوعي (الفؤاد)، أما المَلَك فيصل مباشرة بكلام مسموع، كما أن صورته تصل مباشرة إلى مركز الفؤاد، فيلقي بالوحي الإلهي على قلب النبي ﷺ، ويسمعه النبي ﷺ سماع أذن وفؤاد بدليل تحريك لسانه بعد المَلَك -وسيُفصَل ذلك في المبحث الذي بعد هذا إن شاء الله جل جلاله-، في حين يرى الصحابة آثار ذلك من الشدة التي تعتري النبي ﷺ، والتي سموها (بُرحاء الوحي)، فيلقي المَلَك الوحي حال كون هذا المُلْقَى بلسان عربي مبين، فيقرؤه جبريل عليه السلام على النبي ﷺ كما أمره الله جل وعز أن يقرأه؛ ولذا نسب الفعل إلى ذاته العلية سبحانه في قوله ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ﴾ مبالغة في التأكيد على أن ما قرأه جبريل عليه السلام هو اللفظ الذي أراد الله جل وعز أن يقرأه، وبالهيئة ذاتها التي أرادها جل جلاله، والنبي ﷺ حال قراءة جبريل عليه السلام مطرق مستمع لا يحرك لسانه -بعد تعليمه ذاك- حتى يقضي جبريل عليه السلام قراءة الوحي عليه، فإذا قضى انطلق جبريل عليه السلام، وقرأه النبي ﷺ كما قرأه جبريل عليه السلام، فلا يعترض معترض على هذا الموضع بالقول: إنا لا نراه يحرك لسانه ترديداً، إذ الإلقاء على قلبه، ومعلوم أن عدم تحريك لسانه كان بعد نزول سورة القيامة(١).

ويدل لما سبق تفصيله من مراحل حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنه قال: بينما رسول الله ﷺ بفناء بيته بمكة جالس؛ إذ مر به عثمان بن مظعون فكشر إلى رسول الله ﷺ فقال له رسول الله ﷺ: «ألا تجلس؟» قال: بلى! قال فجلس رسول الله ﷺ مستقبله، فبينما هو يحدثه، إذ شخص رسول الله ﷺ ببصره إلى السماء، فنظر ساعة إلى السماء، فأخذ يضع بصره حتى وضعه على يمينه في الأرض، فتحرف

---

(١) ويأتي مزيد تفصيل لذلك -إن شاء الله تعالى-عند ذكر حديث المعالجة: المبحث السادس من هذا الفصل.

رسول الله ﷺ عن جليسه عثمان إلى حيث وضع بصره، وأخذ ينفض رأسه كأنه يستفقه ما يقال له، وابن مظعون ينظر، فلما قضى حاجته، واستفقه ما يقال له، شخص بصر رسول الله ﷺ إلى السماء كما شخص أول مرة، فاتبعه بصره حتى توارى في السماء فأقبل إلى عثمان بجلسته الأولى، قال: يا محمد! فيم كنت أجالسك، وآتيك ما رأيتك تفعل كفعلك الغداة. قال: «وما رأيتني فعلت؟» قال: رأيتك تشخص بصرك إلى السماء، ثم وضعته حيث وضعته على يمينك، فتحركت إليه، وتركتني فأخذت تنفض رأسك كأنك تستفقه شيئاً يقال لك، قال: «وفطنت لذاك؟»، قال عثمان: نعم. قال رسول الله ﷺ:«أتاني رسول الله آنفاً، وأنت جالس» قال: رسول الله؟. قال: «نعم». قال: فما قال لك؟ قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠]، قال عثمان فذلك حين استقر الإيمان في قلبي وأحببت محمداً[(١)].

وهكذا كان جبريل عليه السلام ينزل بالوحي على خير الأنام ﷺ، فتنزل معه على المؤمنين كلُ سكينة، وكل عزة، وكل نصر، كيف ترى البشائر التي تنزل مع أول معلمٍ لألفاظ القرآن الكريم من الخلق طراً عليه السلام لأشرف متعلمٍ لألفاظ القرآن الكريم من الخلق طراً ﷺ؟.

وقد قال عتيبة بن عتيبة بن مرداس التميمي الذي شهد حنيناً مع المشركين، فلما رأى المسلمين انفضوا عن النبي ﷺ، ثم نُصر برغم ذلك علم أنه جبريل عليه السلام النازل –بإذن الله – بالنصر، فثمَّ أعلن إسلامه:

فضاربوا الناس حتى لم يروا أحداً ... حول النبي إلى أن جَنَّهُ الغسقُ
ثمة نزل جبريل ينصرهم من ... السماء، فمهزومٌ ومعتنقُ
منا، ولو غير جبريل يقاتلنا ... لمنعتنا إذن أسيافنا العُتُقُ

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل ١/ ٣١٨، مرجع سابق.

المبحث الثاني: هيئة إلقاء الوحي القرآني من جبريل عليه السلام على النبي ﷺ:

يدرس هذا المبحث هيئة إلقاء الوحي القرآني بعد أن يكون جبريل عليه السلام قد دنا من النبي ﷺ في مرحلته الأولى، أي مرحلة ما قبل إلقاء الوحي القرآني كلاماً، ولذا انقسم هذا المبحث إلى مطلبين:

المطلب الأول: الهيئة العامة لإلقاء الوحي القرآني.

المطلب الثاني: النزول على القلب.

المطلب الأول: الهيئة العامة لإلقاء الوحي القرآني:

فلنبن الكلام الآن ترتيباً على ما سبق في المبحث الأول:

١- وإذ قد دنا جبريل عليه السلام من النبي ﷺ، وآن أن يُلْقي عليه الوحي القرآني، ويقرؤه عليه فيجب استصحاب أمرين:

أولهما: أن جبريل عليه السلام هو المقرئ الوحيد للنبي ﷺ، وقد تقدم تقرير ذلك[١].

وثانيهما: أن جبريل عليه السلام يس ملكاً عادياً، بل هو الروح[٢] كما أن القرآن روح... فتجتمع الحياة الحقة منهما، وإذا كانت الحياة تسري في الجسد الميت عندما ينفخ فيه الروح، فما ظنك بروحٍ يُلَقِّنُ النبي ﷺ روحاً، وجبريل عليه السلام هو الأمين الذي يتسم بأمانة الأداء فلا يخرم مما يؤديه حرفاً، زيادة ولا نقصاً، كما لا يخرم المكان، ولا الزمان، ولذا استهلت آيات وصف كيفية إنزال جبريل عليه السلام بالقرآن بقوله تعالى ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ [الشعراء:١٩٣]، ويضاف إلى هذا أن قلب النبي ﷺ قد نُزع منه حظ الشيطان، وتم إعداده إعداداً إلهياً[٣]، فلا مجال فيه لمانعٍ ذاتي يمنع أو يشوش على تلقي ألفاظ القرآن الكريم.

---

(١) انظر: الفصل الأول- المبحث الرابع- المطلب الثالث.

(٢) انظر: الفصل الأول- المبحث الثاني- المطلب الثاني.

(٣) انظر: الفصل الثاني- المبحث الأول.

٢- ينخلع النبي ﷺ من قدرته البشرية عند رؤيته الملَك، وسماعه الوحي مع بقائه على خلقته البشرية، فالمراد انخلاع القوى الباطنة، لا الخلقة الظاهرة(١)، فالرؤية والسماع يكونان من المركزين المباشرين للسمع والبصر في الفؤاد؛ إذ ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾ [النجم:١١] (٢)؛ ولذا كان ﷺ يأتيه الوحي شديداً عنيفاً؛ إذ يتوجب عليه بذل قُوى فوق الطاقة البشرية للسماع غير المعتاد بشرياً، والرؤية غير المعتادة بشرياً، والملكة القوية في الحفظ مما لا يعتاد بشرياً، زيادة في التأكيد على المحفوظ إذ كان ذلك من لوازم جمعه في صدره، وليتمكن من رؤية جبريل عليه السلام وسماعه، وهو ما لا يراه من حوله، ولا يستطيعون سماعه(٣)، وعبر عن ذلك ابن خلدون -رحمه الله تعالى- فقال: "وصنفٌ مفطورٌ على الانسلاخ من البشرية جملة، جسمانيتها وروحانيتها إلى الملائكة من الأفق الأعلى، ليصير في لمحة من اللمحات ملكاً بالفعل، ويحصل له شهود الملأ الأعلى في أفقهم، وسماعُ الكلام(٤)، والخطاب الإلهي في تلك اللمحة، وهؤلاء الأنبياء -صلوات الله وسلامه عليهم- جعل الله جل جلاله لهم الانسلاخ من البشرية في تلك اللمحة، وهي حالة الوحي فطرةً فطرهم الله جل وعز عليها، وجِبِّلَةً

(١) فلا يَردُ على هذا الكلام القول بالتناسخ، أو قدرة البشر على التشكل؛ إذ ذاك ليس لهم، ولا في إمكانهم، وينبغي أن يفسر كلام العلماء الذين سينقل عنهم -بعد قليل- في هذا الموضوع بهذا التفسير؛ إذ إن بقاء النبي ﷺ في خلقته البشرية آن نزول الوحي عليه ثابت تواتراً كما يُلاحظ ذلك في النصوص التي ترد في هذا البحث.

(٢) وما علاقة ذلك بمركزي السمع والبصر الكائنين في الدماغ ؟، محل نظر وبحث بدأت بعض الإشارات العلمية بالتلميح إليها، والمستقبل واعد بمزيد تجلية لهذا الموضوع.

(٣) وقال الأصفهاني في أوائل تفسيره: "اتفق أهل السنة والجماعة على أن كلام الله عز وجل منزل، -إلى أن قال مبيناً أن الله جل في علاه عَلَّم جبريل عليه السلام كيفية قراءة كلامه في السماء وهو ما سبق في المباحث الماضية- ثم جبريل عليه السلام أداه في الأرض وهو يهبط إلى المكان، وفي ذلك طريقتان:
إحداهما: أن النبي ﷺ انخلع من صورة البشرية، إلى صورة الملكية، وأخذه من جبريل عليه السلام ،
وثانيهما: أن الملك انخلع إلى البشرية حتى يأخذه النبي ﷺ منه، والأولى أصعب الحالين" فتح الباري ٣/ ١٢٣، مرجع سابق، ولا شك أن الصورتين واردتان كما في حديث الحارث بن هشام المتقدم ص٦٨.

(٤)في الأصل: الكلام النفساني،والبحث قائم على ما قرره محققو أهل السنة والجماعة من أن الكلام حقيقي لا نفساني.

صورهم فيها، ونزههم عن موانع البدن، وعوائقه، ما داموا ملابسين لها بالبشرية، بما ركب في غرائزهم من القصد، والاستقامة التي يحاذون بها تلك الوجهة، وركز في طبائعهم رغبةً في العبادة، تكشف بتلك الوجهة، فهم يتوجهون إلى ذلك الأُفق بذلك النوع من الانسلاخ متى شاءوا، بتلك الفطرة التي فطروا عليها، لا باكتساب، ولا صناعة، فلذا توجهوا، وانسلخوا عن بشريتهم، وتلقوا في ذلك عن الملأ الأعلى ما يتلقونه عاجوا[1] به على المدارك البشرية منزلاً في قواها لحكمة التبليغ للعباد"[2].

- وغير خافٍ أن المقتضى المنهجي هنا يجب أن يتركز في أن جهود الحفظ البشرية الضخمة للقرآن الكريم خلال القرون، المؤيدة بالرعاية الإلهية إنشاء، وإعداداً، وإمداداً، ومتابعة، يجب أن تساوي في وزنها وتركيزها هذه اللحظات التي يتلقى فيها النبي ﷺ. وبعد ذلك يكون النزول بالقرآن على قلب النبي ﷺ، وهو المطلب الثاني.

المطلب الثاني: النزول على القلب[3]:

إن إلقاء جبريل عليه السلام ألفاظ القرآن على النبي ﷺ لا يكون خطاب فمٍ لفم، بل قراءة فمٍ على قلب ﴿ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾، فلا يكون ثم أي ضعفٍ للبشر، ولا نقصٍ يتسم به البشر، ولا لجلجةٍ تصحب إدراك البشر؛ إذ القراءة موجهة إلى مركز إدراك البشر مباشرة، وهو المركز الذي نزع منه جبريل عليه السلام حظ الشيطان، وملئ حكمة[4]، فينخلع النبي ﷺ عندها من بشريته، وهو بشر! أي ينخلع من القدرات البشرية المحدودة مع بقائه على خلقته البشرية، وذلك لإزالة أدنى خاطر يخطر على

(١) أي مالوا وعادوا به بعد سماعه في طبيعة البشر.

(٢) عبد الرحمن بن خلدون ت ٨٠٨ هـ: مقدمة ابن خلدون ٩٨، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس: خليل شحادة، مراجعة: د. سهيل زكار، ط ١٤١٧هـ، ١٩٩٦م - دار الفكر - بيروت، وإن كان التعبير عن هذه الحالة الدقيقة التي يكون فيها الرسول متصلاً بالملَك بحاجة إلى حذر في الكلمة خشية التزيد أو الإيهام، ولذا فقول ابن خلدون: "متى شاءوا" فيه نظر كبير بل متى أذن الله جل في علاه لهم، فجاءهم الملَك لا أنهم هم يذهبون، ولعل من حكم ذلك بقاء صبغتهم البشرية أغلب حتى لا تكون حجة في عدم الاقتداء.

(٣) أفرد بالعنونة لجلالته، وعظيم خطره.

(٤) انظر: الفصل الثاني - المبحث الثاني.

حائم حوله الشياطين، من أن محمداً ﷺ قد يفقد حرفاً من هول الموقف، أو من تـأثير الطبيعة، ولذا كان هذا التصوير الدقيق لنزول القـرآن علـى محمـد ﷺ ﴿ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾، وأُكِّدَ عليه في القرآن مرتين: في [سورة البقرة: ٩٧]، وفي [سورة الشعراء: ١٩٤].

المعنى: لم تخرج أقوال المؤولين فيها على أمرين:

أ - على روحك: لأن الروح إحدى إطلاقات القلب كما قال الراغب -رحمه الله تعالى-، وقال الآلوسي -رحمه الله تعالى-: "وكون الإنزال عليه؛ لأنه المـدرك، والمكلـف دون الجسد، وقد يقال: لما كانت له ﷺ: جهتان: جهـةٌ ملكيـةٌ يسـتفيض بهـا، وجهـة بشرية يفيض بها – جعل الإنزال على روحه ﷺ لأنها المتصفة بالصفات الملكيـة الـتي يستفيض بها من الـروح الأمـين، وللإشـارة إلى ذلـك قيـل ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾ دون عليـك الأخصر، وقيل: إن هذا لأن القرآن لم ينزل في المصحف كغيره من الكتب"[1].

ب - على العضو المخصوص:

وتخصيصه بالإنزال عليه قيل: للإشارة إلى كمال تعقله ﷺ وفهمـه ذلـك المنـزل، حيث لم تعتبر واسطة في وصوله إلى القلب الذي هو محل العقـل، وقيـل: للإشـارة إلى صلاح قلبه ﷺ وتقدسـه حيـث كـان مَنـزلاً لكلامـه تعـالى؛ لـيعلم منـه حـال سـائر أجزائه ﷺ، فإن القلب رئيس جميع الأعضاء، وملكها، ومتـى صـلح الملـك صـلحت الرعية"[2].

فلم تخرج أقوال المؤولين في معنى (القلب) عن هذين الأمرين:

١- الروح.

٢- العضو المخصوص، وعلى كل منهما فقد أُريد مـن الإنـزال علـى القلـب: المكان الناسب الذي هُيأ التهيئة المناسبة لجهود الحفظ، ثم القراءة والإقراء؛ ليخـرج إلى عالم البشر، وكان الـنبي ﷺ يسـمعها، ويعيهـا بقـوة إلهيـة قدسـية، لا كسـماع البشـر

(١) روح المعاني ١٩/ ١٨١، مرجع سابق.

(٢) روح المعاني١٩/ ١٨٢، مرجع سابق.

منه ﷺ، وتنفعل عند ذلك قواه البشرية، ولهذا تظهر آثارها على جسده الشريف ما يظهر، ويقال لذلك (بُرَحاء الوحي) حتى يُظَنَّ في بعض الأحايين أنه أُغمي عليه ﷺ وقد يُظَن أنه ﷺ أَغفى[1].

وقد فتح الله -تعالى ذكره- أذهان البشرية في عصرها الحاضر على حقائق علمية ضخمة تقرب لنا سر نزول جبريل عليه السلام بألفاظ القرآن على قلب النبي ﷺ، فإن جبريل عليه السلام تعدى أداة التوصيل السمعي لدى البشر وهي الأذن الخارجية إلى مركز السمع مباشرة، وأداة التوصيل البصري لدى البشر وهي العين الخارجية إلى مركز البصر مباشرة، ويزيد هذا تقريباً أن يقال: لما كان القلب يتلقى الصوت كما يرى الصورة في المنام، والجارحة المباشرة من عين وأذن نائمة مغطاة، ثم إذا استيقظ تذكر كله في اليقظة، وقد جاء التشريح الطبي مؤكداً حقيقة مراكز السمع والبصر، وأنها مراكز في المخ تعي ما يصل إليه عن طريق الجوارح كما تعي ما يصل إليها عن طريق الرؤى المنامية، وما قد كُشف يقرب لنا ما لم يكشف مما قد غاب عنا، وقد كانت أُولى مراحل الوحي التي هيأ بها النبي ﷺ لتلقي الوحي المباشر هي الرؤى المنامية الصادقة، ثم رؤيته للملَك في منامه كما سبق تفصيل ذلك في الفصل الثاني، وحالة الوحي في النوم مقربةٌ لحالة الوحي في اليقظة، مما قد يقرب لنا فهم كيفية الوحي وحدوثه، واستيعاب كيفية تلقي النبي ﷺ للوحي بواسطة الاتصال بعالم الملائكة، بطريقة يرى الصحابة آثارها في النبي ﷺ من تصبب العرق في اليوم الشديد البرد، وترجيع اللسان، وثقل جسم النبي ﷺ[2] دون أن تشاهد أبصارهم صورة الملك، أو تسمع آذانهم صوته، لأن الاتصال كان في مستوى لا يدركونه، ولكنهم يسمعون قرآناً معجزاً لا تنقضي عجائبه، ولا تشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الرد.

---

(١) انظر: روح المعاني/ ١٨٢، مرجع سابق.

(٢) انظر: المبحث الخامس من هذا الفصل.

وذكر أبو حيان -رحمه الله تعالى- سبعة أقوال في تخصيص ذكر القلب[1] حاصلها راجع إلى قولين:

أ- فالأول والثاني كالشيء الواحد مجموعهما: أن القلب محل التلقي([2]) لهذا الأمر الخطير لا سواه، وإليهما يؤول السادس.

ب- والثالث والرابع والخامس تؤول إلى معنى واحد هو: كونه أشرف عضوٍ في الجسد، وإليه ما يرجع السابع.

وكلاهما متفرع عن القول الثاني الذي ذكره الإمام الآلوسي -رحمه الله تعالى- (العضو المخصوص)، بيد أنه لا فائدة في الثاني من حاصل أقواله، لو كان مجرد تكنية عن الجملة الإنسانية، وخُصَّ لشرفه؛ إذ لقائلٍ أن يقول: (عليك) أخصر وأظهر، وإذ الأمر كذلك فلا بُدَّ لتخصيصه من مغزى: هو ما ذكر في الأول من الحاصل، كما يلوح للباحث أمر آخر:

هو أن ما أظهره اليهود من عدواة جبريل عليه السلام وادعاؤهم مجيئه بالخراب[3] غمز في أمانته، أو لمز في دقة نقله؛ إما لأن الوحي ليست مهمته، أو لشدته على البشر أو غير ذلك، فأثنى عليه أبلغ الثناء، وبَيَّنَ أن اللمز فيه أو إظهار العداء له هو لله جل جلاله ولملائكته ولرسله عداء، وأنه وميكال قرينا إخاء، وسبق ذلك كله ببيان دقة نقله للوحي على فؤاد النبي ﷺ وأنه ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٩٧].

---

(١) أبو حيان في البحر المحيط ١/ ٣٢٠، مرجع سابق، ونص قوله: "خص القلب ولم يأت بعليك الأخصر، لأن القلب هو محل العقل، وتلقي الواردات، أو لأنه صحيفته التي يرقم فيها، وخزانته التي يحفظ فيها، أو لأنه سلطان الجسد، أو لأن القلب خيار الشيء وأشرفه، أو لأنه بيت الله، أو لأنه كنى به عن العقل إطلاقاً للمحل على الحال به، أو عن الجملة الإنسانية؛ إذ قد ذكر الإنزال عليه في أماكن ﴿ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ﴾ [طه: ٢] ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ ﴾[النساء: ١١٣]، أو يكون إطلاقاً لبعض الشيء على كله".

(٢) فقد نزل جبريل بالقرآن على قلب الرسول ﷺ [فتلقاه تلقياً مباشراً، ووعاه وعياً مباشراً] سيد قطب: في ظلال القرآن ٥/ ٢٦١٧، ١٤١٠هـ –١٩٩٠م، دار الشروق – بيروت.

(٣) انظر في ذلك: صحيح البخاري ٣/ ١٢١١، مرجع سابق.

الكاف في ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾:

وأما سبب التعبير عن ذلك بالكاف في قوله ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ دون الياء الدال على المتكلم فهو التأكيد المطرد على المصدرية الإلهية للقرآن الكريم، ففيه إيماء إلى الحفظ للفظ والمعنى، وصرح به في آية الحجر، وتفصيل ذلك في المبحث الثامن من هذا الفصل: كيفية قراءة الرسول ﷺ.

الحرف ﴿عَلَىٰ﴾:

وأتى بلفظ ﴿عَلَىٰ﴾ لأن القرآن مُسْتَعْلٍ على القلب،، والقلب سامعٌ له مطيعٌ يتمثل ما أمر به ويجتنب ما نهى عنه، وكانت أبلغ من (إلى)؛ لأن (إلى) تدل على الانتهاء فقط، و﴿عَلَىٰ﴾ تدل على الاستعلاء، وما استعلى على الشيء يتضمن الانتهاء إليه[1].

ويلوح للباحث ثلاثة أمور في حرف الجر ﴿عَلَىٰ﴾:

أولها: أن الاستعلاء مستغرق للملكية، مهيمن على المحل، فارض لسلطانه، واضح ثقله وسيطرته في مكانه، وكأنه أُريد بذلك أن القرآن عندما ينزله جبريل عليه السلام على قلبك قد تتام قبضةُ على القلب، وسيطرته عليه، فهو مهيمن على القلب في لفظه، لا يستطيع القلب أن يفلت منه مثقال ذرة، وفيه: الإشعار بأن ألفاظه مفروضة على القلب فرضاً، فلا مجال لزيغ حروفها عنه، ولا لتحريف هيئتها، مع حب قلب الرسول ﷺ لها كما سيأتي[2]، ولم تبق فيه ذرة تتأثر إلا به، ولا تحتفل إلا له، فهو خلي عن غيره، وفي هذا تمام الحفظ والفهم والاهتمام، ولذا قال الصاوي -

---

(١) انظر: البحر المحيط١/ ٣٢٠، مرجع سابق.

(٢) انظر: حديث المعالجة في المبحث السادس من هذا الفصل.

رحمه الله تعالى-: "عبر بـ﴿عَلَىٰ﴾ لتمكنه، وانصبابه، ورسوخه؛ فإن الشيء إذا صب من أعلى لأسفل رسخ وثبت"[1].

وثانيها: أن على مؤكدة للإنزال من أعلى إلى أدنى: كما قال تعالى في آل عمران ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ [آل عمران:٨٤] فالخطاب للنبي ﷺ مُوَجَه، والمُنزل إنما هو مُنزل عليه من السماء إلى حيث هو، بخلاف آية البقرة ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ [البقرة: ١٣٦] فإن الخطاب لصحابته، ثم لأمته –من بعد- والإنزال إنما يكون إليهم؛ إذ يتضمن حرف ﴿إِلَىٰ﴾ معنى المجاورة، ويجعل فعله يتضمن معنى الإيصال، فليس ثم أعلى ولا أدنى، كأنهم قالوا: آمنا بالله وما أنزل على رسوله مما وصل إلينا، لأنه إنما وصل إليهم من محمد ﷺ وهو بجوارهم لا فوقهم، ولكن لارتباطه بأنزل أفاد أمراً آخر –لاقتضاء الإنزال أعلى وأدنى- هو أن الوحي أُنزل على غير المخاطبين ثم وصل إليهم، فقد تضمن الفعل: أنزل، والحرف ﴿إِلَىٰ﴾ ذلك ببلاغة بديعة، وإعجاز عظيمٍ... ومن أسراره أنهم جعلوا –بهذا التعبير- ما أنزل على الرسول ﷺ هو ذاته ما وصل إليهم دون ريب، ومعلوم أن التضمين عند العلماء مُقَدَّمُ على تبادل الحروف[2].

وثالثها: أنه قال على ولم يقل (في) لئلا يتوهم أن جبريل عليه السلام ألقى القرآن في قلب النبي ﷺ دون سماع، وسيأتي مزيد تفصيل له –إن شاء الله تعالى-[3].

إعداد القلب مسبقاً:

---

(١) حاشية الصاوي ١/ ٧٢، مرجع سابق.

(٢) (ابن تيمية) أحمد بن عبد الحليم بن تيمية ت ٧٢٨هـ، شيخ الإسلام: مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد ابن تيمية ١٣/ ٣٣٠، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن قاسم العاصمي النجدي الحنبلي، ١٤٢١ - ١٩٩١م، دار عالم الكتب الرياض.

(٣) انظر: المبحث السابع من هذا الفصل.

وجهت لقلب النبي ﷺ عناية فائقة، وكان جبريل عليه السلام هو الذي هيأ محمداً ﷺ واعتنى بقلبه خاصة في كل مرة يأمر الله ويأذن بذلك كما سبق في حديث شق الصدر(١)، وقد كان قلبه يحس ويعقل حتى إن نامت عيناه، فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: جاءت ملائكة إلى النبي ﷺ وهو نائم فقال بعضهم: إنه نائم، وقال بعضهم: إن العين نائمة والقلب يقظان فقالوا: إن لصاحبكم هذا مثلاً، فاضربوا له مثلاً، فقال بعضهم: إنه نائم، وقال بعضهم: إن العين نائمة والقلب يقظان، فقالوا: مثله كمثل رجل بنى داراً، وجعل فيها مأدبة، وبعث داعياً فمن أجاب الداعي دخل الدار وأكل من المأدبة، ومن لم يجب الداعي لم يدخل الدار ولم يأكل من المأدبة، فقالوا: أولوها له يفقهها، فقال بعضهم: إنه نائم، وقال بعضهم: إن العين نائمة والقلب يقظان فقالوا: فالدار الجنة، والداعي محمد ﷺ فمن أطاع محمداً ﷺ فقد أطاع الله ومن عصى محمداً ﷺ فقد عصى الله، ومحمد ﷺ فرق بين الناس)(٢)، وفي رواية الترمذي عنه قال: خرج علينا رسول الله ﷺ يوماً، فقال: «إني رأيت في المنام كأن جبريل عند رأسي وميكائيل عند رجلي، يقول أحدهما لصاحبه اضرب له مثلاً، فقال: اسمع سمعت أذنك، واعقل عقل قلبك، إنما مثلك ومثل أمتك كمثل ملك اتخذ داراً...» الحديث(٣).

فقد اشتمل النزول على قلبه ﷺ:

١-على التحفيظ والتفهيم والتثبت: كما قال الزمخشري -رحمه الله تعالى-: أي حَفَّظَكه، وفَهَّمَك إياه، وأثبته في قلبك إثبات ما لا ينسى كقوله جل جلاله ﴿سَنُقۡرِئُكَ

(١) انظر: الفصل الثاني –المبحث الأول-المطلب الأول.
(٢) صحيح البخاري ٦/ ٢٦٥٥، مرجع سابق.
(٣) الجامع الصحيح سنن الترمذي ٥/ ١٤٥، مرجع سابق.

﴿فَلَا تَنسَىٰٓ ﴾"[1]، وخص القلب، والمعنى عليك لأنه محل الوعي والتثبت، وليعلم أن المنزل على قلبه عليه السلام محفوظ لا يجوز عليه التبديل، ولا التغيير، وحرف ﴿عَلَىٰ﴾ مستعار للدلالة على التمكن مما سمي بقلب النبي ﷺ مثل استعارته في قوله جل وعز ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ﴾[البقرة: ٥]"[2]، وقد تقدم التوضيح بأن إرادة القلب حقيقية وليست مجازية، وأن المراد الوصول إلى محل الوعي المباشر بعد تهيئته سابقاً لذلك.

٢- كما اشتمل النزول على قلبه ﷺ على اللفظ كما هو على المعنى تصريحاً لا تلويحاً: كما قال الزمخشري: "ولو كان أعجمياً لكان نازلاً على سمعك، دون قلبك لأنك تسمع أجراس حروفٍ لا تفهم معانيها ولا تعيها"[3].

واستدل أبو حيان -رحمه الله تعالى- على أنه كان ﷺ يسمع من جبريل عليه السلام الأحرف بقوله **جل جلاله**: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾[الشعراء: ١٩٥]، فقال: "الظاهر تعلق ﴿بِلِسَانٍ﴾ بـ﴿نَزَلَ ﴾، فكان يسمع من جبريل عليه السلام حروفاً عربية"، قال ابن عطية -رحمه الله تعالى-: "وهو القول الصحيح، وتكون صلصلة الجرس صفة لشدة الصوت، وتداخل حروفه، وعجلة مورده، وإغلاظه"[4]. وبذا تم حفظ الألفاظ من زواياه الكلية[5].

٣-التمكن من حفظ الألفاظ وجمعها، دون أن ينخرم منها شيء أصلاً أو أداء.

اعلُ موكب الوحي على كل رائمٍ طمس النور بفمه ... اعلُ موكب الوحي.. أو ما يكفي: جبريل عليه السلام في قيادتك، ومحمد ﷺ في ريادتك؟.. اعلُ موكب الوحي.. يتراءى لنا خبرُك.. حتى ترتفع أعلام الحب فداءً بالمهج...

---

(١) الكشاف٣/ ١٢٦، مرجع سابق.

(٢) التحرير والتنوير ١٩/ ٨٨٩، مرجع سابق.

(٣) الكشاف٣/ ١٢٧، مرجع سابق، وانظر: تفسير القرطبي ١٣/ ١٣٨، مرجع سابق.

(٤) تفسير ابن عطية ١١/ ١٤٨، مرجع سابق.

(٥) كما قال أبو حيان في البحر المحيط ٧ / ٤٠، مرجع سابق.

طرقتك زائرة، فحي خيالها بيضاء، تخلط بالحياء دلالها
قادت فؤادك، فاستقاد، وقبلها قاد القلوب إلى الصبا فأمالها
هل يطمسون من السماء نجومها بأكفهم؟ أم يسترون هلالها؟
أم يدفعون مقالة عن ربه؟ جبريل بلغها النبي فقالها

المبحث الثالث: نزول جبريل عليه السلام توقيفي:

يراد من هذا المبحث التأكيد على حقيقة هامة في نقل القرآن من السماء إلى الأرض هي: التوقيفية في ذلك النقل، ذلك بأن جبريل عليه السلام ليس له من أمر الوحي القرآني شيء، فنزوله كان بأمر الله جل جلاله، وبعد صدور أمره جل وعز، يكون نزول جبريل عليه السلام بإذنه، وعليه فإن نزول جبريل عليه السلام بأمر وإذن إلهي قبل النزول، مستصحبان مع النزول: كما هو ظاهر من قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[البقرة: ٩٧]؛ ولذا قال أبو السعود-رحمه الله تعالى-: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ "بأمره، وتيسيره، وفيه تلويح بكمال توجه جبريل عليه السلام إلى تنزيله، وصدق عزيمته عليه السلام، وهو حال فاعل نزله"[1]، وقال الصاوي -رحمه الله تعالى-: "المراد بالإذن الأمر لا العلم"[2].

فاجتمع في قوله ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾: نزول جبريل عليه السلام بالقرآن عن أمر الله السابق، ثم تيسيره له ذلك وتسهيله، وهو مؤكد للمصدرية الإلهية للقرآن الكريم، فما كان لجبريل عليه السلام من هوى شخصي، ولا إرادة ذاتية في أن ينزله على قلبك، لأنه لا يعدو أن يكون منفذاً لإرادة الله جل جلاله، وإذنه في تنزيل القرآن على قلبك، ومنه نستنتج أمراً بالغ الأهمية هو: التوقيفية في نزول الملَك:

---

(١) تفسير أبي السعود١/ ٢٢٠، مرجع سابق.
(٢) حاشية الصاوي ١/ ٧٢، مرجع سابق، ولا مانع من إرادة الأمرين، بل هو الظاهر، وبلاغة القرآن تشير إليه.

فعن ابن عباس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: يا جبريل!ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا، فنزلت ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا ﴾[مريم: ٦٤] إلى آخر الآية، قال: كان هذا الجواب لمحمد ﷺ [(١)]، فقد تجذرت صفة الحق في كل أجزاء الإنزال والتعليم:الحق هو المُنزل، والحق في المنزل، الحق في النزول، كما في قوله جل وعز ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾[الإسراء:١٠٥].

فإذا كانت التوقيفية صفة ذاتية للنزول، فكيف المنزل به؟.

وفي حرف الباء في قوله تعالى ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ يظهر معنى المصاحبة والملابسة لأمر الله في نزوله، لا معنى التجاوز والاجتهاد، ثم أخذ الإذن، فهو أمر الله جل وعز وإذنه الذي اختاره؛ إذ معلوم أن هذا التعبير يفيد أن الفعل تم بعد الإذن، كما قال جل جلاله ﴿لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾[هود: ١٠٥] ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، مع أن الباء تفيد الملاصقة، وهي من أهم معاني الباء[(٢)]، فقد كان الإذن الإلهي أمراً وإذناً واقعَين قبل النزول، ملاصقَين للنزول، مُستصحبَين حتى تمام أداء الوظيفة التعليمية.

وما سبق كان وصفاً لعمل المُعَلِّمِ المُلْقي عليه السلام، فلننظر في عمل طالبه المتلقن ﷺ، وهو المبحث التالي:

المبحث الرابع: مظاهر اجتهاد النبي ﷺ في تلقي القرآن من جبريل عليه السلام قبل نزول التوقيف الإلهي:

---

(١) صحيح البخاري ٦/ ٢٧١٣، مرجع سابق.

فائدة: قال ابن حجر -رحمه الله تعالى- في فتح الباري ٨/ ٤٢٩، مرجع سابق: "تنبيه: الأمر في هذه الآية معناه الإذن، بدليل سبب النزول المذكور، ويحتمل الحكم أي نتنزل مصاحبين لأمر الله عباده بما أوجب عليهم أوحرم، ويحتمل أن يكون المراد ما هو أعم من ذلك عند من يجيز حمل اللفظ على جميع معانيه".

(٢) قال ابن هشام -رحمه الله تعالى- في مُغني اللبيب ١/ ١٠١ متكلماً عن معاني الباء: "الإلصاق، قيل: وهو معنىً لا يفارقها فلهذا اقتصر عليها سيبويه" انظر: ابن هشام الأنصاري ت ٧٦١هـ: مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، طبعة بدون ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

اجتهد النبي ﷺ في تطبيق هيئات تمكنه من حفظ القرآن عند إلقاء الملك لـه، بيـد أن جلالة الأمر، وعظمة قضية التلقي من السماء للأرض منعته من الاجتهاد حتـى في مثل هذه الجزئية بل صار فعله توقيفياً، فلم يقـر علـى اجتهـاد، وبـين لـه هيئـة تلقيـه، ولعل أهم حكم تأخير إنزال الأمر له بكيفية تلقي القرآن أن يعلم المسلمون مـن بعـده ضرورة الوقوف عند التوقيف الإلهي في تلقي القرآن، وأن النبي ﷺ نُهـي عـن بعـض اجتهاداته المخالفة للتوقيف الإلهي في طريقة التلقي فكيف غيره؟

فمن مظاهر اجتهاده الأولى:

١- تحريك اللسان بالقرآن قبل فراغ جبريل عليه السلام منـه: وهـو ظـاهر آيـة سـورة طـه ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾[طـه: ١١٤]، وآيـات سورة القيامة ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ [القيامـة: ١٦] فإنـه كـان يبـادر إلى أخـذه ويسابق المَلَك في قراءته، ولهذا قال جل جلاله ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ كما قـال ﴿وَلَا تَعْجَلْ﴾"[1].

وهذه الحركة تأخذ طابع العجلـة لاسـتذكار السـابق ودراك اللاحـق، وفي روايـة لحديث ابن عباس رضي الله عنه في المعالجة: (كـان رسـول الله إذا نـزل عليـه الـوحي يلقى منه شدة، وكان إذا نزل عليه عرف في تحريكه شفتيه، يتلقى أوله ويحرك به شـفتيه خشية أن ينسى أوله قبل أن يفرغ من آخره.. الحديث[2]، وأخرج ابـن أبـي حـاتم عـن الحسن: كان يحرك به لسانه يتذكره فقيـل لـه: إنـا سـنحفظه عليـك[3]، وللطـبري مـن طريق الشعبي:

(١) تفسير ابن كثير٤/ ٣٨٣، مرجع سابق.
(٢) انظر: تفسير ابن كثير ٤/ ٤٥٠، مرجع سابق، وقد بحثت عن هذا النص بلفظه في مظانه من كتب الحديث فلم أجده، والألفاظ الأخرى تدل على معناه، وانظر فتح الباري ١/ ٣٠، مرجع سابق.
(٣) تفسير الطبري ٢٨/ ١٨٨، مرجع سابق، وانظر: فتح الباري ٨/ ٦٨٢، مرجع سابق.

«كان إذا نزل عليه عجل يتكلم به من حبه إياه»[1].

وظاهر أنه كان يتكلم بما يلقي إليه منه أولاً فأولاً من شدة حبه إياه، وخوفه من تفلته، فأمر أن يتأنى إلى أن ينقضي النزول[2].

٢- دراسته بحيث يشق عليه (وهذا أعم من السابق) كما قال الضحاك: "السبب أنه كان ﷺ يخاف أن ينسى القرآن، فكان يدرسه متى غلب ذلك عليه وشق فنزلت"[3].

٣- التعجل في السؤال عن معانيه:كأنه كان يعجل في الحفظ، والسؤال عن المعنى جميعاً كما يُظهر بعض المتحمسين من طلبة العلم ونحوه ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾ [طه: ١١٤][4].

٤- القول القلبي والاستفزاز العاطفي بالإضافة إلى حركة اللسان خشية انفلات القرآن، وهو مستلزم لشدة اهتمام الفؤاد بالمُلْقَى؛ إذ أنه يُلمح بازاء عجلة اللسان عجلة الفؤاد المسببة لاضطراب القلب.

والمراد أن شغل اللسان كان بحركة السابق، والقلب بتثبيت اللاحق.

عند ذاك نزلت آيات سورة القيامة فقيل له ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ بالقرآن قبل فراغ جبريل عليه السلام منه ﴿لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ أي بقراءته، وحفظه خوف أن ينفلت منه[5] فنُهِيَ عن اجتهاده، وبُيِّنَ له كيف يتلقى القرآن، وآيات سورة القيامة تصف ذلك بدقة؛ إذ إن هذه الآيات ونحوها دائرة حول تلقي الوحي من الملَك، ففيها "تعليم من الله جل جلاله لرسول الله ﷺ في كيفية تلقيه الوحي من الملَك"[6].

فقد استبان أن التوقيف في الوحي القرآني قد شمل هيئة الاستماع لتلاوة الملَك.

---

(١) انظر: حديث المعالجة في المبحث السادس من هذا الفصل.

(٢) انظر: فتح الباري ٨/ ٦٣٨، مرجع سابق.

(٣) البحر المحيط ٨ / ٣٨٧، مرجع سابق.

(٤) البحر المحيط ٨/ ٣٨٨، مرجع سابق.

(٥) تفسير الصاوي ٤٥/ ٣٥٣، مرجع سابق.

(٦) تفسير ابن كثير ٤/ ٣٨٣، مرجع سابق.

المبحث الخامس: سمات الرسول ﷺ حين نزول الوحي القرآني عليه:

إذا كان المبحث السابق قد تحدث عن مظاهر اجتهاد رسول الله ﷺ في تلقي الوحي القرآني، وعن نهيه عن ذلك؛ فقد لزم معرفة سماته ﷺ حين تلقى الوحي القرآني، التي أبان بها عن خصائص التوقيف الإلهي في تلقي الوحي القرآني، وهو المراد من هذا المبحث. وهذه السمات تتلخص في الآتي:

١- تفريغ قلبه ﷺ وحسه، وتخلية فكره إلا في المُتَلَقى: ولذا كانت الغطة في أول نزول جبريل عليه السلام عليه(١)، كما كان الوحي القرآني يأتيه في مثل صلصلة الجرس.

وصلصلة الجرس(٢): هو صوت متدارك لا يدرك في أول الوهلة كصوت الجرس، أي أن الوحي يجيء في صورة وهيئة لها مثل هذا الصوت، فنبه بالصوت غير المعهود على أنه يجيء في هيئة غير معهودة فلذا قابله بقوله في صورة الفتى (وفي لفظ: الرجل)، فصلصلة الجرس مثال لصوت الوحي، والصلصلة -بصادين مهملتين مفتوحتين بينهما لام ساكنة- في الأصل صوت وقوع الحديد بعضه على بعض، ثم أطلق على كل صوت له طنين، وقيل هو صوت متدارك لا يدرك في أول وهلة، والجرس: الجلجل الذي يعلق في رؤوس الدواب واشتقاقه من الجرس(٣) بإسكان الراء(١).

---

(١) كما رواه البخاري ١/ ٣، مرجع سابق، وفي النهاية في غريب الأثر ٢/ ٣٢٧، ٣/ ٣٤٢، مرجع سابق: "في حديث المَبْعث: «فأخذَ جبريلُ بحلْقي فسأبني حتى أجْهَشْتُ بالبُكاء»: السَّأْب العَصْر في الحَلْق كالخَنق ومثله غتت ففي حديث المَبْعَث «فأخذَني جبريل فَغَتَّني حتَّى بلَغ مِنّي الجَهْد»: الغَتُّ والغَطُّ سواء كأنه أراد عَصَرني عَصْراً شديداً حتى وجَدْت منه المَشقَّة كما يَجِد مَن يُغْمَس في الماء قَهراً، وفي فتح الباري ١/ ١٠، مرجع سابق: "قوله «فغطني» بغين معجمة وطاء مهملة وفي رواية الطبري بتاء مثناة من فوق كأنه أراد ضمني وعصرني، والغط حبس النفس، ومنه غطة في الماء، أو أراد عمني ومنه الخنق، ولأبي داود الطيالسي في مسنده بسند حسن «فأخذ بحلقى»".

(٢) كما في حديث الحارث بن هشام الذي تقدم في الفصل الثاني- المبحث الثالث ص٦٨.

(٣) ومنه قيل للهمزة الحرف الجرْسي لشدته وجلادته. انظر: (ابن الجزري) شمس الدين أبو الخير محمد بن محمد ابن محمد بن علي ت ٨٣٣هـ: التمهيد في علم التجويد ص٤٦، تحقيق غانم قدوري الحمد، ط٣، ١٤٠٩هـ -١٩٨٩م، مؤسسة الرسالة - بيروت.

والحكمة في تقدم هذا الصوت الشديد: أن يقرع الوحي سمعه ﷺ فلا يبقى فيه مكان لغيره[2].

ولا بد من الإشارة هنا إلى أن السلسلة (أو الصلصلة) ظاهرةٌ صوتيةٌ قويةٌ مهابةٌ تظهر مع كل إنزال للوحي الإلهي، وقد تقدم حديث النواس بن سمعان: «إذا تكلم الله بالوحي سمع أهل السماء صلصلة»[3]، وفي قصة حنين حين رمى النبي ﷺ على وجوه العدو التراب، فأخذ كفاً من تراب، يضرب به وجوههم، وقال: «شاهت الوجوه»، فهزمهم الله جل جلاله، فحدث أبناؤهم عن آبائهم أنهم قالوا: لم يبق منا أحد إلا امتلأت عيناه وفمه تراباً، وسمعنا صلصلة بين السماء والأرض كإمرار الحديد على الطست[4].

فقد كانت هذه الظاهرة الصوتية تدل على جلالة الخطب، وعظم الأمر، وتصاحب نزول الملَك وفعله القوي الشديد، وهي لا شك داعية إلى تفريغ القلب وانشغاله بما صاحبها دون غيره.

٢- المعاناة في تلقي الوحي: فقد كان نزول الوحي القرآني، يستلزم أمراً زائداً على الطباع البشرية؛ وذلك ليتم التأهل لاستماع الوحي القرآني، ثم لحفظه ووعيه ومن ثم تبليغه، وهي مسألة تستدعي النظر مع ما عرف عن العرب في ذلك الوقت من الحفظ المفرط والذاكرة القوية، لكأن هذه الخاصة التي تميز بها العرب لا تكفي للمحافظة على نص القرآن، أو تكفي، لكن لمزيد التأكد والتأكيد وتوثيق النص القرآني.

---

(١) انظر: فتح الباري بشرح صحيح البخاري ١/ ٣٥، مرجع سابق، ونحوه نقل السندي في حاشيته على سنن ابن ماجة ٢/ ١٤٦، مرجع سابق.

(٢) فتح الباري ١/ ٣٧، مرجع سابق.

(٣) انظر: الفصل الأول- المبحث الثالث.

(٤) مسند الإمام أحمد بن حنبل ٥/ ٢٨٦، مرجع سابق، ومعناه في: (أبو داود)سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي ت٢٧٥هـ: سنن أبي داود ٤/ ٣٢، مراجعة: محمد محيي الدين عبد الحميد، وقال الشيخ الألباني: "حسن".

ولأن النبي ﷺ لم يخرج عن حقيقته البشرية، مع زيادة الاختصاص عنهم في كونه المصطفى من الله للرسالة ﴿قُلۡ سُبۡحَانَ رَبِّي هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرٗا رَّسُولٗا ﴾ [الإسراء: ٩٣]؛ فقد اقتضى ذلك أن يكون في طبيعة أقوى من مجرد كونه بشراً حال تلقيه الوحي مع المحافظة على حقيقته البشرية، ولذا كان يعاني شدة هائلة من الوحي القرآني بصفة خاصة؛ لأنه النازل على قلبه، وفيه يقول ابن حجر-رحمه الله تعالى-: "معاناة التعب والكرب عند نزول الوحي لما فيه من مخالفة العادة، وهو كثرة العرق فإنه يشعر بوجود أمر طارئ على الطباع البشرية"(١)، على أن هذه المعاناة دليل حسي على إتمام عملية الوحي.

وعلى الرغم من التهيئة الإلهية للنبي ﷺ ليستطيع قبول الوحي، فقد كان يعاني شدة عند نزوله مصداقاً لقوله جل وعز: ﴿إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا ﴾ [المزمل:٥]، وكانت الشدة تحصل له عند نزول الوحي لثقل القول"(٢).

واتخذت هذه الشدة مظاهر متعددة، منها:

١- ما يؤدي إلى تغير ملامح وجهه: فعن عبادة بن الصامت: أن النبي ﷺ كان إذا نزل عليه الوحي كرب لذلك وتربد وجهه(٣).

٢- ومنها ما يؤدي إلى شعوره بشدةٍ في نَفْسِهِ ونَفَسِهِ حتى يظنه الموت، وهذا يذكر بحديث الغطة في أول الوحي: فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: سألت النبي ﷺ فقلت: يا رسول الله! هل تحس بالوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم أسمع صلاصل ثم أسكت عند ذلك فما من مرة يوحي إلى إلا ظننت أن نفسي تفيض»(٤).

---

(١) انظر: فتح بشرح صحيح البخاري ١/ ٣٠، مرجع سابق.

(٢) انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري ٨/ ٦٨٣، مرجع سابق.

(٣) مسلم ٣/ ١٣١٦، مرجع سابق.

(٤) مسند الإمام أحمد بن حنبل ٢/ ٢٢٢، مرجع سابق، وفيه: حدثنا عبد الله حدثني أبي ثنا قتيبة ثنا بن لهيعة عن يزيد بن أبي حبيب عن عمروبن الوليد وقد تقرر في قواعد المصطلح قبول رواية قتيبة عن ابن لهيعة.

٣- ومنها ما يُخرِج ملامح جسده عن تأثير بيئته من حيث ظهور شدة الإجهاد عليه: فعن زيد بن ثابت رضي الله عنه: «كان إذا نزل عليه الوحي ثقل لذلك، وتحدر جبينه عرقاً كأنه جمان، وإن كان في البرد»(١).

٤- ومنها ما يؤدي إلى ظهوره بمظهر تذلل العبد بياناً لضعفه: فعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه: «كان إذا أنزل عليه الوحي نكس رأسه ونكس أصحابه رؤوسهم، فإذا أقلع عنه رفع رأسه»(٢).

٥- بل يُؤَثِّر على ما لامسه ﷺ من بشر أو حيوان: فعن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: «كنت أكتب الوحي لرسول الله ﷺ وكان إذا نزل عليه أخذته بُرحاء(٣) شديدة، وعرق عرقاً شديداً مثل الجمان، ثم سري عنه، فكنت أدخل عليه بقطعة الكتف، أو كسرة، فأكتب، وهو يملي علي، فما أفرغ حتى تكاد رجلي تنكسر من ثقل القرآن، وحتى أقول لا أمشي على رجلي أبداً، فإذا فرغت، قال: «اقرأه»، فأقرأه، فإن كان فيه سقط أقامه، ثم أخرج به إلى الناس(٤)، وعند البيهقي: «وإن كان ليوحى إليه، وهو على ناقته فيضرب حزامها من ثقل ما يُوحى إليه»(٥).

وعن عائشة -رضي الله تعالى عنها-: أن النبي ﷺ كان إذا أوحي إليه وهو على ناقته وضعت جِرانها، فلم تستطع أن تتحرك، وتلت قول الله جل جلاله ﴿إِنَّا سَنُلْقِي

(١) رواه الطبراني، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٤٧٩٣، مرجع سابق.

(٢) رواه مسلم ٤/ ١٨١٧، مرجع سابق.

(٣) في مختار الصحاح ص١٩، مرجع سابق: بُرَحاءُ الحمى وغيرها بالضم والمد شدة الأذى تقول منه بَرَّحَ به الأمر تَبْرِيحاً أي جهده".

(٤) المعجم الأوسط ٢/ ٥٤٤، مرجع سابق.

(٥) دلائل النبوة ٣/ ٤، وعند ابن سعد ١/١٩٧، مرجع سابق من مراسيل عكرمة: (كان إذا أوحي إلى رسول الله ﷺ وقذ-أي ضعف وسكن- لذلك ساعة كهيئة السكران)، وعنده ١/١٩٧عن أبي أروى الدوسي قال: (رأيت الوحي ينزل على النبي ﷺ وإنه على راحلته فترغو وتفتل يديها، حتى أظن أن ذراعها تنقصم، فربما بركت، وربما قامت موتدة يديها حتى يسرى عنه من ثقل الوحي، وإنه ليتحدر منه مثل الجمان).

عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا ﴾[المزمل:٤][1]، وفي لفظ: أن رسول الله ﷺ كان إذا أوحي إليه وهو على ناقته لا تستطيع أن تتحول حتى سرَى عنه[2].

٦- وهذه المظاهر ليست عوارض تأتي مع الوحي القرآني أحياناً، بل هي سمته الدائم، وعادته المستمرة عند نزول الوحي القرآني: فعن عائشة: «فأخذه ما كان يأخذه من البُرحاء...»[3]، وهذا دال على الاعتياد.

فإذا أُضيف إلى هذا حقيقة أن الوحي ثقيلٌ على الملائكة يعانون منه وهم الملائكة، وإذا كان ثقل الوحي أمر طبعي بالنسبة للملائكة، وهم من هيأهم الله جل وعز ليكونوا عنده، فكيف بالبشر الموصوفين بالضعف؟، وقد تقدم حديث السلسلة على الصفوان[4]، وفي حديث ابن عباس رضي الله عنه عند ابن مردويه «فلا ينزل على أهل سماء إلا صعقوا»، وعند مسلم عنه عن رجال من الأنصار أنهم كانوا عند النبي ﷺ فرمى بنجم، فاستنار، فقال: «ما كنتم تقولون لهذا إذا رمى به في الجاهلية؟» قالوا: (كنا نقول مات عظيم، أو يولد عظيم. فقال: «إنها لا يرمي بها لموت أحد، ولا لحياته، ولكن ربنا إذا قضى أمراً سبح حملة العرش، ثم سبح أهل السماء الذين يلونهم، حتى يبلغ التسبيح سماء الدنيا، ثم يقولون لحملة العرش: ماذا قال ربكم؟...» الحديث[5].

ولثقل الوحي ومعاناة النبي ﷺ دلائل عدة من حيث موضوع البحث:

---

(١) المستدرك على الصحيحين٢/ ٥٤٩، مرجع سابق، قال الحاكم: "هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه". وقال الذهبي في التلخيص: "صحيح".

(٢) (ابن راهويه) إسحاق بن إبراهيم بن مخلد بن راهويه الحنظلي ت ٢٣٨هـ: مسند إسحاق بن راهويه ٢/ ٢٥٤ مراجعة: عبد الغفور بن عبد الحق البلوشي ١٤١٢هـ-١٩٩١م، مكتبة الإيمان، المدينة المنورة.

(٣) البخاري ٢/ ٩٤٥، مرجع سابق.

(٤) قال الخطابي: "السلسلة صوت الحديد إذا تحرك وتداخل" كما في فتح الباري ٨/ ٥٣٣، مرجع سابق، وقد تقدم الكلام على الصلصلة في ص٩٦.

(٥) فتح الباري ٨/ ٥٣٨، مرجع سابق.

فأولها: التأكيد على توثيق النص القرآني حال إنزاله، برفع مستوى النبي ﷺ عن المستوى البشري مع بقائه خارج هذه اللحظات على بشريته فهي الأغلب عليه، وهو ما يدعوه إلى تحمل ما يترتب على ذلك، كما أن وجود شدة العَرَق في اليوم الشديد البرد، وثقل الجسد يدل على طاقة جبارة هائلة يبذلها النبي ﷺ، وهو ما يؤدي إلى غرس المُلْقَى إليه من القرآن الكريم في فؤاده غرساً، ونقشها في قلبه نقشاً.

ومن المعلوم أنك عندما تضرب شخصاً ضرباً شديداً، أو تضغط بعض أعضائه ضغطاً موجعاً وتقول إثر ذلك كلمة فإنه لا ينساها، ولذا كان الغت أو الغط في أول الوحي، وبُرحاء الوحي بعد ذلك في مظاهرها المتعددة، وثمة ملحوظة أخرى: هي تنوع مظاهر هذه البُرحاء بين صلصلة جرسٍ ودوي نحلٍ، وثقل جسد لتحقيق هدف النقش بأساليب مفاجئة مختلفة لا تعتادها النفس.وهو ما يعطي آفاقاً كبيرة في الأسلوب التربوي الذي ينبغي أن يُتَبع في حياتنا التعليمية.

وثانيها: وجود العلامة الحسية المشعرة للنبي ﷺ بنزول الوحي، وهو ما يدفع تطرق التوهم إليه فيطمئن قلبه -بعد- إذا استيقن، ويدفع تطرق التوهم إلى غيره، فيعلمون سبل الاتصال الرسول الملَك والرسول البشر، فيغدو ما يستنكرونه من هذا الاتصال كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف.

وثالثها: أن العلامة الحسية على الرغم من شدتها إلا أنها غير مشاهدة لغيره، ولا محسوسة من أحد سواه ممن حوله، إنما يشاهدون أعراضها في جسده مما لا يدخل تحت نطاق القدرة البشرية[1]، فلا وجه لنفي قراءة جبريل عليه السلام ما أنزله حرفاً حرفاً حال إنزال الوحي القرآني على قلبه، فعدم الشعور بذلك داخلٌ في أن أمر الوحي برمته غير محسوس أو غير معلوم لمن حوله، بصفة دقيقة إلا ما يرونه من علامات ظاهرية صارت قرائن على وجود الوحي.

وفي عصرنا يمكن للإنسان أن يسمع إنساناً، ويرى آخر عن طريق الهاتف المرئي دون أن يشترك معه غيره من المحيطين به في زمان التكلم والرؤية إذا توافر الجهاز

(١) أي أنهم اعتادوا ذلك من بعد بما يرونه من تأثر يظهر عليه على هيئة معينة،سموها (بُرحاء الوحي).

المرسِل عند من يتكلم، والمستقبِل عند من يسمع، وهكذا نقرر بأن الله -تعالى ذكره- قد هيأ القدرة لجبريل عليه السلام للاتصال برسوله ﷺ، وهيأ الرسول ﷺ بمستقبلات لما يُوحى إليه تدرك آثارها، ولا ترى حقيقتها وكيفيتها.

ورابعها: أن المقتضى المنهجي لهذه الشدة التي يعانيها الرسول ﷺ عند إنزال الوحي القرآني: أن يستشعر ذلك من يَحْفَظُ ألفاظ القرآن، ويُحَفِّظُها، ولا يتعامل مع لفظ القرآن بتساهلٍ يذهب بركة القرآن، .

فإن اعتُرض بأنه: قد ورد ما يدل على يسر الوحي، وسهولة تأتيه ففي رواية الطبراني لحديث الحارث بن هشام: «ويأتيني أحيانا في صورة رجل يكلمني كلاماً، وهو أهون علي» الحديث[١] فهذا يدل على أن ثم هيناً في الوحي وأهون منه، **فالجواب:** يوضح أمر هذه الرواية الروايات الأخرى، وذلك أولى من العكس، لطبيعة الشدة المصاحبة للوحي بالنسبة لمن وصفوا بأنهم عند الله جل جلاله فضلاً عمن سواهم، فقد أراد بقوله: (أهونه)، الأمر النسبي أي بالنسبة إلى الهيئة الأخرى من الوحي، قال ابن حجر -رحمه الله تعالى-: "يفهم منه أن الوحي كله شديد، ولكن هذه الصفة أشدها"[٢].

ولذا فإن الهيئة الأخرى -وهو المجيء في صورة رجل- ليست خاصة بالأنبياء بل يشترك فيها غيرهم، وقد كلمت الملائكة مريم بنت عمران، وليست بنبية عند الجمهور[٣]، كما كلم الملَك هاجر أم إسماعيل: فقد قال ابن عباس رضي الله عنه: «فإذا هي بالملَك عند موضع زمزم فبحث بعقبه -أو قال- بجناحه حتى ظهر الماء، فجعلت تحوضه، وتقول بيدها هكذا، فقال لها الملَك: لا تخافوا الضيعة؛ فإن هاهنا بيت الله، يبني هذا الغلام وأبوه، وإن الله لا يضيع أهله...»[٤].

---

(١) المعجم الكبير ١/ ٣٤٥، مرجع سابق.

(٢) فتح الباري ٨/ ٥٦٧، مرجع سابق.

(٣) انظر: تفسير القرطبي ٤/ ٤١، مرجع سابق.

(٤) صحيح البخاري ٣/ ١٢٢٧، مرجع سابق، وقد صرح برفعه في أثناء الحديث.

وهل يتنافى هذا مع كون القرآن ميسراً للذكر كما في قوله جل جلاله ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾[القمر: ١٧]؟ لا؛ لوجوه:

أولها: أن الحديث آتٍ عن كيفية إيصاله من الملأ الأعلى إلى الأرض لا ما بعد ذلك، إذ قد يقال يُسر عند انتقاله من بشر إلى بشر، على أن التيسير المذكور في الآية ينصرف إلى المعنى قبل اللفظ، بدليل ذكر علة التيسير (للذكر).

وثانيها: قد يُنازع في الأول، فالثاني واضح وهو: أن أعظم الكلام قد صيغ بأيسر الأساليب المفهومة، وإذا قورن بما ورد في معلقة امرئ القيس عُلِمَ مقدار تيسيره، مع أنه لا يستطاع مثله فذا وجه ثانٍ في توجيه الآية.

وثالثها: أن ما ذكر من المقتضى المنهجي قد صُرِّح فيه أن مراده استشعار ثقل القول، لا أنه عند حفظه ثقيل، ويدل له أنه لا يعرف كتاب سماوي، ولا أرضي تيسر حفظه كالقرآن، بل المقارنة هنا لا تتم لشدة البون بين المقارن بينهما[1]، وهو قوله جل وعز ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾[الدخان: ٥٨].

على أنه ينبغي تقرير أن وصف الله جل وعز لكلامه بأنه (قول ثقيل) مع أنه كلام، وكلامه –تعالى ذكره، وجَلَّ عن التشبيه والتمثيل–عندما ييسره للمخلوق لينقله بلسانه مع أن المعروف أنه يكون عبارة عن اهتزازات هوائية فلا يكون قولاً ثقيلاً إلا لأنه قول آخر غير قول البشر، ويُلْقى بطريقة خاصة حتى تكاد فخذ النبي ﷺ أن تَرُضَّ رِجْلَ كاتب الوحي، وتضع الناقة له جِرانها، ويتفصد له جبين الرسول ﷺ عرقاً، فالثقل المراد قد يكون في العملية التلقينية الأولى بين جبريل عليه السلام والنبي ﷺ،ثم يكون ميسراً بعد ذلك على الألسنة، وقد يكون الثقل هو في القيام به، وتطبيق معناه، وقد يكون الثقل بالنظر إلى أنه كلام الجبار العظيم جل جلاله كيف يطيق المخلوق حمله، أو فهمه، لا شك أن حدوث ذلك يدل على تيسير عظيم، مع أن

(١) وانظر في معنى الآية: روح المعاني ٢٧/ ١٢٩، مرجع سابق، والتحرير والتنوير ٢٧/ ١٧٩، مرجع سابق.

عظمة كلام الله جل وعز تجعله ثقيلاً على المخلوق، لكن الله جل جلاله يسره، وبهذا يُجمع بين آية المزمل وغيرها كآية الدخان، وآية القمر.

٣- التكلف الطَبَعي في حفظ الوحي: والبند السابق كان يتكلم عن التكلف غير الطبعي، وهنا الإشارة إلى التكلف الطبعي الذي كان في ابتداء الوحي، وقد وصفه ابن عباس رضي الله عنه بقوله: كان رسول الله ﷺ يعالج من التنزيل شدة، وكان مما يحرك به لسانه، وكان ذلك يعرف منه، الحديث(١).

فقوله «كان مما يحرك به لسانه» أي كان كثيراً يفعل ذلك، وكرر (كان) لطول الكلام، (يعالج) المعالجة المحاولة للشيء، والمشقة في تحصيله، وكان ذلك يعرف منه، أي يعرفه من رآه لما يظهر على وجهه وبدنه من أثره(٢).

٤-تلقي الوحي القرآني تلقي استماع لصوت متكلم بأحرف: إذ الوحي القرآني ليس إلقاء محضاً فجائياً في النفس (كالإلهام)، بل حركة وصوت مقطع حرفاً حرفاً متتابع على هيئة التعليم، ويدل له صريحاً قوله جل وعز: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ [القيامة: ١٦] ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾ [طه: ١١٤] ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ [النجم:٥]، وفي لفظ للبيهقي لحديث الحارث ابن هشام (فيعلمني)(٣)، وهي تطبيق واقعي لحقيقة ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ [النجم:٥]، ويدل لها قوله في الرواية المشهورة (فيكلمني) وعند أحمد (فيخبرني)(٤)، ولذا كان النبي ﷺ يحرك شفتيه عند تلقي الوحي القرآني، وما ذاك إلا لمتابعة الحرف الحرف(٥)، كما يدل له: حديث ابن عباس رضي الله عنه في قصة عثمان بن مظعون، وفيه: «إذ شخص

---

(١) يأتي تفصيله إن شاء الله في المبحث الخامس من هذا الفصل.

(٢) انظر: (السيوطي) أبوالفضل جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (٨٤٩ - ٩١١ هـ): الديباج على صحيح مسلم ٢/١٥٨ مراجعة: أبو إسحاق الحويني الأثري، دار ابن عفان - الخبر- السعودية.

(٣) وقال ابن حجر في فتح الباري ١/ ١٨، مرجع سابق: "هي تصحيف"، مع أنها لا تستبعد كما هو واضح.

(٤) أحمد ٦/١٦٣، مرجع سابق.

(٥) وانظر الدلالة الثالثة من بند المعاناة في المبحث الخامس، من هذا الفصل.

رسول الله ﷺ ببصره إلى السماء، فنظر ساعة إلى السماء، فأخذ يضع بصره، حتى وضعه على يمينه في الأرض، فتحرف رسول الله ﷺ عن جليسه عثمان إلى حيث وضع بصره، وأخذ ينفض رأسه كأنه يستفقه ما يقال له..»[1]، وفي حديث المعالجة[2]، وحديث المعارضة[3] من البحث ما يزيد ذا الكلام تفصيلاً.

٥-جمع القرآن في صدره ﷺ :إذ الوحي القرآني كله إنزال على القلب، ولما في قوله تعالى ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾[القيامة: ١٧] ويرتبط بهذه الحقيقة مفهومان:

الأول: أن ذلك لا ينافي أن تعليم جبريل عليه السلام هو إقراء لكلمات من حروف متتابعة، وتقدم في البند السابق.

الثاني: أنه لم ينزل من القرآن الكريم شيء فيلقيه إليه الملَك وهو على صورة الرجل على مجيئه الأسهل[4]، بل جاء على الصورة الأشد، وهذه حقيقة لم تُعَر كبير اهتمام لتقريرها، ولا في تقريرها، لعل ذلك لأنها بدهية قرآنية، ومن أدلتها:

١- ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾[البقرة: ٩٧]، فهذا عام في كل أنواع الموحَى به من قرآن وغيره، وإن كان جل المفسرين يذهب إلى أن الضمير يعود على القرآن الكريم عود شهرة لا تستدعي سبق الذكر، ولكن قوله تعالى ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾[الشعراء: ١٩٤-١٩٥] -وهو خاص بالقرآن الكريم- قد أظهر معنى الضمير الوارد في سورة البقرة، فإن نوزع في ذلك فحسبه أن يكون دليلاً مستقلاً.

٢- حديث التفلت الآتي ذكره بعد قليل[1]؛ إذ قد ضمن الله جل وعز جمعه في فؤاده.

---

(١) سبق تخريجه في المبحث الأول من الفصل الثالث.

(٢) انظر: المبحث السادس من هذا الفصل.

(٣) انظر: المبحث التاسع من هذا الفصل.

(٤) وصرح صاحب التحرير والتنوير ١٩ / ١٨٩، مرجع سابق أن حديث الحارث خاص بوحي القرآن.

٣- ما ذكر لنا من حوادث إنزال القرآن كلها تخدم هذه الحقيقة، ومنها ما ذكره زيد بن ثابت رضي الله عنه في كتبه للقرآن(٢)، إذ وصفه يدل على العادة المستمرة.

فلتنضم هذه الحقيقة الجليلة إلى حقائق تلقى النبي ﷺ القرآن من جبريل عليه السلام فتعطي بعداً أعظم لمن عمي بصره عن حقائق تلقي القرآن، فزعم دخول الاجتهاد البشري المحض فيه، ولتثبت أن حفظ القرآن هو الحفظ الكامل الذي لا يطرقه شك في تفلت أو نقصان؛ إذ مجيء جبريل عليه السلام كان على غير الهيئة المعتادة للبشر.

وثم حقيقة موازية تلوح في هذا الباب، وهي: أن هذا المجيء بهذه الشدة لا يستطيعه الجن في التسلط على بني آدم، إذ مَبْلَغ فعل الشيطان الإغواء والوسوسة والإغراء، والتلبس على قول من يثبته، أما هذه الشدة التي يسمعها رسول الله ﷺ فلا سبيل للشيطان لإحداثها.

فإن اعتُرض بأن: ظاهر آية سورة البقرة أن جبريل عليه السلام ألقى القرآن في قلب النبي ﷺ من غير سماع قراءة كما هو كذلك في سورة الشعراء ﴿ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾.

فالجواب: قد بُيِّن في مواضع أُخَر أن معنى ذلك أن الملَك، يقرؤه عليه حتى يسمعه منه فتصل ألفاظه ومعانيه إلى قلبه بعد سماعه، وذلك هو معنى (نزوله على قلبه)، ويُلاحظ أنه لم يقل (في قلبه) -كما سبق في المبحث الثاني- وذلك كما في قوله جل جلاله ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴾ [القيامة: ١٦]، وقوله: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾ [طه: ١١٤].

وليس المراد من النزول على القلب ما استدل به قوم راموا أمراً ما هم ببالغيه، فادعوا أن القرآن إلهامُ وقذفُ روحاني بدليل الآيتين المذكورتين؛ إذ العرب تستعمل النزول على القلب، وتكليم القلب، وتكليم الصدر، وحفظ الصدر، ونحو ذلك في

---

(١)انظر: ص١٠٧.

(٢) انظر: ص٩٩.

الحفظ والضبط والوعي والفهم لا في نفي السماع، كما قال أبو ذر رضي الله عنه:(ما ترك رسول الله ﷺ شيئاً مما صبه جبريل وميكائيل عليهما السلام في صدره، إلا قد صبه في صدري، وما تركت شيئاً مما صبه في صدري، إلا قد صببته في صدر مالك بن ضمرة)[1].

ولعل من أعظم أسرار قوله تعالى ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ غير ما تقدم، أن القرآن الكريم لا ينساه النبي ﷺ نسياناً كلياً كما روى ابن سعد من طريق أبي سلمة الماجشون أنه بلغه أن رسول الله ﷺ كان يقول: «كان الوحي يأتيني على نحوين: يأتيني به جبريل فيلقيه علي كما يلقي الرجل على الرجل فذلك ينفلت مني، ويأتيني في شيء مثل صوت الجرس حتى يخالط قلبي فذاك الذي لا يتفلت مني» وقال ابن حجر -رحمه الله تعالى-: "وهذا مرسل مع ثقة رجاله، فإن صح فهو محمول على ما كان قبل نزول قوله جل وعز ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ﴾، فإن الملَك قد تمثل رجلاً في صور كثيرة، ولم ينفلت منه ما أتاه به، كما في قصة مجيئه في صورة دحية، وفي صورة أعرابي، وغير ذلك، وكلها في الصحيح"[2].

وباعتبار أن الوحي القرآني كان شديداً، والنوم راحة لا شدة فيه، يُطْرَحُ سؤال على ميدان البحث:

هل أوحي إلى النبي ﷺ شيء من القرآن مناماً؟ والجواب: أن الظاهر من السمات العامة التي تقدمت أن ذلك لم يحدث، لما يتطلبه الوحي القرآني من استعداد وشدة.

فإن اعتُرض بأن: سورة الكوثر نزلت مناماً كما رواه أنس رضي الله عنه قال: (بينا رسول الله ﷺ ذات يوم بين أظهرنا - إذ أغفى إغفاءة، ثم رفع رأسه متبسماً، فقلنا: ما أضحكك يا رسول الله؟! قال: «أنزلت علي آنفاً سورة فقرأ: بسم الله

(١) المعجم الكبير٢/ ١٤٩، مرجع سابق.
(٢) فتح الباري ١/ ١٩، مرجع سابق.

الرحمن الرحيم ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ﴾[الكوثر: ١-٣]» الحديث [١]، إذ ظاهره أن سورة الكوثر نزلت مناماً؟.

فالجواب: ذكر العلماء عدداً من الأجوبة، ولكن الآلوسي -رحمه الله تعالى- ارتضى: أن معنى أغفى في الحديث منصرف إلى ظن بعض الرواة أن ذلك حدث له، وليس كذلك في واقع الأمر، وإنما اعترته برحاء الوحي حتى توهم بعض من حوله أنه أغفى فقال: "وقد يُظَن أنه ﷺ أغفى، ولا يحتاج من قال إن الأشبه أن القرآن كله نزل في اليقظة إلى تأويل هذا الخبر بأنه ﷺ خطر له في تلك الإغفاءة سورة الكوثر التي نزلت قبلها في اليقظة، أو عرض عليه الكوثر الذي أنزلت فيه السورة فقرأها عليهم، ثم إنه على ما قيل أن بعض القرآن نزل عليه ﷺ وهو نائم استدلالاً بهذا الخبر، يبقى ما قلناه من سماعه ﷺ ما ينزل إليه، ووعيه إياه بقوى إلهية قدسية ونومه ﷺ لا يمنع من ذلك، كيف وقد صح عنه أنه قال «تنام عيني ولا ينام قلبي»"[٢].

وهذا الذي مال إليه الآلوسي، هو ما ذهب إليه الرافعي[٣]، حيث نقل عنه السيوطي قوله: "والأولى أن تفسر الإغفاءة بالحالة التي كانت تعتريه عند الوحي، ويقال لها بُرَحاء الوحي؛ فإنه كان يؤخذ عن الدنيا، والأشبه أنه لم ينزل شيء من القرآن في النوم"[٤]، ومال إليه السندي في حاشيته على سنن النسائي فقال: "(إذ أغفى) الإغفاء -بالغين المعجمة-: النوم القليل، وفي المجمع: الإغفاء السِنَة، وهي حالة الوحي غالباً، ويحتمل أن يريد به الإعراض عما كان فيه"[٥]، وقال ابن خلدون: "أن توجد لهم -أي الأنبياء- في حال الوحي غيبة عن الحاضرين معهم مع غطيط، كأنها غشيٌ، أو إغماءٌ في رأي العين، وليست منهما في شيء، وإنما هي في الحقيقة استغراق في لقاء الملك

---

(١) صحيح مسلم ١/ ٣٠٠، مرجع سابق.

(٢) روح المعاني/ ١٨٢، مرجع سابق، والحديث المذكور أخرجه البخاري ١/ ٣٨٥، مرجع سابق.

(٣) كبير فقهاء الشافعية المناظر للإمام النووي ،وليس الأستاذ مصطفى صادق الرافعي أديب العصر.

(٤) الديباج على صحيح مسلم ٢/ ١٣٢، مرجع سابق.

(٥) (السندي) أبو الحسن نور الدين بن عبد الهادي ت ١١٣٨هـ: حاشية السندي على النسائي ٢/ ١٣٤، مراجعة: عبد الفتاح أبو غدة ١٤٠٦هـ – ١٩٨٦م، مكتبة المطبوعات الإسلامية – حلب.

الروحاني، بإدراكهم المناسب لهم الخارج عن مدارك البشر بالكلية، ثم يتنزل إلى المدارك البشرية، إما بسماع دوي من الكلام، فيتفهمه، أو يتمثل له صورة شخص يخاطبه، بما جاء به من عند الله ثم تنجلي عنه تلك الحال وقد وعى ما ألقى إليه"(١).

ويكفي في الرد على هذا الوجهة قول الله جل جلاله ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ﴾ [النجم:٥]؛ إذ التعليم منافٍ للنوم إن أُريد بالنوم ما يعتاد البشر، لا إن أُريد به نوم الأنبياء.

كما يظهر للباحث أن ما ذُكِرَ في الحديث من نزول سورة الكوثر ليس بنزول حقيقي لاتفاق أهل التفسير ومتتبعي النزول أن هذه السورة مكية، وسياقها مثبتٌ لمكيتها، وكلام أنس رضي الله عنه مشعر بوجوده حال الحديث وهو مدنيٌّ كما هو معلوم، وقد قال البيهقي: "والمشهور فيما بين أهل التفسير والمغازي أن هذه السورة مكية"(٢)، وما ذكره الآلوسي يصلح وجهاً عند التنزل للرد على نفي المعاناة في المنام من حيث إن قلب النبي ﷺ لا ينام.

وإذ انتهت هذه المسألة؛ فهل معنى ما قرر هنا أن الوحي غير القرآني لم يكن يأت النبي ﷺ على الصورة الأشد؟ والجواب: لا! إذ لا يعني ما قرر هاهنا، أن الوحي غير القرآني لم يكن يأتيه بالصورة الشديدة، بل قد يأتيه كذلك كما في حديث عبادة ابن الصامت رضي الله عنه أنه قال: «كان رسول الله ﷺ إذا نزل الوحي عليه كرب لذلك، وتربد وجهه، فأُوحي إليه ذات يوم، فلقي ذلك، فلما سرى عنه، قال رسول الله ﷺ: «خذوا عني. قد جعل الله لهن سبيلاً، الثيب بالثيب والبكر بالبكر، الثيب جلد مائة ثم رجماً بالحجارة، والبكر بالبكر جلد مائة، ثم نفي سنة»(٣). وهو دال على مجيء الوحي غير القرآني بالصورة الأشد.

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص٩٢، مرجع سابق.
(٢) سنن البيهقي الكبرى ٢/ ٤٣، مرجع سابق.
(٣) صحيح مسلم ٣/ ١٣١٦، مرجع سابق.

إنما المراد من البحث السابق نفي أن يأتيه الوحي القرآني بصورة نبذ الرجل، وإلقاء الفتى، ولذا تكاد لا ترى حديثاً فيه ذكر لوحي قرآني إلا وصفة إنزاله هي الشديدة إن ذُكِرت، حتى صار ذلك سيماء الوحي القرآني التي يذكرها كتابه عند وصفه، كما في حديث زيد ابن ثابت رضي الله عنه المتقدم.

٦- ارتقاء القوى البشرية للنبي ﷺ:لتسد كل ثغرة ضعف فيها عند التلقي حتى وقت الإبلاغ، كما قال تعالى ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٧] ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ [الأعلى: ٦]، وقد قال ابن حجر-رحمه الله تعالى- في قوله جل وعز ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ [العلق: ١]: "أي لا تقرؤه بقوتك، ولا بمعرفتك، لكن بحول ربك وإعانته"(١).

٧- الاستماع والإنصات: وهذا متجلٍ في الأمر العام ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤]، فإن نوزع فيه فالأمر الخاص ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٨]، أي: فاستمع له وأنصت: كما في تفسير ابن عباس رضي الله عنه (٢)، ويجعله نصاً في هذه المسألة نهيه عن تحريك لسانه.

والفرق بين الاستماع والإنصات: أن الاستماع أخص من الإنصات؛ لأن الاستماع الإصغاء، والإنصات السكوت، ولا يلزم من السكوت الإصغاء(٣).

٨- الوعي لما يقوله الملَك: وذا أمر قد تكفل الله به ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٧] ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ [الأعلى: ٦]، وسيأتي تحليل هذين الموقفين

(١) فتح الباري بشرح صحيح البخاري ١/ ٣٥، مرجع سابق.

(٢) انظر: حديث المعالجة المبحث السادس من هذا الفصل .

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري ٨/ ٦٨٣، مرجع سابق، ومثله: الديباج على صحيح مسلم ٢/ ١٥٨، مرجع سابق.

القرآنيين -إن شاء الله تعالى-[1]، وحدد النبي ﷺ إسقاطه الواقعي في قوله: «فيفصم «فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال».

وقوله: (فيفصم) يضرب أي فيقطع عني حامل الوحي "يقلع، وأصل الفصم القطع"[2](وقد وعيت عنه) أي حفظت عنه أي أجده في قلبي مكشوفاً مُتَبَيَّناً بلا التباس، ولا إشكال[3].

٩- تطبيق هيئات التلقي التوقيفية: وهذا ينبني على توقيفية هيئات التحمل، ويأتي ذلك في تحليل حديث المعالجة[4]، ومن الملاحظات التي تقال هاهنا أن سورة القيامة من أول ما نزل في مكة، وذاك دالٌ على التربية المبكرة على الطرق الصحيحة لتحمل القرآن الكريم.

ويرد بسط مفهوم التلقي والتلقين عقب حديث المعالجة([5]).

١٠-استعداد الملكات النفسية في النبي ﷺ للحفظ:حيث اقترن تلقي النبي ﷺ بكمال الرغبة في الحفظ وحب المحفوظ، ففي رواية الطبري عن الشعبي: (عجل يتكلم من حبه إياه)، ولا تنافي بين محبته إياه والشدة التي تلحقه في ذلك، فأُمِرَ بأن ينصت حتى يقضي الله جل وعز وحيه، ووعد بأنه آمن من تفلته منه بالنسيان أو غيره، ونحوه قوله جل وعز ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾ [طه: ١١٤] أي بالقراءة[6].

وعدم التنافي بين الحب والخوف لأن الحب ولد الخوف فكان ما هو معلوم[7].

---

(١) انظر: حديث المعالجة المبحث السادس من هذا الفصل، وآية الأعلى في الفصل الخامس -المبحث الثاني .

(٢) (السيوطي) أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، ت٩١١هـ : تنوير الحوالك شرح موطأ مالك ص١٦٠، ١٣٨٩-١٩٦٩م المكتبة التجارية الكبرى - مصر.

(٣) حاشية السندي على النسائي ٢/ ١٥٠، مرجع سابق.

(٤) انظر : حديث المعالجة في المبحث السادس من هذا الفصل.

(٥) انظر: في المبحث السابع من هذا الفصل.

(٦)انظر: فتح الباري بشرح صحيح البخاري ١/ ٤٤، مرجع سابق، وانظر: تفسير القرطبي ١٩/ ١٠٦، مرجع سابق.

(٧) تفسير الطبري٢٩/ ١٨٧، مرجع سابق، وانظر: روح المعاني ٢٩/ ٢٤٣، مرجع سابق.

والمقتضى المنهجي لذلك: غرس الإجلال لحفظ القرآن في نفس المتقدم لحفظه من حيث شرف الحفظ، ومن حيث رهبة ادعاء الانتساب إلى زمرة الحفاظ إن لم يكن قائماً بالقرآن تقويماً لألفاظه، وقياماً بأحكامه، وتمثلاً لأخلاقه...[1].

وما زال حادي الشوق يأرز إلى الحرم المطهر والمسجد النبوي حيث آثار جبريل عليه السلام والنبي ﷺ، إذ ثم كان مركز تَعَلُّم ألفاظ القرآن الكريم من أمين الوحي في السماء عليه السلام لأمين الوحي في الأرض ﷺ.

ما لمطايانا تميل مالها؟ ... أظن رملَ رامة بدا لها[2]

لا تحسبنَّ ميلها من مللٍ ... وإنما سكرُ الهوى أمالها

تجدُّ وجداً في الحُزون كلما ... تذكرت من يشرب أطلالها[3]

وإن حدا الحادي بذكر طيبةٍ ... هيج ذكر طيبةٍ بَلبالها[4]

فشوقُها يدفعُها حتى ترى ... آمالها هناك، أو آجالها

المبحث السادس: حديث المعالجة ودلالاته العامة:

يبسط هذا المبحث حديث المعالجة المشهور في تلقي النبي ﷺ ألفاظ القرآن الكريم من جبريل عليه السلام، حيث ظهر فيه اجتهاد النبي ﷺ في هذا التلقي قبل نزول التوقيف الإلهي، والتزامه بمفردات التوقيف الإلهي بعد ذلك، وقد دل هذا الحديث على دلالات هامة في مسألة تلقي القرآن من جبريل عليه السلام، ولذا فإن هذا المبحث سينقسم إلى خمسة مطالب:

---

(١) إذ يُلاحَظ تساهلٌ بالغٌ في حفظ القرآن من قبل المتقدِّم له،فلا هيبة له، ولا إجلال يعتريه، لكأنما يشربه شربَ الماء، غيرَ مصطحبٍ معه في مسيرة حفظه حباً أو خوفاً.

(٢) رامة: موضع في البادية، وأراد به التكنية عن البلد التي هواها فؤاده، كما هوتها القلوب،وصَرَّحَ بأنها طيبة -بعد-.

(٣) الحُزون: جمع حزْن، وهي ما غلظ من الأرض،يكني عن مشقة السفر.

(٤) البَلْبال: شدَّة الهم والوَسْواس في الصدور وحديث النفس، فأما البِلْبال، بالكسر، فمصدر انظر: لسان العرب ١١/ ٦٩.

المطلب الأول: متن حديث المعالجة برواياته المختلفة.

المطلب الثاني: تحليل الموقف في حديث المعالجة.

المطلب الثالث: تحليل آيات سورة القيامة الواردة في حديث المعالجة.

المطلب الرابع: من فوائد حديث المعالجة.

المطلب الخامس: من الدلالات الخاصة لحديث المعالجة.

المطلب الأول: متن حديث المعالجة برواياته المختلفة:

عن ابن عباس رضي الله عنه في قوله تعالى ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ قال: كان رسول الله ﷺ يعالج من التنزيل شدة [وفي المعجم الكبير: إذا نزل عليه القرآن تلقاه بلسانه وشفتيه] وكان مما يحرك به [لسانه و]شفتيه [وفي السنن الكبرى للنسائي مخافة أن يفلت منه] [فيشتد عليه وكان يعرف منه] فقال ابن عباس رضي الله عنه: فأنا أحركهما لكم كما كان رسول الله ﷺ يحركهما، وقال سعيد: أنا أحركهما كما رأيت ابن عباس رضي الله عنه يحركهما، فحرك شفتيه، فأنزل الله تعالى ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ١٦ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ قال: جمعه له في صدرك وتقرأه، ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾، قال: فاستمع له وأنصت، ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ ثم إن علينا أن تقرأه، فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك إذا أتاه جبريل عليه السلام استمع [وأطرق]، فإذا انطلق جبريل عليه السلام قرأه النبي ﷺ كما قرأه [كما وعده الله](1)، وفي لفظ للبخاري: كان النبي ﷺ إذا نزل عليه الوحي حرك به لسانه -ووصف سفيان يريد أن يحفظه- فأنزل الله ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾، وفي لفظ له: فقيل له ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ يخشى أن ينفلت منه ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ أن نجمعه في صدرك، وقرآنه أن تقرأه ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ﴾ يقول أنزل عليه ﴿فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ أن نبينه على

---

(1) صحيح البخاري ١/ ٦، مرجع سابق، والزيادات غير المعزوة هي للبخاري من طرق أخرى.

لسانك، وفي السنن الكبرى للنسائي: إذا نزل القرآن عليه يعجل بقراءتها ليحفظه[1]، وفي لفظ: كان يعالج من ذلك شدة فأنزل الله **جل جلاله** ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ يقول: لتعجل بأخذه، يقول: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ يقول: جمعه أن نجمعه في صدرك، وأن تقرأه، ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ﴾ فإذا أنزلناه، ﴿فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ يقول: فاستمع وأنصت، ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾: أن نبينه بلسانك فاستراح رسول الله ﷺ [2].

المطلب الثاني: تحليل الموقف في حديث المعالجة:

سبب المعاناة: كان النبي ﷺ يعاني عند إنزال القرآن عليه، وتلقيه له من صوت الملَك من مشكلة استيعاب قواه البشرية للفظه؛ إذ يخاف من ضعفها مع عظم المُنْزل، فيتعجل أخذه من الملَك متلقياً إياه بلسانه وشفتيه[3]، لا لصعوبة حفظه؛ إذ هو من قوم اشتهروا بالحافظة المدهشة حتى أقاموها مقام الكتابة، وإنما كان سبب المعاناة متمثلاً فيما يلي:

١) علمه أنه قد كُلِّفَ في حدود ما تطيقه قواه البشرية؛ إذ تلك من أساسات الشريعة، وتحديد مقدار هذه الطاقة عائدٌ إلى مراقبة العبد لربه الذي يعلم السر وأخفى، ولذا فالنبي ﷺ يستنفر -عند نزول الوحي عليه- جميع قواه خوفاً من التقصير، وهذا واضح عند تحليل النص للوهلة الأولى.

٢) إشفاقه من أن يعتريه القصور البشري، فينفلت بعض القرآن منه، خاصة أنه لا يعلم الغيب ﷺ، ولا يدري كمية المنزل من حيث القلة والكثرة.

٣) حبه للقرآن الكريم، ولا تنافي بينه وبين السابق إذ الحب مولد الإشفاق.

---

(١) ونحوه في: (الحميدي) أبو بكر عبد الله بن الزبير ت٢١٩هـ: مسند الحميدي، مراجعة: حبيب الرحمن الأعظمي، ١٣٨١هـ، دار الكتب العلمية –بيروت.

(٢) المعجم الكبير ١١/٤٥٨، مرجع سابق.

(٣) وفيه دليل على وجوب حفظ القرآن على النبي ﷺ إذ لو كان يريد حفظ المعنى لما احتاج لبذل هذا الجهد، كما أن فيه دليلاً على أن القرآن ليس بإلهام.

فنُهِيَ النبي ﷺ عن اتباع أساليبه الخاصة في تلقي القرآن وحفظه من العجلة بأخذه، وتحريك اللسان لأجل ذلك في موضعين من القرآن الكريم، هما موضعا طه والقيامة، وأُخبر أن هيئة تلقي القرآن توقيف، وليست اجتهاداً، وبُيِّن له الأساليب التي يتلقى بها القرآن، وَوُعِدَ بثلاثة أمور (من حيث اللفظ حيث أُمِرَ بذلك، وضُمِنَ له تحقيقه): جمعه في صدره (حفظ أصل اللفظ)، وقراءته بعد ذهاب الملَك كما قرأه عليه الملَك(أداء اللفظ بالهيئة التجويدية والأدائية ذاتها)، وتبيينه بلسانه أي أداؤه كما أنزل إليه[1]، فقد نهُي النبي ﷺ عن اتباع أساليبه الاجتهادية في تلقي الوحي القرآني وتعلمه، والموضعان اللذان فيهما النهي:

أحدهما: قوله جل جلاله ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾ [طه: ١١٤]، والآخر: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ [القيامة: ١٦].

فأما الأول: وهو قوله جل جلاله: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾ [طه: ١١٤]، فقد قرر المفسرون أنه يجوز أن يكون معنى العجلة بالقرآن العجلة بقراءته حال إلقاء جبريل عليه السلام آياته، فعن ابن عباس رضي الله عنه: كان النبي ﷺ يبادر جبريل عليه السلام فيقرأ قبل أن يفرغ جبريل عليه السلام حرصاً على الحفظ وخشية من النسيان، فأنزل الله جل وعز ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]، فيكون المراد بقضاء وحيه: إتمامه وانتهاؤه، أي انتهاء المقدار الذي هو بصدد النزول"[2].

وأما الثاني فهو في سورة القيامة: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٦-١٩].

---

(١) وتفصيل ذلك يأتي في المطلب الثالث من هذا المبحث: تحليل آيات سورة القيامة.

(٢) انظر: التحرير والتنوير ١٩/٣١٧، مرجع سابق، ونحوه في تفسير الجلالين وحاشية الصاوي عليهما ٣/ ٨٠، مرجع سابق، وكذا في تفسير ابن كثير ٣ / ٤٩٥، مرجع سابق.

المطلب الثالث: تحليل آيات سورة القيامة الورادة في حديث المعالجة:

- ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ﴾:

ورد فيها معنيان(1):

١- علينا أن نجمعه في صدرك: وهو عن ابن عباس رضي الله عنه وهو في الصحيح كما في متن الحديث، وعن قتادة تفسيره بالحفظ(2)، وهما تعبيران آيلان إلى معنى واحد.

٢- الجمع هو التأليف: وهو ما رواه الطبري عن قتادة(3)، ورواه البخاري معلقاً عن ابن عباس رضي الله عنه فقال: قوله جل وعز ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾: تأليف بعضه إلى بعض(4).

وكلا المعنيين يكونان حقيقة الجمع، وهي: جمعه في الصدر محفوظاً كما أنزله الله جل جلاله بلفظه ونظمه وتأليفه، ولئن كان تأليفه (ترتيب الآيات للاختلاف في ترتيب السور) من الله، فلأن تكون أوجه الأداء منه سبحانه وتعالى أولى.

- ﴿وَقُرْءَانَهُۥ﴾: وقع في رواية الطبري في معناها: وتقرأه بعد، أي: قراءتك إياه، أي جريانه على لسانك، فقرآنه مصدر مضاف إلى المفعول(5).

- ﴿فَإِذَا قَرَأْنَهُ﴾: ورد في هذه الآية أربعة معانٍ عن ابن عباس رضي الله عنه (6):

---

(1) وأورد الآلوسي في ررح المعاني ٢٩/ ٢٤٤، مرجع سابق: قولين آخرين في معنى جمعه وقرآنه وضعفهما، ولا يستحقان الاشتغال بهما.

(2) انظر: فتح الباري ٨/ ٦٣٧، مرجع سابق.

(3) تفسير الطبري ٢٩/ ١٨٨، مرجع سابق.

(4) صحيح البخاري ٤/ ١٧٧٠، مرجع سابق.

(5) حاشية الصاوي بهامش تفسير الجلالين ٤ / ٣٥٣، مرجع سابق.

(6) أما ابن حجر-رحمه الله تعالى- فقال: "والحاصل أن لابن عباس ﷺفي تأويل قوله تعالى ﴿قَرَأْنَهُ﴾ وفي قوله ﴿فَٱتَّبِعْ﴾ قولين" انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري ٨/ ٦٨٣، مرجع سابق.

الأول: أي قرأه عليك الملك، وهو مما ورد في متن الحديث.

والثاني: رواه عنه البخاري: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾: فإذا جمعناه وألفناه، ﴿فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ أي ما جمع فيه، فاعمل بما أمرك، وانته عما نهاك الله[1].

والثالث: رواه عنه البخاري فقال: "باب قوله ﴿فَإِذَا قَرَأْنَهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنه: ﴿قَرَأْنَهُ﴾ بيناه ﴿فَٱتَّبِعْ﴾ اعمل به"[2].

والرابع: أي: (فإذا أنزلناه) معلقاً، رواه عنه البخاري موصولاً في خلق أفعال العباد، وفيه: "﴿فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ فاتبع مجمله، وتفهم ما فيه"[3].

وعند الطبري من طريق قتادة في قوله ﴿فَٱتَّبِعْ﴾ ما يؤيد التأويل الثاني لابن عباس رضي الله عنه إذ قال فيه:"اتبع حلاله واجتنب حرامه"[4].

والتفسير الأول عن ابن عباس رضي الله عنه أشهر.

ولا تنافي بين هذه التأويلات؛ إذ يصبح المعنى عند الجمع بين الوارد فيها: فإذا أنزلناه فبيناه، بأن قرأه عليه المَلَك مجموعاً مؤلفاً فاستمع له وأنصت، فإذا انتهت قراءة جبريل عليه السلام فاقرأ أنت، ثم اتبع ما فيه من حلال، واجتنب ما فيه من حرام، فكانت ألفاظ التفسير مختلفة بحسب بدايات نزول القرآن ونهاياته؛ إذ البدء يكون بنزول المَلَك، ثم التبيين بقراءة المَلَك أيضاً، وهو مستدعٍ لإنصات النبي ﷺ، ثم تكون

---

(١) صحيح البخاري ٤/ ١٧٧٠، مرجع سابق.

(٢) صحيح البخاري ٤/ ١٨٧٧، مرجع سابق، وقال ابن حجر-رحمه الله تعالى-: "هذا التفسير رواه على بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما - أخرجه بن أبي حاتم" انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري ٨/ ٦٨٢، مرجع سابق.

(٣) (البخاري) أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن إسماعيل الجعفي ت٢٥٦هـ: خلق أفعال العباد ٨٤ مراجعة: د. عبد الرحمن عميرة، دار المعارف السعودية- الرياض ١٣٩٨هـ -١٩٧٨م.

(٤) تفسير الطبري ٢٩/ ١٨٨، مرجع سابق.

مرحلة قراءة النبي ﷺ، ثم مرحلة العمل به...فقد اتفقت في حقيقتها[1]، ويدل لهذا أن ابن عباس رضي الله عنه فسر قوله تعالى ﴿أَنزَلْنَاهَا﴾[النور: ١]، كما روى عنه البخاري: بيناها [2]، وقال ابن حجر:"كذا في النسخ، والصواب (أنزلناها وفرضناها) بيناها" [3]، فجعل معنى بيناها لفرضناها لا لأنزلناها، وهو غريبٌ من حيث إنه صرح بأن النسخ اجتمعت على أن بيناها معنى لأنزلناها، فكان النظر داعياً إلى التأمل في المناسبة بينهما قبل صرفه بادئ الرأي إلى معنى آخر، وقد ظهرت للباحث مناسبة معنى الإنزال للبيان من خلال تأويل ابن عباس رضي الله عنه لقوله ﴿قَرَأْنَاهُ﴾ بأنه أنزلناه تارة، وبمعنى بيناه تارة أخرى، فقد جعل ابن عباس رضي الله عنه البيان لازم الإنزال، وما أحسن ذاك بالنظر إلى الذات الإلهية، فتخطئة النسخ جميعاً عارض يفتقد القرينة فنبقى على الأصل.

- ﴿فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾[4]: ورد فيها أربعة معانٍ:

أولها: فاستمع له وأنصت: "أي أنصت إلى قراءتنا"[5]، وقال الزمخشري: "فكن مصغياً له فيه، ولا تراسله، وطمئن نفسك أنه لا يبقى غير محفوظ؛فنحن في ضمان تحفيظه".

وقال الآلوسي:"فكن مصغياً له لا مبارياً، وقيل: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ﴾ فاتبع بذهنك وفكرك ﴿قُرْآنَهُ﴾ أي: فاستمع وأنصت، وصح هذا من رواية الشيخين وغيرهما عن ابن عباس رضي الله عنه "[6].

---

(١) وهذا التأويل للآيات هو الموافق لتأويل ابن عباس رضي الله عنه كما سبق. وقد قال عنه صاحب التحرير والتنوير ٢٩/ ٣٤٩، مرجع سابق: "هذا ما لا خلاف فيه بين أهل الحديث وأئمة التفسير".

(٢) صحيح البخاري ٤/ ١٧٧٠، مرجع سابق.

(٣) فتح الباري ٨/ ٤٣٣، مرجع سابق.

(٤) روح المعاني٢٩/ ٢٤٤، مرجع سابق.

(٥) التحرير والتنوير ٢٩/ ٣٤٩، مرجع سابق.

(٦) روح المعاني ٢٩/ ٢٤٤، مرجع سابق.

وثانيها: أن الضمير في قوله ﴿فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ﴾ لجبريل عليه السلام، والتقدير: فإذا انتهت قراءة جبريل عليه السلام فاقرأ أنت[١].

وثالثها: فاعمل ما أمرك.

ورابعها: اتبع مجمله وتفهم ما فيه.

ولا تنافي بينها، بل حال هذه الآية كما سبق فيما قبلها.

- ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا بَيَانَهُۥ﴾: ورد فيه معنيان أيضاً:

أن نبينه بلسانك[٢]، والآخر: العمل، وذكر ابن جرير القولين[٣]، ولا تنافي بينهما كما يظهر[٤]، والقول فيهما كالقول في الآية السابقة، مثلاً بمثل، وذلك أن بيان مجمله، مجمله، أو تفصيل مشكله غير كائن إلا بتحقيق لفظه، وقد يقف الراسخون في العلم حيارى أمام لفظة محرفة، أو مصحفة حتى يتيقنوا لفظها أو يقاربوا، ثم يسبروا غور معناها بعد، والأمر هاهنا كذلك إذ ينصرف معنى البيان انصرافاً أولياً إلى معنى البيان اللفظي، وهو آيل في كلام الله -بعد- إلى البيان المعنوي، فمن فسره بالبيان المعنوي فهو باعتبار نهاية الأمر، ولذا قُدِّمَ تأويل الآية بالبيان اللفظي عند العلماء:

فقال الآمدي: "يجوز أن يراد بالبيان الإظهار، لا بيان المجمل: يقال بان الكوكب إذا ظهر -قال- ويؤيد ذلك أن المراد جميع القرآن، والمجمل إنما هو بعضه، ولا اختصاص لبعضه بالأمر المذكور دون بعض"[٥]، ومعنى الجملتين ﴿إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ

(١) فتح الباري ٨/ ٦٨٣، مرجع سابق.

(٢) وعند البخاري في خلق أفعال العباد٨٤، مرجع سابق: "أن نثبته على لسانك" ولا يعترض بأنه يحتمل أن يكون قد اعتراها التصحيف؛إذ قد ورد في قوله تعالى: ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾[الحجرات:٦] القراءة الأخرى ﴿**فتثبتوا**﴾ والمعنى مرتبط بينهما؛ إذ التثبت ثمرة التبين.

(٣) تفسير الطبري٢٩/ ١٨٩، مرجع سابق.

(٤) كما لا منافاة بين الأقوال الثلاثة التي أوردها ابن جرير ٢٩/ ١٨٩، مرجع سابق في تأويل ﴿فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ﴾ وهي: فاستمع قرآنه، فاتبع معانيه من الشرائع والأحكام، فاعمل به.

(٥) فتح الباري شرح صحيح البخاري ٨/ ٦٣٧، مرجع سابق.

﴿وَقُرْءَانَهُۥ﴾: "إن علينا جمع الوحي، وأن تقرأه، وفوق ذلك أن تبينه للناس بلسانك، أي نتكفل لك بأن يكون جمعه وقرآنه بلسانك، أي عن ظهر قلبك لا بكتابة تقرؤها، بل أن يكون محفوظاً في الصدور، مبيناً لكل سامع لا يتوقف على مراجعة، ولا على إحضار مصحف من قرب أو بعد، فالبيان هنا بيان ألفاظه، ليس بيان معانيه؛ لأن بيان معانيه ملازم لورود ألفاظه"(1)..، وقال الآلوسي: "يجوز أن يراد بالبيان الإظهار لا بيان المجمل، وقد صح من رواية الشيخين وغيرهما وجماعة عن الحبر أنه قال في ذلك: ثم إن علينا أن نبينه بلسانك، وفي لفظ: علينا أن تقرأه، ويؤيد ذلك أن المراد بيان جميع القرآن، والمجمل بعضه" (2).

وهذا عند التقديم لشيء على شئ، وإلا فإن الآية محتملة لجميع أنواع البيان يقدمها بيان اللفظ إذ الكلام فيه، وغيره يُبْنَى عليه، ويقوي ذلك العموم لأنواع البيان: أن قوله بيانه جنس مضاف فيعم جميع أصنافه من إظهاره، وتبيين أحكامه، وما يتعلق بها من تخصيص، وتقييد، ونسخ، وغير ذلك.

ففي هذه الآيات: تكفل الله له أن يجمعه في صدره، وأن ييسره لأدائه على الوجه الذي ألقاه إليه، وأن يبينه له، ويفسره، ويوضحه، فالحالة الأولى جمعه في صدره، والثانية تلاوته وبيانه في مخارج لفظه حق بيانه، والثالثة تفسيره، وإيضاح معناه(3).

وتلخيصاً للمعالم السابقة مع ما ورد في الفصل الأول يقال: انطلاقاً من قاعدتي الإثبات والنفي الحاصرتين المانعتين لأي تدخلٍ من الخلق في أداء كلام الله جل وعز، وهما الوارتان في قوله –تعالى ذكره-: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾[الحجر:9] إثباتاً، ﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ [الأنعام: 115] نفياً، فإن الحفظ الإلهي للكتاب الكريم

(1) انظر: التحرير والتنوير 29/ 350، مرجع سابق.

(2) روح المعاني 29/ 244، مرجع سابق.

(3) انظر: (ابن كثير) أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي ت774هـ: تفسير القرآن العظيم 4/ 383، تقديم: محمد عبد الرحمن المرعشلي، إعداد: مكتب تحقيق دار إحياء التراث العربي، أعد فهارسها: رياض عبد الله عبد الهادي ط1، 1417- 1997م، دار إحياء التراث العربي-بيروت.

في عالم المخلوقين قد بدأت أدواته الواقعية بالتشكل مذ تكلم به الخالق -تعالى ذكره-: فقد اختار الله جل جلاله حافظاً قوياً أميناً لنقل كلامه، وتعليمه للخلق بدقة متناهية، ونحن نعرف من وسائل العصر ما يتمكن به الإنسان من حفظ كلامه بلا تغير، بل بنفس المؤثرات التي تحف بكلامه، كالمُسَجِلة التي إذا وجهت رسالة بواسطتها لشخص، أمكنك أن تقول له: قد قلت لك كذا وكذا مع أنك قلته في وقت آخر، ومكان آخر، ولا تكون كاذباً بذلك، وإن كان لم يسمع منك مباشرة، بل سمع من المسجل، لكن المسجلة لدقة حفظها، وضبطها نقلت نقلاً أميناً، ولله المثل الأعلى، فقد جعل الله -تعالى ذكره-جبريل عليه السلام أميناً على الوحي قوياً على نقله لدرجة يكاد من دقتها أن يصح القول بأن الذي اقرأ النبي ﷺ هو الله -تعالى ذكره-، ولذا جاز نسبة إقراء جبريل عليه السلام النبي ﷺ كلام الله إلى الله -تعالى ذكره- لشدة ضبطه وإتقانه ودقته، وهذا هو سر إسناد الفعل إلى الله في قوله جل وعز ﴿فَإِذَا قَرَأْنَهُ﴾ مع أن القائم به هو جبريل عليه السلام، فكانت قراءة جبريل عليه السلام مطابقة أمينة تماماً كما تلقاه عن الله -جل وعلا-.

المطلب الرابع: من فوائد حديث المعالجة[1]:

أول فائدة تتعلق بلفظ القرآن: هي أن الالتزام بجمع القرآن في صدر النبي ﷺ ثم جريانه على لسانه كما قرأه جبريل عليه السلام.. لم يقف عند قراءة الألفاظ كما هي، بل تعدى ذلك إلى (بيان الألفاظ) بياناً واضحاً مستمداً من عربية اللسان من حيث العموم، وهيئة تلاوة القرآن من حيث خصوص كونه قرآناً، فتأويل ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ "بتفهيم ما أشكل عليك من معانيه"[2] قصرٌ لعامٍ بغير دليل، وتخصيص للمعنى بغير مخصص، على أن الأنسب والأوفق للمقام الكلام على اللفظ قبل المعنى "فإن الكلام له لفظ ومعنى، وله نسبة إلى الأذن والقلب ومتعلق بهما، فسماع لفظه حظ

(١) عدا ما تقدم في المطالب السابقة.

(٢) حاشية الصاوي ٣/ ٣٥٤، مرجع سابق.

الأذن، وسماع حقيقة معناه ومقصوده حظ القلب"[1]، وكلاهما مراد بيانه، والأول أولى لأنه طريق إلى الثاني الذي هو الغاية من الأمرين، قال ابن كثير في قوله جل وعز ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾: أي بعد حفظه وتلاوته، نبينه لك ونوضحه، ونلهمك معناه على ما أردنا وشرعنا"[2].

وثاني فائدة تؤخذ من هذه الآيات مما يتعلق باللفظ: أن الحفظ للألفاظ مقدم على استلهام المعنى وبيانه[3]، وهي القاعدة المستنتجة من قوله جل جلاله ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾، فليس المعنى سابقاً للحفظ، والمراد ليس إيجاد المعنى إذ هو قبل اللفظ في حيز العدم والخفاء، وليس المراد استحضاره في الذهن، وهو يدل من جهةٍ أخرى على أهمية ضبط اللفظ، لا على ما زُعِمَ من أن المعاني الأولية هي المقصودة بقطع النظر عن قالبها، وهي ما سمي أصولياً بالمعاني الثانوية[4]، ثم كانت هذه التسمية، وذا التقسيم سبباً في التهوين من الجانب اللفظي للكلمات، وبذا استبان غرور من ادعى سبق الاهتمام بالمعنى، وقد يُسَّلم في أن المعنى يسبق اللفظ من حيث الوجود النفسي، ولكن الكلام هنا عن معنى موجود في الخارج عُبّر عنه بلفظٍ، فأنّى له أن يُعرف دون عبور ممره الموصل إليه وهو اللفظ؟، وهذا هو حال ألفاظ القرآن الكريم؛ إذ لا يُعرف المعنى الذي يُريده الله جل وعز في كلامه إلا بمعرفة لفظه، ولفظه هو جل وعز لا لفظ غيره، وهذا على القول بأن ﴿ثُمَّ﴾ في قوله جل وعز ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ للتراخي الزمني، إما على القول بأنها للتراخي الرتبي... فلا تنخرم القاعدة كلياً لكنها تعدل بحيث يقيد بيان المعنى بملازمة إتقان اللفظ إذ هو طريقه.

---

(١) تهذيب مدارج السالكين١/ ٧٠، مرجع سابق.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٣٨٣، مرجع سابق.

(٣) وهو ما رجحه العلماء في فهم الآية كما سبق، على أن الترجيح فرع التضاد، ولا تضاد بحمد الله ،

(٤) واستنتج البعض هذا من فهم خاطئ لكلام الإمام الشاطبي في الموافقات ٢/ ٦٦، مرجع سابق، فإنه إنما مهد بكلامه ذاك عن مسألة الترجمة للقرآن.

ولعل هذا المعنى هو الذي يسوغ تعليم الصبيان ألفاظ القرآن، وتحفيظهم إياها، وإن لم يتقنوا معناها.

كما لا ينافي هذا التأويل ما أورده ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنه: "كان لا يفتر من القرآن مخافة أن ينساه فقال الله ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ﴾ أن نجمعه لك ﴿وَقُرْءَانَهُۥ﴾ أن نقرئك فلا تنسى"[1]؛ فإنها مؤيدة لما سبق مكملة له ففيها التأكيد على تكفل الله جل جلاله بحفظ كتابه من حيث العموم، بالإضافة إلى ما نبأت به الروايات الأولى في هيئات حفظ كتابه من حيث الخصوص (خصوص التلقي في كل مرة) وانظر ما سيأتي في بند تكرار المحفوظ[2].

المطلب الخامس: من دلالات الحديث الخاصة:

١- تحريك الفم: فالقراءة النفسية لا وجود لها، أو لا تسمى قراءة عند الإطلاق[3]. ولا يعترض على هذا بأنه: منتقضٌ بأن القرآن ذِكْرٌ، فيكون في النفس، كالقول؛ إذ قال الله جل وعز: ﴿وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾[المجادلة: ٨]، لأن القراءة مرتبة أعلى من القول من حيث تحريك الفم

(الشفتين واللسان)، ولذا قال الله جل وعز ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤]، ولم يقل (وإذا قيل)، ويدل له: أنه كان يمكن أن لا ينازع الصحابة رسول في القراءة في الصلاة لو قرأوا في أنفسهم، وسمي فعلُهم قراءة، ولكنه أبى عليهم، إذ القراءة لا بد فيها من تحريك الفم، بل وإسماع النفس على الأقل عند بعض الفقهاء[4]، وقد يقال كل ما ذكر معارَض، فيجاب

---

(١) تفسير الطبري ٢٩/ ١٩٠، مرجع سابق.

(٢) انظر: المبحث الثامن من هذا الفصل.

(٣) ولذا بوب الإمام البيهقي في سننه الكبرى ٧/ ٣٥٠، مرجع سابق: "باب الرجل يطلق امرأته في نفسه ولم يحرك به لسانه".

(٤) انظر: (المهدي) أحمد بن يحيى المرتضى ت٨٤٠هـ: البحر الزخار الجامع لمذاهب علماء الأمصار، وبهامشه: جواهر الأخبار والآثار المستخرجة من لجة البحر الزخار للعلامة محمد بن يحيى بن بهران الصعدي

حينئذ بأن القراءة النفسية -إن وجدت- لابد من تقييدها بذلك، ولا يكفي فيها الإطلاق.

وقوله: (فأنا أحركهما) دلالة على أن القراءة لا تسمى كذلك إلا بتحريك الشفتين، ويدل على ذلك آية القيامة ﴿لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ﴾ وآية طه ﴿وَلَا تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مِن قَبۡلِ أَن يُقۡضَىٰٓ إِلَيۡكَ وَحۡيُهُۥۖ﴾؛ إذ يُلمَحُ منها ضرورة تحريك اللسان في حفظ القرآن إذ النهي مؤقت بقراءة المعلم.

ونأخذ منه أيضاً أفضلية استجماع القلب والإنصات التام للسماع الأول من الشيخ، لتكون خطوات لازمة من خطوات تلقي القرآن، وقراءته، وحفظه.

ومن بواعث تحريك الفم عند قراءة القرآن: الحفظ، وخشية النسيان، وحب القرآن، ومن أسرار ذلك: تهييج اللسان لإظهار استسلامه لله، وحركته في طاعة الله جل جلاله جل وعز ومبادرته في المشاركة في إظهار كلام الله جل جلاله، فيشترك القلب، واللسان، ثم الجوارح بالعمل في إجلال كلام الله جل وعز، وقال ابن حجر في تجلية عمل اللسان في إحياء البواعث المذكورة: "قوله: (فيشتد عليه) ظاهر هذا السياق أن السبب في المبادرة حصول المشقة التي يجدها عند النزول فكان يتعجل بأخذه لنزول المشقة سريعا، وبين في رواية إسرائيل: (أن ذلك كان خشية أن ينساه، حيث قال: فقيل له ﴿لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ﴾ تخشى أن ينفلت)، وأخرج بن أبي حاتم من طريق أبي رجاء عن الحسن: (كان يحرك به لسانه، يتذكره، فقيل له: إنا سنحفظه عليك)، وللطبري من طريق الشعبي: (كان إذا نزل عليه عجل يتكلم به من حبه إياه)، وظاهره أنه كان يتكلم بما يلقى إليه منه أولا فأولاً من شدة حبه إياه فأمر أن يتأنى إلى أن ينقضي النزول، ولا بعد في تعدد السبب"(١).

ت٩٥٧هـ، أشرف عليها:عبد الله محمد الصديق، وعبد الحفيظ سعد عطية، دار الكتاب الإسلامي - القاهرة، وانظر: د. مصطفى ديب البغا: التحفة الرضية في فقه السادة المالكية ص٤٠، شرح وأدلة وتكملة متن العشماوية، ط١، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م، دار ابن كثير، دمشق- بيروت.

(١) فتح الباري ٨/ ٦٨٢، مرجع سابق.

وتعدد السبب مع اتحاد المقتضَى (التحريك) موجب منهجياً اعتماد تحريك الفم عند إرادة تحقيق أحد تلك البواعث(الخوف، والإشفاق،والحب).

٢- أخذ النفس بالشدة في قراءة القرآن وحفظه:

أما في القراءة فحديث التعتعة: عن عائشة-رضي الله تعالى عنها- قالت: قال رسول الله ﷺ: «الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة والذي يقرأ القرآن ويتتعتع فيه وهوعليه شاق له أجران»[١]، والماهر لا تظهر مهارته إلا بعد الدُربة، فينهار بناء من بنى سهولة أخذ القرآن على عربيته أي أن حفظه سهل لمجرد كونه عربياً، وعدم الحاجة إلى الكلفة في تعلمه؛ إذ قد اتضحت ضرورة الكلفة للقسمين المذكورين في حديث التعتعة.

وأما في الحفظ فظاهر ذلك في حديث المعالجة.

وأما في المراجعة ففي أحاديث التفلت[٢]. فلا بد من أخذ النفس بشيء من الشدة في قراءة القرآن، وحفظه، ومراجعته.

والمقتضى المنهجي لهذه الشدة: إعطاء قراءة القرآن، وحفظه، وتلاوته، ومراجعته، حجمها الحقيقي دون هضم، أو تقليل من حجمها، إذ معظم الحالات الواقعة في حياة حفاظ القرآن فضلاً عن بقية أمة القرآن التهوين من ذلك إما تكاسلاً، أو تهاوناً، أو هروباً من الإغراق في مفهوم البركة! فيقلل البعض من العزيمة في معالجة الوحي القرآني قراءة، أو حفظاً، أو مراجعة، لئلا يهول مفهوم البركة على مفهوم بذل الأسباب، أو الاطلاع على بقية كتب أهل العلم، أو التوسع في معرفة الثقافات العصرية، وهذه مسألة بحاجة إلى مزيد تدبر دون شطط.

(١) صحيح مسلم ١/ ٥٤٩، مرجع سابق.

(٢) انظر: المبحث الخامس من هذا الفصل.

ولا ينافي هذا قوله جل وعز ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾[القمر: ١٧] كما تقدم[١]، ولما هو ظاهر أن القرآن مُيَسَرٌ للذكرى، ولا علاقة لذا مع موضوع الحفظ، وحديث التعتعة المذكور آنفاً صريح في هذا التقرير.

٣-مخارج الحروف هي الخمسة المشهورة: فلا يستدل بآية القيامة ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ ﴾ على أن اللسان هو المخرج الوحيد، ولذا ذكر في حديث المعالجة (الشفتين)، قال ابن حجر: "قوله: (وكان مما يحرك به لسانه وشفتيه) اقتصر أبو عوانة على ذكر الشفتين، وكذلك إسرائيل، واقتصر سفيان على ذكر اللسان، والجميع مراد إما لأن التحريكين متلازمان غالباً، أو المراد يحرك فمه المشتمل على الشفتين واللسان لكن لما كان اللسان هو الأصل في النطق اقتصر في الآية عليه"[٢].

ويقال على السياق نفسه: واقتصر على الشفتين واللسان لأنهما الظاهران للعيان، بخلاف الحلق والجوف والخيشوم.

المبحث السابع: التلقي (والتلقين):

يحلل هذا المبحث مصطلح (التلقي)، ولذا فهو يتكون هذا المبحث من خمسة مطالب:

المطلب الأول: تعريفه.

المطلب الثاني: القرآن تلقين وليس إلهاماً.

المطلب الثالث: حكم التلقين.

المطلب الرابع: قواعده.

المطلب الخامس: المقتضى المنهجي لأسلوب تلقي النبي ﷺ.

(١) انظر: المبحث الخامس من هذا الفصل.

(٢) فتح الباري ٨/ ٦٨٤، مرجع سابق.

المطلب الأول: تعريفه:

التلقي في الوضع اللغوي: مأخوذ من الإلقاء، ويظهر في الإلقاء كونه حسياً مشاهداً سواء كان قولاً يلقى باللسان، أو شيئاً يلقى باليد، أو بغير ذلك، فقد ذكر ابن الأثير في النهاية للإلقاء عشرة معان: خمسة منها صريحة في الإلقاء الحسي، ومنه قولهم: مالي أراك لقاً بَقاً؟، فاللقى: المُلْقَى على الأرض، وما بعده إتباع له، ومعنيان صريحان في عودته للخطاب حين مجيئه من جهة لأخرى، وثلاثة معانٍ منها تعود إلى الإلقاء الحسي من حيث كون أصلها واقعاً بالقول، وهو فعل محسوس، ومنه قولهم: ما يلقي لها بالاً: أي ما يحضر قلبه لما يقوله منها، والبال: القلب[1].

وتحصل من مفاهيم الإلقاء في الوضع اللغوي الدلالات التالية:

١) أنه حسي، فليس أمراً معنوياً، وهو ما يضاد الإلهام من حيث الأصل، فالإلهام شيء معنوي اعتباري.

٢) أنه يعتمد على القول المحسوس عند كون الإلقاء إلقاء لكلام، كما في قوله جل جلاله ﴿فَأَلْقَوْاْ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾[النحل: ٨٦]، فيكون كذلك من المُلْقي، وهو كذلك من المُتَلَقِي، كما في قوله تعالى ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ ﴾[النور: ١٥]، فلا يعقل أن يكون إلقاء الكلام، ولا تلقيه أمراً معنوياً محضاً لغة، هذا خلفٌ من القول تأباه طبيعة الوضع اللغوي، فإذا ورد ما يدل على أنه معنوي، فإما أن يكون ذلك على سبيل المجاز، أو هو معتمد على إلقاء حسي، كقولهم: نُعي إليه فلان فما ألقى لذلك بالاً؛ فإن المراد: ما استمع له، ولا اكترث به[2]، وذلك صريح استعماله مجازاً لا يعلم معناه دون العلم بالإلقاء الحسي، فهو أصله.

٣) يستعمل إلقاء القول استعمالاً لغوياً خاصاً في التعليم، وتلقيه في التعلم، والتواصي، وهما حسيان من حيث الأصل، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا

---

(١) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر ٤/ ٢٦٦، مرجع سابق، وكذلك: مختار الصحاح ٦٠٣، مرجع سابق.
(٢) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر ٤/ ٢٦٦، مرجع سابق.

﴿ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ [القصص:٨٠]، أي ما يعلمها، ولا يُنَبَّهُ عليها، ومنه قوله جل وعز ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ﴾ [البقرة:٣٧][1].

٤) يُصاحِب الإلقاء والتلقي عرفاً لغوياً حضور القلب، فلا يكون مباغتاً، غير مُتَهَيِئٍ له، وذلك واضح مما سبق من سرد لبعض الاستعمالات اللغوية المختلفة للإلقاء، وذلك يعني الفهم وحسن الأخذ.

والتلقين هو الإلقاء في كل ذلك إلا أنه خاصٌ لغةً بالكلام المُتَعَلَم.

ولا بد من الحُسن في الإلقاء والتلقي، وإلا لم تطلق عليه هذه الكلمة؛ولذا يقال: فلانٌ لَقِن إذا كان حسن التلقي لما يسمعه[2].

وهذه المعاني كلها تجتمع في تلقي النبي ﷺ ألفاظ القرآن الكريم من جبريل عليه السلام، فهو إلقاء وتلقٍ محسوسين، بين جهتين اعتمدتا القول، حال كونهما حاضري القلب، يعتمد الأخذ بينهما على القول لا غيره من أنواع الإيحاء، مطبقَين في ذلك ضوابط العملية التعليمية والتعلُّمية.

ويظهر ذلك بيناً بلا خفاء عند الجمع بين الوصف العام لأخذ النبي ﷺ ألفاظ القرآن الكريم من جبريل عليه السلام بأنه تعلم كما في قوله جل وعز ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ [النجم:٥]، وبين الوصف الخاص لذلك بأنه تلقٍ كما في قوله جل جلاله ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾[النمل:٦].

ولا بد من التأكيد على ملاحظة بارزة في العرف القرآني لدلالة الإلقاء والتلقي، هي أن الإلقاء لم يستعمل في العرف القرآني إلا للأمر المحسوس، وهذا يعطي التصور

---

(١) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر ٤/ ٢٦٦، مرجع سابق.

(٢) انظر: (الزمخشري) جار الله محمود بن عمر: الفائق في غريب الحديث ٣/ ٣٢٥، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، علي محمد البجاوي، ط٢، توزيع دار الباز.

الأولي لمفهوم إلقاء ألفاظ القرآن من جبريل عليه السلام للنبي ﷺ، فتذهب الظنون العلمية التي تنافي ذلك في مكانها من التوهمات المحضة.

التلقي في الوضع الاصطلاحي: هو عبارة عن الهيئة المنهجية الشرعية لتعليم الألفاظ القرآنية بأن يقرأ الشيخ الآية، ويتلقاها الطالب عنه بسمعه وفؤاده، فالتلقي بهذا هو العملية المكملة لعملية التلقين إذ التلقين من الشيخ، والتلقي من الطالب، كما قال البخاري -رحمه الله تعالى-: " قال معمر[1]: ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾[النمل:٦] أي يلقى عليك وتلقاه أنت أي تأخذه عنهم، ومثله ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ ﴾ [البقرة: ٣٧][2].

وقال أبو عبيدة: "وتلا علينا أبو مهدي آية فقال: تلقيتها من عمي، تلقاها عن أبي هريرة رضي الله عنه تلقاها عن النبي ﷺ وقال في قوله جل جلاله ﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴾[القصص:٨٠]: أي لا يُوفَق لها، ولا يُلَقنُها، ولا يُرْزَقُها، وحاصله أنها تأتي بالمعاني الثلاثة، وأنها هنا صالحة لكل منها، وأصله اللقاء، وهو استقبال الشيء، ومصادفته"[3].

فإذا قيل (الهيئة الشرعية لتعليم القرآن الكريم)، أو أُطلق أحدهما (التلقي أو التلقين) دخل فيه الآخر ضمناً.

فإن اعتُرض بالقول: لم لا يُستخدم مصطلح التعليم بدل التلقين؟.

فالجواب: أن التلقين أخص من التعليم، ووجه خصوصيته في غاية الأهمية في تعليم ألفاظ القرآن الكريم؛ إذ: الفرق بين التعليم والتلقين:

---

(١) عنى بمعمر هنا أبا عبيدة معمر بن المثنى اللغوي، انظر: مجاز القرآن، لا معمر بن راشد شيخ عبد الرزاق.
(٢) صحيح البخاري ٦/ ٢٧٢١، مرجع سابق.
(٣) (أبو عبيدة) معمر بن المثنى ت ٢١٠ هـ: مجاز القرآن عند ذكر سورة البقرة ١/ ٣٨، وسورة النمل ٢/ ٩١، حققه د. محمد فؤاد سزكين، ط١، الخانجي الكتبي بمصر ١٩٥٤م.

١- أن التلقين يكون في الكلام فقط، والتعليم يكون في الكلام وغيره، تقول: لقنه الشعر، ولا تقول لقنه التجارة والنجارة، والخياطة، كما يقال علمه في جميع ذلك.

٢- التعليم يكون في المرة الواحدة، والتلقين لا يكون إلا في المرات.

٣- التلقين هو مشافهتك الغير بالتعليم، وإلقاء القول إليه ليأخذه عنك، ووضع الحروف مواضعها، والتعليم لا يقتضي ذلك، ولهذا لا يقال: إن الله يلقن العبد، كما يقال إن الله يعلمه(١).

وقد ورد تلقي النبي ﷺ ألفاظ القرآن الكريم موصوفاً بالأمر العام، وهو التعليم في قوله جل جلاله ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ [النجم:٥]، وموصوفاً بالأمر الخاص وهو (التلقي) ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾[النمل:٦] لغاياتٍ لن يكون من أهمها: نفي الإلهام في تلقي النبي ﷺ، وإثبات المشافهة صيغةً وحيدةً للتعليم القرآني من حيث اللفظ.

المطلب الثاني: القرآن تلقين وليس إلهاماً (٢):

فهو تعليم مباشر (تلقين) وليس إلهاماً: إذ قد تنوعت وسائل الوحي كما قال ابن قتيبة -رحمه الله تعالى-: "كل شيء دللت به عن كلام، أوكتاب، أو إشارة أو رسالة، وذكر له معان في القرآن: الإشارة، والإيماء، والإلهام، والإعلام في المنام، والإعلام بالوسوسة من الشيطان، والأمر، ثم قرر أن معناه في خصوص الوحي بالقرآن التلقين من جبريل عليه السلام للنبي ﷺ، ونص قوله في قوله جل وعز ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾[الأنعام: ١٩]: "فهذا إرسال جبريل عليه السلام بالقرآن"(٣) زاد في

---

(١) انظر: (العسكري) أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد ت بعد ٣٩٥هـ:الفروق في اللغة ص٧٥.

(٢) انظر: حديث المعالجة في المبحث السادس من هذا الفصل.

(٣) (ابن قتيبة) أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت٢٧٦هـ): تأويل مشكل القرآن ص٤٨٩، شرحه ونشره: السيد أحمد صقر - المكتبة العلمية.

فتح الباري من معاني الوحي: الإعلام في خفاء، والكتابة، والمكتوب، والتصويت شيئاً بعد شيء -قال-وقيل أصله التفهيم، وكل ما دللت به من كلام، أو كتابة، أو رسالة، أو إشارة فهو وحي، وشرعاً: الإعلام بالشرع، وقد يطلق ويراد به اسم المفعول منه أي الموحى، وهو كلام الله المنزل على النبي ﷺ [1] فمدار الحديث في هذا المبحث حول حالة خاصة من الوحي بمعناه المصدري هو الإعلام والتفهيم بالتصويت شيئاً بعد شيء، وذلك أعم من أن يتمثل له الملك رجلاً، وحول حالة خاصة الوحي بمعنى اسم المفعول وهو القرآن والمراد كيفية تلقي الرسول ﷺ لألفاظه.

ويلاحظ أن المدلول اللغوي للوحي يوضح طبيعته: فلا تراه عين غير الموحى إليه، ولا تسمعه أذن غيره كذلك، ويمكن أن يُدرك ببساطة أن المدلول اللغوي للوحي يشير إلى أن ثم نوعاً منه لا تسمعه الأذن المعتادة، ولا العين المعتادة، ويصل إلى مركز الإبصار، ومركز السمع مباشرة،ويمكن التعبير عنه من خلال المعاني السابقة للوحي بالقول: التفهيم والإعلام بالتصويت شيئاً بعد شيء، ولذا لما أراد جبريل عليه السلام أن يستعلن للناس كان لا بد من تمثله بصورة البشر، بخلاف الصورة الأشد للوحي، فإنه لا يستعلن، بل يكون خفياً، ولكنه محسوس للنبي ﷺ، والصحابة إنما يرون آثاره -كما سبق-، فلذا قال ﷺ: «هذا جبريل جاء يعلمكم دينكم» فلما أراد جبريل عليه السلام أن يعلمهم كان لا بد من أن يتمثل لهم بشراً تدرك عيونهم صورته، وتدرك أسماعهم صوته كما تقدم في الفصل الثاني مفصلاً.

وليس تعليم جبريل عليه السلام الرسول ﷺ بالتصويت شيئاً بعد شيء مسألة فرعية، بل هي مسألة من مسائل الأصول، يذكرها العلماء في كتب العقائد، فقد جاء في العقيدة الطحاوية عند قول الإمام الطحاوي -رحمه الله تعالى-: "نزل به الروح الأمين، فعلمه سيد المرسلين" قال الشارح: "تصريحٌ بتعليم جبرائيل إياه إبطالاً لتوهم القرامطة وغيرهم أنه تصوره في نفسه إلهاماً"[2].

---

(١) فتح الباري ١/ ١٥، مرجع سابق.

(٢) شرح الطحاوية ٣١٥، مرجع سابق.

ومن أدلة كون الوحي القرآني تلقيناً:

١- قوله جل وعز: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾[النمل:٦].

٢- قوله جل جلاله: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٨]؛ ففيها الأمر بالاستماع والانصات؛ إذ الاستماع والإنصات للملَك ينافي الإلهام الذي يقع في النفس دون استماع لأحد،ويُنظر المبحث السابق في معنى الآية.

٣- قوله جل وعز: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ [الأعلى: ٦]؛ إذ الإقراء ينافي الإلهام منافاة لغوية وشرعية.

٤- أول لقاء لجبريل عليه السلام بالنبي ﷺ في غار حراء؛ إذ أقرأه ولم يُلْهِمْه، بل أكد له الإقراء بضمه إليه.

٥- حديث الحارث بن هشام المتقدم(١)؛ إذ حالتا الوحي المذكورتان تنافيان الإلهام.

٦- ويدل على ذلك الباء في قوله جل وعز ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾[الشعراء: ١٩٤] إذ هي: للملابسة، والجار والمجرور متعلق بمحذوف حال، كأنه قال: نزل في حال ملابسة له على حد خرج زيد بثيابه(٢)، ولو كان إلهاماً لما احتيج للنزول به.

٧- حديثا المعالجة(٣) والمدارسة(٤).

المطلب الثالث: حكم التلقين:

يجب التزامه منهجاً وحيداً في تعليم ألفاظ القرآن الكريم، ونبذ ما سواه من حيث التقعيد العام(١)، ويؤكد هذا الحكم أسلوب أخذ النبي ﷺ القرآن عن جبريل عليه

---

(١) انظر: الفصل الثاني - المبحث الثالث.

(٢) حاشية العلامة الصاوي على تفسير الجلالين ٣/ ٢٢٤، مرجع سابق.

(٣) انظر: المبحث السادس من هذا الفصل.

(٤) انظر: المبحث التاسع من هذا الفصل .

السلام ؛ إذ كان النبي ﷺ في ابتداء الأمر إذا لقن القرآن نازع جبريل عليه السلام القراءة، ولم يصبر حتى يتمها مسارعة إلى الحفظ، قاله الحسن وغير واحد(٢)، وقد جاء في رواية ابن أبي حاتم: يتلقى أوله، ويحرك به شفتيه خشية أن ينسى أوله قبل أن يفرغ من آخره، وتفصيل الاستدلال أن يقال:

كان الوعد بجمع القرآن في صدر النبي ﷺ أولاً، ثم بقراءته كما أُنزل إليه، وكما سمعه من جبريل عليه السلام ثانياً في قوله -تعالى ذكره- ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٧-١٩]، وعداً من الله جل جلاله، فقد صار حقاً على الله جل وعز فعل ذلك... فليس للقدرة الملائكية التي يتمتع بها جبريل عليه السلام دخل في ذاك، ولا أسند الأمر للقدرة البشرية، وهذا دالٌ على مقدار الاعتناء وعظمة الاهتمام وشدة التوقيف في تلقي لفظ القرآن الكريم.

-وإن كان الوعد إلهي كذلك: فما فائدة إقراء جبريل عليه السلام له؟ أما كان كافياً جمع الله جل وعز القرآن في صدر النبي ﷺ إلهاماً أو قذفاً إلى قلبه بالقدرة الإلهية التي وسعت كل شيء؟.

والجواب: هاهنا أعظم دليل على وجوب التزام منهج التلقي والتلقين كأساس للمنهجيات التعليمية في إقراء ألفاظ القرآن الكريم، فلا وزن لرسم "خط" المصحف، ولا للغة، ولا لتعلم فردي أحادي دون شيخ(سند)، في تلقي لفظ القرآن الكريم، ولو لم تكن هذه الحكمة، فما كان فائدة إلقاء جبريل عليه السلام القرآن للنبي ﷺ قراءته،ونزوله بالقرآن (على) -وليس في- قلب محمد ﷺ؟ مع أن الإلهام لا يستدعي النزول.

---

(١) ولم يكن استدلال صاحب كتاب الحلقات القرآنية على وجوب التلقين وسيلة وحيدة في تعليم القرآن الكريم، وتعلمه موفقاً؛ إذ حصر الأمر في دائرة (ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب) وذلك مما يُضْعفُ الحكم، ويجعل الاستدلال على أصل القضية مضيعاً لها. انظر: عبد المعطي محمد رياض طليمات: الحلقات القرآنية، دراسة منهجية شاملة، ط١، ١٤١٧هـ -١٩٩٧م، إصدار برنامج تحفيظ القرآن الكريم-جدة.

(٢) فتح الباري ٨/ ٦٣٣، مرجع سابق.

ومنه نأخذ جلالة الركن الأعظم في تعلم القرآن وقبول قراءة لفظ لتعد قرآناً، وهو السند المقبول قرائياً الضامن للمشافهة.

- ويتضح من هنا أمر آخر هو: أن جبريل عليه السلام لم يُعَلِّم النبي ﷺ بتلاوته عليه الهيئات الخارجية للأحرف (والمراد تركيب الحروف المعروف)، والهيئات الداخلية (الهيئات الصوتية للحرف الواحد)، والهيئات اللازمة عند تركيب كلمة بكلمة وحرف بحرف، وهيئات الوقف والابتداء، ونحو ذلك من أحكام التلاوة، وتفصيلات علم القراءة والتجويد[1]، لم يفعل جبريل عليه السلام ذلك إلقاءً وقراءةً وإقراءً للفظ القرآني إلا ليقرأها النبي ﷺ على أصحابه والناس أجمعين كذلك، ثم تتناقلها الأجيال كذلك، فلا يأتي متقولٌ بعد ذلك فيركب من كلمتين أو أكثر لفظاً جديداً أو معنى جديداً فيقرأ به ما دام الإجماع السابق في التلقي، والفهم عند السابقين لمعنى الآية ينافيه (بخلاف ما إذا دخل ضمنه أو وضحه)، وذلك كمن يركب معنى جديداً في قوله -تعالى ذكره- ﴿وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ [الممتحنة: ١]، ويستحل قراءتها كذلك زاعماً أنه لا يوجد دليل ملزم لقراءتها كما تلقيت، أو كمن يركب من قوله جل جلاله ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾ [النساء: ٧] معنى جديداً؛ بأن يقرؤها: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ﴾ ويسكت، ثم يقول: ﴿وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾؛ إذ التلقي مفسدٌ لهذه القراءة المبتدَعة.

(١) المراد هنا التقعيد العام، لا التفصيلي، وإلا فثَمَّ تفاوتٌ في مقدار التوقيف بين ما ذكر من حيث التفصيل، ففي الوقف والابتداء لا شك أن النبي ﷺ كان يلاحظ جبريل عليه السلام فيه، وكذا الصحابة مع نبيهم، والعادة جاريةٌ بذلك كما يلاحظ في حفظة القرآن مع مشايخهم، والدواعي متوافرةٌ عليه، وقد كانوا يلاحظون ما دونه،ولكن التوقيف فيه عامٌ لا تفصيلي.

ويبين ما سبق من تفصيلٍ ما تقدم من معنى قوله جل وعز ﴿فَإِذَا قَرَأْنَهُ ﴾[1]: أي: عليك بقراءة جبريل عليه السلام، فكان وعداً إلهياً بأن يُكرره النبي ﷺ كقراءة جبريل عليه السلام .

فإن اعتُرض بأنه: قد يعتري قراءة جبريل عليه السلام الخلل، فلماذا ارتكاب تأويل ﴿قَرَأْنَهُ﴾ أي بقراءة جبريل عليه السلام.. ولمَ لا يكون الإلهام الرباني بديلاً عن استماع جبريل عليه السلام؟.

فالجواب: تظهر حكمةٌ بالغةٌ من التعبير عن قراءة جبريل عليه السلام على النبي ﷺ بلفظ ﴿قَرَأْنَهُ﴾؛ إذ لم يقل قرأه جبريل عليه السلام، وذلك ليكون من قبيل إسناد ما هو للمأمور للآمر[2]، فقوله: "﴿فَإِذَا قَرَأْنَهُ ﴾ أي إذا قرأه جبريل عليه السلام عنا فأسندت القراءة إلى ضمير الجلالة على طريقة المجاز العقلي والقرنية واضحة"[3]، نفياً لأي حدسٍ، أو تخمينٍ، أو بارقةٍ تتلجلج في الصدور عن عدم إتقان جبريل عليه السلام للقراءة كما أرادها الله جل وعز من حيث هيئاتها الصوتية المصاحبة (الداخلية والمشتركة)[4] فضلاً عن الألفاظ في ذاتها فأوجز لنا في ﴿قَرَأْنَهُ﴾ إخباره جل جلاله بإزالة دخل شيطانٍ قد يطرأ عند تحليل الموقف القرآني بين جبريل عليه السلام والنبي ﷺ إذ كان القارئ هو الله جل وعز بإسناد القراءة إليه، ويُقَرِّبُ هذا بأن يقال: كأن أداء جبريل عليه السلام لألفاظ القرآن الكريم عبارة عن مسجلةٍ تعيد ما تكلم الله جل جلاله به، وجبريل عليه السلام كأنه مسجل يعيد ما تكلم الله –تعالى ذكره- به، دون زلل أو خطل في أدق الهيئات الأدائية للحرف فيما خلا الصفة الإلهية المنزهة عن التمثيل والتخيل، فيقرأه جبريل عليه السلام كما نقله عن الله –تعالى ذكره- كما تنقل المسجلة، فجعل الله –تعالى ذكره- إقراء جبريل عليه السلام على النبي ﷺ

(١) انظر: حديث المعالجة في المبحث السادس من هذا الفصل.

(٢) حاشية الصاوي، وبهامشه تفسير الجلالين ٣/ ٣٥٤، مرجع سابق.

(٣) انظر: التحرير والتنوير ٢٩/ ٣٤٩، مرجع سابق.

(٤) المراد بالمشترَكة الصوت المصاحب للحرف عند التقائه حرفاً آخر في كلمته أوفي كلمة أخرى، كالإدغام مثلاً.

إقراء من الله –تعالى ذكره– لنبيه ﷺ لشدة دقة جبريل عليه السلام في بيانه للأحرف؛ إذ هو الواسطة بين الله ورسوله محمد ﷺ ينقله كما أقرأه الله جل جلاله له تماماً لكل حرف، وأحسن تفصيلاً لكل كلمة.

وفي هذا يقول ابن كثير: "وأن ييسره على الوجه الذي ألقاه إليه"(١)، وقال الزمخشري: "جعل قراءة جبريل عليه السلام قراءته"(٢)، وقال الآلوسي: "أتممنا قراءته عليك بلسان جبريل عليه السلام المبلغ عنا"(٣)، وفي المقابل فقد ضمن الله جل جلاله قراءة النبي ﷺ ألفاظ القرآن كما أنزله الله جل وعز، وبالهيئة التي سمعها من جبريل عليه السلام، كما قال في الجلالين: "فكان ﷺ يسمع ثم يقرؤه"(٤)، ولذا قال ابن عباس رضي الله عنه كما في البخاري: "فكان إذا أتاه جبريل عليه السلام أطرق فإذا ذهب قرأه كما وعده الله جل جلاله"(٥).

وهاهنا مسألة مهمة: إذ الآية حوت الأمر الإلهي بإعادة المقروء كما قرأه جبريل عليه السلام، كما حوت الضمان الإلهي بذلك أيضاً، والثاني وهو الضمان تقدم ما يثبته من فهم العلماء للآية، والأول قال عنه ابن كثير: "﴿فَإِذَا قَرَأْنَهُ﴾ أي إذا تلاه عليك الملك عن الله تعالى ﴿فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ أي فاستمع له ثم اقرأه كما أقرأك"(٦)، وقد يسر الله جل جلاله ذلك عليه.

المطلب الرابع: قواعد التلقي والتلقين:

من خلال ما سبق يمكن إجمال قواعد التلقي والتلقين في:

١ – قراءة الشيخ على الطالب، وهو ما كان جبريل عليه السلام يفعله مع النبي ﷺ (السماع من لفظ الشيخ).

---

(١) ابن كثير ٤/ ٣٨٣، مرجع سابق.

(٢) الكشاف ٤/ ١٦٥، مرجع سابق.

(٣) روح المعاني ٢٩/ ١١٧، مرجع سابق.

(٤) الجلالين٤/ ٢٥٤، مرجع سابق.

(٥) انظر: حديث المعالجة في المبحث السادس من هذا الفصل.

(٦) تفسير ابن كثير٤/ ٢٨٢، مرجع سابق.

٢-إنصات الطالب لشيخه عند استماعه قراءته، وهو ما أُمِرَ به النبي ﷺ .

٣-استماع الطالب من شيخه، استماع أُذن وفؤاد، وهو ما أُمِرَ به النبي ﷺ.

٤-إعادة الطالب المقروء الذي قرأه الشيخ على الطالب، وهو ما أُمِرَ به النبي ﷺ.

وهاهنا سؤال متعلق بهذه القاعدة: إذ نرى نبينا ﷺ يؤمر بإعادة المقروء كما قرأه الملك مع أن لا حاجة لذلك ما دام قد وعد بجمع القرآن في صدره وإجرائه على لسانه فلم يكرره بعد استماعه للملك؟.

والجواب: لتثبيت القاعدة الثالثة والرابعة من قواعد التلقي، وَلِمَ يكرره ﷺ إلا لتبيان أسلوب التلقي؟، ولرسم خطواته بدقة فائقة النظير تؤذن بتوقيفية تلقي اللفظ القرآني من جميع زواياه، وما ظن أنه اجتهاد فهو إلى التوقيف يعود في أصله، إذ التكرار لأمور منها: تثبيت تلاوة القرآن بالهيئة ذاتها، وتنغيماتِها التي سُمِعَتْ من الشيخ، بغض النظر عن الصوت من حيث الملاحة ونقيضها، ومنها تثبيت المحفوظ أو المقروء.

٥- أن يكون الُمعاد موافقاً لقراءة الشيخ ومطابقاً لها، والمراد من الموافقة: الموافقة في أصل الألفاظ وأدائها، وهو ما تراه عند عامة الناس من المقرئين والقارئين، ويبقى تفاوتهم بعد ذلك من حيث الملاحة في الصوت، والاختلاف في العوامل النفسية إلى تؤدي إلى اختلاف المشاعر والأحاسيس، ويظهر أثرها في القراءة، وقد ترى أن هذه العوامل التي يسمح فيها الاجتهاد في أداء لفظ القرآن ليس مما كلف بها العبد عموماً إذ هي تعود إلى أمر خارج عن نطاق قدرته، وإن كان ثم قدرٌ من الحث على التزام مسلك معين في هذه الناحية: كتدبر القراءة، وقراءة القرآن بحزن.

وهذا مأخوذ مما سبق في قول ابن عباس رضي الله عنه: كما قرأه، ويدل له قول النبي ﷺ: «من أحب أن يقرأ القرآن غضاً كما أنزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد»[1].

٦-أن يصحب القراءة تحريك للشفتين، وهو ما يعني نوعاً من الجهر بالقراءة، ويدل له فعل النبي ﷺ كما في هذا الحديث؛ إذ النهي مؤقت حتى يقضي جبريل عليه

---

(١) السنن الكبرى للنسائي ٥/ ٧١، مرجع سابق، (ابن ماجة) أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني ت٢٧٥هـ: سنن ابن ماجه ١/ ٤٩، مراجعة: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر - بيروت، صحيح ابن حبان ١٥/ ٥٤٣، مرجع سابق، مستدرك الحاكم ٢/ ٢٤٧، مرجع سابق، مسند أحمد ٤/ ٢٧٨، مرجع سابق.

السلام الوحي، فالإنكار عليه ليس لتحريك لسانه وشفتيه، بل لكون هذا التحريك حاصلاً حال قراءة جبريل عليه السلام، فيبقى التحريك هو الأصل عندما ينتهي توقيت النهي، كما يدل له ما سيرد في المقتضيات اللغوية لتعريف القرآن الكريم في مُلحق الكتاب، على أن التلقين لا يتأتى وجوده إلا بالجهر بالقرآن الكريم على ما هو بديهي.

لكن هل يشترط استماع الشيخ لطالبه عند إعادة المقروء؛ إذ في المعالجة: (فكان إذا انطلق جبريل عليه السلام قرأه كما قرأه..)؟.

الظاهر أن ذلك بحسب حالة الطالب من حيث اطمئنان شيخه لقدرته على إعادة المقروء باقتدار أو عدم قدرته، وأما أن جبريل عليه السلام لم يكن يسمع من النبي ﷺ لصريح قول ابن عباس رضي الله عنه: فإذا انطلق جبريل عليه السلام قرأه كما قرأه، فالجواب من وجهين:

أولهما: لا نُسَلِّم أن جبريل عليه السلام لا يسمع لعدم إحاطتنا علماً بقدرة جبريل عليه السلام على السماع من حيث تعديها لمكان حضوره أولاً.

وثانيهما: أن ذلك كائنٌ لضمان الله جل وعز لنبيه ﷺ إعادة المقروء كما قرأه عليه جبريل عليه السلام، ومن هنا أُخذ نظر الشيخ في مدى مقدرة الطالب، فلولا وعد الله جل جلاله لنبيه ﷺ بقراءته على لسانه كما قرأه لما انصرف، ثم إن الوحي يحميه ظاهراً كان أو غائباً، وبذلك يخضع الأمر الواجب في هذه المسألة لمعرفة الشيخ.

وهل يشترط أداء هذه القواعد كلها في التلقي والتلقين؟ الظاهر عدم الاشتراط للأول؛ إذا استبدل به قراءة الطالب على شيخه، إما ابتداء، وإما حفظاً مباشراً عن ظهر قلب، وذلك لأن النبي ﷺ (الطالب) كان يعرض القرآن على جبريل عليه السلام في رمضان، وأما قراءة جبريل عليه السلام في أول نزول الآيات فسببه عدم معرفة الرسول ﷺ بها ابتداء؛ ولذلك عامل العلماء قراءة العالم معاملة عرض الطالب كما سيأتي تفصيله في حديث المعارضة[1]، وقد يترجح أحدهما (السماع من

(١) انظر: المبحث التاسع من هذا الفصل.

لفظ الشيخ، أو عرض الطالب على الشيخ) لعارض يراه الشيخ في تلميذه من نجابة أو بلادة، وهو المعمول به عند المسلمين إلى اليوم.

وهاهنا مسألة في غاية الأهمية من ناحية دراسة وسائل المعرفة المُكْسِبَة لليقين في المنهج الإسلامي وهي: أن ثَمَّ نوعاً من التواتر الذي يفيد اليقين الضروري أو النظري، وهو التواتر العملي بأن يتناقل المسلمون العمل في العبادة جيلاً جيلاً دون نكير، فيأخذ حكم المتواتر، ولو كان مستنده آحاداً كأركان الصلاة ومقادير الزكاة، وألفاظ الأذان، ورمي الجمار في مناسك الحج، وكثير من مثل ذلك، ووجود جزئياتٍ في هذا النوع مختلف فيها أمرٌ لا يخرم هذه القاعدة، فاضمم إلى هذه الأمثلة أداء القرآن تجده أولى منها جميعاً، من حيث ثبوت اليقينية له، وهذا تكرار لأمرٍ سبق ذكره في المنهج، أوجبه الاعتناء بالمقام، كما أن تفصيله ليس هنا.

المطلب الخامس: المقتضى المنهجي لما سبق:

وتقرير هذه المسألة له ما بعده، إذ ينبني عليها ثلاثة أمور منهجية:

أولها: التزام هذه الطريقة(التلقي) منهجاً لتعليم القرآن الكريم: إذ إن توافر الدواعي للطرق الأخرى في إنزال القرآن الكريم وحياً[(١)]، مع عدم استعمالها، وتخصيص طريقة التلقين مع عدم الحاجة إليها إذ أن الله قد تكفل بأن يلهمه القرآن بقوله ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾، وبقوله ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾، قال الشوكاني-رحمه الله تعالى-: "أي سنجعلك قارئاً بأن نلهمك القراءة، فلا تنسى ما تقرؤه"[(٢)]، وهذا وَسْمٌ لاستخدام غيرها بالبدعية، ومن ثم فاستعمال أسلوب القراءة المباشرة من المصحف دون تلقين بدعة، أو أنه تَعَلُّمٌ للقرآن على غير الطريقة التي شرعها القرآن، وهو ما قرره الصاوي-رحمه الله تعالى- في قوله: "والحكمة في تلقي رسول الله ﷺ عن جبريل عليه السلام ظاهراً أنه يكون سنة متبعة لأمته، فهم مأمورون بالتلقي من أفواه

---

(١) ككونها أسهل وأسرع، وهي بالنظر إلى قدرة الله جل في علاه ليست أعسر إذ هي لا تعجز كلمة ﴿كن﴾ مع وقوعها في أمور أخرى أقل شأناً من القرآن، ومثالها النفث في الروع، أو الإلهام.

(٢) فتح القدير ٤/ ٥٢٢، مرجع سابق.

المشايخ، ولا يُفْلِح من أخذ العلم أو القرآن من السطور، بل التلقي له سر آخر"[1]، وهذا أمر مقرر في أذهان المسلمين لم تَمِلْ دائرة تعليمهم عنه مثقال ذرة[2]، وهذا ما يعطي تصوراً عن مدى الواقعية الحقيقة قوله جل جلاله ﴿ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾[الحجر:٩].

وثانيها: في التزام هذه الطريقة دفع لإيهام إلقاء الشيطان في ما يتلقنه النبي ﷺ، من حيث واحدية الملك الملقن وعدم تغيره، ومن حيث تعليمه تعليماً تلقينياً، لا تتطرق إليه شبهة الوسوسة، وسيأتي مزيد تفصيل لذلك في فصل دمغ الباطل[3].

وثالثها: شمول التوقيفية في أداء الوحي القرآني، ومن ثم تبليغه وتناقله لأصل اللفظ، ولهيئة أدائه.

رابعها: بيانٌ أوليٌّ لحجم الاجتهاد في نقل القرآن الكريم من حيث تظاهر جوانب التوقيف في النقل، فبقي الاجتهاد محصوراً فيما تتفاوت فيه قدرات البشر في الأداء مما هو خارجٌ عن نطاق قدرتهم كالصوت، أو عدم الإتقان ويدل له حديث التعتعة[4].

فإن اعتُرض بالقول: ما شأن مقالة البحث: ومقدار الاجتهاد فيه؟ وأين مكمن الاجتهاد فيا وصف؟.

فالجواب: هذا مبحثٌ واسعٌ من حيث تحديدُ أطره حتى لا يُشَطَّ في فهمها، وليُشَر هاهنا إلى ما يتعلق بالجزئية مناط البحث: فمكمن الاجتهاد مع هذا التشديد في التوقيف في تلقي القرآن الكريم–حتى في هيئة استماعه – كامنٌ في الصوت الممنوح من الله جل جلاله للإنسان من حيث الملاحة والحسن فقد يكون ندياً، أو أقل نداوة، وفي الصوت من الجهر والمخافتة وفي النفس الممنوح من الله جل وعز، على أن

---

(١) حاشية الصاوي ٣/ ٨٠، مرجع سابق.

(٢) وقد أسهب في الكلام عن ذلك الإمام الشاطبي في الموافقات، المقدمة الثانية عشرة ١/ ٩١، مرجع سابق.

(٣) انظر: الفصل الخامس – المبحث الأول.

(٤) انظر: المبحث السادس من هذا الفصل.

التوقيف ضابطٌ حتى لموضوع الجهر والمخافتة؛إذ وردت نصوصٌ تقيد ذلك[1]، ومما يُشار إلى دخول الاجتهاد فيه جزئياتٌ نادرة لم يرد التنصيص على كيفية النطق الجزئي لها، فترجع إلى الإحالة العامة فيها على اللغة العربية، كمثل الوقف على أواخر الكلم، وإدخال الروم والإشمام فيه عند من يزعم أن لا نص ورد روايةً فيها[2]، ونحو الوقف والابتداء إذ أمر الاجتهاد فيه واسعٌ ما دام مراعىً فيه القواعد العامة التي وضعها علماء الإقراء مستقاةً من هيئات التلقين، فهو علمٌ توقيفي في الجملة، ومثله علم العدد(الفواصل) ففيه نوع اجتهاد فيما لم يرد نصٌ على عده، أو ورد فيه نصان موهمان للعد وعدمه، فاختلف فيه علماء العدد، لكنه قليل جداً بل نادر إذا ما قورن بالمتفق عليه[3]، لكن الشأن هنا أعلى من الشأن في بقية العلوم النقلية، فلئن كانت تلك العلوم "كلها مستندةً إلى الخبر عن الواضع الشرعي، ولا مجال فيها للعقل إلا في إلحاق الفروع من مسائلها بالأصول لأن الجزئيات الحادثة المتعاقبة لا تندرج تحت النقل الكلي بمجرد وضعه فتحتاج إلى الإلحاق بوجه قياسي، إلا أن هذا القياس يتفرع عن الخبر بثبوت الحكم في الأصل وهو نقليٌ فرجع هذا القياس إلى النقل لتفرعه عنه"[4] فإن القياس هاهنا -لشدة ضبط التلقين للجوانب المختلفة للفظ القرآن الكريم، ولعدم كون الجزئيات حادثة ولا متعاقبة إذ كلها موجودة -كامنٌ في قياس مثالٍ على مثال ضمتهما قاعدةٌ كلية، وهو المعنى الذي أشار إليه الإمام الشاطبي -رحمه الله تعالى- في قوله في نفي القياس العام في تلقي القراءة:

وما لقياسٍ في القراءة مدخلٌ فدونك ما فيه الرضا متكفلاً

(١) كآية الإسراء ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴾[الإسراء:١١٠] مثلاً.

(٢) وفي هذا نظر كبير من حيث إن القراء منعوا أشياء تجوز عربية كالإشمام والروم في المفتوح والمنصوب.

(٣) انظر: الشيخ عبد الفتاح القاضي: بشير اليُسر شرح ناظمة الزهر في علم الفواصل للإمام الشاطبي ص٥، ط١٣٩٧هـ-١٩٧٧م، مطبوعات الأزهر -مصر.

(٤) المقدمة لعبد الرحمن بن خلدون ٥٤٩، مرجع سابق.

مع قوله في إثبات نوعٍ مخصوصٍ من القياس: "فاقتس لتنضلا"(١)؛ ولـذا تـرى كثـرةً غامرةً من الجزئيات اللفظية القرآنية آتيـة علـى غـير القيـاس المخصـوص دلالـة علـى أصلية النقل فيها، ولذا احتاج الدارس للقرآن إلى التلقين لزاماً، وأكد تلـك الحاجـة أن المصحف لم يُكْتَبْ ليوافق الخط اللفظ تماماً كما هو مقرر في علم الرسم بل لا بـد مـن التلقي، وهو ما يجعل العمدة الأولى للقرآن من حيث هو قرآنٌ لا من حيث هو كتاب.

وفي خصوص الفعل العملي لتلقي النبي ﷺ من جبريل عليه السـلام فقـد تقـدم ذِكْرُ لمظاهره في صفات جبريل عليه السلام في الفصل الأول كما يظهر ذلـك بـارزاً في ثنايا البحث بما يجعل هذا الأمر قطعياً معلوماً من الدين بالضرورة.

وفي خاتمة هذا المبحث يقال:

قد جاءت آيات القيامة مفصلةً لمدلول قولـه جـل وعـز ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[الحجر:٩] (٢)، ومن هذه الآيات المؤكدة المفصلة لآية الحجـر نأخـذ: تكفـل الله المطلق بشأن هذا القرآن: وحياً وحفظـاً وجمعـاً وبيانـاً، وهيئـة تعلـيم ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ﴾، وإسناده إليه جل جلاله بكليته ليس للرسـول مـن أمـره إلا حملـه وتبليغـه(٣)، وحتـى تبليغه بكيفيةٍ هي الكيفية ذاتها التي سمعها من الملَك كما تقدم مراراً.

---

(١) انظر: (متن الشاطبية): باب الفتح والإمالة، وباب الراءات، مرجع سابق. وانظر: (أبو شامة) شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل الدمشقي المقدسي: إبراز المعاني من حرز الأماني، دار صادر - بيروت، والشيخ عبد الفتاح القاضي ت ١٤٠٣هـ: الوافي في شرح الشاطبية في القراءات السبع، ط٥ -١٤١٤هـ - ١٩٩٤م، مكتبة السوادي – جدة، مكتبة الدار – المدينة المنورة.

(٢) وبينٌ شدة وضوح هذه الآية في دورانها حول اللفظ، وفي ذلك ردٌ على من زعم أن الحفظ المضمون للقرآن الكريم منصرفٌ لمفهوم اللفظ لا للفظ،فإن زال اللفظ فأنى لنا بمفهومه؟.

(٣) وانظر: في ظلال القرآن ٦/ ٣٧٧٠، مرجع سابق.

المبحث الثامن: كيفية قراءة الرسول ﷺ القرآن على جبريل عليه السلام من حيث الأمر الشرعي، والواقع التطبيقي(١):

وبعد أن ذُكِرَتْ المباحث المتعلقة بنزول الوحي، وكيفية تلقي النبي ﷺ له، وسماته حين ذلك، كان لابد من وصفٍ لما يقوم به النبي ﷺ من عملٍ عند قراءته القرآن على جبريل عليه السلام مذ ينزل عليه الوحي القرآني حتى تمام العملية التعليمية، من حيث الأمر الشرعي والواقع التطبيقي، ليُعَلَمَ أي شيء كان النبي ﷺ، وأي شيء كان تعلمه لألفاظ القرآن الكريم، وتعليمه، وأي قوم -بعد- هم المسلمون:

أناسٌ علي الخير منهم، وجعفرٌ وحمزة، والسجاد ذو الثفناتِ

إذا افتخروا يوماً أتوا بمحمدٍ وجبريل، والقرآن، والسورات

وقد تلخص ذلك فيما يلي:

١- تبدأ باستشعار المصدرية الإلهية للقرآن الكريم دائماً عند قراءة القرآن الكريم: ويظهر أنموذج هذا في قوله جل جلاله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾، ثم قال بعد: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤] فأكد على المصدرية الإلهية في عدة ألفاظ: ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ على الرغم من أن المباشر للإنزال هو جبريل عليه السلام، ﴿وَصَرَّفْنَا﴾، ﴿نقضي﴾ في قراءة يعقوب على الرغم من أن المباشر للقراءة هو جبريل عليه السلام، وأشار إلى تفرده بهبة المنح الإلهية، ورأسها القرآن الكريم ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾، ثم وسط بين الآيتين بقوله ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ

---

(١) أُريد بالأمر الشرعي: مجموع التوجيهات الشرعية التي أمر اللهعز وجل نبيه ﷺ بتطبيقها وأن يقرأ القرآن بها من حيث إنتماؤها إلى الأحكام الخمسة، وأُريد بالواقع التطبيقي: واقع النبي ﷺ من حيث التزامه بتلك التوجيهات، والهدف من ذلك كما سيُذكر أعلاه التأكيد على التوقيفية في لفظ القرآن وأدائه، بالإضافة إلى الأهداف المنهجية الأخرى.

ٱلْحَقُّ﴾ وهي جملة اعتراضية، وفي تفريع الجملة الاعتراضية على إنزال القرآن إشارةٌ أيضاً إلى أن القرآن قانون ذلك الملك، وأن ما جاء به هو السياسة الكاملة الضامنة صلاح أحوال متبعيه في الدنيا والآخرة(١)، وفي هذا السبيل ترى التعبير عن إنزال القرآن يرجع إلى هذه المصدرية عند الكلام على النازل، والمنزل به، والمنزل عليه.

ومن الإشارة إلى هذه المصدرية: ﴿فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾: لم يقل فإنه نزله على قلبي مع أن محمداً ﷺ أُمِرَ بإخبار اليهود عن نفسه؛ لأن من شأن العرب إذا أمرت رجلاً أن يحكي ما له عن نفسه أن تخرج فعل المأمور مرة مضافاً إلى كناية نفس المخبر عن نفسه إذا كان المخبر عن نفسه، ومرة مضافاً إلى اسمه كهيئة كناية اسم المخاطب؛ لأنه وإن كان مأموراً بقيل ذلك فهو مخاطبٌ مأمورٌ بحكاية ما قيل له(٢)، كما قال الزمخشري موضحاً لذلك: "جاءت على حكاية كلام الله جل جلاله كما تكلم به كأنه قيل: قل ما تكلمت به من قولي: من كان عدواً لجبريل عليه السلام"(٣).ولهذا حكمة عظيمة من حيث التأكيد على المصدرية الإلهية للقرآن، والدقة المتناهية في نقله من السماء إلى الأرض، فحكاية كلام الله جل وعز اقتضت ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ بالخطاب، ولو قال (على قلبي) لقيل هذه دعوى، لم يبينها لنا ربك، ولم يقلها، ثم فيه تثبيتٌ لقلب الرسول ﷺ، وطمأنةٌ له من أن تزعزعه كثرة تشكيكات أهل الكتاب ومن والاهم، فكأن الخطاب من الله جل جلاله للرسول ﷺ قصداً له، لا لخصومه من أهل الكتاب، وهم مقصودون تبعاً لا استقلالاً، وذا يوائم قوله جل وعز ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾[الفرقان: ٣٢] ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠].

---

(١) التحرير والتنوير ١٦/٣١٦، مرجع سابق، وراجع روح المعاني ١٦/ ٣٩١، مرجع سابق، والبحر المحيط لأبي حيان ٦/ ٢٨١، مرجع سابق.

(٢) الطبري١/ ٤٣٦، مرجع سابق.

(٣) الكشاف ١/ ٨٤، مرجع سابق.

والكلام في الباء في قوله جل وعز: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٩٧] مؤكد لما ذُكِر هنا، وقد تقدم(١).

ولتأكيد التقرير هنا فلتُتَأمّل هذه المصدرية في أول سورة نزلت في قوله جل جلاله ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ [العلق:١]، فالباء لها ثلاثة أوجه من التفسير:

١- إما أن تكون للاستعانة، والجار والمجرور متعلقان بالفعل (اقرأ)، أي اقرأ مستعيناً بذكر اسم ربك.

٢- وإما أن تكون للمصاحبة، والجار والمجرور في موضع الحال من ضمير اقرأ الثاني مقدماً على عامله للاختصاص، أي اقرأ ما سيوحى إليك مصاحباً قراءتك اسم ربك، فالمصاحبة مصاحبة الفهم والملاحظة لجلاله، ويكون هذا إثباتاً لوحدانية الله جل جلاله بالإلهية.

٣- وإما أن تكون بمعنى على كقوله جل وعز ﴿مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ﴾[آل عمران:٧٥] أي على قنطار، والمعنى اقرأ على اسم ربك، أي على إذنه، أي أن الملك جاء على اسم ربك أي مرسلاً من ربك(٢).

ثم تتجلى هذه المصدرية في موقف تعليمه الإقراء في إضافة اسم إلى الاسم الظاهر (ربك) المضاف إلى الكاف، ثم تجلت تارة أخرى في قوله جل وعز ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ﴾ الثلاث الآيات كالاستئناف البياني، كأنه الرسول ﷺ قال: وكيف اقرأ، ولست بقارئ؟ فأجيب: الذي علم القراءة بالقلم، يعلمك ما لم تعلم، ولا عجب في أن تقرأ، إذ العلم يحصل بوسائل أخرى مثل الإملاء والتلقين والإلهام، وتأمل في وصفه جل جلاله في هذا الموقف بالأكرم.

---

(١) انظر: المبحث الثالث من هذا الفصل.

(٢) انظر: التحرير والتنوير ٣٠/ ٤٣٦، مرجع سابق، وانظر: تفسير الثعالبي٤/ ٤٢٧، مرجع سابق.

واستشعار المصدرية الإلهية للقرآن له مقتضياته الهامة، وفيما يتعلق بمدار البحث هنا تبرز المقتضيات التالية:

أ- يقذف في قلب الإنسان كل ما تصل إليه مشاعره الداخلية وانفعالاته العاطفية وحركات أركانه الخارجية من التعظيم لله جل وعز، وبذل الوسع في تحقيق كلامه، وقد نقل الآلوسي عن الطيبي ما يؤكد هذا من حيث اللفظ، فمما قاله: "﴿وَلَا تَعۡجَلۡ﴾ عطف على قوله جل جلاله ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۗ﴾ لما فيه من إنشاء التعجب، فكأنه قيل: حيث نبهت على عظمة جلالة المنزل، وأرشدت إلى فخامة المنزل، فعَظِّمْ جنابه الملك الحق المتصرف في الملك والملكوت، واقبل بكلك على تحفظ كتابه، وتحقق مبانيه، ولا تعجل به"(١)، وقال سيد قطب: "فتعالى الله الملك الحق الذي تعنو له الوجوه، ويخيب في حضرته الظالمون، ويأمن في ظله المؤمنون الصالحون، هو منزل هذا القرآن من عليائه، فلا يعجل به لسانك، فقد أنزل القرآن لحكمة ولن يضيعه، إنما عليك أن تدعو ربك ليزيدك من العلم، وأنت مطمئن إلى ما يعطيك، لا تخشى عليه الذهاب، وما العلم إلا ما يعلمه الله؛ فهو الباقي الذي ينفع ولا يضيع، ويثمر ولا يخيب"(٢).

ب- استمداد العون والتوفيق في تحقيق لفظه، وإتقان مبناه(٣)، وعدم نِسِيِّه أو تفلته من قائله جل جلاله، ومنزله جل شأنه ولذاك كانت خاتمة آية طه بالدعاء، ومما يعضد هذا المفهوم ما أعقب الله -جل ذكره- لآية طه من ذِكْرٍ لقصة آدم عليه السلام، حيث قال: ﴿وَلَقَدۡ عَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبۡلُ فَنَسِيَ وَلَمۡ نَجِدۡ لَهُۥ عَزۡمٗا﴾ [طه: ١١٥]، ونسيان آدم عليه السلام هنا كان لأمرٍ واحدٍ محسوسٍ، وذلك عندما وُكِل إلى نفسه في المراقبة، فكيف سيكون النسيان لمتعددٍ ملفوظٍ؟، ولذا فليرجع النبي ﷺ إلى ربه فيستعين على تحمل القرآن وحفظه وأدائه، فكأنه لما مدح جل جلاله القرآن، وحرض على استعمال التؤدة والرفق في أخذه، وعهد على العزيمة بأمره، وترك النسيان فيه ضرب حديث آدم

(١) روح المعاني ١٦/ ٣٩٣، مرجع سابق.
(٢) في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٥٣، مرجع سابق.
(٣) لم يُتَكلم عن المعنى؛ إذ ليس مدار البحث، كما سبق.

مثلاً للنسيان وترك العزيمة(١)، وذكر ابن عطية: أن في ذلك مزيد تحذير للنبي ﷺ عن العجلة لئلا يقع فيما لا ينبغي، كما وقع آدم عليه السلام (٢).

كان ذلك فحوى الأمر الإلهي.

والصورة التطبيقية لهذا قبل التوقيف القرآني على هيئة تلقي القرآن لاستشعار هذه المصدرية: تعجل النبي ﷺ نزول القرآن واستكثاره منه، إذ ورد في تفسير قوله تعالى ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾ ثلاث تفسيرات:

أحدها: أنها كقوله تعالى ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾.

والثاني: أنها نهيٌ للنبي ﷺ عن استعجال نزول القرآن، لأنه ما يتنزل إلا بأمر ربه جل جلاله، وليس للنبي ﷺ من الأمر شيء، ويدل له حبه ﷺ للوحي، وتشوقه إليه، قال صاحب التحرير والتنوير:"لما كان النبي ﷺ حريصاً على صلاح الأمة شديد الاهتمام بنجاتهم؛ لا جرم خطرت بقلبه الشريف عقب سماع تلك الآيات رغبةً، أو طلبةً في الإكثار من نزول القرآن، وفي التعجيل به إسراعاً بعظة الناس وصلاحهم، فعلمه الله جل وعز أن يكل الأمر إليه"(٣).

والصورة التطبيقية بعد التوقيف القرآني على هيئة تلقي القرآن: هو استراحة النبي ﷺ (٤) من خوف تفلت القرآن منه ﷺ بعد تكفل الله جل وعز بعدم ذلك، والإكثار من دعاء ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾، واتباع ما أوقفه القرآن من هيئات في حفظه، وعدم استعجال نزول القرآن عليه إذ لكل أجل كتاب، وإرجاع كل فضل ينزله الله جل جلاله على نبيه ﷺ لمنزله جل جلاله، وقد قال أبو حيان -رحمه الله تعالى- في

---

(١) انظر: روح المعاني ١٦/ ٣٩٣، مرجع سابق.

(٢) (ابن عطية) أبو محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ١٠/ ٩٩، تحقيق وتعليق: عبد الله ابن إبراهيم الأنصاري، السيد عبد العال السيد إبراهيم، ط١، ١٤٠٦هـ – ١٩٨٥م.

(٣) التحرير والتنوير ١٩/ ٣١٦، مرجع سابق، ونقل الآلوسي -رحمه الله تعالى- نحوه عن الماوردي، وتراجع هذه المصادر لمعرفة التفسير الثالث.

(٤) كما عبر ابن عباس رضي الله عنهما في حديث المعالجة، انظر: المبحث السادس من هذا الفصل.

قوله جل وعز ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾: "وهذا القول متضمن للتواضع لله، والشكر له على ما علم من ترتيب العلم، أي كما علمتني مآرب لطيفة في باب التعلم، وأدباً جميلاً ما كان عندي فزدني علماً"[1].

ج- على أن من أهم مقتضيات المصدرية الإلهية التي حفت بالحقائق السابقة إثباتها لحقيقة الحق في إنزال القرآن وتلقينه للرسول ﷺ وتلقيه من جبريل عليه السلام وهو معنى قوله تعالى ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء: ١٠٥]، وحقيقة الحق هي أولى دعائم التوقيف في نقل القرآن الكريم.

٢-الاستماع والإطراق عند تلاوة جبريل عليه السلام عليه: وذلك تنفيذاً لقوله جل جلاله ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾[القيامة: ١٨] على ما تقدم[2].

والصورة التطبيقية لذلك ما قاله ابن عباس رضي الله عنه: فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك إذا أتاه جبريل عليه السلام استمع [وأطرق].

وهذا هو الأساس الشرعي والمنهجي في جعل القراءة الابتدائية من الشيخ أو عليه مع نظر الطالب في المصحف هي أول خطوات حفظ القرآن[3] كما تقدم في التلقين والتلقي[4].

والاستماع والإنصات يحقق نتائج ترفع من مستوى الاستيعاب المنهجي لألفاظ القرآن الكريم، ومنها:

أ- أن ذلك ترسيخٌ لاستشعار المصدرية الإلهية، من حيث الطمأنينة وعدم الجزع، أو الخوف على فوات شيء من القرآن لعموم الوعد الإلهي بالحفظ لكتابه، ثم

(١) البحر المحيط ٦/ ٢٨١، مرجع سابق، ولعله ناقل عن الكشاف ٢/ ٤٤٨، مرجع سابق.
(٢) انظر: المبحث السادس من هذا الفصل.
(٣) وقد تُغْتَفَرُ هذه الخطوة عند من يوثق به من الطلاب فتكون قراءته على الشيخ هي قراءة الحفظ مباشرة كما تقدم في المبحث السابع.
(٤) انظر المبحث السابع من هذا الفصل.

لخصوص الوعد الإلهي بجمع القرآن في صدر النبي ﷺ وعـدم نسـيه لـه إلى أن يبلغـه، ثم عدم نسيه له نسياناً كلياً.

ب- أن ذلك أقـوى في اسـتيعاب لفـظ الآيـة، ومـن ثـم حفظهـا أصـلاً، ومحـلاً، ووضعاً، وأداءً.

ج- أن ذلك أقوى في استيعاب معنى الآية، وفَهْمِها بعكس الترديـد خلـف جبريـل عليه السلام فإنه باعث على الاضطراب والارتباك، وخاصـةً إن اقـترن الترديـدُ لموضـع سبق بالاستماع لموضعٍ يلحق، قال الآلوسي -رحمه الله تعـالى-:"إنـه ربمـا يشـغل الـتلفظ بكلمة عن سماع ما بعدها"[1]، وقال أبو السعود -رحمه الله تعالى-: "إن استقرار الألفاظ في الأذهان تابع لاستقرار معانيها فيها، وربما يشغل المتلفظ بكلمة عن سماع ما بعدها"[2].

٣- ترديد القرآن بعد انتهـاء جبريـل عليـه السـلام مـن قراءتـه، ليطمـئن القلـب بتحفظه: وهو صريح في الأمـر القرآنـي، والوعـد الإلهـي ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ كمـا تقدم[3]، وقال الزمخشري -رحمه الله تعالى- في قوله جـل وعـز ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾ [طه: ١١٤]: "لما ذكر القرآن وإنزاله قال علـى سـبيل الاستطراد: "وإذا لقنك جبريل عليه السلام ما يُوحى إليك من القرآن، فتأنَّ عليه ريثمـا يسمعك ويفهمك، ثم أقبل عليه بالتحفظ بعد ذلك، ولاتكن قراءتك مساوقةً لقراءته، ونحوه قوله جل جلاله ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾"[4].

والصورة التطبيقية لذلك ما وصفه ابن عباس رضي الله عنه في حـديث المعالجـة: فإذا انطلق جبريل عليه السلام قرأه النبي ﷺ.

---

(١) روح المعاني ١٦/ ٣٩٢، مرجع سابق.

(٢) تفسير أبي السعود ٣/٦٦٨، مرجع سابق، وانظر: تفسير أبي حيان ٦/ ٢٨١، فتح القدير ٣/ ٤٨٧، أضواء البيان ٤/٥١٨، تفسير القرطبي ١١/ ٢٥٠، تفسير ابن كثير ٣/١٤٨، مراجع سابقة، وذكر ابن كثير حديث أبي هريرة رضي الله عنه [اللهم انفعني بما علمتني، وعلمني ما ينفعني، وزدني علماً، والحمد لله على كل حال].

(٣) انظر: حديث المعالجة في المبحث السادس من هذا الفصل.

(٤) الكشاف ٢/ ٤٨٨، مرجع سابق.

٤-تحريك فمه وشفتيه عند الحفظ أو القراءة: وهذا مأخوذٌ من منطوق آيات القيامة، ومن مفهوم حديث المعالجة وقد مضى، ومن الحديث الآتي في الجهر بالقرآن.

٥- (الترتيل)[١] تبيين الحروف: التَّرْتِيلُ، في القراءة الترسل فيها، والتبيين بغير بغي[٢]، وقد عرفه مجاهدبقوله في قوله جل وعز: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴾ قال: "بعضه أثر بعض على تؤدة"[٣]، وعن قتادة قال: "بينه بياناً"[٤].

فالترتيل يتضمن عنصرين يشكلان ماهيته الذاتية، هما: التأني (التؤدة)، وتبيين الحروف وهما متلازمان، وهما يقتضيان أمراً ثالثاً: هو إشباع الحركات، ويستلزم الترتيل أمراً رابعاً هو: السكينة والوقار التي تميز قارئ القرآن عن مطرب الألحان، فاجتمعت في الترتيل أربع متضَمَنات: التأني والتؤدة، وتبيين الحروف، وإشباع الحركات، والسكينة والوقار[٥].

وللطبيعة التفصيلية لهذا المبحث من حيث معرفة كيف علم جبريل عليه السلام النبي ﷺ القرآن من حيث اللفظ فإنه سيُفْرَدُ لكل من العنصرين الأولين بند مستقل من خلال تحليل قوله جل وعز ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴾ [المزمل: ٤]، وأما الأخيرين فالإشارة العابرة لهما في مقامٍ كذا المقام كافية، ويُلاحَظ التصريح بها جميعاً آتياً في كلام العلماء مما سيرد في البحث عند الكلام عن العنصرين الأولين.

فأما تبيين الحروف فهو لازم التؤدة والتأني؛ إذ من غايات التأني: تفصيل الحروف، قال الآلوسي -رحمه الله تعالى-: "اقرأه على تؤدة وتمهل وتبيين حروف، بحيث يتمكن السامع من عدها، من قولهم (ثغر رَتِل) إذا كان مفلجاً لم تتصل أسنانه بعضها ببعض، وأخرج العسكري عن علي في المواعظ أن رسول الله سئل عن هذه الآية

---

(١) حكم الترتيل، وتحليل عناصره الذاتية والطارئة ليس من ميدان البحث، ولذا لن يكون توسع في ذلك.

(٢) مختار الصحاح ص٩٨، مرجع سابق.

(٣) رواه الطبري قال ابن حجر-رحمه الله تعالى- في فتح الباري شرح صحيح البخاري ٩/ ٨٩، مرجع سابق: "بسند صحيح".

(٤) تفسير الطبري ٢٨/ ١٢٧، مرجع سابق.

(٥) وذا موضح التأصيل الشرعي لمراتب القراءة المعروفة في علم التجويد.

فقال: بينه تبييناً، ولا تنثره نثر الدقل، ولا تهذه هذ الشعر، قفوا عند عجائبه وحركوا به القلوب ولا يكن هم أحدكم آخر السورة"[1]، وعند الشوكاني: "اقرأه حرفاً حرفاً، قال الزجاج: "هو أن يبين الحروف، ويوفيها حقها من الإشباع، وأصل الترتيل: التنضيد والتنسيق وحسن النظام، وتأكيد المصدر بالفعل يدل على المبالغة على وجه لا يلتبس فيه بعض الحروف ببعض، ولا ينقص من النطق من مخرجه المعلوم، مع استيفاء حركته المعتبرة"[2]، وقال الطبري: "بينه تبييناً، وترسل فيه ترسلاً"[3]، وقال ابن حجر: "قوله جل وعز ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ أي اقرأه مترسلاً بتبيين الحروف، وإشباع الحركات"[4].

وفي القرآن الكريم تذكر لنا صورة تطبيقية ملائكية[5] لمبدأ الترتيل في قول الله جل وعز ﴿وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾[الفرقان: ٣٢] فهو خبر عن الملأ الأعلى، ولأن القراءة توقيفٌ؛ فإن هيئة قراءة القرآن يجب أن تتماثل، ولم يأخذها جبريل عليه السلام في الملأ الأعلى إلا عن الله جل جلاله، فحكى الله جل وعز كيفية قراءة جبريل عليه السلام ثم أمر النبي ﷺ بقراءة القرآن على الهيئة ذاتها فقال جل وعز: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ وصلة ما بين خبر الملأ الأعلى، والأمر الإلهي الكريم مضمرٌ تدل عليه الأخبار الأخرى والتقدير: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ﴾، وذلك على نسق ما سمعته من جبريل عليه السلام إذ قد رتلناه على لسانه ترتيلاً، وفي أضواء البيان: "هذه الآية نصٌ بترتيل

---

(١) روح المعاني ٢٩/ ١٧٨، مرجع سابق، ونحوه عند أبي السعود ٥/ ٤١٢، مرجع سابق.

(٢) تفسير الشوكاني ٥/ ٣٨٧، ونحوه القرطبي ١٩/ ٣٦، مرجع سابق، وقال سيد قطب –وهو المعروف قدره في اللغة العربية–: "وترتيل القرآن وهو مد الصوت به، وتجويده بلا تغنٍ ولا تطرٍ، ولا تخلعٍ في التنغيم".

(٣) تفسير الطبري ٢٩/ ١٢٦، مرجع سابق.

(٤) فتح الباري شرح صحيح البخاري ٣/ ٢٣، مرجع سابق، وقال في ٩/ ٨٩: "تبيين حروفها والتأني في أدائها، ليكون أدعى إلى فهم معانيها".

(٥) واغتفرت النسبة إلى الجمع خوفاً من اللبس.

القرآن ترتيلاً، وأكد بالمصدر تأكيداً لإرادة هذا المعنى[1] كما قال ابن مسعود رضي الله عنه:لا تنثروه نثر الدقل، ولا تهذوه هذ الشعر، قفوا عند عجائبه، وحركوا به القلوب، ولا يكن هم أحدكم آخر السورة"[2].

والصورة التطبيقية لذلك: ما وصف صحابة رسول الله ﷺ كلام نبي الله جل وعز حيث كان يرتل كلامه، ويترسل فيه فجابر بن عبد الله رضي الله عنه يقول: «كان في كلام رسول الله ﷺ ترتيل أوترسيل»[3]، وعن عائشة -رضي الله تعالى عنها-: «أن النبي ﷺ كان يحدث حديثاً لوعده العاد لأحصاه لم يكن يسرد الحديث كسردكم»[4]، وأنكرتْ على أبي هريرة رضي الله عنه سرعة حديثه، وقالت: «ولو أدركته لرددت عليه»[5]، أي لأنكرتُ عليه، وبينتْ له أن الترتيل في التحديث أولى من من السرد، فقولها "لم يكن يسرد الحديث كسردكم أي يتابع الحديث استعجالاً بعضه إثر بعض لئلا يلتبس على المستمع، زاد الإسماعيلي من رواية بن المبارك عن يونس: «إنما كان حديث رسول الله ﷺ فصلاً فهماً تفهمه القلوب»"[6]، وقال في موضع آخر: آخر: "قولها «لو عده العاد لأحصاه» أي لوعد كلماته، أو مفرداته، أو حروفه لأطاق ذلك، وبلغ آخرها، والمراد بذلك المبالغة في الترتيل والتفهيم"[7].

وإذا كان ذا في حديثه المعتاد، فكيف في تلاوة كلام الله جل وعز؟.

---

(١) واستدل صاحب التحرير والتنوير ٢٩/ ٣١٦، مرجع سابق: بالمصدر على تأكيد إرادة المعنى، وفي هذا رد على من يتوهم الترتيل هنا بمعنى التنجيم.

(٢) أضواء البيان ٨/ ٦١٠، مرجع سابق.

(٣) سنن أبي داود ٤/ ٢٦٠، مرجع سابق، قال الشيخ الألباني: صحيح.

(٤) صحيح البخاري ٣/ ١٣٠٧، مرجع سابق.

(٥) صحيح البخاري ٣/ ١٣٠٧، مرجع سابق، صحيح مسلم ٣/ ١٩٤٠، مرجع سابق.

(٦) فتح الباري شرح صحيح البخاري ٦/ ٥٧٩، مرجع سابق.

(٧) فتح الباري شرح صحيح البخاري ٦/ ٥٧٨، مرجع سابق.

وإنما ابتدأ البحث بحديث جابر رضي الله عنه حتى لا يَرِدَ على جوهر التقرير هاهنا أن الترتيل قد يراد به التفريق في الإنزال (التنجيم)، فحديث جابر رضي الله عنه يرده، وإن كان المعنى الذي قيل واردٌ، لكن في غير ذا المكان[١].

وتصف أم سلمة -رضي الله تعالى عنها- الصورة التطبيقية لترتيل الرسول ﷺ «بأن قراءة رسول الله ﷺ كانت: بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين يعني كلمة كلمة»[٢]، وعن ابن أبى مليكة أن بعض أزواج النبي ﷺ ولا أعلمها إلا حفصة سئلت عن قراءة رسول الله ﷺ فقالت: (إنكم لا تطيقونها قالت: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ تعني الترتيل[٣]، وقد صرح متتبعو سننه بأن الترتيل عادته في قراءته، ويقرنون ذلك بعادته في اعتدال أركانه في الصلاة[٤]، قال ابن حجر -رحمه الله تعالى: "ومن المعلوم من عادته ﷺ ترتيل القراءة، وتعديل الأركان"[٥].

---

(١) وصار الترتيل مستعملاً في عرف العلماء في هذا المعنى لا في معنى التفريق (التنجيم) ففي سنن البيهقي الكبرى١/ ٤٢٧، مرجع سابق، أن أبا سعيد الخدري ﷺقال: (إني أراك تحب الغنم والبادية، فإذا كنت في غنمك وباديتك، فأذنت بالصلاة، فارفع صوتك بالنداء، فإنه لا يسمع مدى صوت المؤذن جنٌ ولا إنس، ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة -قال أبوسعيد -:سمعته من رسول الله ﷺ رواه البخاري، قال الشافعي: والترغيب في رفع الصوت، يدل على **ترتيل** الأذان" وفيها أيضاً ٢/ ٥٢، مرجع سابق: "باب كيف قراءة المصلى قال الله جل في علاه ﴿،**وَرَتِّلِ الْقُرْءَانَ تَرْتِيلاً**﴾قال الشافعي -رحمه الله تعالى-: "الترتيل ترك العجلة في القرآن عن الإبانة". **وتبيين الحروف، وإشباع الحركات مقتضٍ نوعاً من التفريق بين الحروف تضبطه المشافهة ليُعطى كل حرفٍ حقه ومكانته.**

(٢) سنن البيهقي الكبرى٢/ ٤٤، مرجع سابق.

(٣) مسند الإمام أحمد بن حنبل ٦/ ٢٨٦، مرجع سابق.

(٤) وفيه بيان ماهية الترتيل في عرفهم، وأنه ليس التنجيم الزمني.

(٥) فتح الباري شرح صحيح البخاري ٢/ ٢٧، مرجع سابق.

وقد كان ترتيله ﷺ للسورة يصيرها أطول من أطول منها، وهو الموافق لقراءة معتدلي قراء المسلمين في هذه الأيام، فقد روى مسلم من حديث حفصة -رضي الله تعالى عنها- أنه ﷺ كان يرتل السورة حتى تكون أطول من أطول منها[(١)].

وعن يعلى بن مملك: أنه سأل أم سلمة -رضي الله تعالى عنها- عن قراءة رسول الله ﷺ وصلاته، فقالت: «وما لكم وصلاته؟، كان يصلي وينام قدر ما صلى، ثم يصلي قدر ما نام، ثم ينام قدر ما صلى، حتى يصبح»، ونعتت قراءته فإذا هي تنعت قراءته حرفاً حرفاً[(٢)].

وفي معنى قولها (ثم نعتت قراءته) يقول السندي: "أي وصفت وبينت بالقول، أو بالفعل بأن قرأت كقراءته ﷺ. وقوله: (حرفاً حرفاً)، وقال أبو البقاء: نصبهما على الحال أي مرتلة"[(٣)].

وقوله (حرفاً حرفاً) يبين العلاقة بين أصل الوضع اللغوي والاستعمال العرفي لكلمة ترتيل.

وكان ترتيله في الصلاة نموذجاً عملياً يسمعه الصحابة ثلاث مرات يومياً على الأقل، ولم يكن ترتيله مقتصراً على الفرائض بل ذلك شأنه في النوافل؛ ومن ذلك بوّب ابن حبان في صحيحه:"ذكر ما كان يرتل المصطفى ﷺ قراءته في صلاة الليل"[(٤)].

وإنما كان الإكثار من هذه الأوصاف لتطبيق النبي ﷺ للترتيل، والاستزادة منها في البحث، لأهميتها البالغة في إثبات أمر جوهري هو:

تحري صحابة رسول الله ﷺ لنقل الهيئة الداخلية لقراءته (الأداء)، كتحريهم لنقل أصل ألفاظه.

---

(١) صحيح مسلم ٦/ ٣٣٥٢، مرجع سابق، ولا مكان لما ادعاه ابن حبان -رحمه الله تعالى- أن الركعة الأولى من صلاة الظهر إنما طالت على الثانية بالزيادة في الترتيل فيها مع استواء المقروء فيهما، إذ ما الدليل على استواء المقروء؟وما الدليل على ترتيله في الأولى دون الثانية، مع أن عادته المستمرة هي الترتيل؟.

(٢) سنن أبي داود ٢/ ٧٣، مرجع سابق، وقال الألباني: " ضعيف ".

(٣) حاشية السندي على النسائي ٢/ ١٨١، مرجع سابق.

(٤) صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان ٦/ ٣١٨، مرجع سابق.

٦- التأني في تلاوة القرآن: وهو جوهر الترتيل الذي أمر الله جل جلاله به في قوله ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴾.

فحقيقة ترتيل القرآن: "قراءته على ترسل، وتؤدة بتبيين الحروف، وإشباع الحركات حتى يجيء المتلو منه شبيهاً بالثغر المرتل، وهو المفلج المشبه بنور الأقحوان، ولا يهذه هذاً ولا يسرده سرداً، كما قال عمر: شر السير الحقحقة، وشر القراءة الهذرمة، حتى يشبه المتلو في تتابعه الثغر، وقوله جل جلاله ﴿تَرْتِيلًا﴾ تأكيدٌ في إيجاب الأمر به، وأنه ما لابد منه للقارئ"[1]، فليس هذا الأمر تحسينياً في القراءة، بل هو مندرجٌ ضمن الطلب الشرعي.

والتصريح بالتأني ظاهر في قوله جل وعز ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾ ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴾؛ إذ في كلٍ منهما زجرٌ عن الاستعجال في حفظ الكتاب الكريم، وذاك في معنى الاستعجال في تلاوته، ولذا قال الزمخشري في قوله جل وعز ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ﴾: "﴿كَلَّا﴾ زجرٌ لرسول الله ﷺ عن عادة العجلة، وإنكارٌ لها عليه، وحثٌ على الأناة، والتؤدة، وقد بالغ في ذلك بإتباعه قوله ﴿بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ كأنه قال: بل أنتم يا بني آدم لأنكم خلقتم من عَجَلٍ، وطُبِعْتُمْ عليه تعجلون في كل شيء، ومن ثم تحبون العاجلة"[2]، وقال الآلوسي:"﴿كَلَّا﴾ إرشاد للرسول ﷺ، وأَخْذٌ به عن عادة العجلة، وترغيبٌ له في الأناة، وبالغ سبحانه في ذلك لمزيد حبه إياه

---

(١) الكشاف ٤/ ١٥٢، مرجع سابق، والكلام المنسوب لعمر لم أجده بعد لأيٍ، وإنما ذُكِرَ (شر السير الحقحقة) على لسان الهواتف قبل النبوة، انظر: (الأصبهاني) إسماعيل بن محمد بن الفضل التيمي ت ٥٣٥هـ : دلائل النبوة ٢/ ١٦٩، تحقيق: محمد محمد الحداد، ١٤٠٩هـ، دار طيبة - الرياض، وجاءت على لسان الحسن البصري، انظر: (ابن المبارك) أبو عبد الله عبد الله بن المبارك ابن واضح المروزي ت ١٨١هـ : كتاب الزهد ص٤٦٨، تحقيق: حبيب الحمن الأعظمي، دار الكتب العلمية - بيروت.

(٢) الكشاف ٤/ ١٦٥، مرجع سابق، وكذا أبو السعود ٥/ ٤٣١، مرجع سابق.

بإتباعه قوله جل وعز ﴿بَلْ﴾ -ثم سرد الآلوسي غير ذلك المعنى، وعَقَّبَ باستحسان كلام الزمخشري - قال-: والللائق بجزالة التنزيل، ولطيف إشاراته ما أشار إليه ذو اليد الطولى جار الله تجاوز الله عن تقصيراته"[١]، وتفصيل الاستدلال مبسوطٌ في تحليل الموقف القرآني الذي تثيره كل من الآيتين[٢].

وقد بين الله جل وعز مدى هذا النهي، ومدة هذه العجلة المنهية: في قوله ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾ [طه: ١١٤].

والغاية من التأني: التدبر، فقد قال ابن كثير: "اقرأه على تمهلٍ؛ فإنه يكون عوناً على تدبره"[٣].

والتأني يستلزم السكينة والوقار، ولذا ففي تفسير الجلالين: "ورتل القرآن: تثبت في تلاوته"، وقال الصاوي:" اقرأ بترتيلٍ، وتؤدةٍ، وسكينةٍ، ووقار"[٤].

والتأني يقتضي إشباع الحركات كما سبق في كلام الزمخشري آنفاً، وفي التحرير والتنوير: "وأُريد بترتيل القرآن: ترتيل قراءته، أي التمهل في النطق بحروف القرآن حتى تخرج من الفم واضحةً، مع إشباع الحركات التي تستحق الإشباع"[٥].

وقال ابن حجر -رحمه الله تعالى- في حديث المعالجة[٦]: "وشاهد الترجمة منه: النهي عن تعجيله بالتلاوة؛ فإنه يقتضي استحباب التأني فيه، وهو المناسب للترتيل"[٧].

وتذكر حفصة -رضي الله تعالى عنها-الصورة التطبيقية لهذا التأني في قولها: كان النبي ﷺ يرتل السورة حتى تكون أطول من أطول منها، ويزيد هذا إيضاحاً حديث

---

(١) روح المعاني ٢٩ / ٢٤٥، مرجع سابق.
(٢) انظر: حديث المعالجة في المبحث السادس من هذا الفصل.
(٣) ابن كثير ٤/ ٣٧٠، مرجع سابق، ونحوه عند الشوكاني في فتح القدير ٥/ ٣٨٧، مرجع سابق.
(٤) حاشية الصاوي ٤/ ٣٣٨، مرجع سابق.
(٥) التحرير والتنوير ٢٩/ ٣١٦، مرجع سابق.
(٦) انظر: المبحث السادس من هذا الفصل.
(٧) فتح الباري شرح صحيح البخاري ٩/ ٩٠، مرجع سابق.

أبي وائل قال: غدونا على عبد الله فقال رجل: قرأت المفصل البارحة فقال: (هذّاً كهذ الشِعر؟، إنا قد سمعنا القراءة، وإني لأحفظ القرناء التي كان يقرأ بهن النبي ﷺ، ثماني عشرة سورة من المفصل، وسورتين من آل حم)[١].

وإنما قال: (هذّاً كهذ الشِعر)؛ لأنهم كانوا إذا أنشدوا القصيدة، أسرعوا ليظهر ميزان بحرها، وتتعاقب قوافيها على الأسماع، والهذ: إسراع القطع[٢].

ويمكن تحليل هذا الكلام ملياً من حيث تعريف الترتيل اللغوي، ومتضَمَّناته في الاستعمال العرفي ليتم الوصول إلى تقريبٍ لمقدار هذه التؤدة، وضبطٍ لذاك التمهل[٣]؛ التمهل[٣]؛ إذ غير خافٍ أن إنشاد الشعر في المحافل عادةً لا يخلو من ترتيبٍ وتفاعلٍ بين المعنى والمبنى، وتريثٍ مع إسراعٍ يُعْرَفُ عند سماع الشعر، كما لا يخلو من نوع محاولة إلصاقٍ بآخر البيت لتتناغم أوزانها وكلماتها، وذاك حالةٌ بين السرعة المفرطة المُشَبَّهةِ بقراءة نشرات الأخبار، أو إلقاء خطب المنابر المُهَيِّجةِ للسامع، وبين الإبطاء الممل، فإذا كان هذا الإلقاء للشعر مذموماً، وهو بهذه المنزلة غير المتعجَلة الإلقاء نسبياً من حيث واقعُه، ظهر أن ترتيل القرآن الكريم يستلزم تأنياً أكثر، وتؤدةٌ أعظم، ومحاولة إظهارٍ للمبنى أجمل، تتكفل بإبداءٍ للمعنى أكمل، لا على حسابه كما هو معلوم، من غير مبالاة بإدراك نهايات الآيات، وخواتيم السور، وهذا الضبط لتلك التؤدة هو ما تسمعه من مهرة القراء في عصرنا كما في كل عصر، وهو ما عليه غالب حال المسلمين حتى الأميين منهم الذين لا يعرفون إلا بعض آيات يرددونها، فإنه يظهر تغير طريقة قراءتهم، ونبرات صوتهم إن كانت للقرآن الكريم[٤].

---

(١) صحيح البخاري ٤/ ١٩٢٤، مرجع سابق.

(٢) التحرير والتنوير ٢٩/ ٣١٦، مرجع سابق.

(٣) وليس في تفاوت ضبط ذلك حجةٌ لمنكر التواتر في الأداء، إذ أصل الأداء كالمد مثلاً: ثابتٌ عند عامة المسلمين، فضلاً عن عامة القراء، وهو ما يدور الكلام حوله، أما مراتبه فقد يُسَلَّم بالنظر في تواترها، ولا ضير في ذلك.

(٤) وهذا من أعظم أدلة التواتر، وهو ظاهرةٌ ليست بغريبة على المناهج المعرفية لدى المسلمين تدل على مقدار الحفظ الإلهي للكتاب الكريم.

وليضبط هذا التأني من الجهة المقابلة: إذ إن الاهتمام باللفظ على حساب المعنى، أو الغلو في التؤدة، أو الإفراط في التغني بالقرآن مداً، وابتداء، ووقفاً، يضاد غاية الترتيل، ويصبح اللفظ غاية بعد أن كان وسيلة، ويكون القرآن كتاباً للاستمتاع الموسيقي المجرد فحسب، وهو كتاب الهداية، فلا يَرِدُ على ما قُرِّرَ آنفاً ما انحدر إليه بعض متزعمي الإقراء، ومتصدريه في هذا الباب.

فإن اعتُرض بأن الرابط بين ما يرومه هذا المبحث من بيان متعلقات تعليم جبريل عليه السلام للنبي ﷺ من حيث اللفظ وبين موضوع الترتيل غير واضح، ولا نص صريح في علاقة جبريل عليه السلام بالترتيل؟.

فالجواب: كان الأمر بالترتيل مبكراً على سنن نزول الوحي، فقد كان جملة ما نزل من القرآن حين نزول أوائل سورة المزمل سورتين أو ثلاث على أصح الأقوال[1]، ويشير قوله جل وعز فيها ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾[المزمل: ٤][2] إلى أن القرآن بادئ بالنزول، وهذه بدايةٌ إضافية لا حقيقية أوجب تقريرها الكثرة الكاثرة لما سينزل من الوحي بعدها مقارنة بما سبق، ولما كان جبريل عليه السلام هو المقرئ لرسول الله ﷺ ما ينزل من القرآن، كما أنه الذي يعارضه به تعاهداً، ومراجعة، وتثبيتاً، فقد لزم أن يكون جبريل عليه السلام هو الذي يقرئه بالترتيل ابتداء، وهو ما صرح به في قوله جل وعز ﴿وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾[الفرقان: ٣٢].

ولا يُرتضَى القول بأن المراد بالترتيل في هذه الآية هو التفريق الزمني في الإنزال لقرينة سياق الآية، فأولها قوله جل وعز ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ [الفرقان: ٣٢]؛ لأن التأسيس أولى من التأكيد[3]، وقد تقدم في سياق الآية التنبيه على تفريق القرآن زمنياً في إنزاله إلى الأرض من كلام الكفار مع إقرارهم على

(١) انظر: الإتقان ١/ ٢٠، مرجع سابق.

(٢) والقول الثقيل هو القرآن كما تقرر عند أئمة التفسير، انظر: التحرير والتنوير ٢٩/ ٢٦٠، مرجع سابق.

(٣) انظر مثلاً في علم أصول الفقه:نثر الورود ١/ ٢٢٥، مرجع سابق.

ذلك وبيان الحكمة منه، فصارت نهاية الآية دالةً على معنى آخر هو هيئة تلاوة القـرآن، على أن العُرف الشرعي قاضٍ بأن لفظة (رتـل) مسـتعملةٌ في هيئـة أداء القـرآن[1] لا في تنجيمه، وقد تقرر في الأصول تقديم الحقيقة الشرعية والعرفية علـى اللغويـة[2]، فتحـرر من هذا أن جبريل عليه السلام كان يقرئ النبي ﷺ القرآن بالترتيل.

ويختم هذا بالقول:

إن سورة المزمل قـد نعتـت بدقـة الطبيعـة الذاتيـة للقـرآن الكـريم ﴿قَوْلًا ثَقِيلًا﴾، وكيفية وصولها من السماء إلى الأرض ﴿سَنُلْقِي﴾، ووسيلة الاستعانة علـى تلقيـه ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ﴾، وهيئة النطق به، والوقت المختار لمراجعته، وبيان الأوقات التي تصرف في أمورٍ أخرى غير مراجعته وتعاهده، وإذ قد كانت هذه العناية الكـثيرة الدقيقـة، عُلِـمَ مقـدار التوقيفية في نقل لفظ القرآن الكريم.

فإن اعتُرض بأن: الإلقاء هو هيئة أداء القرآن من جبريل عليه السلام للـنبي ﷺ، ولا دليل أصرح فيه من آية المزمل ﴿إِنَّا سَنُلْقِي﴾، والإلقاء هو رمي الشيء مـن اليـد إلى الأرض وطرحـه، ويقـال: شـيءٌ لقـىً: أي مطـروح، وإذا كـان كـذلك فهـو لا يفيـد التمهل.

فالجواب: عن هذا الإيراد:

١- غاية ما يدل عليه أصل الوضع اللغوي لمادة ألقـى هـو الطـرح، فـأين اقـتران السرعة معه أو عدم اقترانها؟، على أن الحقيقة العرفية مقدمةٌ على الوضع اللغوي.

٢- لا يضرب دين الله جل وعز بعضه ببعض، بل يؤخذ هذا الدليل مجموعاً إليـه بقية الأدلة السابقة والمقترنة، فيكون النقل محققاً، والتقرير مصدقاً.

---

(١) كما في قوله جل في علاه ﴿وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا﴾ [المزمل:٤]، وقول النبي ﷺ : «اقرأ وارق ورتل» ويأتي تخريجه بعد قليل في هذا الفصل.

(٢) انظر مثلاً في علم أصول الفقه: نثر الورود ١/ ١٢٠، مرجع سابق، المستصفى ١/ ٣٤١، مرجع سابق، نهاية السول ٢/ ١٤٥، مرجع سابق.

٣-الإلقاء في آية المزمل مستعارٌ لمعنى الإبلاغ الذي يأتي دفعة واحدة لأن النبي ﷺ لم يكن متوقعاً له، ولا مترقباً حدوثه، فأُريد تنبيهه على كمية المُلقى عليه من خلال ما يشعر به لفظ (نلقي) ليقدر الأمر حق قدره، فاستعير الإلقاء للإبلاغ دفعةً على غير ترقب(١).

ويدل على أنه ليس المراد بالإلقاء القذف دون تمهلٍ: ورود التعبير عنه في السنة بالنبذ (فينبذه إلي) وذلك عندما يتمثل الملك له رجلاً، وهذا الوصف يضاد معنى القذف السريع؛ إذ أن الرجل عندما ينبذه إليه إنما ينبذه في لغة البشر ولا يقتضي ذاك السرعة، وقد ورد التعبير عن الكلام بالإلقاء في قوله جل وعز ﴿فَأَلْقَوْاْ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾[النحل: ٨٦]، ومنه قوله جل جلاله ﴿فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴾ [طه: ٨٧]، وتقدم تفصيل ذلك في المبحث السابع.

على أن هذا الإيراد غريبٌ في مدخله، من حيث إن الوحي يستلزم السرعة وإلا لا يسمى وحياً، ويرد فيه ما سبق، ثم إن السرعة واضحٌ معناها في النسبية (الإضافية) مقارنةٌ بفعل البشر، لا من حيث إنها سرعة مطلقة.

وهنا أمرٌ ينبغي التنبه له هو أن الإلقاء إنما يكون للأمر الحسي كالحجر والكلام، وقد يستعار للأمر غير المشاهد كالوسوسة كما في قوله جل وعز ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِيٓ أُمْنِيَّتِهِۦ ﴾ [الحج: ٥٢](٢).

٧- التغني بالقرآن، والجهر به: فعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه كان يقول: قال رسول الله ﷺ: «لم يأذن الله لشيء ما أذن للنبي يتغنى(٣) بالقرآن»، وقال صاحبٌ له:

---

(١) التحرير والتنوير٢٩/ ٣١٧، مرجع سابق.

(٢) انظر: تحليل هذه الآية في الفصل الخامس، وكان هذا التنبيه حتى لا يُظَنَّ أن الإلقاء معنوي فقط، فيجوز أن يكون إلهاماً.

(٣) قال ابن حجر في الفتح ٩/ ٧٠، مرجع سابق: "قال ابن الجوزي: اختلفوا في معنى قوله (يتغنى) على أربعة
أقوال: أحدها: تحسين الصوت، والثاني: الاستغناء، والثالث: التحزن، قاله الشافعي، والرابع: التشاغل به،

يريد يجهر به[1]، زاد في لفظ له: قال سفيان: تفسيره يستغني بـه[2]، وفي لفـظ: «مـا أذن الله لشيء ما أذن لنبي حسن الصوت بالقرآن يجهر به»، وعن معقل بن يسار رضـي الله عنه قال: قـال رسـول الله ﷺ: «لا يـأذن الله لشـيء إذنـه لأذان المـؤذنين، والصـوت الحسن بالقرآن» [3]، وعند ابن حبان «مـا أذن الله لشـيء كأذنـه للـذي يتغنـى بـالقرآن يجهر به»[4].

والمعنى: "ما أذن الله لشيء كأَذَنِـه لـنبي يتغنَّـى بـالقرآن أي مـا اسـتمع الله لشـيء كاسْتماعه لنبي يَتَغنَّى بالقرآن أي يْتلُوه يَجْهَر به"[5].

وقال أبوحاتم بن حبان: "قوله ﷺ يتغنى بالقرآن يريد يتحزن به، ولـيس هـذا مـن الغُنية، ولوكان ذلك من الغنية لقال (يتغانى به)، ولم يقل (يتغنـى بـه) ولـيس التحـزن بالقرآن وطيب الصوت، وطاعة اللهوات بأنواع النغم بوفاق الوقـاع، **ولكـن التحـزن بالقرآن** هو: أن يقارنه شيئان: الأسف والتلهف: الأسف على ما وقـع مـن التقصـير، والتلهف على ما يؤمل من التوقير، فإذا تألم القلب، وتوجع، وتحزن الصوت، ورَجَّـع، بدر الجفنُ بالدموع، والقلب باللموع، فحينئذٍ يستلذ المتهجد بالمناجاة، ويفر من الخلـق إلى وكـر الخلـوات، رجـاء غفـران السـالف مـن الـذنوب، والتجـاوز عـن الجنايـات

تقول العرب: تغني بالمكان أقام به، وفيه قول آخر حكاه ابن الأنباري في الزاهر قال: المراد التلذذ والاستحلاء له، كما يستلذ أهل الطرب بالغناء، فأطلق عليه تغنياً من حديث {أنه يفعل عنده ما يفعل عند الغناء}، وهو كقول لنابغة:

بكاء حمامة تدعو هديلاً مفجعةٍ على فَنَنٍ تغني،

أَطْلَق على صوتها غناءً؛ لأنه يطرب كما يطرب الغناء، وإن لم يكن غناء حقيقة".

(١) صحيح البخاري ٤/ ١٩١٨، مرجع سابق.

(٢) وفي سنن الدارمي ١/ ٧٦٥، مرجع سابق: وقال: "يريد به الاستغناء"، ولا شك في ضعف هذا الرأي إن أُريد به نفي الآخر، وليس المقام بمتسعٍ لتفصيل ذلك، فيُكتفَى بالإشارة العابرة أعلاه.

(٣) المعجم الكبير ٢٠/ ٢١٦، مرجع سابق.

(٤) صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان ٣/ ٣٠، مرجع سابق.

(٥) النهاية في غريب الأثر ١/ ٣٣، مرجع سابق.

والعيوب، فنسأل الله التوفيق له"[1]، فقوله (ما أذن الله): يريد ما استمع الله لشيءٍ (كأَذَنِه) كاستماعه للذي يتغنى بالقرآن يجهر به يريد يتحزن بالقراءة[2].

وفي سنن البيهقي: "قال أبو عبيدة: في قوله (كأذنه) يعني ما استمع الله لشيء كاستماعه لنبي يتغنى بالقرآن، ولم يرض ومن رواية من روى كإذنه قال وقوله (يتغنى بالقرآن) إنما مذهبه عندنا تحزين القراءة"[3].

والمعنى المتَحَصَل من أقوال أئمة الشأن: أن لفظ (أذن) بفتحة ثم كسرة في الماضي، وكذا في المضارع مشترك بين الإطلاق، والاستماع تقول: أذنت آذن بالمد، فإن أردت الإطلاق فالمصدر بكسرة ثم سكون، وإن أردت الاستماع فالمصدر بفتحتين، كما قال عدي بن زيد:

أيها القلب تعلل بِدَنْ   إن همي في سماع وأذَنْ

أي في سماعٍ واستماع، فأصل أَذَن بتفحتين أن المستمع يميل بإذنه إلى جهة من يسمعه[4].

وهو ما قرره العلماء، وشهد له الاشتقاق اللغوي، وممن قرر ذلك:

قال السيوطي: " قال النووي: معناه عند الشافعي وأصحابه وأكثر العلماء من الطوائف وأصحاب الفنون: تحسين صوته به، والصحيح أنه من تحسين الصوت ويؤيده الرواية الأخرى يتغنى بالقرآن يجهر به"[5].

وقال السندي:"يتغنى بالقرآن: أي يحسن صوته به حال قراءته أو هو الجهر، وقوله (يجهر به) تفسير له أو يلين، ويرقق صوته ليجلب به إلى نفسه والى السامعين الحزن والبكاء، وينقطع به عن الخلق إلى الخالق جل وعلا "[6].

---

(١) صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان ٣/ ٢٧، مرجع سابق.
(٢) انظر: صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان ٣/ ٣٠، مرجع سابق.
(٣) سنن البيهقي الكبرى١٠/ ٢٢٩، مرجع سابق.
(٤) انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري ٩/ ٢٧٦٩، مرجع سابق.
(٥) الديباج على صحيح مسلم ٢/ ٣٩٣، مرجع سابق.
(٦) حاشية السندي على النسائي ١/ ١٨٠، مرجع سابق.

وواضحٌ أن هذه مرتبة فوق مرتبة الترتيل، .

٨- الترجيع في القرآن: هو تقارب ضروب الحركات في القراءة، وأصله الترديد، وترجيع الصوت: ترديده في الحلق[١].

والصورة التطبيقية لذلك: ما رواه معاوية بن قرة عن عبد الله بن المغفل المزني رضي الله عنه قال: رأيت رسول الله ﷺ يوم الفتح على ناقة له يقرأ سورة الفتح أو من سورة الفتح - قال -: فرجع فيها، قال: ثم قرأ معاوية يحكي قراءة ابن مغفل، وقال: لولا أن يجتمع الناس عليكم لرجعت كما رجع ابن مغفل يحكي النبي ﷺ فقلت لمعاوية كيف كان ترجيعه قال آ آ آ ثلاث مرات[٢].

فهذا يحتمل أمرين: أحدهما: أن ذلك حدث من هز الناقة، والآخر: أنه أشبع المد في موضعه، فحدث ذلك، والثاني هو الصحيح بقرينة السياق؛ فإن في بعض طرقه (لولا أن يجتمع الناس لقرأت لكم بذلك اللحن) أي النغم.قال ابن حجر: "والذي يظهر أن في الترجيع قدراً زائداً على الترتيل، فعند ابن أبي داود من طريق أبي إسحاق عن علقمة قال: بت مع عبد الله بن مسعود في داره، فنام، ثم قام، فكان يقرأ قراءة الرجل في مسجد حيه لا يرفع صوته، ويسمع من حوله، ويرتل، ولا يرجع"[٣]، ويدل لهذا الكلام ما جاء عن أم هانئ –رضي الله تعالى عنها-: كنت أسمع صوت النبي ﷺ وهو يقرأ وأنا نائمة على فراشي يُرَجِّعُ القرآن[٤].

كما يدل هذا الحديث على أن الترجيع غالب فعله في تلاوة القرآن الكريم.

فقد تحصل من هذا أن أداء القرآن يستلزم: تحريك اللسان والشفتين(القراءة)، والترتيل، والتغني، والترجيع.

---

(١) فتح الباري ٩/ ٩٢، مرجع سابق.

(٢) صحيح البخاري ٦/ ٢٧٤٢، مرجع سابق.

(٣) فتح الباري ٩/ ٩٢، مرجع سابق.

(٤) (الطحاوي) أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة ٣٢١هـ: شرح معاني الآثار ١/ ٣٤٤، مراجعة محمد زهري النجار - ط١، ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠م، دار الكتب العلمية –بيروت.

ويتضح مما سبق أن **أداء القرآن ينقسم إلى قسمين**:

أ- **الأداء الأصلي**، ويمثل الترتيل بعناصر حقيقته، وهو المسمى في علم التجويد: حق الحروف.

ب- **الأداء الفرعي**: ويمثل التغني والترجيع حقيقة، ويسمى في علم التجويد مستحق الحروف.

واللفظ يستحيل معناه بتغير الأداء الأصلي، أو تركه، وقد يحدث ذلك بترك الأداء الفرعي.

فالمراتب في أداء لفظ القرآن الكريم أربعة من حيث الماهية اللغوية، والمدلول الشرعي (وترجع هيئات الترتيل من تحقيقٍ، وحدرٍ، وتدويرٍ إليها):

أ- **القراءة**: ولا تكون إلا بإخراج كل حرفٍ من مخرجه، وهي جنسٌ عامٌ للقرآن وغيره، وأصبحت القراءة تنصرف إلى قراءة القرآن عن ظهر قلبٍ عندهم، وهو المفهوم من كلمة (القرآن) أي المقروء من الصدر، في مقابل لفظ الكتاب أي المكتوب، ويقتضي هذا المفهوم أن يُقْرَأ من الصحف التي كُتِبَ فيها، أو من الصدور التي حُفظ فيها بالتلقي من الأفواه.

ب- **الترتيل**: وهو هيئةٌ خاصةٌ بالقرآن الكريم، فهو مرتبةٌ أعلى من القراءة، وعلى هذا فإن الترتيل يحتوي مراتب القراءة الثلاثة الشهيرة: التحقيق، والحدر، والتدوير بحسب تفاوت درجات الترتيل ليكون أحدها.

ج- **التغني**: وهو هيئةٌ خاصةٌ بالقرآن الكريم، فهو مرتبةٌ أعلى من الترتيل، ففيه تنغيمٌ للصوت على القواعد المتلقاة، فلا يَرِدُ عليه الغناء المعروف عند البشر.

د- **الترجيع**: وهو ترديدٌ للفظ المقروء المرتَّل المُتَغنى به، أو زيادة تحبيره وتحسين أدائه بزيادة تحقيق المد ونحوه.

وعلى هذا التقرير: فلا يمكن إطلاق القول بنفي تواتر الأداء حتى يُسأل عن ماهيته المقصودة من هذه المراتب، وتواترها(اليقين في ثبوتها) بدهيٌ واضح، وإن تفاوتت مراتبها في التواتر، فما ورد على ألسنة بعض العلماء([1])من نفيٍ لتواتر الأداء يُحْمل على الأداء الذي لا ينضبط بالتلقي، وهو ما صرَّح به ابن خلدون، وذلك كتحديد مراتب المد بالدقة المتناقلة بعدد الحركات، فإن أصل المد راجعٌ إلى ذات الحرف (وهو المسمى بالمد الطبيعي)، وهذا يندرج في (القراءة)، ومده فوق ذات الحرف راجعٌ إلى عربيته الصِرفة من لقائه للهمز أو السكون، على ما هو مقررٌ في علوم العربية، وذا عائدٌ للقراءة أيضاً، وترديده بتأنٍ وتبيينٍ أظهرُ للحروف يرجع إلى الترتيل، وتواترُه بين المسلمين أبين من أن يُتكلم عليه، وتنغيمه على هيئةٍ معينةٍ يرجع إلى التغني والترجيع، وتواتره بين المسلمين معلوم أيضاً، وبقي التحديد الأكثر دقةً من أربع حركات، أو ست، أو نحو ذلك قد يُسَلم بعدم تواتره([2])، ولا ضائر يضير القرآن من عدم تواتره، فمثله كمثل إنسانٍ كُسي أنواع الثياب، فقائلٌ يقول: كمُّ ثوبه إلى رسغه، وآخر يقول بل إلى خنصره، وثالثٌ يقول بل بين ذلك، مع اتفاقهم جميعاً على أنه اكتسى، فأين من يقول بأن الزاعم قِصَرَ الكمِّ قد أنقص في طبيعة الرجل الأصلية؟، وبأن الزاعم طول الكم قد زاد في خلقة الرجل الأصلية؟ فكذلك القرآن لا يضيره تفاوت مراتب المد ونحوها حتى يقال بأن الذي زاد دون تواترٍ قد زاد في كلام الله، ونحو ذلك، ولا يتسع المقام لأكثر من هذا.

٩- مماثلة قراءة النبي ﷺ لقراءة جبريل عليه السلام: ويدخل في ذلك مماثلة أصل اللفظ، وهيئة أدائه الداخلية، وذلك تطبيقاً لأمر الله، وتحقيقاً لوعده في قوله جل جلاله ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ فتكفل سبحانه بجمع لفظ القرآن وهيئة أدائه في صدر النبي ﷺ (الحفظ)، وبأن يقرأه بعد كما سمعه من جبريل عليه السلام أصلاً وأداء،

(١) انظر إشارة إلى كلام بعضهم في هامش ص١٧٠، من هذا المبحث.

(٢) وهو ما صرَّح به ابن الجزري -رحمه الله تعالى- في منجد المقرئين ص ٤٣، على الرغم من إنكاره الشديد على ابن الحاجب -رحمه الله تعالى-.

والاختلاف كائنٌ في الصوت فحسب، إذ صوت جبريل عليه السلام يختلف عن صوته ﷺ، ونفَسُه يختلف عن نَفَسِهِ.

وأُكِد شمولُ هذا الوعد لأصل اللفظ ولأدائه بقوله جل وعز ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٩]، والبيان هو إظهار الكلمة حرفاً حرفاً، دون دمجٍ، أو تداخل فلذا يُسَمَّى (الإظهار) -وهو حكمٌ من أحكام النون والميم الساكنتين في علم التجويد- البيان لأن فيه تبيين للنون والحرف الذي بعدها دون إخفاءٍ، أو قلبٍ، أو إدغامٍ، وتقدم الكلام عن ذلك[(١)].

والصورة التطبيقية لهذا عبر عنها ابن عباس رضي الله عنه بقوله: (فإذا انطلق جبريل عليه السلام قرأه النبي ﷺ كما قرأه [كما وعده الله][(٢)].

والضمير في قوله ﴿فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ لجبريل عليه السلام والتقدير: فإذا انتهت قراءة جبريل عليه السلام فأقرأ أنت، وتقدم تفصيل ذلك في المبحث السابع من هذا الفصل.

١٠- قراءته ﷺ على الناس كما أقرأه جبريل عليه السلام من حيث أصلُ اللفظ وأداؤه: ويختلف عن البند السابق في أنه أخص منه مطلقاً من حيث إنه مأمورٌ بتلاوته على الناس لقوله جل وعز ﴿...لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ...﴾[الأنعام: ١٩]، وقوله: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ﴾[النمل:٩١]، والسابق أعم من حيث إنه يقرؤه لنفسه أو للناس.

وإنما أُفرِدت هذه النقطة بالذكر مع دخولها فيما سبق لأهميتها في إحداث اليقين القطعي بحقيقة: أن النبي ﷺ كان يقرأ ألفاظ كما أقرأه جبريل عليه السلام لا يَخْرِمُ منها

(١) انظر: حديث المعالجة في المبحث السادس من هذا الفصل ص١١٣.
(٢) صحيح البخاري ١/ ٦، مرجع سابق.

حرفاً، ولا هيئةً لعموم قول ابن عباس رضي الله عنه:(كما أقرأه)، ولقوله جل جلاله ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾[يونس: ١٥].

فإذا اجتمع –كما سبق–:

١- الأمر الإلهي الموجب اتباع هيئةٍ معينةٍ للنطق بالقرآن (الأداء)، وهو قوله جل وعز ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ٤] ونحوها.

٢- والتطبيق الملائكي (جبريل) عليه السلام لذلك الأمر مبالغة في اتباع تلك الهيئة كما في قوله جل جلاله ﴿وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾[الفرقان: ٣٢] (١).

٣- والنص النبوي عليها «اقرأ وارق ورتل»(٢)، ونحوه.

٤- والتطبيقُ النبويُّ لها.

٥- ودقة وصف الصحابة لتلك الهيئة.

٦- مع تناقل هذه الهيئة عبر الأجيال.

كانت النتيجة التلقائية لهذه المقدمات هي: التوقيفية المحضة في نقل هيئة أداء القرآن، كنقل أصل ألفاظه، .

فإذا أُضيف إلى هذا: أن الرسول ﷺ كان إذا انطلق جبريل عليه السلام قرأه كما قرأه، وأن الصحابة حفظوه وكتبوه كما أقرأهم الرسول ﷺ، وأن حلقات الحفظ هذه قد توالت من الله –جل وعلا– إلى رسوله من أهل السماء عليه السلام إلى رسوله من أهل الأرض ﷺ، ثم إلى صحابة رسوله ﷺ، ثم إلى الأمة باختلاف مكانها وزمانها، بأعلى درجات الحفظ والضبط، كما كان الرسول ﷺ يقوم بالعرض اليومي للصحابة عند نزول القرآن، وفي الصلوات الجهرية، وفي نوافله الليلية التي كان يصل وردُه فيها إلى سدس القرآن الكريم في كل ليلة غالباً، فقد ضمن الله جل جلاله

---

(١) ويُلاحَظ بعين التأمل أن إيراد هذه الجملة كان أثناء حجاج الخصماء فيه، ليظهر بالغ أهميتها.

(٢) صحيح ابن حبان ٣/ ٤٣، مرجع سابق؛ إذ مفهومه دال على مراد التقرير، وكأحاديث التغني بالقرآن.

للقرآن حفظه: كتابةً بـالقلم، وأداءً بالصـوت الـذي حُفِظَـتْ حروفـه في أدق صـفاتها ومخارجها من حيث مقاطعُ الأداء(أماكن الخروج) وما يصـاحبه مـن غنـةٍ، أو مـدٍ، أو ترقيقٍ، أو تفخيمٍ، أو اسـتعلاءٍ، أو اسـتفالٍ، كمـا حُفِظَـتْ أمـاكن الوقـف والابتـداء، والسكتات الواجبة والجائزة.

فحفظ الله –تعالى ذكره– ألفاظ القرآن في هذه الأمة بـالأدوات الواقعيـة الإنسـانية التي تتسم بأعلى قواعد الحفظ، وأدق مقاييس الضبط.

ولا يعترض معترضٌ على هذه النتيجـة الحتميـة بأنهـا منخرمـةٌ بمـا يُشـاهد مـن اختلاف أداء القرآن، لأنه هذا الاختلاف مرده إلى أمـورٍ خارجيـةٍ أخـرى كـالاختلاف الفطري في أصوات الناس، والاختلافِ النفسي من حيث التـذوق لنغمـة التصـويت، والاختلافِ العقلي من حيث تقدير البطء والسرعة، وهذا كلـه لا يقـدح في التوقيـف في الأداء، حـذوَ التوقيـف في الصـلاة، إذ لا جـدال في أنهـا عبـادةٌ توقيفيـة، وتـرى الاختلاف فيها وارداً من حيث البطء والسرعة في أداء أركانهـا، ومـا يشـبه ذلـك ممـا يرجع إلى البشر، مع أن التوقيف في أداء النص القرآنـي أعلـى بكـثير مـن التوقيـف في أفعال الصلاة كما هو معلوم.

وهذه، وما سبقها توطئةٌ لإثبات ما هو عند المسـلمين بَـدَهي مـن أن هيئـة قـراءة القرآن صفةٌ ذاتيةٌ للفظ، وليست صـفةً عارضـة، أو أمـراً تتميميـاً[1]، كمـا أن في هـذا التقرير إشارةٌ إلى منبع الوهم الزاعم عدم تواتر أوجه الأداء، وهـو مـا صـرح بـه ابـن الحاجب وابن خلدون –رحمهما الله تعـالى–[2]، وحسـب ذا القـول أن يكـون مناقضـاً

---

(١) فتبيين الحروف هو ما يعبر عنه علماء التجويد بقولهم: إخراج الحرف من مخرجه مع إعطائه حقه ومستحقه، إذ منعه من الصفات الذاتية إعدامٌ لذاته، كمن أراد إخراج الدال غير مجهورةٍ فهو مُخْرِجُها تاءً، ومنعه من الصفات العارضة هضمٌ له وعدم بيانٍ لحقيقته، وإزراءٍ به يستنكره أهل اللغة كإنسانٍ بدونٍ ساترٍ له من ملبس، والإعراب النحوي من صفاته العارٍضة، فهذا هو المقياس في دحر فكر من توسٍوس له نفسه التهاون في صفات الحروف العارضة، ومن هاهنا يمكن إرساء قاعدة قوية في منع التطوير المزعوم في الأصوات اللغوية العربية، وذلك لوجوب التزام بيان الحرف في القرآن الكريم على ما تلقاه لاحقٌ من سابق.

(٢) أما ابن الحاجب: فصرَّح بذلك في مختصر الأصول له، وقد نفى عنه قومٌ ذلك بأن عبارة الاستثناء من التواتر لم ترد في النسخ المشورة من المختصر، وأما ابن خلدون فقد رجح ذلك في المقدمة ص٥٥٢ – تاريخ

للمقتضى اللغوي لمادة الترتيل، ولما تراه من اجتماع الأمة على تفاصيل تطبيق الترتيل، الذي ينصرف مفهومه في أول وهلة إلى الصفات العارضة للقراءة وحروفها.

١١- تكرار المحفوظ: ليرسخ فيه، فقد قال الزمخشري -رحمه الله تعالى-: "فأمر أن يستنصت له، ملقياً إليه بقلبه وسمعه حتى يقضي إليه، ثم يقضيه بالدراسة إلى أن يرسخ فيه"[(١)]، وهو من معاني في قوله جل جلاله ﴿فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ﴾ قال الآلوسي-رحمه الله تعالى-: "اتبع قرآنه بالدرس على معنى كرره حتى يرسخ في ذهنك"[(٢)]، وأورد ابن جرير[(٣)] عن ابن عباس رضي الله عنه: "كان لا يفتر من القرآن مخافة أن ينساه، فقال الله جل وعز: ﴿لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ ١٦ إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ﴾[القيامة: ١٦-١٧] أن نجمعه لك ﴿وَقُرۡءَانَهُۥ﴾ أن نقرئك فلا تنسى"؛ وهذا دالة على تكرار المحفوظ، والمعارضة والمدارسة نموذج للصورة التطبيقية لهذا التكرار.

١٢- تركيز المراجعة في قيام الليل: فقيام الليل له عدة تعلقات من حيث لفظ القرآن الكريم:

ابن خلدون - تأليف: عبد الرحمن بن خلدون ت٨٠٨ هـ ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس: خليل شحادة - مراجعة الدكتور: سهيل زكار - دار الفكر بيروت الطبعة الثالثة ١٤١٧هـ -١٩٩٦م: حيث قال: "وقد خالف بعض الناس في تواتر طرقها -يريد القراءات -؛لأنها عندهم كيفياتٌ للأداء، وهو غير منضبطٍ، وأباه الأكثر وقالوا بتواترها، وقال آخرون بتواتر غير الأداء منها كالمد والتسهيل لعدم الوقوف على كيفيته بالسمع وهو الصحيح" ولعله عنى بالبعض الذين رجَّح كلامهم ابن الحاجب فهو عنه ناقلٌ، ولو نفي التواتر عن الأداء كما قيل، لنفاه عن أصل اللفظ، وهو ما لا يقول به ابن الحاجب، ولا يرضاه، وهو الأصولي المقرئ الكبير؛ إذ الأداء يتضمن النطق بأصل اللفظ (وهذا المسمى مخارج الحروف)، وصفاته الأصلية، ويتضمن الصفات العارضة الناشئة عن الصفات الأصلية، ونفي تواتر الأداء نفي لأصل اللفظ سواءً أُريدَ به المتضَمن الأول أو الثاني، إذ لا يستقيم نفي الصفة العارضة بدون نفي أصلها، ولا تستطيع تصنيف التأني في القراءة صفةً أصلية، فلا جرم أنها إلى الصفات العارضة تنتسب بسببٍ، وأما الأول فأمره بينٌ، وقد تقدم في المتن تحليلٌ، والتكرار هنا هو في أسلوب طرح الكلام،فكلام ابن الحاجب-رحمه الله تعالى- حال ثبوته عنه، يُشير إلى ما صرَّح به من بعد ابن خلدون من أن المراد هو ما لا يتوقف ضبطه على السمع كمراتب المد.

(١) الكشاف ٤/ ١٦٥، مرجع سابق، ومثله: أبو السعود ٥/ ٣٤٠، مرجع سابق.

(٢) روح المعاني ٢٩/ ٢٤٤، مرجع سابق.

(٣) تفسير الطبري ٢٩/ ١٩٠، مرجع سابق.

أ- هو محل استمداد عون الله، ولذا أُمِرَ النبي ﷺ بقيام الليل ليكون السبيل الذي يستعين به على تلقي هذا القول الثقيل.

ب- جعل قيام الليل محلاً للصورة التطبيقية في مراجعة القرآن الكريم تثبيتاً للألفاظ، وتبييناً للأصوات، ففي قيام الليل تكون "مواطأة القرآن أشد موافقة لسمعه وبصره وقلبه"[(١)]، وله بالقرآن تعلقان:

عامٌ: فهو ﴿أَشَدُّ وَطْـًٔا﴾ أي: "أثبت في الخير"، وخاصٌ فهو ﴿وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ أي:"أبلغ في الحفظ"[(٢)].

وكونه أبلغ في الحفظ: مجمل فصله الشوكاني بقوله: "﴿وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ أي أشد مقالاً، وأثبت قراءةً لحضور القلب فيها، وهدوء الأصوات".

ولا يتوقف ذلك عند مجرد الحفظ، بل يتعداه إلى تبيين اللفظ فقد نقل الشوكاني عن قتادة ومجاهد: "أي أصوب للقراءة، وأثبت للقول؛ لأنه زمان التفهم، وقال الكلبي: أبين قولاً بالقرآن"[(٣)].

والمقصود أن قيام الليل هو محلٌ لتكون مواطأة القرآن بين القلب واللسان أشد، كما أنه أجمع للتلاوة أي أرسخ للحفظ، ولهذا قال جل جلاله ﴿هِيَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ [المزمل: ٦]، أي أجمع للخاطر في أداء القراءة وتفهمها[(٤)].

وعلاقة قوله جل جلاله: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ بما قبلها ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: ٤-٥] أنها تعليلٌ لتخصيص زمن الليل

---

(١) صحيح البخاري ١/ ٣٨٢، مرجع سابق، عن ابن عباس -رضي الله عنهما-، وقال ابن حجر- رحمه الله تعالى-: "وهذا وصله عبد بن حميد من طريق مجاهد".انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري ٣/ ٢٣، مرجع سابق.

(٢) تفسير الطبري ٢٩/ ١٧٠، مرجع سابق.

(٣) فتح القدير ٥/ ٣٨٨، مرجع سابق، وراجع: تفسير أبي السعود ٥/ ٤١٢، مرجع سابق.

(٤) انظر: تفسير ابن كثير ٤/ ٣٧٠، مرجع سابق.

بالقيام فيه، والمراد: إن في قيام الليل تزكيةٌ وتصفيةٌ لسرِك، وارتقاءٌ بك إلى المراقي الملكية، فالمعنى: إن صلاة الليل أعود على تذكر القرآن، والسلامة من نسيان بعض الآيات، وأعون على المزيد من التدبر، قال ابن عباس رضي الله عنه:"أدنى من أن يفقهوا القرآن"، وقال قتادة: "أحفظ للقرآن"، وقال ابن زيد:"أقوم قراءة لفراغه من الدنيا"[1]، وقد اشتهر حديث حذيفة رضي الله عنه في قيامه ﷺ بسورة البقرة وآل عمران والنساء[2] أنموذجاً لورده ﷺ في المراجعة في قيام الليل.

وقد جعل النبي ﷺ قيام الليل ورداً للمراجعة اليومية؛ ولذا جعله البحث نموذجاً للوقت النموذجي لها[3]، فقد كان النبي ﷺ يقرأ ما يُلْقَى إليه في الليل أثناء قيامه في الصلاة.

ولمراجعة القرآن في صلاة الليل أثرٌ في تثبيته بل ذلك أحد أهم قواعد حفظه. وفي موضوع تلقي النبي ﷺ يوجد دليلان: عامٌ وخاصٌ في مراجعته ﷺ في الليل:

فأما الدليل العام فقد قال ﷺ: «إذا قام صاحب القرآن فقرأه بالليل والنهار ذكره، وإن لم يقم به نسيه»[4] ومن أحق منه ﷺ بوصف صاحب القرآن؟.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٩/١٦٣، مرجع سابق، وقال في قوله تعالى ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴾ متعلقةٌ بقيام الليل أي: رتل قراءتك في القيام، ويجوز أن تكون أمراً مستقلاً متعلقاً بكيفية قراءة القرآن، جرى ذكره بمناسبة قيام الليل، وهذا أولى لأن الصلاة تدخل في ذلك وانظر: البحر المحيط ٨/ ٣٦٣/ مرجع سابق.

(٢)رواه مسلم ٣/ ٣٤٢، مرجع سابق.

(٣) لا يعني هذا نفي الغايات الشرعية الأخرى لقيام الليل.

(٤) رواه مسلم ١/ ٥٣٦، مرجع سابق، عن ابن عمر -رضي الله عنهما-، وقوله (لم يقم به) تحتمل معنى قيام الليل، وتحتمل معنى العمل به، وقد قال المباركفوري في معنى قول الصحابي يخاطب رسول الله ﷺ : (أن لا أقوم بها): كما في تحفة الأحوذي ٨/١٥٠: "أي في صلاة الليل"، انظر: (المباركفوري) أبو العُلا محمد بن عبد الرحمن بن عبد الرحيم، ط ١، ١٤١٠هـ – ١٩٩٠م، دار الكتب العلمية – بيروت.

ويؤكد هذا المعنى الحديث الذي وردت فيه هذه العبارة ما روى الترمذي ٥/ ١٥٦ عن أبي هريرة ﷺقال: بعث رسول الله ﷺ بعثاً، وهم نفر فدعاهم رسول الله ﷺ فقال: (ماذا معكم من القرآن ؟) فاستقرأهم، حتى مرَّ على رجلٍ منهم هو من أحدثهم سناً، فقال : (ماذا معك يا فلان ؟) قال: معي كذا، وكذا، وسورة البقرة. قال: (معكَ سورة البقرة؟). قال: نعم!. قال: (اذهب، فأنت أميرهم) فقال رجلٌ –هو أشرفهم-:

وأما الدليل الخاص الذي فيه: أنَّ قيامُه في صلاته كان بما يُلْقَى إليه فما حدثت به عائشة –رضي الله تعالى عنها– أن رسول الله ﷺ قام ليلة من الليالي فقال: (يا عائشة!ذريني أتعبد لربي) قلت: والله إني لأحب قربك، وأحب ما يسرك، قالت: فقام فتطهر، ثم قام يصلي، فلم يزل يبكي حتى بلَّ الأرض، وجاء بلال يؤذنه بالصلاة، فلما رآه يبكي، قال: يا رسول الله! تبكي وقد غفر الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «أفلا أكون عبداً شكوراً؟ لقد نزلت علي الليلة آيات، ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾» الآية[1]، ولا يعترض على النصِّ بأنه غير صريحٍ في الدلالة على المراد؛ لأن قرائن الحال، واقتران الوصف بالحكم في الحديث مقتضيان المطلوبَ من إيراده، وهو مراجعته لما أُنزِل عليه، والذي أُنزل عليه هنا الآيات العشر من سورة آل عمران.

بل كان يؤكد على المراجعة ببيان وسائل التدارك عند الفوات فعن عبد الرحمن ابن عبد القاري:قال سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: قال رسول الله ﷺ: «من نام عن حزبه، أو عن شيء منه فقرأه فيما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر كتب له كأنما قرأه من الليل»[2]، وقد شمل قوله (حزبه) الصلاة والقرآن، وهو إلى القرآن أقرب؛ إذ مصطلح الحزب على لسان النبي ﷺ يختص بالقرآن[3].

والذي كذا وكذا يا رسول الله !ما منعني أن لا أتعلم القرآن إلا خشيت أن لا أقوم به. قال رسول الله ﷺ: (تعلم القرآن، واقرأه، وارقد، فإن مثل القرآن لمن تعلمه فقرأه، وقام به كمثل جراب محشو مسكاً تفوح ريحه كل مكان، ومن تعلمه، فرقد وهو في جوفه كمثل جراب أوكىء على مسك) حسنه الترمذي، وضعفه الألباني، وصححه ابن حبان، وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط في تعليقه على ابن حبان: "رجاله ثقات رجال الصحيح غير عطاء مولى أبي أحمد".

(١) رواه ابن حبان في صحيحه ٢/ ٣٨٦، مرجع سابق، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة رقم ٦٨.

(٢) صحيح مسلم ١/ ٥١٥، مرجع سابق.

(٣) ففي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٤/ ٩: عن أوس بن حذيفة أن رسول الله قال: (طرأ على حزب من القرآن، فأردت أن لا أخرج حتى أقضيه) –قال– (فسألنا أصحاب رسول الله ﷺ حين أصبحنا –قال– قلنا: كيف تُحَزِبون القرآن؟ قالوا: نُحَزِبه ثلاث سورٍ، وخمس سورٍ، وسبع سورٍ، وتسع سورٍ، وإحدى عشرة

كما جعل ﷺ شدة الحض على قيام الليل مع الاهتمام فيه بقراءة القرآن مقترناً ببيان الحد الأدنى للقراءة أمراً لازماً لتكون دافعاً إلى الترقي المستمر في زيادة كمية المقروء كما في قوله ﷺ: (من قام بعشر آيات لم يكتب من الغافلين، ومن قام بمائة آية كتب من القانتين، ومن قام بألف آية كتب من المقنطرين)(1)، وفي الحديث إشارةٌ برمي الذي لم يقم بعشر آيات بالغفلة، وفي ذلك تهييجٌ نحو القيام، وقراءة هذا المقدار، وإذا أردنا أن نستخلص حكماً لقيام الليل من هذا الحديث لوجدنا القول بالاستحباب متجهاً، ولكن ذكر الغفلة للتارك يستفز الإنسان حتى يكاد يشعر بأن الترك لأدنى قيام الليل أشبه بالتحريم، فيا حرمان التاركين! اللهم أبعد عنا شبح الغفلة.

بل شُرِعت الوسائل البديلة لقيام الليل لمن فتر أو كسل متضمنة الارتباط الدائم بالقرآن، والاستفزاز الشعوري بقيام الليل، وإن لم يقمه فقد قال ﷺ: «من قرأ بمائة آية في ليلة كتب له قنوت ليلة»(2)، وسواءً كان معنى الحديث القراءة المجردة، أو القراءة مع قيام الليل الذي أَشْعَرَ به تعدية الفعل بالباء، فإطلاق القراءة فيه كافٍ في الاستدلال على المطلوب.

سورةً، وثلاث عشرة سورةً، وحزبَ المفصل من قاف حتى يختم). وهو في سنن ابن ماجه ١/ ٤٢٧ وقال الألباني: ضعيف.

(١) صحيح ابن حبان ٦/ ٣١٠، مرجع سابق، وصحيح ابن خزيمة ٢/ ١٨١، انظر: (ابن خزيمة) إمام الأئمة أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة السلمي ت ٣١١هـ: صحيح ابن خزيمة، مراجعة: د.محمد مصطفى الأعظمي ١٣٩٠هـ-١٩٧٠م، المكتب الإسلامي-بيروت، وقد ورد في سنن الدارمي (٢ / ٥٥٧) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «من قرأ في ليلة عشر آيات كتب من الذاكرين، ومن قرأ بمائة آية كتب من القانتين، ومن قرأ بخمس مائة آية إلى الألف أصبح وله قنطار من الأجر» قيل: وما القنطار؟ قال: «ملء مسك الثور ذهباً»، وقال حسين سليم أسد: إسناده صحيح.

(٢) (المقدسي) أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد بن أحمد الحنبلي ت ٦٣٤هـ : الأحاديث المختارة ٨/ ٢٧٨، تحقيق: عبد الملك ابن عبد الله دهيش، ١٤١٠هـ، مكتبة النهضة الحديثة، مكة المكرمة.

على أن حرص النبي ﷺ على استذكار القرآن ومراجعته أوضح من أن يُدَلل عليه، ولئن كان قد قال في حرفةٍ عادية: «من علم الرمي ثم تركه فليس منا فقد عصى»[1]، لهو قائلٌ ثم فاعلٌ أكثر من ذلك في أصل أصول الشريعة الإسلامية.

١٣- التعاهد السنوي: وذلك بمراجعة القرآن على جبريل عليه السلام سنوياً في كل رمضان، ويأتي تحليل هذا الموقف التعليمي([2])، وهذا هو الأصل الشرعي المنهجي في العرضة الثانية أو الثالثة تأكيداً وتثبيتاً للمحفوظ، وهذا التعاهد غير التعاهد الدائم (المراجعة الدائمة)؛ إذ كلامنا عن اتصال الرسول ﷺ التعليمي بجبريل عليه السلام في القرآن الكريم من حيث اللفظ، والمراجعة الدائمة عملٌ ذاتي.

فإن اعتُرض بأنه: لم يتم عرض الجزء الذي نزل بعد آخر رمضان قبل موت النبي ﷺ؟.

فالجواب: ليس عدم العلم علماً بالعدم، بل إنّ القواعد العامة للموضوع هي التي تجعل الباحث يميل إلى الحكم بالنفي أو الإثبات عند عدم وجود النص الصريح في مدار النزاع، وما عُرِضَ في خصوص موضوعنا يجعل الناظر فيها يميل إلى ترجيح أن النبي ﷺ قد عَرَض القرآن قبل وفاته، وذلك لما رأيتَه من الاهتمام المؤكَّد بذلك من خلال ما سبق، ولقد خرج النبي ﷺ إلى شهداء أحد قبل وفاته فصلى عليهم بأمر ربه[3]، فكيف يكون الأمر له في خصوص القرآن الكريم، على أنه لو لم يتم العرض فلا ضير للتكفل بالحفظ أو لما قاله ابن حجر-رحمه الله تعالى-: "وكأن الذي نزل في تلك الأيام لما كان قليلاً بالنسبة لما تقدم اغْتُفِرَ أمر معارضته"[4].

(١) رواه مسلم ٣/ ١٥٢٢، مرجع سابق.
(٢) في المبحث التاسع من هذا الفصل ص١٧٧.
(٣) كما ثبت في البخاري ١/ ٥٧٦، مرجع سابق.
(٤) فتح الباري ٩/ ٤٤، مرجع سابق.

وفي آخر هـذا المبحـث: فهـل أتـاك نبـأ رسـول الله ﷺ إذ يتلقـى ألفـاظ القـرآن الكريم؟، وجبريل عليه السلام إذ يعلمه لفظ القرآن المجيد؟، فيا حاديَ الشوق أشـعل سُرُجَ العزيمة، وأمط عنا –بذاك–في الظلماء ذلَ الهزيمة، .ويا رسول الله:

قد كنت بدراً ونوراً يُستضاء بـه عليك تَنزل من ذي العزة الكتبُ

وكان جبريـل بالآيـات يحضـرنا فغاب عنا، وكلُ الشوق ينسـكبُ

المبحث التاسع: تحليل حديث المدارسة (المعارضة):

قد تكررت –فيمـا سـبق– الإشـارة إلى حـديث المعارضـة، ولأنـه يُمَثِّـل أنمـوذج المراجعة السنوية للقرآن الكريم من جهةٍ، ولما يتضمنه من دلالاتٍ متميـزةٍ مـن حيـث تلقين جبريل عليه السلام للنبي ﷺ ألفاظ القرآن مـن جهـةٍ أخـرى؛ فقـد لـزم إبـرازه بالبحث والتحليل، لذا عُقد هذا المبحث، وينقسم إلى خمسة مطالب:

المطلب الأول: متن الحديث برواياته المختلفة.

المطلب الثاني: الدلالات العامة لحديث المعارضة.

المطلب الثالث: متضَمَّنات المعارضة.

المطلب الرابع: إيرادٌ على ما سبق ودفعه.

المطلب الخامس: المقتضى المنهجي لحديث المعارضة.

المطلب الأول: متن الحديث برواياته المختلفة:

عن عبيد الله بـن عبـد الله بـن عتبـة أن ابـن عبـاس رضـي الله عنـه قـال: كـان النبي ﷺ أجود الناس بالخير، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل عليـه السلام،وكان جبريل عليه السلام يلقـاه كـل ليلـة في [وفي لفـظ مـن] رمضـان، حتـى ينسلخ، [كان يلقاه في كل سـنة في رمضـان][1]، يعـرض عليـه الـنبي ﷺ [1] القـرآن،

(١) صحيح مسلم ٤/ ١٨٠٣، مرجع سابق.

[فيدارسه القرآن][2]، فإذا لقيه جبريل عليه السلام كان أجود بالخير من الريح المرسلة [وروي أبو هريرة وفاطمة -رضي الله تعالى عنهما- عن النبي ﷺ أن جبريل كان يعارضه القرآن][3]، ووقع عند أحمد في آخر هذا الحديث:لا يسأل شيئاً إلا أعطاه[4].

وحديث فاطمة الذي أشار إليه البخاري هو ما روته عائشة -رضي الله تعالى عنها- قالت: إنا كنا أزواج النبي ﷺ عنده جميعاً، لم تغادر منا واحدة، فأقبلت فاطمة -عليها السلام-تمشي، ولا والله ما تخفى مشيتها من مشية رسول الله ﷺ، فلما رآها رحب وقال:مرحباً بابنتي، ثم أجلسها عن يمينه، أو عن شماله، ثم سارها فبكت بكاء شديداً، فلما رأى حزنها سارها الثانية، فإذا هي تضحك، فقلت لها أنا من بين نسائه: خصك رسول الله ﷺ بالسر من بيننا، ثم أنت تبكين، فلما قام رسول الله ﷺ سألتها: عم سارك؟، قالت: ما كنت لأفشي على رسول الله ﷺ سره.فلما تُوفي، قلت لها: عزمت عليك بما لي عليك من الحق لما أخبرتني. قالت: أما الآن فنعم، فأخبرتني، قالت: أما حين سارني في الأمر الأول، فإنه أخبرني «أن جبريل عليه السلام كان يعارضه بالقرآن كل سنة مرة، وإنه قد عارضني به العام مرتين، ولا أرى الأجل إلا قد اقترب فاتقي الله، واصبري، فإني نعم السلف أنا لك» قالت: فبكيت بكائي الذي رأيت، فلما رأى جَزَعي سارني الثانية، قال: «يا فاطمة ألا ترضين أن تكوني سيدة نساء المؤمنين أوسيدة نساء هذه الأمة»[5].

المطلب الثاني: الدلالات العامة لحديث المعارضة:

والدلالات المأخوذة من هذا الحديث هي:

---

(1) ومثل هذا التصريح في مسلم 4/1803، وعند أحمد 1/ 230، مرجع سابق: كان رسول الله ﷺ يعرض الكتاب على جبريل عليه السلام في كل رمضان، فإذا أصبح رسول الله ﷺ من الليلة التي يعرض فيها ما يعرض.

(2) ما بين الأقواس ألفاظٌ أخرى للبخاري.

(3) صحيح البخاري 3/ 1177، مرجع سابق.

(4) مسند الإمام أحمد 1/ 326، مرجع سابق.

(5) صحيح البخاري، 5/ 2317، مرجع سابق.

١-اعتماد مبدأ المدارسة في مفردات التعليم المنهجي لألفاظ القرآن الكريم: فقد تنوعت روايات الحديث في وصف هذا الموقف التعليمي بين جبريل عليه السلام والنبي ﷺ، فوصفه بعضها بأنه (مدارسة)، وبعضها بأنه (معارضة)، وبعضها (يعرض عليه القرآن)، وبعضها أبهم الفاعل، وصرَّح البعض بأن الفاعل للعرض هو النبي ﷺ، والبعض أن الذي كان يعرض هو جبريل عليه السلام ومنه استنباط الإمام النسائي: أن جبريل عليه السلام هو الذي كان يعرض القرآن على النبي ﷺ، وهو ما أشار إليه البخاري في قوله: وروى أبو هريرة وفاطمة -رضي الله تعالى عنهما- عن النبي ﷺ أن جبريل عليه السلام كان يعارضه القرآن، وهذه الأوصاف مستلزمةٌ سبرَ معانيها اللغوية والاصطلاحية، للتمكن من تحليل هذا الموقف التعليمي المتميز، والخروج بنتائج حقيقيةٍ تترتب عليه.

ومن ذلك:

أ- أن المدارسة تستلزم الفقه الدقيق، ولا بد من أن يُجْمَع ذاك إلى حسن المعنى وتركيزه، صحةَ اللفظ وعذوبته وقوته، كما جاء عن عبد الملك بن عمير عن قبيصة ابن جابر: (ألا أخبركم عن من صحبت؟! صحبت عمر بن الخطاب، فما رأيت أحداً أفقه في كتاب الله، ولا أحسن مدارسةً منه...)[1]. فليس المعنى فقط هو المعتبر في المدارسة، وظاهرٌ أنه لا يستطاع الوصول إليه إلا عبر اللفظ، فإن كان هذا اللفظ هو كلام الله جل جلاله كان من البدهي أن لكل حرفٍ فيه دلالته التي لا يقوم غيره فيها مقامه.

ب- والمدارسة الرمضانية هي الأساس الشرعي المنهجي للعرضة الثانية، والثالثة للقرآن الكريم من الطالب على شيخه، كما هو معمول به عند المسلمين، تدقيقاً للفظ وتأكيداً للحفظ، وتثبتاً من الأداء.

(١) (المزي) أبو الحجاج جمال الدين يوسف بن الزكي عبد الرحمن ت ٧٤٢ هـ: تهذيب الكمال ٢٣/ ٤٧٢، مراجعة: بشار عواد معروف، ١٤٠٠هـ -١٩٨٠م، مؤسسة الرسالة -بيروت، وقد رواه البخاري في التاريخ الكبير ٧/ ١٧٥، ومما يلزم إضافته في سياق تقرير المعنى المشار إليه: أن قبيصة قد تأثر بصحبة هؤلاء الأساتذة، فكان كما قال عبد الملك ابن عمير إذا ذكر الفصحاء: "فصحاء الناس ثلاثة: الحسن البصري، وموسى بن طلحة القرشي، وقبيصة بن جابر الأسدي". تهذيب الكمال ٢٣/ ٤٧٢، مرجع سابق.

٢- التأكيد على الحفظ في حق الرسول ﷺ بما ليس بعده: والمراد بذلك مقتضياته التعليمية في حق الأمة، ذلك أن الله قد تكفل بإقراء النبي ﷺ على هيئة قراءة جبريل عليه السلام لفظاً وأداء أولاً، ثم تكفل بعدم نِسِّيه من صدره ثانياً، ثم بحفظ كتابه ثالثاً، وعلى الرغم من ذلك فقد كانت المعارضة السنوية للقرآن الكريم تأخذ مجراها الدوري، مع جملة تأكيدات فيها على غايتها وفحواها(١)، كتكرار المعارضة مرتين في العام الذي توفي فيه، واستمرارها في كل ليلة من شهر رمضان مع أنه كان يمكن الاكتفاء ببعض المجالس سواء كرر جميع القرآن كل ليلة، أو فرقه على الليالي وهو الأظهر وهو ما أكده الإمام النووي -رحمه الله تعالى- في شرحه لهذا الحديث حيث قال: "واستحباب الإكثار من القراءة في رمضان وكونها أفضل من سائر الأذكار؛إذ لو كان الذكر أفضل أو مساوياً لفُعِلا، فإن اعتُرض بأن المقصود تجويد الحفظ، قلنا: الحفظ كان حاصلاً، والزيادة فيه تحصل ببعض المجالس"(٢).

وهل للاعتكاف علاقة بعرض القرآن؟ ذاك ما لا يمكن نفيه أو إثباته، ولكن العلاقة طردية بين الاعتكاف وعرض القرآن(٣)، ومتضَمَّن الاعتكاف الذي يجعل تلاوة القرآن من أساساته، والانقطاع لله جل جلاله من أوصافه الذاتية(٤)، قد يوحيان بهذه العلاقة.

---

(١) ولذا قال ابن حجر -رحمه الله تعالى-: "وفيه استحباب تكثير العبادة في آخر العمر، ومذاكرة الفاضل بالخير والعلم، وإن كان هو لا يخفى عليه ذلك لزيادة التذكرة والاتعاظ، وفيه أن ليل رمضان أفضل من نهاره، وأن المقصود من التلاوة الحضور والفهم، لأن الليل مظنة ذلك لما في النهار من الشواغل والعوارض الدنيوية والدينية".

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري ١/٣١، مرجع سابق.

(٣) حيث كان يعرض القرآن مرة، ويعتكف عشرة أيام، فلما عرضه مرتين اعتكف عشرين يوماً،ولقائلٍ أن يقول: ليست هذه العلاقة مؤثرة، بل اتفق الاطراد لعارض.

(٤) حتى أن اعتكاف النبي ﷺ كان تصاحبه شدةٌ في التبتل، قال ابن حجر-رحمه الله تعالى-في الفتح ٤/ ٢٨٥، مرجع سابق: "وقد روى ابن المنذر عن ابن شهاب أنه كان يقول:عجباً للمسلمين ، تركوا الاعتكاف والنبي ﷺ لم يتركه منذ دخل المدينة حتى قبضه الله"، وقال مالك: " أنه لم يعلم أن أحداً من السلف اعتكف إلا أبا بكر بن عبد الرحمن، وأن تركهم لذلك لما فيه من الشدة".

٣- تأكيد المعارضة السنوية، وتعويضها عند فواتها لعارض: فقد اختلف في سبب معارضته ﷺ مرتين في العام الذي توفي بعده، ولا شك أن مجرد العلم الإلهي بوفاته سبب كافٍ في التأكيد على أصل أصول الدين، ويجعل ذلك كالمقطوع به استنباطه ﷺ حيث قالت ابنته فاطمة: («أخبرني أن جبريل كان يعارضه بالقرآن كل سنة مرة وإنه قد عارضني به العام مرتين ولا أرى الأجل إلا قد اقترب»)، لكن هذا لا يفسر اعتكافه مرتين على المستوى ذاته من القوة، وقد عرض ابن حجر -رحمه الله تعالى- اختلاف العلماء في سبب اعتكافه في العام الذي توفي بعده عشرين يوماً فقال: "قيل: السبب في ذلك أنه ﷺ علم بانقضاء أجله، فأراد أن يستكثر من أعمال الخير؛ ليبين لأمته الاجتهاد في العمل إذا بلغوا أقصى العمل ليلقوا الله جل جلاله على خير أحوالهم[1]، وقيل: السبب فيه أن جبريل عليه السلام كان يعارضه بالقرآن في كل رمضان مرة، فلما كان العام الذي قُبِضَ فيه عارضه به مرتين؛ فلذلك اعتكف قدر ما كان يعتكف مرتين، ويؤيده أن عند ابن ماجة: (وكان يعرض عليه القرآن في كل عام مرةً، فلما كان العام الذي قبض فيه عرضه عليه مرتين)[2]، وقال ابن العربي: يحتمل أن يكون سببُ ذلك أنه لما ترك الاعتكاف في العشر الأخير بسبب ما وقع من أزواجه، واعتكف بدله عشراً من شوال –اعتكف في العام الذي يليه عشرين ليتحقق قضاء العشر في رمضان انتهى، وأقوى من ذلك أنه إنما اعتكف في ذلك العام عشرين لأنه كان العام الذي قبله مسافراً، ويدل لذلك ما أخرجه النسائي واللفظ له وأبو داود وصححه ابن حبان وغيره من حديث بن أبي بن كعب رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان، فسافر عاماً فلم يعتكف فلما كان العام

---

(١) يُضَعِّف هذا أنه أخبر عن نفسه بعدم العلم باقتراب أجله إلا بعد أن رأى جبريل عليه السلام عارضه القرآن مرتين، وذاك كائنٌ في منتهى رمضان فكذلك الاعتكاف فيقوى من هنا أن يكون للاعتكاف علاقة في معارضة القرآن، ولكن يقوي الاستنباط الأول النعي العام له ﷺ في سورة النصر وكانت بعد فتح مكة، فلقائل ذاك القول أن يقول: استكثر من الخير بعدما نزلت عليه هذه السورة ومن ذلك الاعتكاف، وأما المعارضة فكانت تحديداً أدق من النعي العام.

(٢) سنن ابن ماجة ٢/ ٣٤٥، مرجع سابق.

المقبل اعتكف عشرين، وقال في موضع آخر: ويحتمل أيضاً أن يكون السر في ذلك أن رمضان من السنة الأولى لم يقع فيه مدارسة لوقوع ابتداء النزول في رمضان ثم فتر الوحي، ثم تتابع، فوقعت المدارسة في السنة الأخيرة مرتين ليستوي عدد السنين والعرض، ويحتمل تعدد هذه القصة بتعدد السبب، فيكون مرة بسبب ترك الاعتكاف لعذر السفر، ومرة بسبب عرض القرآن مرتين"(١).

وقد ظهر أن من بين الأقوال الخمسة المذكورة في التعليل لاعتكافه عشرين يوماً قولان يرجعان إلى علاقة الاعتكاف بالقرآن الكريم.

وهل كانت المعارضة تتم قبل أن يُفرض صيام رمضان؟ الظاهر من قول ابن عباس رضي الله عنه: (وكان جبريل عليه السلام يلقاه كل ليلةٍ في رمضان حتى ينسلخ [كان يلقاه في كل سنة في رمضان])(٢) -أن المعارضة كانت تتم في كل رمضان حتى قبل أن يفرض صيامه، ويقوي ذلك رواية (من)؛ فإن (من) هاهنا إما لابتداء الغاية الزمانية على قول من يجيزها أي من ابتداء شهر رمضان فيه بعد نبوته إلى آخر رمضان قبل وفاته، وفيه إدماج معنى الحرفين في التقدير، أو أن (من) لبيان الجنس فيصدق على جميع رمضانات النبوة(٣).

قال ابن حجر-رحمه الله تعالى-: "وهذا ظاهرٌ في أنه كان يلقاه كذلك في كل رمضان منذ أنزل عليه القرآن، ولا يختص ذلك برمضانات الهجرة، وإن كان صيام شهر رمضان إنما فُرِض بعد الهجرة؛ لأنه كان يسمى رمضان قبل أن يفرض صيامه"(٤).

٤- التركيز في عنصر الوقت لتثبيت ومراجعة لفظ القرآن الكريم: وذلك باعتماد الدرس الليلي: إذ كانت المعارضة تتم ليلاً، ليتم الوصول إلى الكمال في الإحاطة بالدرس القرآني إذ يتم حفظ، أو مراجعة ما يراد تثبيته من الليل، ثم يعقبه نومٌ، ثم تجري مراجعته سحراً أو بكرة؛ لأنه إذا تساوى زمن الحفظ واليقظة بين التعلم

---

(١) فتح الباري ٤/ ٢٨٥، مرجع سابق.
(٢) صحيح مسلم٤/ ١٨٠٣، مرجع سابق.
(٣) انظر: في معاني (من): مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ١/ ٣١٩، مرجع سابق.
(٤) فتح الباري ٤/ ٢٨٥، مرجع سابق.

والتذكر؛ فإن زمن النوم أقل ضرراً على الحفظ من زمن اليقظة؛ لعدم التعرض لخبراتٍ جديدة خلال النوم يحصل بسببها النسيان؛ فإن النسيان إنما يحدث من جراء حصول خبراتٍ جديدة، يفسح لها الدماغ مجالاً، فيطمس أشياء قبلها[1]، ولذا قال ابن حجر-رحمه الله تعالى: "اختيار الليل لأن المقصود من التلاوة الحضور والفهم، لأن الليل مظنة ذلك، لما في النهار من الشواغل والعوارض الدنيوية والدينية". وقد مر نحو هذا في فوائد آيات المزمل[2].

٥- التركيز في عنصر الوقت:اعتماد رمضان زماناً للمعارضة، ولا يخفى مدى ملاءمة ذلك.

٦- التركيز في عنصر الوقت: تعويض المعارضة عند فواتها لعارض: وتقدم[3]، وتجدر الإشارة إلى استبعاد الغرض التعبدي المحض من تعويض المعارضة؛ لأن الأجر يُكْتَبُ لدائم العمل إن حجب عنه لعارضٍ معتبرٍ كسفرٍ أو مرض على ما تقرر في التقعيد الأصولي[4]، فقد ثبت النص بذلك فعن أبي بردة –واصطحب هو ويزيد بن أبي كبشة- في سفرٍ، فكان يزيد يصوم في السفر، فقال له أبو بردة: سمعت أبا موسى -يعني أباه هو الأشعري- رضي الله عنه مراراً يقول: قال رسول الله ﷺ: «إذا مرض العبد أو سافر كتب له مثل ما كان يعمل مقيماً صحيحاً»[5].

وكل ما سبق يجعل الحكم بإلزامية المراجعة السنوية على النبي ﷺ أمراً بالغ الوضوح.

ويجب إبراز ملاحظةٍ هي: أن ما تفرع عما تقرر أعلاه من تعويض المعارضة تأسس على تحتم المراجعة عليه ﷺ، ولقائلٍ أن يقول: لا نُسَلِّمُ تعويض المعارضة، بل ما يُحْجَبُ جبريل عليه السلام عن معارضة النبي ﷺ القرآن في سفره، وكونه لم يُنْقَل فلأن

(١) المهارات الدراسية ص١٢٤ بواسطة: مقال ظاهرة النسيان، مجلة البيان، عدد ١٠٥، مرجع سابق.

(٢) تكرر في أكثر من موضع ، انظر (مثلاً): ص١٧٢ من هذا البحث.

(٣) انظر ص١٧٤ من هذا البحث.

(٤) انظر: الموافقات ١/ ٣٤٢، مرجع سابق.

(٥) صحيح البخاري ٣/ ١٠٩٢، مرجع سابق.

عدم العلم ليس علماً بالعدم، ويكفي قرائن الأحوال الأخرى، أما المعارضة مرتين في آخر رمضان فتأكيداً على القرآن الكريم لا للتعويض، وهو الذي يظهر من الحديث.

٧- تثبيت الحفظ بالعمل، والعبادات التي تباركه: ويُلْمَحُ هذا من الحالة النفسية التي تتعاظم عندها الطاعة بعد تلقي القرآن الكريم أو مدارسته مع جبريل عليه السلام، وتلك مسألةٌ واضحةٌ في نص الحديث:

في زيادة الإنفاق من حيث الشكر..

وقيام الليل من حيث المراجعة والذكر..

وتمام القول أن خلقه القرآن، وذاك كافٍ في الإقامة عليه، والحفاظ على نصه؛ إذ قد استحالت الألفاظ بمعانيها إلى جسدٍ متحرك، قال ابن حجر-رحمه الله تعالى- في شرح هذا الحديث:"قيل الحكمة فيه: أن مدارسة القرآن تجدد له العهد بمزيد غنى النفس، والغنى سبب الجود، والجود في الشرع إعطاء ما ينبغي لمن ينبغي، وهو أعم من الصدقة، وأيضاً فرمضان موسم الخيرات، لأن نعم الله على عباده فيه زائدة على غيره فكان النبي ﷺ يؤثر متابعة سنة الله في عباده فبمجموع ما ذكر من الوقت، والمنزول به، والنازل، والمذاكرة حصل المزيد في الجود والعلم عن الله تعالى"[(١)].

ففي هذا الحديث أن مداومة التلاوة توجب زيادة الخير[(٢)].

المطلب الثالث: متضَمَّنات المعارضة:

تتضمن المعارضة بين جبريل عليه السلام والنبي ﷺ المفاهيم التالية:

١- **الإراءة**: إذ: "عرض الشيء عليه يعرضه عرضةً أراه إياه"[(٣)]، فعَرْضُ النبي ﷺ القرآن على جبريل عليه السلام يتضمن نظر جبريل عليه السلام في لفظ النبي ﷺ وأدائه تصويباً، وتفهيماً، وتعبداً، وعرض جبريل عليه السلام يتضمن نظر النبي ﷺ في لفظ جبريل عليه السلام تعلماً، وتفهماً، وتعبداً، إذ كلٌ منهما يُرِي الآخر لفظه،

---

(١) فتح الباري ١/ ٣١، مرجع سابق.

(٢) انظر: فتح الباري ١/ ٤٦، مرجع سابق.

(٣) لسان العرب ٩/ ١٣٧، مرجع سابق.

وأداءه، ويحتمل أيضاً: ومعناه، ولذا جاء في مادة عرض: "وعرضت الكتاب، وعرضت الجند عرض العين إذا أمررتهم عليك، ونظرت في حالهم"(١).

٢- **المقابلة**: من قولهم عارض الكتاب بالكتاب قابله به(٢)، ويشترط أن يكون ثَمَّ أصلٌ مقابَلٌ عليه، وفرعٌ مقابَلٌ به، فيظهر من ذلك أرقى ما يمكن أن يصل إليه التدقيق، مما هو خارجٌ عن نطاق البشر في مقابلة حفظ رسول الله ﷺ على ما أُمِر جبريل عليه السلام بحفظه من ربه، وأهم صفةٍ ذاتيةٍ لجبريل عليه السلام عند نزوله من السماء أنه ما ينزله ربه جل وعز إلا بالحق(٣).

٣- **الظهور**: ففي مختار الصحاح: "عرض له كذا أي ظهر، وعرضته له أظهرته له وأبرزته إليه"(٤)، فإظهار القرآن، وإبرازه من النبي ﷺ لجبريل عليه السلام، والعكس يعني إظهار ألفاظ القرآن لفظاً لفظاً من الشيخ لتلميذه ومن التلميذ على(٥) شيخه، ويؤكد هذا العرض الدقيق ما جاء في معنى مادة عرض: "عرض الجند إذا أمرهم عليه ونظر في حالهم"(٦)، وهذه غايةٌ في الدقة في وصف تثبيت ألفاظ القرآن الكريم في قلب النبي ﷺ، ولا يَرِدُ على هذا التقرير احتمالية أن يكون ما كان يعرضه الرسول ﷺ، أو ما كان يعرض عليه هو معاني القرآن وأمور الشريعة؛ إذ لو كان الأمر كذلك لقيل يعرض عليه الشريعة أو نحوها من العبارات، ولا يخصص القرآن بالذكر.

---

(١) لسان العرب ٩/ ١٣٨، مرجع سابق.

(٢) مختار الصحاح ص٢٧٠، مرجع سابق، النهاية في غريب الأثر ٣/ ١٣٣، مرجع سابق

(٣) من قوله جل في علاه ﴿ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴾ [الحجر:٨]، بل إن مجرد النزول لا يكون إلا بأمر من الله، لقوله: ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾ [مريم: ٦٤]، وليس للملك الاجتهاد في إنشاء أمر، أو تنفيذه كما في قوله جل في علاه : ﴿ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنبياء:٢٧]، فالحق صفة ذاتية في النزول والنازل والمنزل به، فلا مس من باطل يعتريه، ولا اجتهاد من مخلوق يأتيه.

(٤) مختار الصحاح ١٧٨، مرجع سابق.

(٥) تضمن الفعل إظهار الطالب ما عنده معنى التصويب على ما عند الشيخ، لذا عُديَ فعُدي بـ(على).

(٦) لسان العرب ٩/ ١٣٨، مرجع سابق.

فإن اعتُرض بأن: القرآن هو الشريعة كلها نصاً أو تضمناً، فعبر به في الحديث عنها، فالمعروض هو أحكام الشريعة لا ألفاظ القرآن.

فالجواب: الدليل صحيحٌ، والاستدلال غير صحيحٍ؛ لأن تخصيص القرآن بالذكر في جميع الروايات يدل على اقتصار الكلام عليه، ولو أراد الكلام عن الشريعة أو الدين ونحوها لما عدل عن لفظها أو ما يدل عليه كما في قوله جل جلاله ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا﴾ [الجاثية: ١٨]، وكما في قول النبي ﷺ «هذا جبريل جاء يعلمكم دينكم»، لم يقل قرآنكم، فتقرر بهذا أنه أراد لفظ القرآن بخصوص مفهومه.

ويمكن القول على طريقة السبر والتقسيم الأصولية:

إما أن يكون المعروض هو ألفاظ القرآن، وإما معانيه، وإما شيءٌ آخر، ولا جائزٌ أن يكون شيئاً آخر، لأن الكلام على القرآن، ولا جائزٌ أن يكون معاني القرآن لأنه لا يطلق عليها قرآنٌ عُرْفاً، فتعين أن المعروض هو ألفاظ القرآن.

فإن اعتُرض بالقول: فهل معنى ذلك أن النبي ﷺ لم يكن يعرض معانيه على جبريل عليه السلام؟.

فالجواب: بل يحتمل أنه كان يعرضها، ولكن دلالة الحديث على عرضها بالتبع أو بالإشارة، لا بالقصد الأصلي، ولقد تمسك المسلمون بذلك في ظاهرة مذهلة تقدم التواتر العملي والعلمي المفيد للعلم الضروري في أن المعروض كان في المقام الأول هو ألفاظ القرآن[1]، وذلك كتمسكهم بشعائر الإسلام الضرورية كرمي الجمار على الرغم من آحادية نصوصها، فتقرر أن المعروض هو ألفاظ القرآن، وذاك مؤشرٌ على مقدار الحراسة التي كانت تحف ألفاظه.

فإن اعتُرض بأن: المعروض إنما هو القرآن من حيث النسخ وعدمه[2] ويقويه حديث ابن عباس رضي الله عنه، **فالجواب:** ذاك بعض المعروض لا كله عند التنزل

(١) ويمكنك استخدام أسلوب الأصوليين: تخريج المناط ثم تنقيحه للوصول إلى هذه النتيجة.

(٢) على قول من يثبت النسخ.

في إثباته، وإلا فمن ذا يعقل أن يعرض النبي ﷺ آياتٍ مبتورةً على جبريل عليه السلام هي الناسخة، دون عرض مواضعها وسورها؟ على أن تصريح الصحابة، بأن النبي ﷺ عرض القرآن مرتين في العام الذي توفي بعده واضح في عرضه القرآن كله لا بعضه من أوله إلى آخره، ولا يعرف للعرض معنى غير هذا عند إطلاقه، وأجيال المسلمين تتوارث هذا المعنى فهماً وتطبيقاً، ولينبئهم بعلمٍ زاعمٌ غير ذلك.

٤- العَرَضية اللفظية: إذ إن استخدام لفظة يعرض في أغلب الروايات عند الراوي الواصف لما حدث، ثم مجيئها على لسان النبي ﷺ [١] دالٌ على فحواها، وهو عرض الألفاظ واستعراضها، ومعلومٌ أن العرض ضد الطول[٢]، فهل يكون أثر إيقاع هذه اللفظة الدقيقة الوصف إلا عرض الألفاظ واحداً واحداً، واقتضاء لفظة العرض سبر الجوانب الداخلية في اللفظة أداءً ومعنى؟.

فيعرض "من العرض وهو بفتح العين وسكون الراء، أي يقرأ، والمراد يستعرضه ما أقرأه إياه"[٣] بل قد صرح بعض شراح الحديث أثناء شرحهم لحديث المعالجة بأن العرضية تشمل الحروف حرفاً حرفاً، قال السندي –رحمه الله تعالى-:" يحرك شفتيه أي لكل حرفٍ عقب سماعه من جبريل عليه السلام"[٤].

---

(١) راجع متن الحديث في المطلب الأول من هذا المبحث ص١٧٧.

(٢) لسان العرب ٩/ ١٣٧، مرجع سابق، مختار الصحاح ١٧٨، مرجع سابق، وفيه: "وعَرَضَ الشيء فأَعْرَضَ، أي أظهره فظهرن فهو كقولهم كبَّه فأكبَّ، وهو من النوادر وقوله جل في علاه ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا﴾[الكهف: ١٠٠] أي أبرزناها حتى نظروا إليها، فأعْرَضَتْ هي أي استبانت وظهرت، ورآه في عُرْض الناس أيضاً أي فيما بينهم، وفلانٌ من عُرْض الناس أي من العامة، وفلان عُرْضَةٌ للناس أي لا يزالون يقعون فيه، وجعلت فلاناً عرضة لكذا أي نصبته له، وقوله عز وجل ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ﴾ [البقرة:٢٢٤] أي نصباً، ونظر إليه من عُرْضٍ" وهذا كله مقررٌ مبدأ (العرضية اللفظية)، والقصد من استخدام هذه اللفظة لبيان جعل ألفاظ القرآن عرضة للمقابلة والإظهار في (عُرْض) الألفاظ أي فيما بينها من (عُرْض) الألفاظ أي من عامتها.

(٣) فتح الباري ٩/ ٤٣، مرجع سابق.

(٤) حاشية السندي ٢/ ٣٤، مرجع سابق.

ولا يُعترض بأن هذه بديهة! وتحصيل حاصل، إذ لا يمكن عرض الألفاظ دون حروفها؛ لأن التصريح بمتابعة الحروف دليلٌ على شدة الاعتناء بها، وفيه ردٌ على زاعمٍ التكلف في حق من يخوض غمار علم الصوتيات، على أنه قد يُعْنى بالحرف غير ذلك، وهو اللفظ فيدخل ما ذكر ضمناً.

ومما جاء دالاً على أن لفظة (يعرض) تتضمن سبر الجوانب الداخلية قول النبي ﷺ: «لئن كنت أقصرت الخطبة، فقد أعرضت المسألة»[1]. قال ابن منظور: "أي جئت بالمسألة واسعةً كبيرةً"[2]، وذاك بما تضمنته جوانبها الداخلية من معنى، ولذا يقال فيمن يطيل العبارات أي الألفاظ الخارجية: أطلت الخطبة، ولا يقال أعرضت.

فإن اعتُرض بالقول: ذاك ما نبغ! فالمعروض-على ذلك-هو المعنى لا اللفظ، **فالجواب**: أما تنزلاً فليس أحدهما بأجلى من الآخر في الدخول الأولي في اللفظة، وأما حقيقةً فإن دخول الأداء الداخلي للفظ أقرب، وأسرع تبادراً إلى الذهن[3] من دخول المعنى في العرض، وهو المستخدم اصطلاحاً في سائر العلوم، وهذا من نوادر اصطلاحات العلوم الإسلامية، وقد قال ابن الأثير في معنى حديث جبريل عليه السلام: "أي كان يدارسه جميع ما نزل من القرآن، من المعارضة المقابلة"[4].

---

(١) صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان ٢/ ٩٨، مرجع سابق: عن البراء بن عازب -رضي الله تعالى عنه - قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! علمني عملاً يدخلني الجنة. قال: (لئن كنت أقصرت الخطبة، فقد أعرضت المسألة: أعتق النسمة، وفك الرقبة) قال: أو ليستا بواحدة ؟ قال: (لا عتق النسمة أن تفرد بعتقها، وفك الرقبة أن تعطي في ثمنها، والمنحة الوكوف، والفيء على ذي الرحم القاطع، فإن لم تطق ذاك، فأطعم الجائع، واسق الظمآن، ومر بالمعروف، وانه عن المنكر، فإن لم تطق ذلك، فكف لسانك إلا من خير).
وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط في تعليقه على ابن حبان: إسناده صحيح، وهو في مستدرك الحاكم وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، قال الذهبي في التلخيص(لمستدرك الحاكم): صحيح.

(٢) لسان العرب ٩/ ١٣٧، مرجع سابق، وفي النهاية ٣/ ٣٢٣: "ومنه الحديث (فإذا عُرْضُ وجْهِه مُنْسَح) أي جانِبُه".

(٣) فمن اشتقاقات عرض كما في مختار الصحاح ص١٧٨، مرجع سابق: "والعِرْضُ أيضا الجسد، وفي صفة أهل الجنة (إنما هو عَرَقٌ يسيل من أعْرَاضِهِم) أي من أجسادهم" وقد سمى المناطقة وعلماء الكلام العرض في مقابلة الجوهر، وهذا قريبٌ في مقارنته باللفظ والمعنى.

(٤) النهاية في غريب الأثر ٣/ ٣٢٤، مرجع سابق.

وما أسهل تصور هذا لكل مسلم يقرأ القرآن الكريم؛ إذ ما زال عرض الألفاظ القرآنية هو لب عملية تعليم القرآن الكريم تتواتر بالمعنى الاصطلاحي واللغوي في جميع الأمصار كما هي في سائر الأعصار[1].

٥- **المعارضة هي الغاية في تحقيق اللفظ والتثبت منه**: فالعرض هو قراءة التلميذ على شيخه، ويقابله السماع وهو قراءة الشيخ وسماع تلميذه منه، وقد يستعمل أحدهما في معنى الآخر، والقراءة أعم منهما، ولذا بوب البخاري:"باب القراءة والعرض على المحدث"[2]، قال ابن حجر:" إنما غاير بينهما بالعطف لما بينهما من العموم والخصوص، لأن الطالب إذا قرأ كان أعم من العرض وغيره، ولا يقع العرض إلا بالقراءة؛ لأن العرض عبارة عما يعارض به الطالب أصل شيخه معه، أو مع غيره بحضرته فهو أخص من القراءة "[3]، وهذا معناه بالمفهوم الحديثي، ولا بد فيه من القراءة، فلا تسمى المناولة[4] عرضاً إلا تقييداً.

وقد ذكر العلماء الاختلاف بين العرض والسماع من حيث الأفضلية في التحقيق العلمي للنص: على ثلاثة أقوال:

الأول وهو المشهور: الذي عليه الجمهور أن السماع من لفظ الشيخ أرفع رتبةً من القراءة عليه ما لم يعرض عارضٌ يصير القراءة عليه أولى، ومن ثم كان السماع من لفظه في الإملاء أرفع الدرجات لما يلزم منه من تحرز الشيخ والطالب.

والثاني: القراءة على الشيخ أرفع من السماع من لفظه، ونقله الدارقطني في غرائب مالك عنه، ونقله الخطيب بأسانيد صحيحة عن شعبة وابن أبي ذئب

---

(١) قال ابن حجر-رحمه الله تعالى- في فوائد عرض القرآن في رمضان بين جبريل عليه السلام والنبي ﷺ :"وفي ذلك حكمتان: إحداهما تعاهده، والأخرى تبقية ما لم ينسخ منه ورفع ما نسخ، فكان رمضان ظرفاً لإنزاله جملة وتفصيلاً وعرضاً وأحكاماً.

(٢) صحيح البخاري ١/ ٦٠، مرجع سابق.

(٣) فتح الباري ١/ ١٥٠، مرجع سابق.

(٤) هي أن يناول الشيخ كتابه الأصل لطالبه، ويجيزه فيه...على تفصيلٍ في ذلك، انظر: فتح الباري ١/ ١٥٠، مرجع سابق، تدريب الراوي ٢/ ١٧٠، مرجع سابق.

وغيرهما، واعللوا ذلك: بأن الشيخ لو سها لم يتهيأ للطالب الرد عليه، وعن أبي عبيد قال: القراءة علي أثبت وأفهم لي من أن أتولى القراءة أنا[1].

والثالث: وهو المعروف عن مالك وعن سفيان الثوري: كلاهما سواء، وروى البخاري معلقاً عن الحسن البصري: "ما أبالي قرأت عليك، أو قرأت علي"[2].

وهذا كله في الحديث، **وأما القرآن** فإن قراءة الطالب على شيخه (العرض) هو الأصل، وهو المعروف عن السلف كما هو المعمول به إلى الآن، ولذا احتج مالك على من لم يُجْز العرض في الحديث بجوازه في تلاوة القرآن "فيما رواه الخطيب في الكفاية من طريق ابن وهب قال: سمعت مالكاً، وسئل عن الكتب التي تعرض عليه: أيقول الرجل حدثني؟ قال: (نعم! كذلك القرآن، أليس الرجل يقرأ على الرجل فيقول: أقرأني فلان؟)، وروى الحاكم في علوم الحديث من طريق مطرف قال: صحبت مالكاً سبع عشرة سنة، فما رأيته قرأ الموطأ على أحد، بل يقرأون عليه - قال-: وسمعته يأبى أشد الإباء على من يقول: لا يجزيه إلا السماع من لفظ الشيخ، ويقول: كيف لا يجزيك هذا في الحديث، ويجزيك في القرآن، والقرآن أعظم؟"[3].

وأما معارضة النبي ﷺ ألفاظ القرآن على جبريل عليه السلام فقد اتسمت بسمتين:

السمة الأولى: أنها أتت بعد خطوات الحفظ التي أولها خطوات التلقين، والمقتضى المنهجي لذلك جعل المعارضة مرتبة تالية للمتقنين لتأكيد الحفظ، وتثبيت مخارج الحروف، والتأكد من وجوه الأداء، وبقاء كل ذلك على الدوام دون تطرق خللٍ له بفعل الأمد، فالمعارضة هي غاية التحقيق.

والسمة الثانية: أنها جمعت بين السماع والعرض، فأزالت قوادح كل طريقةٍ على حدة:

---

(١) انظر: فتح الباري ١/ ١٣٥، مرجع سابق.

(٢) الأثر: رواه البخاري ١/ ٣٥، وانظر: فتح الباري ١/ ١٥٠، مرجع سابق.

(٣) انظر: فتح الباري ١/ ١٥٢، مرجع سابق.

أما العرض (من النبي ﷺ على جبريل عليه السلام عرض الطالب على شيخه): فقد جاء في رواية البخاري: (يعرض عليه النبي ﷺ) وعليها أغلب الروايات.

وأما السماع (من النبي ﷺ لجبريل عليه السلام سماع الطالب لشيخه): فقد جاءت بقية الروايات مبهمة فاحتملت العرض والسماع، وتأكد ذلك بروايات المفاعلة (يعارض، يدارس ونحوها)، والمفاعلة لا تكون إلا من طرفين غالباً([1])، ووردت روايات مصرحة بالسماع، منها ما رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (كان يعرض على النبي ﷺ القرآن كل عامٍ مرة، فعرض عليه مرتين في العام الذي قبض فيه، وكان يعتكف كل عام عشراً فاعتكف عشرين في العام الذي قبض فيه)[2].

ويزيد الأمر تأكيداً أن القراء والمحدثين لا يستخدمون إلا لفظ (يعرض) للتعبير عن المراد لتصل أعلى درجات الاحتياط في نقل ألفاظ القرآن الكريم، وذا ما فهمه الإمام النسائي فبوب في سننه الكبرى: "باب عرض جبريل عليه السلام القرآن"[3]، ومن قبله الإمام البخاري حيث بوب: "باب كان جبريل عليه السلام يعرض القرآن على النبي ﷺ "[4].

وينبغي أن يلاحظ أنه لم يوجد مثل هذا (العرض أكثر من مرة) في الأساليب العلمية التعليمية التي تتبع في ديار المسلمين إلا في خصوص مادة القرآن الكريم، وكان

---

(١) وقد تستخدم في فاعل واحد مثل عاقب وداوى وسافر ،ولكن هذا استثناء، وذاك أصل.

(٢) صحيح البخاري ٤/ ١٩١١، مرجع سابق، وعند الإسماعيلي في مستخرجه على البخاري بلفظ: "كان جبريل عليه السلام يعرض على النبي ﷺ القرآن في كل رمضان".

(٣) ورواية صحيح ابن خزيمة ٣/ ١٩٣، مرجع سابق، فيها إجمال يؤيد هذا الاستنتاج، ففيها: (يأتيه جبريل فيعرض عليه القرآن)،،فيستأنس بذلك على المطلوب، ويصير هذا في حيز الثبات بحديث عائشة -رضي الله تعالى عنها -عن فاطمة في المعارضة، حيث قالت: (إن جبريل كان يعارضه بالقرآن كل سنة مرة، وإنه قد عارضني به مرتين) قال ابن حجر-رحمه الله تعالى- في فتح الباري (٩/ ٤٣): "والمعارضة مفاعلة من الجانبين، كأن كلاً منهما كان تارة يقرأ والآخر يستمع".

(٤) صحيح البخاري ٤/ ١٩١١، مرجع سابق، وهو ما رجحه ابن حجر-رحمه الله تعالى-فقال: "فيحمل على أن كلاً منهما كان يعرض على الآخر".

ذلك مقتضى منهجياً من مقتضيات هذه الطريقة التي اتبعها النبي ﷺ في تعلمه على يد جبريل عليه السلام، ووجودها في بقية العلوم الشرعية مقارنة بالقرآن الكريم في حكم النادر.

٦- عرض القرآن بالحروف المأذون بالقراءة بها[١]: إذ قد حُسِمَ أمر عرضه للقرآن كله (لكل ما نزل منه) في كل رمضان بحديث العرضتين الثابت عن ابن عباس، وفاطمة، وأبي هريرة رضي الله عنه رضي الله تعالى عنهم، وفي ذلك دلالة على أمرين:

أنه ﷺ كان يعرض كل ما نزل، وأنه كان يقسم ذلك العروض على ليالي رمضان[٢]، ويدل لذلك حديث ابن عباس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أقرأني جبريل على حرف فلم أزل أستزيده حتى انتهى إلى سبعة أحرف»[٣].

كما لم تُبْقِ روايات العرض مجالاً لما احتمله ابن حجر-رحمه الله تعالى-[١] من أن العرض محتملٌ أن يقسم ما نزل من القرآن في كل سنة على ليالي رمضان؛ إن أراد به

---

(١) لا يمكن لنطاق البحث أن يتوسع في شرح مدلول حديث الأحرف السبعة؛ ولكن يقال على سبيل الإجمال: محصِّل ما ورد في هذا الموضوع من أقوال يرجع إلى: أن المراد من الأحرف السبعة من حيث العموم ومراد الحديث، لا من حيث التحديد هو "ما يشمل اختلاف اللهجات، وتباين مستويات الأداء الناشئة عن اختلاف الألسن، وتفاوت التعليم، وكذلك ما يشمل اختلاف بعض الألفاظ، وترتيب الجمل، بما لا يتغير به المعنى المراد"، أو يتغير المعنى بما لا يتضاد به المعنيان الواردان في القراءتين، ويكون الجميع مراداً، دون تكرار للآية، أو تطويلٍ للمصحف، وفي ذلك تيسير ظاهر، "وهذا دون محاولة حصر تلك الوجوه في سبع لغات، أو وجوه من الخلاف، ويظل معنى الحديث بعد ذلك يشير إلى الرخصة التي جاءت تيسيراً وحلاً لمشكلة واجهت الجماعة المسلمة، دون تحديد لأبعاد تلك الرخصة، لكنها لا تخرج عن إطار وجوه القراءات المروية".

وما بين علامتي التنصيص الأولين هو من كلام الدكتور عبد الصبور شاهين، انظر: تاريخ القرآن ٦١، دار القلم ١٩٦٦م، وما بين علامتي التنصيص الأخريين هو من كلام غانم قدوري الحمد، انظر: رسم المصحف ١٤٤، مرجع سابق، وانظر أيضاً: (الباقلاني) محمد بن الطيب ت ٤٠٣هـ: نُكت الانتصار لنقل القرآن، تحقيق د. محمد زغلول سلام، الناشر: منشأة المعارف بالإسكندرية، الطبعة بدون لكل ما سبق.

(٢) وقد صرح ابن حجر-رحمه الله تعالى- ببعض ذلك في فتح الباري ٩/ ٤٥، مرجع سابق، فقال: "ولولا التصريح بأنه كان يعرضه مرة واحدة، وفي السنة الأخيرة مرتين -لجاز أنه كان يعرض جميع ما نزل عليه كل ليلة، ثم يعيده في بقية الليالي".

(٣) البخاري ٣/ ١١٧٧، مرجع سابق.

أنه لا يقرأ إلا ما نزل في تلك السنة، أما إن أراد به أنه يخصص لكل ما نزل ليلة فذاك أبعد من حيث زيادة عدد الليالي على عدد سنوات النزول، ومن حيث إن أهداف العرض تأكيد تأليف آياته على ما أراد الله جل وعز، لا على ترتيب نزولها، وهما مختلفان كما هو معلوم، فيظل احتمالاً بعيداً، وإن افترض، وبذا يُحْسَمُ أمر عرضه ﷺ لكل ما نزل من القرآن(٢).

وبقي أمر عرضه القرآن بجميع حروفه المأذون في القراءة بها فهل كانت العرضة كذلك؟ والجواب: لا نص في ذلك، بيد أن المؤشرات العامة تجعل ذلك محتمَلاً احتمالاً راجحاً، لأنه كان ﷺ يقول للمختلفين في القراءة: «أقرأني جبريل»(٣)، أو «هكذا أُنزلت»(٤) قال ابن حجر -رحمه الله تعالى-: "ولعله كان يعيد ذلك الجزء مراراً، بحسب تعدد الحروف المأذون في قراءتها، ولتستوعب بركة القرآن جميع الشهر"(٥).

المطلب الرابع: إيرادٌ على ما سبق ودفعه:

وقد يعترض معترضٌ بأن ما سبق مما يُفهم منه تفخيم الاعتناء باللفظ ينافي ما رواه الإمام مالك عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال لإنسان: "إنك في زمان كثيرٌ فقهاؤه، قليلٌ قراؤه، تحفظ فيه حدود القرآن، وتضيع حروفه، قليلٌ من يسأل، كثيرٌ من يعطي، يطيلون فيه الصلاة، ويقصرون الخطبة، يبدءون أعمالهم قبل أهوائهم، وسيأتي على الناس زمان قليلٌ فقهاؤه، كثيرٌ قراؤه، تحفظ فيه حروف القرآن، وتضيع حدوده، كثيرٌ من يسأل، قليلٌ من يعطي، يطيلون فيه الخطبة، ويقصرون الصلاة،

(١) فتح الباري ٩/ ٤٥، مرجع سابق.

(٢) لم يتكلم الباحث عن العرضة الأخيرة كلاماً مستقلاً؛ لاستحقاقها تأليفاً مستقلاً في حقيقتها، وإثبات بعض أحكام الألفاظ بها، وخطورة بناء حكم عليها، وذلك مُخْرِجٌ البحث عن مرامه، وإنما وردت الإشارة إليها في ثنايا الكلام.

(٣) رواه البخاري ٤/ ١٩٠٩،و٣/ ١١٧٧، مرجع سابق.

(٤) رواه البخاري٤/ ٢٣٤٠، مرجع سابق.

(٥) في فتح الباري ٩/ ٤٥، مرجع سابق.

يبدءون فيه أهواءهم قبل أعمالهم"[1]، وقد أورد أبو إسحاق الشاطبي -رحمه الله تعالى- هذا الأثر في معرض الاستدلال[2].

والجواب من وجوه:

١. أن الشأن أولاً في صحة هذا الأثر من حيث السند، ثم من حيث المتن، فأما سنده فمنقطع حيث جاء في الموطأ:

وحدثني عن مالك عن يحيى بن سعيد أن عبد الله بن مسعود، فقد ضَعُفَ من حيث السند.

٢. ومن حيث المتن -على فرض صحة السند واتصاله- فإن نكارة موضع الشاهد منها واضح؛ حيث لم تَرِد في بقية طرق الأثر، فقد ورد في موضعٍ آخر من الموطأ والمعجم الكبير دون موضع الشاهد، كما أنها فاسدةٌ معنى عند أخذها على ظاهرها؛ إذ كيف تحفظ حدود القرآن، وحروفه مضيعة.

فإن اعتُرض بأن روح القرآن باقية -أي مقاصده الكلية- وإن ذهبت ألفاظه.

فالجواب: في إطلاق هذا القول نظر إن أطلقنا القول بضياع حروفه، وهل نعرف روحه دون تأكدنا من حروفه؟، فإن سُلِّم ذلك فمقاصده المزعوم بقاؤها حروفٌ في ذاتها فيعاد الكلام عليها جَذَعَةً.

على أن حروفه تلك:

إما أن تكون متغيرة، وإما أن تكون منعدمة وإما أن تكون قائمةً بالنفس، وإما أن تكون ثابتة:

---

(١) (إمام دار الهجرة) أبو عبد الله مالك بن أنس الأصبحي ت ١٧٩هـ: موطأ الإمام مالك ١/ ١٧٣، مراجعة: محمد فؤاد عبد الباقي- دار إحياء التراث العربي، مصر، وقد جاء هذا الحديث مرفوعاً فيما رواه الطبراني في المعجم الكبير ٣/ ١٩٧، مرجع سابق، عن حزام بن حكيم بن حزام عن أبيه عن النبي ﷺ قال: (إنكم قد أصبحتم في زمان كثير فقهاؤه، قليل خطباؤه، كثير معطوه، قليل سؤاله، العمل فيه خيرٌ من العلم، وسيأتي زمان قليل فقهاؤه، كثير خطباؤه، كثير سؤاله، قليل معطوه، العلم فيه خير من العمل).

(٢) انظر: الموافقات ٢/ ١٧٣، مرجع سابق.

فالأول: وهو ما كانت حروفه متغيرة لا يعتبر شرعاً صالحاً للبشر لعدم انضباطه، أو ظهور معالمه فضلاً عن أن يكون شرعاً إلهياً.

والثاني: وهو ما كانت حروفه منعدمةً، أو قائمةً بالنفس فلا يتعلق به حكم؛ لأنه معدوم.

والثالث: متعينٌ بعد ما سبق، وهو المراد.

ولو صح هذا الزعم القائل بأن "الألفاظ مجرد وسائل فلا تقدس في ذاتها، بل الأمر متجه إلى روح القرآن ومقاصده"، لصح أن يقال من بابٍ أولى: فلا داعي لتقديس جميع الوسائل العلمية والعملية في الحياة، فتعطل دراسة اللغة العربية للحجة ذاتها، ومثلها سائر علوم الوسائل، ولا يحتاج لدراسة العلوم الطبية؛ لأن المقصد شفاء المريض! ولا يُدْرَى كيف سيُشفى؟!، ولا داعي لاستخدام أداةٍ لارتقاء السقف؛ لأن الهدف الوصول إلى السقف؟!، ولا تدري كيف سيصل؟!، لتحدث -بعدُ- فوضى ضاربة في الحياة العلمية والعملية.

٣. عند التسليم بصحة موضع الاستشهاد في الحديث، فإن وضعه في موضعه الصحيح هو الحكمة ذاتها، إذ إن مراد ابن مسعود رضي الله عنه منه ترك التعمق في السعي وراء الألفاظ، وحتمية إعطائها القدر المناسب لها دون إيغالٍ شاغلٍ بها عن المراد منها، والنهي عن التنطع، والتعمق، والنهي عن الإيغال والغلو ليس خاصاً بالوسائل بل هو عام في كل شيء مقاصداً ووسائلاً، وذا من بدهيات دلالات سبيل القصد، والوسطية في الشريعة، بل في سائر جوانب الحياة المختلفة[١]، وهذا الفهم لمنطوق كلام ابن مسعود رضي الله عنه هو ما نص على مثله السيوطي -رحمه الله تعالى- في تنوير الحوالك حيث قال: "(قليل قراؤه) أي الخالون من معرفة معانيه، والفقه فيه، (وتضيع حروفه) أي أن المحافظين على حدوده أكثر من المحافظين على التوسع في معرفة أنواع القراءات"[٢].

---

(١) انظر: الموافقات ٢/ ١٢٠، مرجع سابق.

(٢) تنوير الحوالك شرح موطأ مالك ص١٤٤، مرجع سابق.

ومن الأدلة على أن الإمام أبا إسحاق الشاطبي -رحمه الله تعالى- لا يريد ما ذهب إليه هؤلاء، أنه قال -بعد- معدداً القواعد التي تنبني على الأصل الذي ذكره، وورد الاستدلال بكلام ابن مسعود رضي الله عنه ضمنه: "اتباع الهوى في الأحكام الشرعية مظنةٌ لأن يحتال بها على أغراضه، فتصير كالآلة المعدة لاقتناص أغراضه"[1]، وهذا دالٌ على أن كلام ابن مسعود رضي الله عنه ينبغي أن يُفهم في إطاره، فلا يتخذ مطية لهدم الشريعة التي هي أصل أثر ابن مسعود رضي الله عنه، ولذا فإنه كان يُقَعِّدُ لقراءته أقوى تقعيد، ويعتمد على أوثق الأسانيد وهو قوله: (أخذتها من في رسول الله ﷺ)[2].

ومن أحسن أدلة التوقيفية في أداء القرآن قوله ﷺ: «ما أنا بقارئ»؛ إذ كررها ثلاثاً وبين أبو شامة -رحمه الله تعالى- بأن قوله أولاً «ما أنا بقارئ» دالٌ على الامتناع، وثانياً على الإخبار بالنفي المحض، وثالثاً على الاستفهام، "ويؤيده أن في رواية أبي الأسود في مغازيه عن عروة أنه قال: (كيف أقرأ)، وفي رواية عبيد بن عمير عن ابن إسحاق: (ماذا اقرأ) وفي مرسل الزهري في دلائل البيهقي: (كيف أقرأ)، وكل ذلك يؤيد أنها استفهامية"[3].

المطلب الخامس: المقتضى المنهجي لدلالات حديث المعارضة، ومفردات تلقي النبي ﷺ ألفاظ القرآن الكريم:

إذا كان النبي ﷺ قد كُفي مؤنة الحفظ والمراجعة لتكفل الله جل وعز له بذلك، على ما سبق في حديث المعالجة[4]، فإن خطواته البشرية لتثبيت الحفظ، ودوام المراجعة، إن هي إلا إشاراتٌ واضحةٌ لتحويل مقتضاها إلى قواعد منهجية في الإحاطة بالدرس القرآني حفظاً، وتلاوةً، ومراجعةً، واستدعاءً، وبيان معنى، وعملاً، وصنيع

(١) الموافقات٢/ ١٧٦، مرجع سابق.
(٢) المعجم الكبير للطبراني ٣/ ١٩٧، مرجع سابق.
(٣) انظر: فتح الباري ١/ ٢٤، مرجع سابق.
(٤) انظر: المبحث السادس من هذا الفصل.

البحث هنا مجرد الإشارة العابرة إلى بعض ذلك بغية الإثارة، والاستفزاز البحثي لمن يعتريه طيف التوهم في المفردات الشرعية الأساسية، أو يقذف الشيطان في قلبه وسواس الشك، لا التحليل والإطناب؛ إذ ليس مجال البحث، وقد تقدم في المطالب الأربعة السابقة بعض المقتضيات المنهجية لدلالات الحديث، والأمر الجامع لها: أن يكون لحفظة القرآن معارضة سنوية للقرآن الكريم على مشايخهم، أو معارضة ثانية بعد ختم القرآن حفظاً على الأقل، وتزداد عدد مرات المعارضة بحسب حالة الطالب، وتكون للمسلمين عموماً عرضة للقرآن الكريم نظراً أو غيباً عن ظهر قلب على شيخٍ متقن، وأفضل أوقات ذلك في رمضان، مع ظهور التعبد والتبتل عند قراءة القرآن في العرضة، خاصةً الإنفاق.

وعلى ما سبق: تكون مفردات تلقي النبي ﷺ ألفاظ القرآن من جبريل عليه السلام:

١. إلزامية حفظ الألفاظ، وقد تكفل الله جل وعز بجمعه لنبيه في صدره (الحفظ).

٢. إتقان الحفظ، وقد كان إنزال القرآن الكريم على قلب النبي ﷺ من بين سائر أنواع الوحي، وهو أشده على النبي ﷺ لهذا الغرض في المقام الأول.

٣. إلزامية المراجعة العامة للمحفوظ، وقد تكفل الله جل جلاله لنبيه ﷺ بأن لا ينسى منه شيئاً على سبيل النسيان الكلي[1].

٤. إنزاله منجماً؛ ليكون أثبت في قلب النبي ﷺ حفظاً، وأداءً، وتبليغاً.

٥. بيان لفظ القرآن الكريم، وقد تكفل الله جل وعز بأن يقرأه النبي ﷺ كما قرأه جبريل عليه السلام، حذو القذة بالقذة، وذا شاملٌ لأصل اللفظ ولأدائه.

٦. العناية بأداء ألفاظ القرآن، وقد تكفل الله جل جلاله بإظهاره على لسان نبيه ﷺ وتبيينه.

---

(١) انظر: دلالات حديث المعالجة في المبحث السادس من هذا الفصل ص١١٣ ، وما سيأتي -إن شاء الله تعالى- في الفصل الخامس.

٧. إنزال القرآن الكريم وتلقينه للنبي ﷺ مرتَلاً (مجوَّداً مُنَجَّماً)، ووجوب ترتيله على النبي ﷺ على الهيئة ذاتها التي رتله بها جبريل عليه السلام .

٨. تهيئة مراجعةٍ يوميةٍ للقرآن الكريم في قيام الليل أو غيره [(١)].

٩. تهيئة مراجعةٍ سنوية للقرآن الكريم في كل رمضان يعارض فيها النبي ﷺ وجبريل عليه السلام -كلٌ منهما الآخر- ألفاظ القرآن الكريم متضمنةً النظر في ألفاظه من حيث أصل اللفظ ومن حيث الأداء.

(١) انظر: المبحث الثامن من هذا الفصل ص١٧١.

الفصل الرابع

الأصول العامة في تلقي النبي ﷺ

ألفاظ القرآن الكريم

وفيه خمسة مباحث:

تظاهرت الأدلة على إلزامية تلقي النبي ﷺ ألفاظ القرآن من جبريل عليه السلام وحفظها ومراجعتها، وحفها بالعوامل التي تجعل الاعتناء بها واجباً يومياً لا يُترك ولا يُنسى، وجعل تلقيها، ثم تبليغها في غاية الدقة تحقيقاً لألفاظها، وبياناً لمخارج حروفها، وإتقاناً لأدائها؛ وقد عُقد هذا الفصل ليدرس الأصول العامة التي توضح ما سبق، وتعضده، في أمور حياة النبي ﷺ مما يتعلق بموضوع التلقي من قريب أو من بعيد؛ ولبيان العلاقة بين معلم النبي ﷺ جبريل عليه السلام وبين النبي ﷺ، والصحبة الحميمة بينهما، ولذلك ينقسم هذا الفصل إلى خمسة مباحث:

المبحث الأول: اللمحات العامة في تلقي النبي ﷺ ألفاظ القرآن من جبريل عليه السلام.

المبحث الثاني: دقة جبريل عليه السلام في النقل العام.

المبحث الثالث: العلاقة العامة(الصحبة) بين جبريل عليه السلام والنبي ﷺ، وأثرها في تلقي ألفاظ القرآن الكريم.

المبحث الرابع: التوقيفية في غير أداء القرآن.

المبحث الخامس: الواجبات التي كانت على النبي ﷺ بالنظر إلى تلقي لفظ القرآن الكريم.

المبحث الأول: اللمحات العامة في تلقي النبي ﷺ ألفاظ القرآن من جبريل عليه السلام:

يدرس هذا المبحث اللمحات العامة في تلقي النبي ﷺ ألفاظ القرآن الكريم من جبريل عليه السلام، والمراد بذلك جملة حقائق تجلت بها عملية التلقي، تُجمل في مطلبين:

المطلب الأول: من حيث مصدر التلقي.

المطلب الثاني: من حيث المؤشرات في طريقة التلقي.

المطلب الأول: من حيث مصدر التلقي:

والمراد به تثبيت بدهية الإسناد في بيان مصدر تلقي القرآن الكريم؛ حيث صار إسناد رسول الله ﷺ عن جبريل عليه السلام عن رب العالمين في نقل ألفاظ القرآن الكريم بصفة خاصة من بين سائر أنواع الوحي بديهة[1] يذكرها الصحابة، لبيان أقصى درجات علم اليقين في نقل نصوص ألفاظ المعلومات التي تصل إلى البشر، وإبرازاً لدليل الصدق في النقل وتطميناً، ومحافظة على الإسناد، وبياناً للطريقة التعليمية الصحيحة في تلقي القرآن، وتصييراً لتوقيفية المتلقى مسلمة لا تناقش في أذهان المسلمين، وهذه المواقف تجلي هذه الحقيقة:

١ - فعن زاذان أبي عمر عن ابن مسعود رضي الله عنه قال له: يا أخي! إن لنا مجلساً فائتنا فأقبلت إليه في مجلسه، فتعلمت منه سبعين سورة. فقال لي عبد الله: أخذتها من في رسول الله ﷺ نزل بها جبريل عليه السلام من عند رب العالمين جل جلاله [2].

---

(١) ولعل ذلك عائد إلى ما يشير إليه الأصوليون من مسألة ورود اجتهاده ﷺ في السُنّة النبوية لا وضعاً، بل اجتهاداً في أحوال خاصة كما هو معلوم، انظر: نهاية السول ٤/ ٤٣٧، مرجع سابق.

(٢) المعجم الكبير ٩/ ٧٧، مرجع سابق.

٢- مر عمر بن الخطاب رضي الله عنه برجلٍ وهو يقول: السابقون الأولـون مـن المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله تعـالى عـنهم ورضـوا عنـه إلى آخر الآية، فوقف عليه عمر، فقال: انصرف! فلما انصرف، قال له عمـر: مـن أقـرأك هذه الآية؟ قال: أقرأنيها أبي بن كعب. فقال: انطلقوا بنا إليه! فانطلقوا إليه، فـإذا هـو متكئ على وسادة، يرجل رأسه، فسلم عليه، فرد السلام، فقـال: يـا أبـا المنـذر! قـال: لبيك! قال: أخبرني هـذا إنـك أقرأتـه هـذه الآيـة، قـال: صـدق تلقيتهـا مـن رسـول الله ﷺ. قال عمر: أنت تلقيتها من رسـول الله. قـال: نعـم! أنـا تلقيتهـا مـن رسـول الله ﷺ ثلاث مرات، كل ذلك يقوله وفي الثالثة وهو غضبان: نعـم! والله لقـد أنزلهـا الله على جبريل عليه السلام، وأنزلها على محمـد ﷺ فلـم يسـتأمر فيهـا الخطـاب ولا ابنه. فخرج عمر وهو رافع يديه وهو يقول: الله أكبر الله أكبر[(١)].

٣- وعن ابن عباس رضي الله عنه أن أُبياً قال لعمر: يا أمير المؤمنين! إني تلقيـت القرآن ممن تلقاه أو ممن يتلقاه من جبريل عليه السلام وهو رطب[(٢)].

٤- وعن زر بن حبيش قال: قلت لأبي بن كعب: إن ابن مسعود كـان لا يكتـب المعوذتين في مصحفه؟ فقال: أشهد أن رسول الله ﷺ أخبرني أن جبريل عليه السـلام قال له: قل أعوذ برب الفلق فقلتها، فقال: قل أعوذ برب الناس فقلتها فنحن نقول ما قال النبي ﷺ [(٣)].

---

(١) المستدرك على الصحيحين ٣/ ٣٤٥، مرجع سابق. ويُنْتَبه فيها إلى أمور:

* التلقي والتأكيد عليه، والتسليم به عند ثبوته عند أهله ومراجعه، وهذا لا يعني عدم انتشاره بين الأمة ،

* أن هذه الروايات لا يثبت بها قراءة؛إذ كثير منها مروي بالمعنى، وانظر – مثلاً – إلى حديث : (لو كان لابن آدم واديان ،) البخاري ٥/ ٢٣٦٤، مرجع سابق، مسلم ٢/ ٧٢٥، مرجع سابق ،ففيه تباينٌ في ألفاظ ما قيل أنها آية، ولعل رواتها تساهلوا في نقل القراءة الواردة فيها بدقة لهذه العلة، أي لعدم ثبوت القراءة بها، ولا يعترض على ذلك باستنكار أن يقرأ أُبي بما لا نقرأ به الآن؛ لأن هذا يرجع إلى الاكتفاء بقراءةٍ واحدةٍ في المصر ونحوه كما هو مشاهدٌ الآن، على تفصيل في مسألة ما تطلق عليه بعض الروايات (آية) أو (قراءة)، وهذه كلمة عابرة لا مكان ها هنا لتفصيلها.

(٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل ٥/ ١١٧، مرجع سابق.

(٣) مسند الإمام أحمد بن حنبل ٥/ ١٢٩، مرجع سابق.

٥- وعن ثابت قال: قال لي أنس بن مالك:يا ثابت!خذ عني؛فإنك لم تأخذ عن أحد أوثق مني، إني أخذته عن رسول الله ﷺ عن جبريل عليه السلام، وأخذه جبريل عليه السلام عن الله تعالى[(١)].

٦- وعن زر قال: قرأ رجل على عبد الله طه مفتوحة، فأخذها عليه عبد الله طه مكسورة، فقال له الرجل: إنما يعني مفتوحة. فقال عبد الله: هكذا قرأها رسول الله ﷺ وهكذا أنزلها جبريل عليه السلام، وفي لفظ: فقال عبد الله: والله لهكذا علمنيها رسول الله ﷺ [(٢)].

ولذا كان ﷺ يصرح أحيناً بواسطته عن ربه في الوحي مع أنها معلومة ضرورة كما في مسند الشهاب سمعت جابر بن عبد الله يقول: قال رسول الله ﷺ:قال جبريل عليه السلام:قال الله جل وعز: «هذا دينٌ ارتضيته لنفسي، ولن يصلحه إلا السخاء وحسن الخلق فأكرموه بهما ما صحبتموه»[(٣)].

وإنما أراد ﷺ من ذلك أن تصير هذه الحقيقة ضرورةً في حياة الأمة؛ لتغدو في قلبها، وعلى ألسنة أبنائها بدهيةً لا تحتاج إلى نظر أو استدلال، وهو ما يُلْمَس من النصوص السابقة.

المطلب الثاني: من حيث المؤشراتّ في طريقة التلقي:

أولاً: التعليم المباشر للبدايات والنهايات ومواضع الآيات: ومسلك جبريل عليه السلام في تعليم النبي ﷺ هذه الناحية يأتي على وجهين:

(١) سنن الترمذي ٥/ ٦٨٢، مرجع سابق، وقال: "هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث زيد بن حباب"، وقال الألباني تعليقاً: "ضعيف الإسناد".

(٢) المستدرك على الصحيحين ٢/ ٢٦٨، مرجع سابق، قال الحاكم: "هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه"، قال الذهبي في التلخيص: "صحيح".

(٣) (القضاعي) أبو عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر ت٤٥٤هـ: مسند الشهاب ٢/ ٣٢٩، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي، ط٢، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م، مؤسسة الرسالة. ونحوه ما في المعجم الأوسط ٩/ ١٣٩، مرجع سابق عن أنس بن مالك عن ﷺ عن جبريل عن الله عز وجل قال: (من أهان لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة)، وأصله في صحيح مسلم ١/ ٤٣٢، مرجع سابق.

وجهٌ خاصٌ: بالتنصيص على مكان الآية، ونهاية السورة، كحديث عثمان بن أبي العاص رضي الله عنه قال: كنت عند رسول الله ﷺ جالساً، إذ شخص ببصره، ثم صوبه حتى كاد أن يلزقه بالأرض -قال-: ثم شخص ببصره، فقال: «أتاني جبريل عليه السلام فأمرني أن أضع هذه الآية بهذا الموضع من هذه السورة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾[النحل: ٩٠][(١)].

وجهٌ عامٌ: بأن يضع له علامةً لابتداء السورة، أو انتهائها، أو الفصل بين السورتين؛ كما في حديث ترجمان القرآن ابن عباس[(٢)] رضي الله عنه قال: كان جبريل عليه السلام ينزل على رسول الله ﷺ الوحي فإذا قال: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، افتتح سورة أخرى[(٣)].

وعنه رضي الله عنه قال:إن النبي ﷺ كان إذا نزل جبريل عليه السلام فقال:بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، علم أنها سورة[(٤)].

ثانياً: التوسط في كمية المنزل: الذي يعلمه جبريل عليه السلام للنبي ﷺ ويوضح ذلك الحديث الذي رواه الحاكم: عن ابن عباس رضي الله عنه قال: «فصل القرآن من الذكر فوضع في بيت العزة في السماء الدنيا، فجعل جبريل عليه السلام ينزله على النبي ﷺ ورتلناه ترتيلاً» قال سفيان -أحد رجال إسناد الحديث-: خمس آيات، ونحوها[(٥)].

---

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل ٤/ ٢١٨، مرجع سابق.

(٢) كَثُرَتْ الأحاديث عن ابن عباس في كتب علوم القرآن، وقد شهد له النبي ﷺ في هذا الباب بخصوصه كما ذكر في ترجمته، وقال ابن مسعود: نعم ترجمان القرآن ابن عباس، وقال: لو أدرك ابن عباسٍ أسناننا ما عشره منا أحد، وروي ابن أبي خيثمة بسند فيه جابر الجعفي أن ابن عمر كان يقول: ابن عباسٍ أعلم أمة محمد بما أنزل على محمد، وروى ابن سعد بسند صحيح: أن أبا هريرة قال لما مات زيد بن ثابت: مات اليوم حبر الأمة، ولعل الله أن يجعل في ابن عباس خلفاً منه ،تهذيب التهذيب٧/ ٦٧، مرجع سابق.

(٣) رواه الطبراني في المعجم الكبير ١٢/ ٨٢، مرجع سابق.

(٤) المستدرك على الصحيحين ٢/ ٦٦٨، مرجع سابق، وقال:"هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه".

(٥) المستدرك علىالصحيحين٢/ ٦٦٧، مرجع سابق، وقال:"هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه".

وعن أبي العالية قال: قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «تعلموا القرآن خمس خمس آيات خمس آيات، فإن جبريل عليه السلام نزل به على محمد ﷺ خمس آيات خمس آيات»[1]. ولا يخفى أن هذا وصف لحال الغالب، وإلا فقد ينزل ما هو أكثر من ذلك، وما هو أقل.

ثالثاً: مقارنة التلقين بالأمر بكتابة الوحي القرآني على سبيل الفورية: فقد جاء في فضائل الصحابة: عن فاطمة بنت عبد الرحمن قالت: حدثتني أمي أنها سألت عائشة، وأرسلها عمها فقال: إن أحد بنيك يقرئك السلام، ويسألك عن عثمان بن عفان؛ فان الناس قد شتموه. فقالت: لعن الله من لعنه، فوالله لقد كان قاعداً عند نبي الله ﷺ وإن رسول الله ﷺ لمسندٌ ظهره إلي وإن جبريل عليه السلام ليوحي إليه القرآن، أنه ليقول له: (اكتب يا عثيم)، فما كان الله جل جلاله لينزله تلك المنزلة إلا وهو كريمٌ على الله ورسوله[2].

وكحديث عثمان بن أبي العاص المتقدم آنفاً، وهذا مقتضٍ تلقائي لوصف القرآن بالكتاب.

رابعاً: التركيز: من حيث توقيف الله جل جلاله لنبيه ﷺ على الأوقات التي ينزل عليه الوحي فيها، والأوقات التي يراجع فيها رسول الله ﷺ القرآن (قيام الليل، رمضان)؛ إذ الاهتمام بهذا الموضوع بلغ حد بيان الأوقات التي ينشغل فيها قلب المرء وجوارحه بما لا يتعلق بالقرآن؛حتى تُهْتَبل الأوقات الأخرى المحددة في مراجعة القرآن كما قال جل وعز: ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا﴾ [المزمل: ٧]، قال ابن زيد: "فراغاً

(١) (الخطيب البغداي) أبو بكر أحمد بن علي ٤٦٣هـ:تاريخ بغداد ٣١ / ٢٨٨ –دار الكتب العلمية، بيروت.

(٢) أخرجه (ابن أبي عاصم) أبو بكر عمرو بن أبي عاصم الضحاك بن مخلد الشيباني (ت ٢٨٧هـ): كتاب السنة

٢/ ٥٩٢، حققه محمد ناصر الدين الألباني، ط٣، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م، المكتب الإسلامي - بيروت، وعبد الله ابن أحمد في فضائل الصحابة ١/ ٤٩٨.

طويلاً لحوائجك، فافرغ لدينك بالليل"[1]، ولا يعني التوقيف هنا نفي ما عدا هذه الأوقات للقراءة أو المراجعة، بل المراد الوقوف على مدى العناية بالقرآن الكريم.

المبحث الثاني: الدقة في النقل العام:

وإنما أُورد هذا الفصل بعد حديثي المعالجة والمعارضة على سبيل الاستئناف البياني، للرد على مستكثرٍ على الشريعة أن تتضمن ألفاظها تلك الدقة التي جعلتنا نستخرج منها تلك المعاني، التي قد تخفى على عابر النظر؛ وأنى يستكثر ذلك، والكلام هو كلام الله جل وعز المتلو المحفوظ بحفظه جل جلاله له، والمُعَلِّم له هو جبريل عليه السلام، والمُتَعَلِّمُ له هو محمد ﷺ خاتم الرسل؟. فقد تميز نقل جبريل عليه السلام بالدقة في غير القرآن، فيُسْتَصْحَب هنا بين يدي هذا المبحث سؤالٌ: فكيف إن كان المنقول كلام الله المتلو جل وعز؟.

ومن صور هذه الدقة:

١- الدقة في نقل الأحداث الواقعية: كان جبريل عليه السلام يأتيه بأدق التفاصيل والأوصاف للأحداث الواقعة الحاضرة والمستقبلية، حتى ما لا يترتب عليه حكم شرعي:

ومن ذلك ما جاء عن أنس رضي الله عنه قال: بعث النبي ﷺ أقواماً من بني سليم إلى بني عامر في سبعين، فلما قدموا، قال لهم خالي: أتقدمكم، فإن أَمَّنوني حتى أبلغهم عن رسول الله ﷺ وإلا كنتم مني قريباً، فتقدم، فأَمَّنوه، فبينما يحدثهم عن النبي ﷺ إذ أومأوا إلى رجلٍ منهم، فطعنه، فأنفذه، فقال: الله أكبر! فزت ورب الكعبة. ثم مالوا على بقية أصحابه، فقتلوهم إلا رجلاً أعرج صعد الجبل، فأخبر جبريل عليه السلام النبي ﷺ أنهم قد لقوا ربهم فرضي عنهم وأرضاهم... الحديث[2].

(١) التحرير والتنوير ٢٩/ ٢٦٥، مرجع سابق.

(٢) صحيح البخاري ٣/١٠٣١، مرجع سابق.

وعن جابر رضي الله عنه:غزونا مع رسول الله قوماً من جُهينة، فقاتلونا قتالاً شديداً، فلما صلينا الظهر قال المشركون: لو ملنا عليهم ميلةً لاقتطعناهم، فأخبر جبريل رسول الله بذلك، الحديث[1].

وخرج معاوية رضي الله عنه على حلقة في المسجد، فقال: ما أجلسكم؟، قالوا: جلسنا نذكر الله، قال: آلله ما أجلسكم إلا ذاك؟ قالوا: والله ما أجلسنا إلا ذاك. قال: أما إني لم أستحلفكم تهمة لكم، وما كان أحدٌ بمنزلتي من رسول الله ﷺ أقل عنه حديثاً مني، وإن رسول الله ﷺ خرج على حلقة من أصحابه فقال: «ما أجلسكم؟» قالوا: جلسنا نذكر الله، ونحمده على ما هدانا للإسلام، ومن به علينا. قال: «آلله ما أجلسكم إلا ذاك؟» قالوا: والله ما أجلسنا إلا ذاك. قال: «أما إني لم أستحلفكم تهمة لكم، ولكنه أتاني جبريل فأخبرني أن الله عز وجل يباهي بكم الملائكة»[2].

فإذا تأمل القارئ نقل جبريل عليه السلام هاهنا، وشغل ذهنه بكيفية نقله للقرآن -أخبت قلبه لما سبق ذكره من الدقة البالغة في تلقي النبي ﷺ ألفاظ القرآن من جبريل عليه السلام، وتعليم جبريل عليه السلام إياه ذلك.

٢- الدقة في نقل أحداث المستقبل: فقد روت أم سلمة -رضي الله تعالى عنها- أن رسول الله ﷺ اضطجع ذات ليلة للنوم، فاستيقظ وهو حائرٌ، ثم اضطجع، فرقد، ثم استيقظ وهو حائرٌ، دون ما رأيت به المرة الأولى، ثم اضطجع فاستيقظ وفي يده تربة حمراء يقلبها، فقلت: ما هذه التربة يا رسول الله؟ قال: «أخبرني جبريل عليه السلام أن هذا يقتل بأرض العراق» - للحسين- فقلت لجبريل: أرني تربة الأرض التي يقتل بها فهذه تربتها)[3].

وهل التربة الحمراء أهم من نقل أداء ألفاظ القرآن؟.

---

(١) صحيح مسلم ١/ ٥٧٥، مرجع سابق.

(٢) صحيح مسلم ٤/ ٢٠٧٥، مرجع سابق.

(٣) المستدرك على الصحيحين٤/ ٤٤٠، مرجع سابق، وقال: " هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي".

غير أن الدقة هي السمة الدائمة لعمل جبريل عليه السلام وتعليمه، حتى اتسعت لتعليم الصلاة عملياً: فعن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أمَّني جبريل عليه السلام عند البيت مرتين، فصلى بي الظهر حين زالت الشمس وكانت قدر الشراك، وصلى بي العصر حين كان ظله مثله، وصلى بي يعني المغرب حين أفطر الصائم، وصلى بي العشاء حين غاب الشفق، وصلى بي الفجر حين حرم الطعام والشراب على الصائم، فلما كان الغد صلى بي الظهر حين كان ظله مثله، وصلى بي العصر حين كان ظله مثليه، وصلى بي المغرب حين أفطر الصائم، وصلى بي العشاء إلى ثلث الليل، وصلى بي الفجر فأسفر، ثم التفت إلي فقال: يا محمد! هذا وقت لأنبياء من قبلك والوقت ما بين هذين الوقتين»[(١)].

فكيف تعليمه القرآن؟، وظاهرٌ أن تعليم الصلاة عملياً يقرب أن تطلق عليه وجهاً أدائياً، فلأداء القرآن أعلى شأناً من بيان الهيئات التفصيلية للصلاة بأسلوب عملي، فما الذي يستنكره من شذ عن سائر المسلمين وقال: إن الأداء ليس متواتراً، أو لم يعلمه جبريل رسول الله ﷺ، على أن أهل المآرب اتخذوا ذلك ذريعةً ليبطلوا أصل اللفظ.

وأقل الأحوال أن يكون أداء لفظ القرآن شأنه كشأن الهيئات التفصيلية للصلاة، فيظهر عند ذاك برهان عدم المبالغة في ذلك عندما تجد القرآن ذاته يتكلم عن الهيئات التفصيلية لتلقي القرآن وتلقينه وأدائه، ولا يوجد ذلك لتفصيل أمور الصلاة.

المبحث الثالث: العلاقة العامة بين جبريل عليه السلام والنبي ﷺ وأثرها في تعليم ألفاظ القرآن:

وهذا المبحث كالاستعراض لمظاهر صحبة جبريل عليه السلام للنبي ﷺ، وبيان العلاقة الحميمة التي تربط المُعَلِّم المُلْقي عليه السلام بالمتَعَلِّم المتلقي ﷺ، مع أن هذه المعاني قد بُثَّتْ ثناياها فيما سبق، فما أُورِدَ هنا فهو لزيادة التبيين في هذه الناحية

---

(١) سنن أبي داود ١/ ١٠٧، مرجع سابق، قال الشيخ الألباني: "حسن صحيح"، وأصله في صحيح البخاري ١/ ١٩٥ مرجع سابق.

الخاصة، وينقسم هذا المبحث إلى ثلاثة مطالب متدرجاً من العموم إلى خصوص المتابعة التعليمية:

المطلب الأول: صلة هذا المبحث بموضوع البحث العام.

المطلب الثاني: نماذج من العلاقة العامة.

المطلب الثالث:التعاهد والاستدراك.

المطلب الأول: صلة هذا المبحث بموضوع البحث العام:

إن بحث هذه المسألة يستلزم الاستقلال في الدراسة عن غيرها، لكنها ذُكرت في هذا المكان مختصرة، لا نافلة قولٍ، بل لتحقيق غاياتٍ خادمةٍ لموضوع البحث، ومن ذلك:

أ - التنبيه بالأدنى على الأعلى: وعليه اعتمد الباقلاني-رحمه الله تعالى- في الرد على من نسب إلى ابن مسعودٍ رضي الله عنه إنكار المعوذتين، فقال: "ولو كان قد أنكر -يعني عبد الله ابن مسعود- السورتين على ما ادعوا -لكانت الصحابة تناظره على ذلك، وكان يظهر وينتشر، فقد تناظروا في أقل من هذا، أمرٌ يوجب التكفير والتضليل، فكيف يجوز أن يقع التخفيف فيه"[(١)].

وإذا كان التكليف بالأمور العبادية الفرعية مثلاً قد بلغ مستوىً من الدقة في التوقيف تعجم كل من يريد التهوين من اللفظ القرآني، فتحيل ما أعجمه مهملاً، فكذلك نقل كلام الله جل جلاله، ومن نماذج ذلك أن النبي ﷺ جاءه جبريل عليه

(١) (الباقلاني) أبو بكر بن الطيب: إعجاز القرآن ص٣٦٥، قدم له وشرحه وعلق عليه: الشيخ محمد شريف سكر، بيروت دار إحياء العلوم، ط١، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م. وهذا الدليل من أعظم الأدلة التي تبين فقه المتفقه ودقيق بصره، وتراه يُذْكَرُ مبثوثاً في كتب أصول الفقه بأسماء متعددة منها: القياس الأولوي، والعموم المعنوي، ونحو ذلك، ومن أجل هذه الأهمية التي يكتسبها هذا الدليل نبه عليه ابن رشد -رحمه الله تعالى- في مقدمة كتابه الفقهي الفريد: بداية المجتهد، انظر: (ابن رشد) القاضي أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد الحفيد ت ٥٩٥ هـ: بداية المجتهد ونهاية المقتصد - المقدمة ١/ ٥، تحقيق وتعليق: محمد صبحي حسن حلاق، الطبعة الأولى ١٤١٥ هـ مكتبة ابن تيمية - القاهرة.

السلام في أول ما أُوحِيَ إليه فأراه الوضوء والصلاة، فلما فرغ من الوضوء أخذ غرفة من ماء، فنضح بها فرجه[(١)].

ولا يُعَلِّمه هذا المستوى من الدقة في الأمور العبادية التي اصطلح على تسميتها بالفرعية، ويُفْقِرَ أصل أصول الشريعة من المماثلة في دقة التعامل، بل كان مستوى الدقة في لفظ القرآن بالغاً غاية لا يصدقها عقلٌ بشري، لولا أنها نقلت، وإنما قيل: لا يصدقها عقلٌ بشري؛ لأنها لا تخطر على باله من حيث هذه الضخامة في تتبع قراءة النبي ﷺ حرفاً حرفاً، كنقلهم عدد شعرات النبي ﷺ [(٢)]، ولَنَقْلُ حروف القرآن أخطر وأجل.

ب - بيان رُقي الصحبة بين المُعَلِّم عليه السلام والمتعلم ﷺ التي تؤدي إلى المتابعة المتميزة التي كان النبي ﷺ يحظى بها من جبريل عليه السلام بأمر الله جل جلاله، وذي المتابعة تعطي خصوصيةً للمُعَلِّم عليه السلام والمتعلم ﷺ هنا، لا توجد بين غيرهما، لا جرم أن قول الله جل وعز ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨] مُفَسِّرٌ لتلك العلاقة التي بلغت ذروتها، حتى يكاد جبريل عليه السلام لا يفارق رسول الله ﷺ إلا فيما ندر أمراً من ربه جل جلاله، مع المعية العامة والخاصة لله جل وعز، وذا كله يعطيك مؤشراً واضحاً على المتابعة التي كانت ألفاظ القرآن تحظى بها، واستحالة تطرق الخلل لأداء اللفظ، بَلْهَ اللفظ.

ج - تثبيت ما سبق من تحليل في تعليم جبريل عليه السلام لرسول الله ﷺ لفظ القرآن، وأن ما ذُكِرَ ليس مبالغةً استهوتها الزخارف اللفظية، والعاطفة المجردة مما قد يزعم زاعمٌ أن البحث صدر منها.

---

(١) (الكسي) أبو محمد عبد بن حميد بن نصر ت ٢٤٩هـ : المنتخب من مسند عبد بن حميد، مراجعة: صبحي البدري السامرائي ـ محمود محمد خليل الصعيدي، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م، مكتبة السنة - القاهرة، ورواه ابن ماجة ١/ ١٥٧، مرجع سابق. وقال الألباني: "صحيح".

(٢) إشارة إلى حديث أنس ﷺ عند الترمذي ٤/ ٤٣٥، مرجع سابق.

ولْيُشْرِع الحديث عن صحبة النبي ﷺ لجبريل عليه السلام أشرعته، وحُقَّ لحديثٍ كهذا الحديث أن تعروه هزة الذكرى، وحُمْرة الحياء، فلتغتفر زلة التقصير فيه بداية.

حَدِّثْ عن القوم، فالألفاظ ساجدةٌ   خلف المحاريبِ، والأوزانُ تبتهلُ

المطلب الثاني: نماذج من العلاقة العامة بين جبريل عليه السلام والنبي ﷺ:

أولاً: في المسائل الشخصية: يظهر جبريل عليه السلام غادياً رائحاً في أمورٍ تتعلق بخصوصيات النبي ﷺ الأسرية، ومن ذلك:

١-زواجه من عائشة -رضي الله تعالى عنها-: وفيها يظهر أن جبريل عليه السلام قد يستخدم وسائل متعددة وربما غير معهودة لإخبار النبي ﷺ وتعليمه، فعن عائشة -رضي الله تعالى عنها- قالت: قال لي رسول الله ﷺ: «رأيتك في المنام يجيء بك الملك في سرقة من حرير، فقال لي: هذه امرأتك، فكشفت عن وجهك الثوب، فإذا هي أنت، فقلت: إن يك هذا من عند الله يمضه»[1]، والتصريح بأن الملَك هو جبريل عليه السلام قد وقع عند ابن حبان عنها قالت: «جاء بي جبريل عليه السلام إلى رسول الله ﷺ في خرقة حرير، فقال: هذه زوجتك في الدنيا والآخرة»[2].

فإن كان ذا في أمرٍ غير ذي بال عند مقارنته بأداء القرآن الكريم، فكيف بالقرآن الكريم؟

٢-مراجعته لحفصة -رضي الله تعالى عنها-: فقد طلق النبي ﷺ حفصة بنت عمر، فدخل عليها خالاها قدامة وعثمان ابنا مظعون فبكت، وقالت: والله ما طلقني عن شبعٍ. وجاء النبي ﷺ فقال: «قال لي جبريل عليه السلام راجع حفصة فإنها صوامة قوامة وإنها زوجتك في الجنة»[3].

---

(١) البخاري ٢/ ٩٠٠، مرجع سابق.

(٢) صحيح ابن حبان ٣/ ٣٢٤، مرجع سابق.

(٣) المستدرك على الصحيحين ٤/١٦، مرجع سابق، وفي صحة الحديث نظرٌ بائن، وقد بين الباحث في المقدمة أنه قد تُذكر بعض الأحاديث الضعيفة استئناساً لا استدلالاً للأحكام.

٣-زواج ابنته: فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ لقي عثمان بن عفان رضي الله عنه وهو مغموم فقال: «ما شأنك يا عثمان؟» قال:بأبي أنت يا رسول الله وأمي! هل دخل على أحد من الناس ما دخل علي؟ توفيت بنت رسول الله ﷺ رحمها الله، وانقطع الصهر فيما بيني وبينك إلى آخر الأبد. فقال رسول الله ﷺ: «أتقول ذلك يا عثمان وهذا جبريل عليه السلام يأمرني عن أمر الله عز وجل أن أزوجك أختها أم كلثوم على مثل صداقها وعلى مثل عدتها فزوجه رسول الله ﷺ إياها»(١).

٤-إخباره بأسرار بيته: كان ﷺ لا يدرك بعض أموره العائلية مما غيبها واقع في الأرض، كخبر ابنه إبراهيم حتى يأتيه جبريل عليه السلام بالوحي، كما في المستدرك عن أنس رضي الله عنه قال: لما ولد إبراهيم ابن النبي ﷺ أتاه جبريل فقال: «السلام عليك يا أبا إبراهيم»(٢). فذا في خبر الأرض، فكيف يكون في خبر السماء؟ وإنما يكثر البحث من الأمور الدقيقة؛ لاستقلال البعض أن يكون ثَمَّ اهتمامٌ شرعي بأمور الأداء في اللفظ القرآني، فيُقرَن هذا بهذا ليُعلَم الأمر.

ثانياً: في المسائل البدنية: مما يعود على الناس بمصالح في أبدانهم: فقد روى أبو الحكم البجلي وهو عبد الرحمن بن أبي نعم قال: دخلت على أبي هريرة رضي الله عنه وهو يحتجم فقال لي: يا أبا الحكم احتجم -قال- فقلت: ما احتجمت قط. قال: أخبرني أبو القاسم ﷺ «أن جبريل عليه السلام أخبره أن الحجم أفضل ما تداوى به الناس هذا»(٣).

فكيف يبلغ الظن بمتابعة جبريل عليه السلام للنبي ﷺ في مسائل الوحي عامة، ثم فيه حين يكون قرآناً بصفة خاصة؟.

---

(١) المستدرك على الصحيحين٤/ ٥٤، مرجع سابق.

(٢) المستدرك على الصحيحين٦٦٠/ ٢، مرجع سابق.

(٣) المستدرك على الصحيحين٤/ ٢٣٢، مرجع سابق، وقال: "صحيحٌ على شرط الشيخين، ولم يخرجاه"، وقال الذهبي: "على شرط البخاري ومسلم".

ثالثاً: الوزير: فقد كان جبريل عليه السلام وزير رسول الله الأول من أهل السماء؛ إذ روى الحاكم: عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «وزيراي من أهل السماء جبريل وميكائيل ومن أهل الأرض أبو بكر وعمر»[(١)]، ولئن اشترك مكائيل عليه السلام في وزارته مع جبريل عليه السلام، فإن جبريل عليه السلام يتميز في علاقته بالنبي ﷺ بأمور أخرى، حسبه منها أن يكون المُكَلَّفَ بإبلاغه وتعليمه وحي السماء، ولئن كان في الحديث نظرٌ فإن قرائن الحال السابقة والتالية مما ذُكِرَ في البحث شاهدةٌ بصدق معناه، قال ابن الأثير -رحمه الله تعالى-: "وفيه «أميري من الملائكة جبريل عليه السلام» أي صاحبُ أمْرِى، وَوَلِيِّى، وكل من فَزِعتَ إلى مُشاورته ومُؤامَرتِه فهو أَميرك"[(٢)].

وكونه كان في مقام الوزير، لا يعني أنه الوزير المنفذ المتلقي للأوامر، بل كان كان كثيراً ما يكون المشير الآمر شأن المعلم مع المتعلم، فقد كان ابن عباس رضي الله عنه يحدث أن الله-تبارك وتعالى- أرسل إلى نبيه ﷺ ملكاً من الملائكة ومعه جبريل، فقال الملَك: «إن الله يخيرك بين أن تكون عبداً نبياً، وبين أن تكون ملكاً»، فالتفت رسول الله ﷺ إلى جبريل عليه السلام كالمستشير فأشار جبريل بيده أن تواضع، فقال رسول الله ﷺ: «بل أكون عبداً نبياً، قال فما أكل بعد تلك الكلمة طعاما متكئاً»[(٣)].

رابعاً: الناصح ابتداء: فلم يقتصر دور جبريل عليه السلام على المتابعة، بل كان يقوم بنصحه ابتداء: فعن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: جاء جبريل عليه السلام إلى النبي ﷺ فقال: «يا محمد! عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب من أحببت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك مجزي به، ثم قال: يا محمد! شرف المؤمن قيام الليل،

---

(١) سنن الترمذي ٥/٦١٦، مرجع سابق، قال الترمذي: "حسن غريب"، قال الألباني: "ضعيف"، المستدرك على الصحيحين، قال: "هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه". وقد تمثلت هذه الوزارة في مظاهر كثيرة: منها: اشتراكهما في تغسيل قلبه، ومعالجته من مرضه، والسياحة به في عالم البرزخ ،.

(٢) النهاية في غريب الأثر١/ ٦٥، مرجع سابق.

(٣) السنن الكبرى للنسائي ٤/ ١٧١، مرجع سابق.

وعزه استغناؤه عن الناس»[1]. وهذه نصائح ابتدائية، كما هي متابعةٌ في أبواب الزهد والرقائق توضح العلاقة المثالية للمعلم بتلميذه.

خامساً: وتجري بينهما المناقشة والمباحثة: عن معاذ بن رفاعة بن رافع الزرقي عن أبيه رضي الله عنه -وكان أبوه من أهل بدر- قال: جاء جبريل عليه السلام إلى النبي ﷺ فقال: «ما تعدون أهل بدر فيكم؟ قال: من أفضل المسلمين -أو كلمة نحوها - قال وكذلك من شهد بدر من الملائكة»[2].

سادساً: علاقة حب: وجبريل عليه السلام رفيقه الأثير، كما قال في مرض موته ﷺ: «مع الرفيق الأعلى، مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء إلى قوله رفيقاً»[3]، وفي رواية: فقال: «أسأل الله الرفيق الأعلى الأسعد مع جبريل وميكائيل وإسرافيل»[4]، فبدأ بجبريل عليه السلام .

وعلاقة الحب علاقةٌ متبادلةٌ بينهما، فقد روى عبد بن حميد من طريق عكرمة- رحمه الله تعالى- قال: «أبطأ جبريل عليه السلام في النزول أربعين يوماً فقال له النبي ﷺ يا جبريل ما نزلت حتى اشتقت إليك قال: أنا كنت أشوق إليك»[5].

وكان ﷺ ينقبض ويضيق إذا تأخر عليه جبريل عليه السلام حتى اشتد على النبي ﷺ فيما روته عائشة -رضي الله تعالى عنها- وفي يده عصا فألقاها من يده

(١) المستدرك على الصحيحين٤/ ٣٦٠، مرجع سابق، وقال: "هذا حديثٌ صحيح الإسناد، ولم يخرجاه"، وقال الذهبي: "صحيح".
(٢) صحيح البخاري ٤/ ١٤٦٧، مرجع سابق.
(٣) مسند أحمد ٦/ ٧٤، مرجع سابق، وأصله في صحيح البخاري ٣/ ١٣٤١، مرجع سابق.
(٤) في رواية أبي بردة عن أبي موسى عن أبيه عند النسائي في السنن الكبرى ٥/ ٢٣، مرجع سابق.
(٥) المنتخب من مسند عبد بن حميد ٣٤٥، مرجع سابق، وانظر: فتح الباري ٨/ ٤٢٩، مرجع سابق.

وقال: «ما يخلف الله وعده ولا رسله»[1]، وفي حديث ميمونة عند مسلم نحو حديث عائشة، وزاد فيه ابن حبان: «أنه أصبح واجماً»[2].

وتجري بينهما المناقشة والأخذ والرد دون أن يكون مكان جبريل عليه السلام عائقاً عن ذلك رد فعن عمرو بن العاص رضي الله عنه:أن النبي ﷺ تلا قوله جل وعز في إبراهيم: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٦]، وقال عيسى عليه السلام: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨] فرفع يديه، وقال: «اللهم أمتي أمتي»، وبكى، فقال الله جل جلاله: «اذهب إلى محمد -وربك أعلم- فسله ما يبكيك؟» فأتاه جبريل ﷺ فسأله فأخبره -والله بما قال أعلم- فقال الله: «يا جبريل اذهب إلى محمد، فقل: إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك»[3].

ونحو ما في البخاري عن ابن عباس رضي الله عنه أن النبي ﷺ: «عُرِضت عليَّ الأمم، فأجد النبي يمر معه الأمة، والنبي يمر معه النفر، والنبي يمر معه العشرة، والنبي يمر معه الخمسة، والنبي يمر وحده، فنظرت فإذا سوادٌ كثيرٌ، قلت: يا جبريل! هؤلاء أمتي؟»[4].

ويرقيه ﷺ: فقد روى مسلم عن عائشة -رضي الله تعالى عنها- زوج النبي قالت: كان إذا اشتكى رسول الله رقاه جبريل، قال: «باسم الله يبريك، ومن كل داء يشفيك، ومن شر حاسد إذا حسد، ومن شر كل ذي عين»[5]، وعنده: عن أبي رضي

(١) صحيح مسلم ٣/ ١٦٦٤، مرجع سابق.
(٢) ابن حبان ١٢/ ٤٦٥، مرجع سابق.
(٣) أخرجه مسلم ١/ ١٩١، مرجع سابق.
(٤) أخرجه البخاري ٥/ ٢٣٩٦، مرجع سابق.
(٥) أخرجه مسلم٤/ ١٧١٨، مرجع سابق.

الله عنه أن جبريل عليه السلام أتى النبي ﷺ فقال: «يا محمد! اشتكيت؟ قال: نعم! قال: باسم الله أرقيك»(١).

ويقاتل عنه ﷺ: فقد روى مسلم في باب: «قتال جبريل وميكائيل-عليهما السلام- عن النبي ﷺ يوم أحد»، عن سعد رضي الله عنه: رأيت عن يمين رسول الله ﷺ وعن شماله أحد رجلين عليهما ثياب بيض ما رأيتهما قبل ولا بعد، يعني جبريل وميكائيل -عليهما السلام- وفي لفظ له:يقاتلان عنه كأشد ما يكون القتال(٢). ولا غرو! فتقطيع الأيدي لا وقع له عند رؤية يوسف عليه السلام.

وكان يواسيه ﷺ:

فعن أنسٍ رضي الله عنه قال: جاء جبريل عليه السلام ذات يوم إلى رسول الله ﷺ وهو جالس حزين قد خضب بالدماء، الحديث سيأتي(٣).

كما أن النبي ﷺ ينشغل عمن سواه: فعن ابن عباسٍ رضي الله عنه قال: كنت مع أبى عند رسول الله ﷺ وعنده رجل يناجيه، فكان كالمعرض عن أبى، فخرجنا من عنده، فقال لي أبى: أي بني! ألم تر إلى ابن عمك كالمعرض عني؟ فقلت: يا أبت! إنه كان عنده رجلٌ يناجيه. قال: فرجعنا إلى النبي ﷺ فقال أبى: يا رسول الله! قلت لعبد الله كذا وكذا، فأخبرني أنه كان عندك رجلٌ يناجيك فهل كان عندك أحدٌ؟ فقال رسول الله ﷺ: «وهل رأيته يا عبد الله؟» قال: قلت: نعم! قال: «فإن ذاك جبريل وهو الذي شغلني عنك»(٤).

---

(١) أخرجه مسلم٤/ ١٧١٨، مرجع سابق.

(٢) مسلم ٤/ ١٨٠٢، وفي الديباج٥/٣١٧، مرجع سابق: قال النووي: "فيه: أن رؤية الملائكة لا تختص بالأنبياء، بل يراهم الصحابة والأولياء".

(٣) انظر: الحديث بتمامه ص٢١٩.

(٤) مسند الإمام أحمد بن حنبل ١/ ٢٩٣، مرجع سابق.

سابعاً: وهو صاحبه في الدنيا والآخرة: فعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه في حديث الشفاعة، قال رسول الله ﷺ وهو يحكي قول عيسى عليه السلام: «ولكن انطلقوا إلى سيد ولد آدم فإنه أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة انطلقوا إلى محمد ﷺ فيشفع لكم إلى ربكم عز وجل، قال: فينطلق فيأتي جبريل عليه السلام ربه فيقول الله جل جلاله: ائذن له وبشره بالجنة. قال: فينطلق به جبريل فيخر ساجداً قدر جمعة، ويقول الله جل جلاله: ارفع رأسك يا محمد! وقل يسمع واشفع تشفع قال: فيرفع رأسه، فإذا نظر إلى ربه جل جلاله خر ساجداً قدر جمعة أخرى، فيقول الله جل جلاله: ارفع رأسك وقل يسمع واشفع تشفع. قال: فيذهب ليقع ساجداً فيأخذ جبريل عليه السلام بضبعيه فيفتح الله عز وجل عليه من الدعاء شيئا لم يفتحه على بشر قط»(١) الحديث.

ويمكن أن يجري بينه وبين ربه الكلام والنقاش بواسطته: فعن أبي سعيد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أتاني جبريل فقال: إن ربي وربك يقول لك: كيف رفعت ذكرك؟ قال:الله أعلم قال:إذا ذكرت ذكرت معي»(٢).

وقد يأتيه بوسيلةٍ غير معتادةٍ في ذلك الوقت للتعليم:

فعن عائشة -رضي الله تعالى عنها- قالت: قال رسول الله ﷺ: «أُريتكِ في المنام مرتين إذا رجل يحملك في سرقة حرير فيقول هذه امرأتك فأكشفها فإذا هي أنت فأقول إن يكن هذا من عند الله يمضه»(٣).

---

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل ١/ ٤، مرجع سابق.

(٢) صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان٨/ ١٧٦، مرجع سابق، صححه ابن حبان، وقال شعيب الأرناؤوط: "إسناده ضعيف".

(٣) صحيح البخاري ٥/ ١٩٥٣، مرجع سابق، وفي رواية للبخاري ٥/ ١٩٦٩، يجئ بك الملك، وفي رواية لابن حبان -رحمه الله تعالى-:"جاء بي جبريل"، وذلك كله يؤكد ما قرر سابقاً من أن جبريل واسطته الوحيدة من الملائكة، وأنه لو كنى عن الموحِي إليه بقوله (رجل)، أو (ملك) فقد عنى به جبريل عليه السلام .

ويداعب المُعَلِّم عليه السلام المتعلم ﷺ: فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: نزل جبريل عليه السلام إلى النبي ﷺ في أحسن صورة لم ينزل في مثلها قط ضاحكاً مستبشراً فقال: «السلام عليك يا محمد! قال: وعليك السلام يا جبريل. قال: إن الله بعثني إليك بهدية كنوز العرش أكرمك الله بهن قال: وما تلك الهدية يا جبريل؟ فقال جبريل؟ قل يا من أظهر الجميل»(١) الحديث.

ويقعد عند النبي ﷺ: فقد روى ابن حبان عن ابن عباس رضي الله عنه:بينما جبريل عند النبي ﷺ سمع نقيضاً من فوق، فرفع رأسه فقال: «هذا باب من السماء فتح اليوم لم يفتح قط إلا اليوم، فنزل منه ملك فقال: هذا ملك نزل إلى الأرض لم ينزل قط إلا اليوم. فسلم، وقال: أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك: فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة لن تقرأ بحرف منهما إلا أعطيته»(٢).

ويتخلف عنه لغرضٍ منافٍ لمقتضيات الوحي كتخلفه عنه لوجود كلبٍ(٣).

وكان لجبريل عليه السلام مكان مميز عرف باسمه (مقاعد جبريل):

فعن عائشة -رضي الله تعالى عنها- أنها لما توفي سعد بن أبي وقاص أرسل أزواج النبي ﷺ أن يمروا بجنازته في المسجد فيصلين عليه، ففعلوا فوقف به على حجرهن يصلين عليه، ثم أخرج به من باب الجنائز الذي كان إلى المقاعد، الحديث(٤)، وورد التصريح بالاسم في حديث أنس ابن مالك عليه السلام قال: صلى رسول الله ﷺ يوماً الظهر بالمدينة ثم أتى المقاعد التي كان يأتيه عليها جبريل فقعد عليها ﷺ فجاء بلال فنادى بالعصر(٥)، وعن حارثة ابن النعمان رضي الله عنه قال:

(١) المستدرك على الصحيحين ١/ ٧٢٩، مرجع سابق.

(٢) وفي صحيح ابن حبان٣/ ٥٧، مرجع سابق، وقوله: (أبشر بسورتين): دالٌ على إطلاق السورة على ما دونها.

(٣) انظر: المبحث الثالث من الفصل الثاني.

(٤) صحيح مسلم ٢/ ٦٦٨، مرجع سابق.

(٥) صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان ١٤/ ٤٨١، مرجع سابق، وقال شعيب الأرناؤوط: "إسناده صحيح على شرط مسلم".

مررت على رسول الله ﷺ جبريل عليه السلام جالس في المقاعد فسلمت عليه ثم أجزت، فلما رجعت وانصرف النبي ﷺ قال: «هل رأيت الذي كان معي؟». قلت: نعم قال: «فإنه جبريل وقد رد عليك السلام»[1].

ومن ذا العرض يُفْهَمُ سر نعي فاطمة -رضي الله تعالى عنها- أباها إلى جبريل عليه السلام دون غيره من الملائكة وسائر الخلق:

فعن أنسٍ رضي الله عنه قال: لما ثقل النبي ﷺ جعل يتغشاه -الكرب-، فقالت: فاطمة -رضي الله تعالى عنها- واكرب أبتاه!، فقال لها: «ليس على أبيك كرب بعد اليوم»، فلما مات، قالت: «يا أبتاه! أجاب رباً دعاه، يا أبتاه! من جنة الفردوس مأواه، يا أبتاه! إلى جبريل ننعاه»، فلما دفن قالت فاطمة -رضي الله تعالى عنها-: «يا أنس! أطابت أنفسكم أن تحثوا على رسول الله ﷺ التراب؟»[2].

لا!..- يا ابنت رسول الله! لم تطب، وإنما نعته إلى جبريل عليه السلام لأنه مُعَلَّمه وصاحبه، وخليله، ووزيره، فإليه يُنعى، وأما الله -جل ذكره- فقدر موته، وإليه المرجع والمآب.

المطلب الثالث:التعاهد والاستدراك:

أولاً: التعاهد: من حيث ارتباطه بموضوع البحث، فإن نماذجه تنقسم إلى قسمين: عامٍ وخاصٍ:

١- التعاهد العام، وهو من حيث كون جبريل عليه السلام شيخ الرسول ﷺ ومعلمه:

يصل تعاهد جبريل عليه السلام للنبي ﷺ حد المواساة والتثبيت له في شخصه، فكيف في أصل رسالته؟ فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: جاء جبريل عليه

---

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل ٥/ ٤٣٣، مرجع سابق، وواضحٌ أنه ما قال: معه جبريل إلا بعد أن أعلمه النبي ﷺ.

(٢) صحيح البخاري ٤/ ١٦١٩، مرجع سابق.

السلام إلى النبي ﷺ ذات يوم وهو حزينٌ جالسٌ، قد ضربه بعض أهـل مكـة، فقـال: «فعل بي هؤلاء وفعلوا» قال: تحب أن أريَك آيةً؟ فنظـر إلى شـجرةٍ مـن وراء الـوادي، فقال: ادع تلك الشجرة. فـدعاها. فجـاءت تمشـي حتـى قامـت بـين يديـه فقـال لهـا: ارجعي. فرجعت حتى عادت إلى مكانها فقال النبي ﷺ حسبي[1].

بل يبلغ أن يسمع من الأمور الغيبية مما لا يترتب عليه كبير أمرٍ عند عامة الأمة، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: سمع رسول الله ﷺ صـوتاً هالـه، فأتـاه جبريـل عليه السلام، فقال رسول الله ﷺ: «ما هذا الصـوت يـا جبريـل؟ فقـال: هـذه صـخرة هوت من شفير جهنم من سبعين عاماً، فهذا حين بلغت قعرهـا فأحـب الله أن يُسْـمعك صوتها فما رؤي رسول الله ﷺ بعد ذلك اليوم ضاحكاً ملء فيه حتى قبضه الله»[2].

فهذا لأمرٍ غيبيٍ، فكيف ترى الاهتمام كائناً في أصل أصول الشرع الإسلامي؟ بل في أصل معناه وهو اللفظ، مع شدة انتشاره، وعظيم احتياج الناس إليه.

ومن ذلك: التعاهد من حيث حفظه من الأخطار الغيبية: فعـن خالـد بـن الوليـد رضي الله عنه أنه شكى إلى رسول الله ﷺ فقال: إنـي أجـد فزعـاً بالليـل فقـال: «ألا أعلمك كلمات علمنيهن جبريل عليه السـلام وزعـم أن عفريتـاً مـن الجـن يكيـدني: أعوذ بكلمات الله التامات الـتي لا يجـاوزهن بـر، ولا فـاجر، مـن شـر مـا ينـزل مـن السماء، وما يعرج فيها، ومن شر ما ذرأ في الأرض، وما يخـرج منهـا، ومـن شـر فـتن الليل وفتن النهار، ومن شر طوارق الليل والنهار، إلا طارقاً يطرق بخير يا رحمن»[3].

٢- التعاهد الخاص، وهو من حيث استكمال متعلقات القرآن الكـريم -لفظـاً- التتميمية: فلئن تمثلت متعلقاته الضرورية والحاجية في إنزاله، وإقرائه علـى الهيئـة الـتي

(١) مسند أبي يعلى٦/ ٣٥٨، مرجع سابق، وقال المحقق: "إسناده على شرط مسلم"، وأخرجه ابن ماجة ٢/ ١٣٣٦، مرجع سابق، وصححه الألباني.
(٢) المعجم الأوسط ١/ ٢٤٨، مرجع سابق.
(٣) المعجم الكبير٤/ ١١٤، مرجع سابق.

أمر الله جل جلاله، والمراجعة الدورية له خلال فترة الإنـزال لتثبيـت اللفـظ، وتقـويم هيئة أدائه، وغير ذلك، فقد تمثلت متعلقاته التتميمية في عدة مظاهر، منها:

إعداد مراجع الإقراء: في عهد النبي ﷺ وبعـده؛ إذ بلـغ الحفـظ الإلهـي للقـرآن الكريم أن تعاهد جبريل عليه السلام مراجعَ الإقراء من الصحابة الكرام، والمـراد مـن متصدريهم في هذا الباب، ومن ذلك:

❖ إعداد أبي بن كعب رضي الله عنه: كما جاء في البخاري عـن أنـس بـن مالـك رضي الله عنه قال النبي ﷺ لأبي: «إن الله أمرني أن أقـرأ عليـك ﴿لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ قال: وسماني؟ قال: «نعم!» فبكـى، وفي لفـظ لـه: «أن أقرئـك القـرآن»، قال: آلله سماني لك؟. قال: «نعم!» قال: وقد ذُكِرْتُ عند رب العـالمين؟[1]، والتصـريح باسم جبريل عليه السلام عند أحمد عن أبي حبة البدري رضي الله عنه قال: لما نزلـت ﴿ لَمۡ يَكُنِ ﴾ قال جبريل عليه السلام: «يا محمد إن ربك يأمرك أن تقرئ هـذه السـورة أبـي بن كعب» فقال النبي ﷺ: «يا أُبي إن ربي عـز وجـل أمرنـي أن أقرئـك هـذه السـورة» فبكى، وقال: ذكرت ثمة؟ قال: «نعم!»[2]، واتخذ هذا الأمر طابع العموم لكـل القـرآن: فعند أحمد عن أبي بن كعب رضي الله عنـه قـال: قـال رسـول الله ﷺ: «إن الله تبـارك وتعالى أمرني أن أعرض القرآن عليك» قال: وسمـاني لـك ربـي تبـارك وتعـالى؟ قـال: «نعم!» الحديث[3].

وصار هذا الإسناد مشتهراً، فعن عبيد بن ميمـون التبـان المقـرىء قـال: قـال لـي هارون بن المسيب: بقراءة من تقرأ؟ فقلت: بقراءة نافع. قـال: فعلـى مـن قـرأ نـافع؟ فقلت: خبرنا نافع أنه قرأ على الأعرج عبد الرحمن بن هرمز، وأن الأعرج قال: قـرأت

(١) أخرجه البخاري٣/ ١٣٨٥، مرجع سابق.
(٢) أخرجه أحمد بن حنبل في مسنده ٣/ ٤٨٩، مرجع سابق.
(٣) أخرجه أحمد ٣/ ٤٩٠، مرجع سابق.

على أبى هريرة، وقال أبو هريرة: قرأت على أُبي ابن كعب، وقال أبي رضي الله عنه: عرضت على النبي ﷺ القرآن فقال: «أمرني جبريل أن أعرض عليك القرآن»(١).

❖ إعداد ابن عباس رضي الله عنه: فعند أبي نعيم عن عبد الله بن بريدة رضي الله عنه عن ابن عباس رضي الله عنه قال: انتهيت إلى رسول الله ﷺ وعنده جبريل عليه السلام، فقال له جبريل عليه السلام: «إنه كائنٌ حبر هذه الأمة فاستوص به خيراً»(٢).

وهذان النموذجان يدلان دلالةً واضحةً على خلفية انتخاب النبي ﷺ لعددٍ من أصحابه ليكونوا مراجع للإقراء.

ومن ذلك حديث «خذوا القرآن من أربعة»(٣)، وحديث «من أحب أن يقرأ القرآن»(٤).

ثانياً: متابعة الاستدراك: إذ كان الرسول تحت سمع الله جل جلاله وبصره حافظاً له، ومعيناً ومؤيداً، فأول أشكال الحفظ: حفظه ﷺ من الخطأ في الفروع بَلْهَ الأصول، ومُعَلِّمُ رسول الله جبريل عليه السلام يتابعه في صغائر أموره ودقائقها، فكيف جلائلها؟ فاستدراكه عليه بعد الإخبار، كإخباره بالوحي ابتداء، وقد كانت هذه

---

(١) المعجم الأوسط ٢/ ٨٨، مرجع سابق..وفيه فوائد:

أولها: عدم إرادة التحديد عند ذكر الإسناد، إذ قد بات من المعلوم أن نافعاً قرأ على سبعين من التابعين، على أن قراءته هي قراءة المدنيين، فليس هو مدارها، ولا هو مبتدعها، أو منشؤها، إنما أُريد المحافظة على الإسناد، ثم اشتهرت به.

وثانيها: مرجعية القراءة إلى الله جل في علاه المتكلم بالقرآن المجيد، فليس ثم اجتهاد بشري، بل ولا غيره في نقل ألفاظ القراءة.

وثالثها: التأكيد على الإسناد بين جبريل عليه السلام والنبي ﷺ .

(٢) تهذيب التهذيب ٥/ ٢٤٤، مرجع سابق.

(٣) أخرجه البخاري ٣/ ١٣٨٥، مرجع سابق، مسلم ٤/ ١٩١٣، مرجع سابق.

(٤)السنن الكبرى للنسائي ٥/ ٧١، مرجع سابق، سنن ابن ماجه ١/ ٤٩، مرجع سابق، صحيح ابن حبان ١٥/ ٥٤٣، مرجع سابق، مستدرك الحاكم ٢/ ٢٤٧، مرجع سابق، مسند أحمد ٤/ ٢٧٨، مرجع سابق.

المتابعة -من حيث الناسُ- خاصةً بالنبي ﷺ، وعامةً للأمة، -ومن حيث الأمر الشرعي المتابَع عليه- خاصةً في ألفاظ القرآن الكريم، وعامةً في سائر أمور الشرع:

أ - الخاصة من حيث المستدرَك عليهم:

فمن ذلك: ما أنزله الله على نبيه ﷺ استدراكاً له على مجانبة الصواب الشرعي في المسائل الحربية (أسرى بدر نموذجاً)(١)، والمسائل الدعوية (قصة ابن أم مكتوم نموذجاً)(٢)، والمسائل السياسية (العفو عن المنافقين في عام العسرة نموذجاً)(٣)، ومسائل الفقه العملي (الصلاة على المنافق نموذجًا)(٤)، ولكن منهج البحث يرمي إلى ما فيه التصريح بوجود جبريل عليه السلام ونزوله بالوحي، فلتُذكر نماذج من ذلك:

١ – استدراك جبريل عليه السلام في الدلالة على ليلة القدر: فعن أبي سلمة قال: انطلقت إلى أبي سعيد الخدري رضي الله عنه فقلت: ألا تخرج بنا إلى النخل نتحدث؟ فخرج، فقال: قلت: حدثني ما سمعت من النبي ﷺ في ليلة القدر قال: اعتكف رسول الله ﷺ عشر الأول من رمضان واعتكفنا معه، فأتاه جبريل فقال: إن الذي تطلب أمامك، فاعتكف العشر الأوسط فاعتكفنا معه، فأتاه جبريل فقال: إن الذي تطلب أمامك قام النبي ﷺ خطيباً صبيحة عشرين من رمضان فقال: «من كان اعتكف مع النبي ﷺ فليرجع فإني أريت ليلة القدر، وإني نسيتها وإنها في العشر الأواخر في وتر، وإني رأيت كأني أسجد في طينٍ وماءٍ»، وكان سقف المسجد جريد النخل، وما نرى في السماء شيئاً، فجاءت قزعةٌ، فأُمْطِرْنا، فصلى بنا النبي ﷺ حتى رأيت أثر الطين والماء على جبهة رسول الله ﷺ وأرنبته تصديق رؤياه(٥).

(١) انظر تفصيلها في صحيح مسلم ٣/ ١٣٨٣، مرجع سابق.

(٢) انظر تفصيلها في: سنن الترمذي ٥/ ٤٣٢، مرجع سابق، وقال الترمذي: "حديث غريب"، قال الألباني: "صحيح الإسناد".

(٣) انظر: سورة التوبة: عند قوله جل في علاه : ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ "التوبة / ٤٣".

(٤) انظر: صحيح البخاري ١/ ٤٥٩، مرجع سابق.

(٥) صحيح البخاري١/ ٢٨٠، مرجع سابق.

٢ - استدراك جبريل عليه السلام في هيئة الأكل: فقد كان رسول الله ﷺ يأكل متكئاً، فنزل عليه جبريل عليه السلام فقال: انظروا إلى هذا العبد كيف يأكل متكئاً! فجلس رسول الله ﷺ [(١)]، وعند البخاري: «لا آكل متكئاً»[(٢)].

٣ - استدراك جبريل عليه السلام في الإفتاء: فعن أبي قتادة رضي الله عنه أنه سمعه يحدث عن رسول الله: أنه قام فيهم، فذكر لهم أن الجهاد في سبيل الله والإيمان بالله أفضل الأعمال، فقام رجل فقال: يا رسول الله! أرأيت إن قتلت في سبيل الله تُكَفَّرُ عني خطاياي! فقال له رسول الله: «نعم! إن قتلت في سبيل الله وأنت صابرٌ محتسبٌ مقبلٌ غيرَ مدبرٍ» ثم قال رسول الله: «كيف قلت؟» قال: أرأيت إن قتلت في سبيل الله أتكفر عني خطاياي؟ فقال رسول الله: «نعم! وأنت صابرٌ محتسبٌ مقبلٌ غيرَ مدبرٍ إلا الدين فإن جبريل عليه السلام قال لي ذلك»[(٣)].

٤ - استدراك جبريل عليه السلام في اللباس: فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه يقول: لبس النبي ﷺ يوماً قِباءً من ديباجٍ أُهدِيَ له، ثم أوشك أن نزعه، فأرسل به إلى عمر بن الخطاب فقيل: له قد أوشك ما نزعته يا رسول الله! فقال: «نهاني عنه جبريل» فجاءه عمر يبكي... الحديث[(٤)].

٥- استدراك جبريل عليه السلام في الفروع: وذلك إن لم تستدرك عليه ﷺ الأمة بعد أن يكون قد أبلغها:

فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: بينما رسول الله ﷺ يصلي بأصحابه إذ خلع نعليه فوضعهما عن يساره، فلما رأى ذلك القوم ألقوا نعالهم، فلما قضى

---

(١) (الطحاوي) أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة بن عبد الملك بن سلمة ت٣٢١هـ: شرح معاني الآثار ٤/ ٢٧٥، مرجع سابق.

(٢) صحيح البخاري ٥/ ٢٠٦٢، مرجع سابق.

(٣) صحيح مسلم٣/ ١٥٠١، مرجع سابق.

(٤) صحيح مسلم ٣/ ١٦٤٤، مرجع سابق.

رسول الله ﷺ صلاته قال: «ما حملكم على إلقائكم نعالكم؟» قالوا: رأيناك ألقيت نعليك فألقينا نعالنا. فقال رسول الله ﷺ: «إن جبريل عليه السلام أتاني فأخبرني أن فيهما قذرا وقال إذا جاء أحدكم إلى المسجد فلينظر فإن رأى في نعليه قذرا أو أذى فليمسحه وليصل فيهما»(١)، وعن خلاد بن السائب الأنصاري رضي الله عنه عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: «أتاني جبريل عليه السلام فأمرني أن آمر أصحابي ومن معي أن يرفعوا أصواتهم بالإهلال» أو قال (بالتلبية) يريد أحدهما(٢).

٦- استدراك جبريل عليه السلام لتكرار العمل الفرعي فكيف القرآن فعن عائشة -رضي الله تعالى عنها- عن النبي ﷺ قال: «ما زال يوصيني جبريل بالجار حتى ظننت أنه سيورثه»(٣)، وعن أبي أمامة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما جاءني جبريل عليه السلام قط إلا أمرني بالسواك لقد خشيت أن أحفى مقدم في»(٤).

٧ - استدراك جبريل عليه السلام في هيئة الوعظ: أبا هريرة رضي الله عنه يقول: مر رسول الله ﷺ على رهطٍ من أصحابه وهم يضحكون، فقال: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً»، فأتاه جبريل فقال: «إن الله يقول لك لم تقنط عبادي؟» -قال- فرجع إليهم، فقال: «سددوا وقاربوا وأبشروا»(٥).

---

(١) سنن أبي داود ١/ ١٧٥، مرجع سابق، قال الشيخ الألباني: "صحيح".

(٢) سنن أبي داود ٢/ ١٦٢، مرجع سابق، وأصله في صحيح البخاري، وقال الألباني: "صحيح".

(٣) صحيح البخاري ٥/ ٢٢٣٩، مرجع سابق.

(٤) مسند الإمام أحمد بن حنبل٥/ ٢٦٣، مرجع سابق.

(٥) صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان ١/ ٣١٩، مرجع سابق، قال الشيخ شعيب الأرناؤوط: "إسناده صحيح على شرط مسلم"، وقال ابن حبان -رحمه الله تعالى-: "(سددوا)يريد به: كونوا مسددين، والتسديد: لزوم طريقة النبي ﷺ واتباع سنته، وقوله (وقاربوا) يريد به لا تحملوا على الأنفس من التشديد ما لا تطيقون، (وأبشروا)، فإن لكم الجنة إذا لزمتم طريقتي في التسديد، وقاربتم في الأعمال".

ب - العامة من حيث المستدرَك عليهم:

والمراد المتابعة والاستدراك على الأخطاء التي تقع فيها أمته: فعن ثوبان رضي الله عنه قال: اجتمع أربعون رجلاً من الصحابة ينظرون في القدر والجبر، فيهم أبو بكر وعمر فنزل الروح الأمين جبريل عليه السلام فقال: «يا محمد! أخرج على أمتك فقد أحدثوا». فخرج عليهم في ساعةٍ لم يكن يخرج عليهم فيها، فأنكروا ذلك منه، وخرج عليهم ملتمعاً لونه متوردةً وجنتاه كأنما تفقأ بحب الرمان الحامض، فنهضوا إلى رسول الله ﷺ حاسرين أذرعهم ترعد أكفهم وأذرعهم فقالوا: تبنا إلى الله ورسوله. فقال: «أولى لكم، إن كدتم لتوجبون، أتاني الروح الأمين فقال أخرج على أمتك يا محمد فقد أحدثت»[1].

بل يتولى جبريل عليه السلام تصويب المسلمين وتسديدهم أحياناً، نحو ما قالت عائشة: فسمعت رسول الله ﷺ يقول لحسان: «إن روح القدس لا يزال يؤيدك ما نافحت عن الله ورسوله»[2].

ج - الخاصة من حيث الأمر الشرعي: وهو متابعة ألفاظ القرآن الكريم، فقد تجلى في المعارضة السنوية، وهو أنموذجه البارز، وتقدم[3].

د - العامة من حيث الأمر الشرعي: فكما سلف.

فإن جُمِعَ ما ذُكِرَ هاهنا إلى ما ذكر في الاتصال المطلق لجبريل عليه السلام بالنبي ﷺ، وَوُضِع في المسلمات أن الغاية من ذلك كله تلقي كلام الله جل وعز، والمحافظة عليه وتبليغه للأمة، علمتَ أن كلام الله جل جلاله أعلى من أن يتطرق إليه قول البشر، واجتهاد البشر، ولذا تفرد رب البشر جل وعز بالمحافظة عليه، فيثبت في الذهن بذا كلِه أن الأداء للفظ القرآني لا يتطرق إليه اجتهادٌ بشري، وإلا فما فائدة

(١) المعجم الكبير٢/ ٩٥، مرجع سابق.

(٢) صحيح مسلم ٤/ ١٩٣٦، مرجع سابق.

(٣) انظر: المبحث التاسع من الفصل الثالث ص١٧٧.

هذه المتابعة الدقيقة الهائلة؟، ويحصل اليقين باستحالة تطرق الوهم، أو الضياع، أو التضييع لكلام الله العظيم، فأين متابعةٌ كهذه المتابعة؟! فإن جُمِعَ إلى هذا ما هو مسلم من المتابعة الربانية وأنه كما قال ربه عنه ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾[الطور: ٤٨]، لم يكن للخطأ مدخلٌ لأدائه ﷺ لكلام ربه جل جلاله.

وقد كان جبريل عليه السلام يأمر رسول الله ﷺ ببعض الهيئات الجانبية التي لا تعلق لها بالقراءة لا وضعاً، ولا محلاً، ولا أداء، فيحافظ عليها، فكيف ما له تعلق بها؟، ومن ذلك ما اشتهر في علم المصطلح بالأحاديث المسلسلة بالأفعال المختلفة.

ومن بعيدٍ نراك -يا نبيَ الأمة وسيدها صلى الله عليك وآلك وسلم -، نراك هائمين محبين، ليس الهيام بك وجبريل لشخصيكما فحسب -وإن كان ذلك الهيام هو الشرف الأرفع-، ولا الحب لصحبتكما -وإن كان ذلك الحب هو السني الأعلى-، إنما الهيام والحب -مع ذلك-لاتصال أهل الأرض بخبر السماء، فيا لوعتاه على انقطاعه -وإن كان الرؤوف الرحيم لم يتركنا بعدكما عالة-، فعن أنس رضي الله عنه قال: قال أبو بكر رضي الله عنه -بعد وفاة رسول الله ﷺ - لعمر: انطلق بنا إلى أم أيمن نزورها، كما كان رسول الله ﷺ يزورها، فلما انتهينا إليها بكت. فقالا لها: ما يبكيك؟! ما عند الله خيرٌ لرسوله ﷺ. قالت: ما أبكي أن لا أكون أعلم أن ما عند الله خيرٌ لرسوله ﷺ، ولكن أبكي أن الوحي قد انقطع من السماء، فهيجتهما على البكاء، فجعلا يبكيان معها[1].

أرقت فبات ليلي لا يزولُ ... وليل أخي المصيبة فيه طولُ
وأسعدني البكاء، وذاك فيما ... أصيب المسلمون به قليلُ
فقد عظمت مصيبته، وجلت ... عشية قيل قد قُبِضَ الرسولُ
وتصبحُ أرضنا مما عراها ... تكاد بنا جوانبُها تميلُ
فقدنا الوحي والتنزيل فينا ... يروح به ويغدو جبرئيلُ

---

(١) مسلم ٤/ ١٩٠٧،مرجع سابق.

المبحث الرابع: التوقيفية في غير أداء القرآن:

يرمي هذا المبحث إلى ذكر نماذج من التوقيفية الإلهية في غير أداء القرآن الكريم، مما هو أقل شأناً من أداء اللفظ القرآني، أو مماثلٍ له في أقل الأحوال؛ وذلك تأييداً للتوقيفية في أداء اللفظ:

واشتد حرص البحث هاهنا على ما سبق من منهج البحث من أنه لا يورد إلا ما فيه ذِكْرٌ لجبريل عليه السلام بجامع أن كلاً من الأمرين (أداء اللفظ القرآني، وغيره من أمور الدين) معلمه هو جبريل عليه السلام:

أولاً: التوقيفية في تفسير آي القرآن: ومع أن حياته كلها قولاً، وفعلاً، وهيئة تفسيرٍ للقرآن، إلا أن ذلك كله بإلهام من الله وتوفيق، وتوقيف إلا فيما ندر مما يتبعه الوحي استدراكًا، أو تأييدًا[1]، وعلى الرغم من هذا كله؛ فإن تأويله للقرآن لم يكن إلا تعليمٌ من جبريل عليه السلام له فعن عائشة –رضي الله تعالى عنها– «أن النبي ﷺ كان لا يفسر شيئاً من القرآن برأيه، إلا آياً بعدد علمهن إياه جبريل»[2].

وروى الطبري مرسلاً، وابن مردويه موصولاً من حديث جابر رضي الله عنه:لما نزلت ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩] سأل جبريل عليه السلام فقال: (لا أعلم حتى أسأله) ثم رجع، فقال: (إن ربك يأمرك أن تصل من قطعك، وتعطى من حرمك، وتعفو عمن ظلمك)[3].

فإن كان ذا في التفسير، فكيف يكون الأمر في ما يتوقف عليه التفسير وهو تلقي اللفظ الذي يُراد تفسيره؟.

---

(١) وقد قال عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه للرسول ﷺ :أكتب عنك ما سمعت ؟، قال: (نعم !)، قال: قلت: في الغضب والرضى ؟ قال: (نعم !فإنه لا ينبغي لي أن أقول في ذلك إلا حقاً)، انظر: صحيح ابن خزيمة ٤/ ٢٦، مرجع سابق.

(٢) مسند أبي يعلى ٨/ ٢٣، مرجع سابق، وقال محقق الكتاب سليم حسين أسد: "إسناده ضعيف".

(٣) فتح الباري ٨/ ٣٠٦ و١٣ / ٢٥٩، مرجع سابق.

ثانياً: التوقيفية في الدعاء: بل تعدى الأمر ذلك إلى التوقيفية في طريقة الدعاء، فعن كعب بن عجرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «احضروا المنبر»، فحضرنا، فلما ارتقى درجة، قال: «آمين»، فلما ارتقى الدرجة الثانية قال: «آمين»، فلما ارتقى الدرجة الثالثة قال: «آمين»، فلما نزل قلنا: يا رسول الله! لقد سمعنا منك اليوم شيئاً ما كنا نسمعه، قال: «إن جبريل عرض لي فقال: بعداً لمن أدرك رمضان فلم يغفر له، قل: آمين، قلت: آمين، فلما رقيت الثانية قال: بعداً لمن ذكرت عنده فلم يصل عليك، قل: آمين، قلت: آمين، فلما رقيت الثالثة قال: بعداً لمن أدرك أبواه الكبر عنده أو أحدهما فلم يدخلاه الجنة، قل: آمين، قلت: آمين»[(١)]، والشاهد هنا تلقينه إياه كلمة آمين فيرددها، وأصرح من هذا في التوقيفية في الدعاء حديث الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِذَا أَتَيْتَ مَضْجَعَكَ فَتَوَضَّأْ وُضُوءَكَ لِلصَّلاَةِ ثُمَّ اضْطَجِعْ عَلَى شِقِّكَ الأَيْمَنِ ثُمَّ قُلِ اللَّهُمَّ أَسْلَمْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ لاَ مَلْجَأَ، وَلاَ مَنْجَا مِنْكَ إِلاَّ إِلَيْكَ اللَّهُمَّ آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ فَإِنْ مُتَّ مِنْ لَيْلَتِكَ فَأَنْتَ عَلَى الْفِطْرَةِ وَاجْعَلْهُنَّ آخِرَ مَا تَتَكَلَّمُ بِهِ قَالَ فَرَدَّدْتُهَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَلَمَّا بَلَغْتُ اللَّهُمَّ آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ قُلْتُ وَرَسُولِكَ قَالَ: لاَ وَنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ»[(٢)].

ثالثاً: التوقيفية في المسائل العملية الفرعية:، فعن الحارث بن عبد الله رضي الله عنه أخبره أن رسول الله ﷺ سئل عن ميراث العمة والخالة فسكت، فنزل عليه جبريل عليه السلام فقال: «حدثني جبريل أن لا ميراث لهما»[(٣)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «جاءني جبريل فقال: يا محمد! إذا توضأت فانتضح»[(١)].

---

(١) المستدرك على الصحيحين٤/ ١٧٠، مرجع سابق، وقال: "هذا حديثٌ صحيح الإسناد، ولم يخرجاه".

(٢) صحيح البخاري (١ / ٧١).

(٣) المستدرك على الصحيحين٤/ ٣٨١، مرجع سابق.

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: جاء جبريل إلى رسول الله ﷺ فذهب به ليريه المناسك، فانفرج له ثبير[2] فدخل منى، فأراه الجمار، ثم أراه عرفات، فتتبع الشيطان النبي ﷺ عند الجمرة، فرماه بسبع حصياتٍ حتى ساخ، ثم تبع له في الجمرة الثانية، فرماه بسبع حصيات حتى ساخ، ثم تبع له في جمرة العقبة، فرماه بسبع حصيات حتى ساخ، فذهب[3].

بل كان لا يحدث شيئاً يتصل بالدين من تلقاء نفسه، حتى فيما يمكن دخوله في النصوص العامة، فعن رافع بن خديج رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ بأخرة إذا اجتمع إليه أصحابه، فأراد أن ينهض قال: «سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك، وأتوب إليك، عملت سوءاً، وظلمت نفسي، فاغفر لي؛ إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت» -قال- فقلنا:يا رسول الله! إن هذه كلماتٍ أحدثتهن؟ قال: «أجل! جاءني جبريل عليه السلام فقال: يا محمد! هن كفارات المجلس»[4]، فإحداثه لهن ليس أمراً من عند نفسه كما ظهر.

وكان ﷺ يأبى الإجابة على سؤال فرعي حتى يستأمر جبريل عليه السلام فيه، كما سبق، وعن جبير ابن مطعم رضي الله عنه أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! أي البلدان شر؟ فقال: «لا أدري»، فلما جاءه جبريل عليه السلام قال: «يا جبريل! أي البلدان شر؟ قال: لا أدري حتى أسأل ربي جل جلاله، فانطلق جبريل، فمكث ما شاء الله، ثم جاء، فقال: يا محمد! إنك سألتني أي البلدان شر، فقلت: لا أدري، وإني سألت ربي جل جلاله: أي البلدان شر، فقال: أسواقها»[5].

---

(١) الجامع الصحيح سنن الترمذي١/ ٧١، مرجع سابق، وقال الترمذي: حديث غريب"، قال الشيخ الألباني: "ضعيف".

(٢) اسم جبل.

(٣) صحيح ابن خزيمة ٤/ ٣١٥ مرجع سابق.

(٤) السنن الكبرى للنسائي ٦/ ١١٣، مرجع سابق.

(٥) مسند أبي يعلى ١٣/ ٤٠٠، مرجع سابق.

فإن كان يأبى أن يفسر القرآن إلا بوحيٍ وهو فرع اللفظ، فليكن كذلك فيما هو فرع أقرب للفظ من المعنى، وهو أداء ذلك اللفظ.

وإن كان يأبى إحداث ذكرٍ يناسب الحال، وهو فرع تعقل المعنى في النصوص العامة، فكيف بفرع ألفاظ هذه النصوص العامة مما لا مجال فيه للعقل، وهو أداؤها؟.

وإن كان لا يحدث شيئاً من تلقاء نفسه في التكليفات الفرعية، فليكن الأمر كذلك في فروع الألفاظ، وجامع كل أنه فرع.

وهذا عند فقدان نصوص توقيفية الأداء، فكيف وقد اتسعت هذه النصوص حتى شملت الهيئة الشخصية للمتلقي؟[1].

ولا يعترض بأن هذا تهويلٌ لما يجانبه التهويل؛ إذ ليس خطب أداء اللفظ كخطب ما قيس عليه، لأنه يجاب بأن أداء اللفظ يحيل المعنى غالباً، إذ إن إدغام النون في الصاد من (صنوان) لتصير صوان محيلٌ لمعناها من الصنو إلى غيره، وإبدال الهمز في رئياً لتصير رياً ملبسٌ معناها بري الظمآن، بعد أن كانت صريحة في الرؤية، وكلها وجوهٌ أدائية كما هو مقرر عند علماء القراءات،؟ فلا تهويل ثمَّ، بل هو وضعٌ للأمور في نصابها[2].

المبحث الخامس: الحفظ في الصدر:

للأهمية البالغة التي نالها حفظ القرآن في الصدر من بين مفردات تلقي النبي ﷺ ألفاظ القرآن على جبريل عليه السلام ؛ فقد لزم إفراد هذا الموضوع بمبحثٍ مستقلٍ يسبر غوره، ويحلل بعض جوانبه، ولذا انعقد هذا المبحث متألفاً من مقدمة وثلاثة مطالب:

المقدمة: الواجبات التي كانت على النبي ﷺ بالنظر إلى لفظ القرآن.

المطلب الأول: تأصيل لفظة (الحفظ).

المطلب الثاني: متضَمَّنات الحفظ.

---

(١) انظر: تحليل حديث المعالجة في المبحث السادس من الفصل الثالث ص١١٣.

(٢) وقد ذُكِرَ في المبحث الثامن من الفصل الثالث ص١٦٥ أن أداء اللفظ ينقسم إلى قسمين: أصليٌ، وفرعيٌ فالأصلي يحيل تغيره المعنى قطعاً، والفرعي قد يحيل المعنى كما في الأمثلة المذكورة أعلاه، وقد لا يحيل كتعاقب الفتح والإمالة على الكلمة.

المطلب الثالث: هل كان الحفظ واجباً على النبي ﷺ؟.

المقدمة: الواجبات التي كانت على النبي ﷺ بالنظر إلى لفظ القرآن:

هي كما يلي بناءً على ما سبق:

١- سماعه ﷺ ألفاظ القرآن من جبريل عليه السلام .

٢- قراءته ﷺ كما قرأه جبريل عليه السلام (لفظاً وأداء).

٣- الحفظ للفظ القرآن الكريم.

٤- العرض السنوي (أن يعرض هو ﷺ على جبريل عليه السلام ألفاظ القرآن).

٥- المراجعة (التعاهد).

٦- التبليغ: كما قال جل وعز ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾[الشورى: ٤٨].

٧- الإقراء: وهو أخص مطلقاً من التبليغ، ومثاله ما ثبت عن عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه قال: قرأت على رسول الله ﷺ سبعين سورة [(١)]، وتقدم حديث أبي بن كعب رضي الله عنه:(أُمرت أن أقرأ عليك)، وذلك تطبيقاً لقول الله جل وعز ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [النمل: ٩١]، ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦].

وبعض هذه الواجبات قد تقدم تفصيله وذلك الواجب الأول، والثاني، والرابع، والخامس، وبعضها ليس من مدار البحث تبيينه، وذلك التبليغ والإقراء[(٢)]، فليقتصر كلام البحث هنا على الحفظ:

---

(١) قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٢/ ٢٨٨:"هو في الصحيح".

(٢) انظر: هيئة قراءة النبي ﷺ على جبريل عليه السلام من حيث الأمر الشرعي والواقع التطبيقي المبحث الثامن من الفصل الثالث ص١٤٤، ففيها تفصيلٌ لما ذُكِرَ إلا الحفظ والتبليغ، فأما الحفظ فمحل ذكره هاهنا، وأما التبليغ فليس داخلاً في نطاق البحث، وأما الإقراء فأُشيرَ إليه هناك إشارة؛ إذ ليس مداراً للبحث.

المطلب الأول: تأصيل كلمة (الحفظ):

إن أول أسس نقل القرآن الكريم هو الرواية القرائية التي تعتمد في ثبوتها ثم في قبولها على أصلين: الحفظ في الصدر (قرآن)، والحفظ في السطر (كتاب)، مع أن الثاني تابعٌ للأول، لا يستقل بذاته بخلاف الأول، ولذا كانت تسمية القرآن بالقرآن أشهر من تسميته بالكتاب.

وهذا الأساس في نقل القرآن الكريم هو غاية الأسس المنهجية لتعليم جبريل عليه السلام النبي ﷺ ألفاظ القرآن، ثم أضحى حفظ القرآن في الصدر يعد الأساس الأول في جواز نقل القرآن الكريم وإقرائه، ولذا قال أبو موسى الأشعري رضي الله عنه: «احفظوا عنا؛ كما حفظنا»(١).

وقد ورد لفظ الحفظ صريحاً موصوفاً به إيداع القرآن في الذاكرة في حديث أبي الدرداء رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من الدجال»(٢).

وورد موصوفاً به الغاية من عملية تلقي القرآن في حديث ابن عباس رضي الله عنه في نزول آيات القيامة(٣)، وهو معنى الجمع الوارد في سورة القيامة؛ إذ تفسيره بالحفظ هو قول جميع المفسرين حقيقةً أو حكماً، واستخدم المسلمون هذه اللفظة فيما يثبت في الذاكرة، فعن عمر رضي الله عنه قال: (قام فينا النبي ﷺ مقاماً، فأخبرنا عن بدء الخلق حتى دخل أهل الجنة منازلهم، وأهل النار منازلهم حفظ ذلك من حفظه، ونسيه من نسيه)(٤).

وقد صار الحفظ يطلق على ذلك، فصار حقيقةً عرفية لدى العلماء، ولذا بوب ابن حبان -رحمه الله تعالى- فقال: "ذكر استحقاق الإمامة بالازدياد من حفظ القرآن

(١) أخرجه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله ١/ ٢٨٢، وصحح محققه إسناده.
(٢) صحيح مسلم١/ ٥٥٥، مرجع سابق.
(٣) انظر: حديث المعالجة في المبحث السادس من الفصل الثالث ص١١٣.
(٤) رواه البخاري ٣/ ١١٦٦، مرجع سابق.

على القوم، وإن كان فيهم من هو أحسب وأشرف منه"[1]، ثم شاع بعد ذلك حتى صار حقيقةً عرفيةً عند عامة المسلمين، فإن أطلق لفظ (حافظ) أو (حفظ) لم ينصرف لغير حفظ القرآن، وإن أُريد به غير القرآن لم يرد على ألسنة الخاصة والعامة إلا مقيداً، فرسخ بذلك مفهوم الحفظ في الصدر عندهم كمرادف للقراءة من الذاكرة في خصوص القرآن الكريم، ولذا دعا الرسول ﷺ إلى حضهم على القراءة من المصحف التي أُطلِقَ عليها مؤخراً مصطلح (القراءة نظراً)، فقال: «من سره أن يحب الله ورسوله؛ فليقرأ في المصحف»[2]. ولعل إطلاق الحفظ على القرآن المودع في الذاكرة للربط حفظ الله للقرآن بحفظ العبد له، وأن حفظ العبد له بالمفهوم السالف الذكر مستقى منه.

ولأجل ما يحتويه مصطلح (حفظ) في هذا الباب من مُتَضَمَّناتٍ ربما لم يلتفت إليها قومٌ، وربما قلل من شأنها آخرون؛ فقد وجب أن نخوض غمارها لنعلم سر الاختيار القدري لها لترتبط بألفاظ القرآن؛ ففيه يتضح لنا دقة نقل ألفاظ القرآن إلينا، وتعليم جبريل عليه السلام للنبي ﷺ وهو الرابط بين استقصاء هذه المسألة وبين غاية البحث، على أن تحليلنا لها إنما هو كائنٌ من حيث مُتَعَلَّقها البشري لا من حيث مُتَعَلَّقها الإلهي، كما سبق في تأصيلها من حيث اللفظ.

المطلب الثاني: متضمنات الحفظ:

يتضمن (الحفظ) من حيث حقيقته اللغوية والاصطلاحية مجموعة دلالاتٍ تنحصر في التالي:

---

(١) صحيح ابن حبان ٥/ ٤٩٩، مرجع سابق.

(٢) (أبو نعيم) أحمد بن عبد الله الأصبهاني ت ٤٣٠ هـ : حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ٧/ ٢٠٩، ١٤٠٥هـ، دار الكتاب العربي- بيروت، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير ٢/ ٢٣٤، مرجع سابق.

١- **الاستظهار**[1]: وهي المرحلة الأولى من مراحل الحفظ، وتكون بوعي النص من حيث اللفظ، واستبطانه بإيداعه في الذاكرة، وينطوي الاستظهار على أمرين:

أ- التدرج في الاستظهار: ففي (مختار الصحاح): "تَحَفَّظَ الكتاب: استظهره شيئاً بعد شيء"[2].

ب - استظهاره كما هو: فلا يعتريه خللٌ في محلّه، ولا ترتيبه، وإلا لم يصدق عليه الحفظ له، بل لغيره.

٢- **الحراسة**[3]: وهي المرحلة الثانية من مراحل الحفظ، وتكون بتثبيته وحمايته من التفلت، وهي تقرب من المراجعة للمحفوظ، إلا أنها تعتبر بينها وبين مرحلة الاستظهار، والحراسة تقتضي المراقبة، والمراقبة جزءٌ من الحقيقة اللغوية لمادة حفظ، والحراسة والمراقبة ترتبط أعظم الارتباط بمفهوم الأمانة، ولأن القرآن المحفوظ بالصدر أمانةٌ؛ فإن لفظ (الحفظ) قد اتسع مفهومه ليشمل كلَّ أمانةٍ، ولذا بوب الإمام البخاري –رحمه الله تعالى-: "باب حفظ المرأة زوجها في ذات يده والنفقة"[4].

وارتبط مفهوم الحفظ بحراسة المحفوظ من أن يعتريه خللٌ، أو يلج إليه دخلٌ صغر أو كبر؛ ولذا بوب البخاري –رحمه الله تعالى-: "باب حفظ اللسان"[5]، وأورد أبو داود – رحمه الله تعالى– مجموعةُ أحاديث في ذلك، ومن حيث لفظ القرآن، فإن حفظه بهذا المعنى(الحراسة) يعنى التثبت من دقائق اللفظ، ومن ذلك ما رواه عروة بن الزبير –رحمه الله تعالى– في حديث قبض العلم: فقالت –عنى عائشة– يا ابن أختي! انطلق إلى عبد

---

(١) مختار الصحاح ص١٧٨، مرجع سابق، ففيه: وحفظه أيضا استظهره، وانظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري ٨/ ٥٦٧، مرجع سابق.

(٢) مختار الصحاح ص١٧٨، مرجع سابق.

(٣) مختار الصحاح ١٧٨، مرجع سابق ففيه: حَفِظَ الشيء بالكسر حفظا حرسه.

(٤) صحيح البخاري ٥/ ٢٠٥٢، مرجع سابق، وبوَّب أيضاً: باب حفظ السر.

(٥) صحيح البخاري ٥/ ٢٣٧٦، مرجع سابق، ومن ذلك حديث سنن أبي داود ١/ ١٢٧، مرجع سابق: «فإذا قال ذلك قال الشيطان حفظ مني سائر اليوم»، وكذلك حديث سنن أبي داود ٣/ ٢٩٨، مرجع سابق: «فقضى أنَّ حِفْظَ الحوائط بالنهار على أهلها، وأنَّ حِفْظَ الماشية بالليل على أهلها، وأنَّ على أهل الماشية ما أصابت ماشيتهم بالليل».

الله فاستثبت لي منه الذي حدثني عنه، فجئته، فسألته، فحدثني به، كنحو ما حدثني، فأتيت عائشة، فأخبرتها، فعجبت، فقالت: «والله لقد حفظ عبد الله بن عمرو»[1].

٣ - **شموله للكلي والتفصيلي من حيث اللفظ**: ففي قوله جل وعز ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (١٠) كِرَامًا كَاتِبِينَ (١١) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار:١٠-١٢]، فضمّن ﴿يَعْلَمُونَ﴾ معنى يكتبون؛إذ تلك مهمتهم الأساسية[2]، ومُسَلَّمٌ شمول ذلك للتفصيلي والإجمالي من الاسم الموصول الدال على العموم في قوله ﴿مَا﴾، واستقرار هذا العموم مقتضٍ أن يشمل هذا الحفظ أصلَ اللفظ وطريقة أدائه، وما خرج عن هذا فالمفتاح في المُخْرِج له، ومن ثم فادعاء خروج الأداء عن الحفظ، أو عن تبليغ القرآن ادعاءٌ يفتقر إلى الدليل.

المطلب الثالث: هل كان الحفظ واجباً على ﷺ؟

ويبقى بعد ما تقدم من تحليل لمدلول الحفظ: أن يجاب عن سؤال في هذا الباب هو: هل كان الحفظ لألفاظ القرآن واجباً على النبي ﷺ؟

الجواب:

نعم، كان واجباً على النبي ﷺ وجوباً مقطوعاً به، والدليل على ذلك:

١ - أول سورة نزلت عليه هي سورة اقرأ باسم ربك [3]: فبدايتها ﴿اقْرَأْ﴾، فأنى له بالقراءة وقد قال ربه جل جلاله عنه: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ [الشورى: ٥٢]، وذاك موجبٌ قراءته من حفظه، فقوله جل وعز: ﴿اقْرَأْ﴾ أمر بالقراءة، والقراءة نطقٌ بكلامٍ معينٍ مكتوب، أو محفوظٍ عن ظهر قلبٍ، والأمر بالقراءة مستعملٌ في حقيقته من الطلب لتحصيل فعلٍ في الحال أو الاستقبال، فالمطلوب أن

---

(١) صحيح البخاري ٦/ ٢٦٦٥، مرجع سابق.

(٢) لمعنى في غاية الأهمية هو أنهم يعلمون ما يكتبونه من مثقال الذر من خيرٍ أو شرٍ، فليست كتابتهم كتابةً عمياء يمكن معها خداعهم.

(٣) هذا هو الاسم المشهور عند علماء التفسير، وكذلك على ألسنة الصحابة.

يقرأ ما سيُقرأ عليه، وفي حديث عائشة –رضي الله تعالى عنها– في بدء الوحي: «فرجع بها رسول الله يرجف فؤاده»(١) أي فرجع بالآيات التي قُرِئَتْ عليه ليحفظها لا ليكتبها أي رجع متلبساً بها، أي بوعيها، وهذا يدل أن رسول الله ﷺ تلقى ما أوحي إليه، وقرأه حينئذٍ، ويزيد ذلك إيضاحاً قولها في الحديث ذاته «فانطلقت به خديجة إلى ورقة بن نوفل، فقالت له خديجة: يا ابن عم اسمع من ابن أخيك» أي: اسمع القول الذي أُوحي إليه، وهذا ينبئ بأن رسول الله ﷺ عندما قيل له بعد الغطة الثالثة ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ الآيات الخمس كان قد قرأها ساعتئذٍ، كما أمره الله جل وعز، أو حفظها على الأقل، ورجع من غار حراء إلى بيته يقرؤها، وعلى هذا يكون قول الملك له في المرات الثلاث ﴿ٱقْرَأْ﴾ إعادةٌ للفظ المنزل من الله جل جلاله، إعادةَ تكريرٍ للاستئناس بالقراءة التي لم يتعلمها من قبل(٢)، ولم يُذكَر لفعل ﴿ٱقْرَأْ﴾ مفعولٌ؛ إما لأنه نزل منزلة اللازم، وأن المقصود أوجد القراءة، وإما لظهور المقروء من المقام، وتقديره: اقرأ ما سنلقيه إليك من القرآن(٣).

فإن اعتُرِض بأن: القراءة تتحقق القراءة بكلمةٍ وكلمتين، وآيةٍ وآيتين، وسورةٍ وسورتين، فأين وجوب قراءته عليه كله، ومن ثم فأين وجوب حفظه عليه كله؟.

فالجواب مما سيأتي:

٢ – أميته ﷺ: فهو ﴿ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، وقد قال ﷺ: «إنا أمةٌ أميةٌ لا نكتب ولا نحسب، الشهر هكذا وهكذا، يعني مرة تسعة وعشرين، ومرة ثلاثين» (٤) ومن كان ذا شأنه فهو يحفظ، فلو لم يؤمر بالقراءة لكانت أميته كافيةً في وجوب الحفظ عليه.

---

(١) صحيح البخاري ١/ ٣، مرجع سابق.
(٢) وهذا المعنى لا ينافي غيره من المعاني التي لا تتضاد.
(٣) انظر: التحرير والتنوير ٣٠/ ٤٣٤، مرحع سابق.
(٤) صحيح البخاري ٢ / ٦٧٥، مرجع سابق.

ولذا كانوا يعتمدون على حفظهم للسنن النبوية؛ فقد دخل زيد بن ثابتٍ رضي الله عنه على معاوية رضي الله عنه فسأله عن حديث، فأمر إنساناً يكتبه، فقال له زيد: (إن رسول الله ﷺ أمرنا أن لا نكتب شيئاً من حديثه فمحاه)[1]، فما هم فاعلون في كلام رب البرية جل جلاله؟.

٣- مقتضى إرساله، وحقيقة وظيفته ﷺ وهو التبليغ، ورأس ما يبلغه ﷺ القرآن، وقد قال ربه جل وعز: ﴿بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة:٦٧] ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾[الشورى: ٤٨]، ولا يكون مبلغاً رسالة ربه وهو لم يُحِط بالقرآن حفظاً، أنى، وقد قال ربه جل جلاله: ﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ [المائدة: ٦٧]، وقول الله جل وعز: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾[الأنعام: ١٩] قاطعٌ لكل خطيب في هذه المسألة.

٤ - قوله جل جلاله: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾[التوبة: ٦]: وبين هذا الدليل وبين الدليل الثاني عمومٌ وخصوصٌ مطلق، فلا يَرِدُ عليه التكرار.

٥ - قوله جل وعز ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ [الأعلى: ٦]، فإنه مقتضٍ إعانة الله جل جلاله له على الحفظ، المستلزم وجوبه عليه، وتزداد قوة الحفظ كلما ازدادت أهمية المحفوظ، وليس هناك ما هو أكثر أهميةً في حياة المسلم من أهمية القرآن الكريم بَلْهَ المسلم الأول بَلْهَ الرسول ﷺ، وقد قال ابن عباس رضي الله عنه:(إنما يحفظ الرجل على قدر نيته)[2]، فكيف لو جمعت هذا إلى ما تكفل الله جل وعز به من جمع القرآن في صدر النبي ﷺ فأي حافظةٍ تلك التي سترى؟.

---

(١) سنن أبي داود ٣/ ٣١٨، مرجع سابق، وفي مسألة النهي عن كتابة حديث الرسول ﷺ ، انظر: تدريب الراوي ٢/ ٢٣٤، مرجع سابق.
(٢) الجامع لآداب الراوي والسامع٢/ ٣١٢، مرجع سابق.

٦ - قوله تعالى ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٧]: ومعنى الجملتين ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾: إن علينا جمع الوحي، وأن تقرأه، وفوق ذلك أن تبينه للناس بلسانك، أي نتكفل لك بأن يكون جمعه وقرآنه بلسانك، أي عن ظهر قلبك لا بكتابةٍ تقرؤها، بل أن يكون محفوظاً في الصدور، مبيناً لكل سامع، لا يتوقف على مراجعةٍ، ولا على إحضار مصحفٍ من قرب أو بعد. فالبيان هنا بيان ألفاظه ليس بيان معانيه لأن بيان معانيه ملازم لورود ألفاظه[1].

فبعد إلقاء جبريل عليه السلام القرآن على النبي ﷺ يكون النبي ﷺ قد حفظه في صدره، ويسهل إدراك أن قوله جل وعز ﴿فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ بمعنى أن تقرأه[2]، لا يراد منه القراءة من الأوراق، ولا من المصحف بل يعني القراءة من المحفوظ في الصدر؛ إذ لم يقرأ النبي كتاباً، وليس بقارئ، وما كان يدري ما الكتاب، وكذلك فإن جمعه في صدره يعني الحفظ في الصدر.

وهذه حقيقةٌ من حقائق الاصطلاح الشرعي في هذا الباب: أن القراءة في حق الرسول ﷺ تعني قراءته من محفوظه، كما يظهر مما سبق.

فإن اعتُرض بأن: ذا كان جائزًا أول الأمر قبل التبليغ، أما استمرار حفظه بعد فلا؟

فالجواب: إن لم يجب استمرار الحفظ، فكيف يكون التذكير الذي هو جزءٌ من ماهية التبليغ؟وقد قال الله-تعالى ذكره-في معرض حصر مهمة النبي ﷺ: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ [الغاشية: ٢١].

وعند النظر في الشريعة يستبين أن من أهم أسماء القرآن (الذكر)، والذكر عامٌ للناس كلهم ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾[النحل: ٤٤]، وخاصٌ

---

(١) انظر: التحرير والتنوير ٢٩/ ٣٥٠، مرجع سابق، وانظر: تحليل آيات القيامة في المبحث السادس من الفصل الثالث ص١١٦.

(٢) تقدم شرح الآية في حديث المعالجة في المبحث السادس من الفصل الثالث ص١١٦.

للمؤمنين ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾[ق: ٤٥]، وذلك كله مستلزمٌ للتذكير بما يريده الله جل وعز المقتضي لاستمرارية الحفظ، ولذا كان جبريل عليه السلام يدارس النبي ﷺ القرآن كل عام، فإن لم يكن هذا دليلاً على وجوب الاستمرار لحفظ القرآن فعلى ماذا يدل هذا؟.

٧ - قوله جل جلاله: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [النمل: ٩]: والحفظ لا يتم للقرآن خارج النواميس الإلهية، وذلك أمران:

أ- ما يتم بالقدرة الإلهية المحضة، وهو مشاهدٌ ملموسٌ؛ إذ قد أحاط بالكتاب الكريم من المكر الكبار ما كادت أن تميد منه الجبال، ولا تكفي القدرة الإسلامية المتمحض بشريتها لصده، خاصة في فترات الاستضعاف، وعلى الرغم من ذلك يظل الكتاب الكريم محتفظاً بثبات لفظه، وازدياد رسوخ نصه.

ب- ما شرفت الأمة بالتكليف به؛ إذ هي وارثة الكتاب، وقد قال الله جل وعز: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [فاطر: ٣٢]، ولئن استُحْفِظَ أهل الكتاب السابقين على ما نزل إليهم، لذاك كائنٌ أوجب في حقنا، وقد قال الصاوي – رحمه الله تعالى-: "سيما، وقد جعل الله له خَدَمَةً من البشر يحفظونه"(١)، وقال صاحب التحرير والتنوير: "حتى حفظته الأمة عن ظهور قلوبها من حياة النبي ﷺ"(٢)، بيد أن هذه الأمة المشرفة قد ميزها الله جل وعز بتوليه حفظ الكتاب بذاته، وواضحٌ عدم المنافاة بين ذلك وإيجاب حفظه على الأمة، بل وجوب حفظه على الأمة هو أول أدلة واقعية الحفظ الإلهي له.

وقد اتضح وجه الدلالة: من الآية على وجوب حفظ النبي ﷺ للقرآن هو: دخوله في الأمة دخولاً أولياً(٣).

---

(١) حاشية الصاوي وبهامشه تفسير الجلالين ٢/ ٣١٤، مرجع سابق.

(٢) التحرير والتنوير ١٤/ ٢٠، مرجع سابق.

(٣) وذلك بغض النظر عن الخلاف في القاعدة الأصولية في دخول النبي ﷺ في خطاب أمته، وتأتي الإشارة إليها بعد قليل.

٨ - قولـه تعـالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [طه:١١٤].

وجه الدلالة: حرصـه ﷺ علـى حفـظ القـرآن، مـع تكليفـه بالرسـالة، يسـتلزم وجوب حفظ القرآن عليه.

٩- بقاؤه ﷺ أمياً[(١)]:وذا دالٌ على وجوب ملازمة حفظه لكتاب الله جـل وعـز، للزوم استظهاره، واستدعائه متى لـزم الأمـر، لأداء رسـالة الله جـل جلالـه تبليغـاً أو

(١) وما ذهب إليه البعض من تعلمه الكتابة بعد نبوته فشذوذٌ قد نُهِيَ أولوا النهى من طلبة العلم عن تتبعه، على أن كثيراً من الشذوذ لا يُروى على وجهه، بل ينقل على الهوى العقلي أو العاطفي لناقله. ويوضح ذلك من حيث خصوص موضوعنا ما قاله ابن كثير في تفسيره ٣/ ٤، مرجع سابق: "وهكذا كان رسول الله ﷺ دائماً، إلى يوم الدين لا يحسن الكتابة، ولا يخط سطراً، ولا حرفاً بيده بل كان له كُتَّابٌ يكتبون بين يده الوحي والرسائل إلى الأقاليم، ومن زعم من متأخري الفقهاء كالقاضي أبي الوليد الباجي ومن تابعه أنه عليه السلام كتب يوم الحديبية: هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله، فإنما حمله على ذلك رواية في صحيح البخارى: "ثم أخذ فكتب"، وهذه محمولة على الرواية الأخرى: "ثم أمر فكتب"، ولهذا اشتد النكير من فقهاء المشرق والمغرب على من قال بقول الباجي، وتبرءوا منه، وأنشدوا في ذلك أقوالاً، وخطبوا به في محافلهم، وإنما أراد الرجل -أعني الباجي- فيما ظهر عنه أنه كتب ذلك على وجه المعجزة، لا أنه كان يُحْسِن الكتابة، كما قال ﷺ إخباراً عن الدجال (مكتوب بين عينه كافر)، وفي رواية (ك ف ر يقرؤها كل مؤمن)، وما أورده بعضهم من الحديث أنه لم يمت ﷺ حتى تعلم الكتابة فضعيفٌ لا أصل له، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟﴾ [العنكبوت: ٤٨] أي تقرأ ﴿مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ﴾ لتأكيد النفي ﴿وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾ تأكيد أيضاً، وخرج مخرج الغالب، كقوله تعالى ﴿وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾[الأنعام: ٣٨]، وقوله تعالى ﴿إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ أي لو كنت تحسنها لارتاب بعض الجهلة من الناس، فيقول إنما تعلم هذا من كتب قبله، مأثورة عن الأنبياء، مع أنهم قالوا ذلك مع علمهم بأنه أمي لا يحسن الكتابة ﴿وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: ٥] قال الله عز وجل ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الفرقان:٦] الآية، وقال هاهنا: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٩] أي هذا القرآن آيات بينة واضحة في الدلالة على الحق أمراً ونهياً وخبراً، يحفظه العلماء، يسره الله عليهم حفظاً وتلاوة وتفسيراً، كما قال جل في علاه ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾[القمر: ١٧]، وقال رسول الله ﷺ :(ما من نبي إلا وقد أُعْطِيَ ما آمن على مثله البشر، وإنما كان الذى أوتيته وحياً أوحاه الله إليَّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً،)". والحديث الأخير رواه البخاري ٦/ ١٦٠٧، مرجع سابق.

تذكيراً، حتى لو كان مخدعه أو مرتعه، أو مدخله أو مطلعه، أو مسكنه، أو مَرْبَعه، ولا يُعْتَرَضُ على هذا بأن الله جل وعز قد كفاه ذلك بالكتاب الذي كان يكتبه صحبه من كتبة الوحي؛ إذ محال أن يصطحب الكِتاب والكُتَّاب في كل مكان، يريد فيه التبليغ والدعوة، لا لعزتها آنها، بل لخصوصية احتياجه إلى الدعوة والتبليغ ضرورة كونه نبياً، ومن يفترضها هنا، يفترض المحال.

١٠- قوله جل وعز: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٨-٤٩]، يعني أنك لم تكن تقرأ كتاباً حتى يقول أحد: هذا القرآن الذي جاء به هو مما كان يتلوه من قبل ثم نفى الكتابة عنه، والمقصود نفي حالتي التعلم (بالقراءة والكتابة) استقصاءً في تحقيق وصف الأمية، وقوله جل جلاله ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾" أي بل القرآن آيات في صدر النبي ﷺ (١).

ولا يُعْتَرَضُ بأنه قد ورد في تفسير الذين أوتوا العلم: أصحاب النبي ﷺ ؛ لأن أول الذين أوتوا العلم هو النبي ﷺ .

١١- حديث عياض بن حمارٍ المجاشعي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم في خطبته: «ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم، مما علمني يومي هذا:كل مالٍ نحلته عبداً حلال، وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمتْ عليهم ما أحللتُ لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً، وإن الله نظر إلى أهل الأرض، فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب، وقال: إنما بعثتك لأبتليك وأبتلى بك، وأنزلت عليك كتاباً لا يغسله الماء، تقرؤه نائماً ويقظاناً..» الحديث(٢).

---

(١) انظر: التحرير والتنوير ٢١/ ١٢، مرجع سابق.

(٢) صحيح مسلم ٤/ ٢١٧٩، مرجع سابق.

قال ابن كثير: "أي لو غسل الماء المحل المكتوب فيه، لما احتيج إلى ذلك المحل، لأنه قد جاء في الحديث الآخر: «لو كان القرآن في إهاب ما أحرقته النار»، ولأنه محفوظٌ في الصدور، ميسرٌ على الألسنة، مهيمنٌ على القلوب، معجزٌ لفظاً ومعنى، ولهذا جاء في الكتب المتقدمة في صفة هذه الأمة أناجيلهم في صدورهم"(١).

وقال النووي: "أي محفوظاً في الصدور، لا يتطرق إليه الذهاب بل يبقى على ممر الزمان، «تقرؤه نائماً ويقظاناً»: أي يكون محفوظاً لك في حالتي النوم واليقظة، وقيل تقرؤه في يسر وسهولة"(٢).

وهذا نصٌ في أنه ﷺ يحفظه أمراً وإخباراً عن الواقع.

١٢ - ما كان النبي ﷺ يُجْهِدُ نفسه فيه عند تلقيه الوحي: كما تقدم في روايات حديث المعالجة(٣)، وفيها: (يحرك لسانه) يريد أن يحفظه، يعجل بقراءته ليحفظه، ولابن أبي حاتم: (يتلقى أوله، ويحرك به شفتيه خشية أن ينسى أوله، قبل أن يفرغ من آخره)، وفي مسند الحميدي: (يعجل به يريد أن يحفظ)، والحفظ منصرفٌ هنا للفظ إذ لو كان المراد المعنى لما احتاج لذاك الإجهاد.

١٣ - ومما يدل على وجوب حفظ النبي ﷺ للقرآن، حفه بالعوامل المساعدة على الحفظ، مثل تنجيم القرآن، وترتيله؛ وهو ما صرح به صاحب التحرير والتنوير حيث قال في فوائد الترتيل: "وفائدة هذا: أن يرسخ حفظه، ويتلقاه السامعون، فيعلق بحوافظهم، ويتدبر قارئه، وسامعه معانيه، كي لا يسبق لفظ اللسان عمل الفهم"(٤)، وهو تصريحٌ بأن عمل النبي ﷺ ضبط الاثنين: لفظ اللسان، وعمل الفهم.

ومن هذه العوامل المساعدة على الحفظ: التنبيه ابتداءً على صعوبة المحفوظ من حيث اشتماله على معانٍ غير متوقعة، ولا معتادةٍ في تفاصيلها، لئلا يدور بخلد الذي

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ٤٨، مرجع سابق.
(٢) شرح صحيح مسلم ١٧/ ١٨٩، ونقلها السيوطي في الديباج ٦/ ٢٢٢، مرجع سابق.
(٣) انظر: المبحث السادس من الفصل الثالث ص١١٣.
(٤) التحرير والتنوير ٢٩/ ٣١٧، مرجع سابق.

يريد الحفظ وهو (النبي) ﷺ أولاً أنها معتادة فاللسان لن يضيعها؛ فيتأهب له، ويقدره حق قدره، كما قال جل جلاله ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل:٥]، والثقل الموصوف به القول ثقلٌ مجازي لا محالة مستعارٌ لصعوبة حفظه؛ لاشتماله على معانٍ ليست من معتاد ما يجول في مدارك قومه، فيكون حفظ ذلك عسيراً على الرسول ﷺ الأمي، تنوء الطاقة عن تلقيه، فقد مهد لهذه الحقيقة بأوامر هي وسائل لتحقيق مقتضاها: من قيام ليلٍ، وترتيل قرآنٍ، فقوله جل وعز: ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل:٥] تعليلٌ للأمر بقيام الليل[1].

١٢ - الترهيب من نسيان القرآن: وإن لم يصح في عقوبةٌ ذلك حديث مرفوع[2]، فقد دخل في عموم قوله جل وعز: ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ۝١٢٥ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه:١٢٤-١٢٥][3]، وقال ابن حجر في قول البخاري-رحمه الله تعالى-: "باب نسيان القرآن، وهل يقول نسيت آية كذا وكذا": "كأنه

(١) انظر: التحرير والتنوير٢٩/ ١٦٤، مرجع سابق، ولا ينافي هذا تيسير القرآن للذكر؛ إذ هو كذلك بالنظر إلى أنه الحق الصالح برغم صغر حجمه لكل زمانٍ ومكانٍ هادياً في كل مجال، وهو كذلك بالنظر إلى من اتبع قواعده في أسلوب حفظه، ولذا أمر النبي ﷺ بتعاهده فهو أشد تفلتاً من الإبل في عقلها.

(٢) لكن قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري ٩/ ٨٦، مرجع سابق: "قد أخرج بن أبي داود من وجهٍ آخر مرسل نحوه ولفظه: (،أعظم من حامل القرآن وتاركه) -في معرض التهديد بأكبر الذنوب- ومن طريق أبي العالية موقوفاً: (كنا نعد من أعظم الذنوب أن يتعلم الرجل القرآن، ثم ينام عنه حتى ينساه) وإسناده جيد، ومن طريق ابن سيرين بإسنادٍ صحيح في الذي ينسى القرآن: «كانوا يكرهونه، ويقولون فيه قولاً شديداً»، ولأبي داود عن سعد بن عبادة مرفوعاً: «من قرأ القرآن ثم نسيه لقي الله وهو أجذم» وفي إسناده أيضاً مقال، وقد قال به من الشافعية أبو المكارم الروياني، واحتج بأن الإعراض عن التلاوة يتسبب عنه نسيان القرآن، ونسيانه يدل على عدم الاعتناء به، والتهاون بأمره".

(٣) وانظر في هذا الموضوع: تفسير ابن كثير ٤/ ١١٨، والقرطبي ١٦ / ٣٠، مرجعان سابقان، وبين أن المراد "النسيان الكامل" واصلاً حد الترك لا النسيان الذي يغلب، ومصنف ابن أبي شيبة ٦/ ١٢٤، والترغيب والترهيب ٢/ ٢٣٢، وفتح الباري ٩/ ٨٠، مرجع سابق، ونيل الأوطار ٢/ ١٦٠.

يريد أن النهي عن قول نسيت آية كذا وكذا ليس للزجر عن هذا اللفظ، بل للزجر عن تعاطي أسباب النسيان المقتضية لقول هذا اللفظ"[(١)].

والنبي ﷺ أول من يدخل في الخطاب بذلك على راجح أقوال الأصوليين[(٢)].

وبعد هذا الاستعراض لبعض أدلة وجوب حفظ النبي ﷺ لألفاظ القرآن الكريم، فإن الكلام على هذه المسألة غمطٌ لها، والتعريف بوجوب الحفظ على النبي ﷺ لألفاظ القرآن تعريفٌ بما هو كالضرورة، بل إنَّ هذه المسألة مما تصورها كافٍ في بدهية الحكم عليها، والاستدلال عليها تضييعٌ لها، إنما أُريد الإشارة المجردة؛ ليعلم الذين آمنوا كم أُحيط بألفاظ هذا الكتاب الكريم من رعاية.

---

(١) فتح الباري ٩/ ٨٥، مرجع سابق.

(٢) انظر: نثر الورود على مراقي السعود ١/ ١٨٨، مرجع سابق عند قول الناظم في باب الأمر:
وآمرٌ بلفظةٍ تَعُمَّ هلْ دخل قصداً،أو عن القصد اعتزل،
وفي ١/ ٢٦١ عند قول الناظم في باب العام:
وما يَعُمُّ يشمل الرسولا وقيل لا، ولنذكر التفصيلا
حيث ذكر الشارح في المسألة ثلاثة أقوال.

دمغ الباطل

وفيه مبحثان

وفيه يذكر الباحثُ بعضَ العوامل المقدوح بها في دقة تلقي النبي ﷺ ألفاظ القرآن الكريم من جبريل عليه السلام من منظور البحث وزاويته، فبعدما توافرت عوامل الإيجاب على تحرير متعلقات موضوع تلقي النبي ﷺ ألفاظ القرآن من جبريل عليه السلام، وجبت الإشارة إلى نفي عوامل السلب عن ذلك التلقي من حيث خصوص هذا الموضوع، فكان هذا الفصل منعقداً لهذه الغاية.

ودَحْضُ ما يقدح به في هذا الموضوع داخلٌ ضمن ما سبق، فبمجرد معرفة طبيعة الوحي القرآني، وإنزاله، وتعليمه، وتَعَلُّمِه بين النبي ﷺ وجبريل عليه السلام تُدْحضُ كل شبهةٍ، ولكن مرضى العقول، وسَقَمَة القلوب قد تعتريهم نفثات الشياطين، فيورون زَنْدَ الشبهة، ليوقعوا غيرهم في البلبلة والاضطراب التصوري لحقائق القضايا الاعتقادية، وليس الأمر مع الصنف الأول مستلزماً النقاش لفساد الأصل الذي يتكئون عليه، إلا أن النقاش يكون مع من يتأثر بعقابيل أقوالهم، وخبال زللهم، ومجموع الشبه الواردة في باب تلقي النبي ﷺ ألفاظ القرآن من جبريل عليه السلام مَرَدُّها إلى جهتين:

جهة تأثير العوامل الخارجية: على تلقي النبي ﷺ من حيث إن جبريل عليه السلام ينتمي إلى العالم الغيبي، فقد يُزْعَم أن الموحِي له قد يكون ساحراً، أو جناً، أو يؤثر هذان في النبي ﷺ حال تَلَقِّيه الوحي، فيحسب الكلمة من جبريل عليه السلام وهي من غيره، فجماع هذه العوامل هو الاتهام بالتخيل لعدم الثقة بكون المُلْقِي بالوحي هو جبريل عليه السلام لاحتمالية كونه غيره.

وجهة تأثير العوامل الداخلية: ويُراد بها ما يعتري الإنسان من ضعفٍ، وقصورٍ يؤثران على استيعابه للفظ القرآن الكريم؛ إذ لم يخرج النبي ﷺ عن طبيعته البشرية

وهو يتلقى الوحي القرآني، والنسيان والقصور البشري أنموذجان لهذا النوع من العوامل. فيتألف هذا الفصل من مبحثين:

المبحث الأول: العوامل الخارجية.

المبحث الثاني: العوامل الداخلية.

على أن شرط البحث في الكلام عن هذا الموضوع ألا يتطرق للعوامل الأخرى التي قذف بها المشركون، ولا تعلق لها بالتلقي من جبريل عليه السلام، كالاتهام بكونه ﷺ شاعراً[1]، أو كذاباً، تنزه عما يقول الظالمون، أو اتهام المسلمين بضياع شيءٍ من القرآن[2]؛ إذ الخوض في ذلك مُخْرِجٌ للبحث عما هو له، ولذا فإن حركة البحث هاهنا ستنحصر في هذا الشرط دون غيره.

المبحث الأول: دفع العوامل الخارجية:

يجمع العوامل الخارجية المقدوح بها في صحة تلقي اللفظ (التخيل)، وتنقسم إلى خمسة أقسامٍ من حيث درؤها عن صحة تلقي النبي ﷺ،ويمكن إرجاعُها إلى أمرين: عامٍ وخاصٍ من حيث درؤها عن دقة تلقي النبي ﷺ فضلاً عن صحة تلقيه، يكونان مطلبي المبحث:

المطلب الأول: دفع تهمة التخيل في تلقي ألفاظ القرآن بصفة عامة.

المطلب الثاني: دفع تهمة التخيل في تلقي ألفاظ القرآن من حيث تفصيل العوامل المظنون إحداثها التخيل.

المطلب الأول: دفع تهمة التخيل في تلقي ألفاظ القرآن بصفة عامة:

يرجع هذا الدفع إلى جميع أركان تلقي اللفظ القرآني: من اللفظ في ذاته، وطرفي الاتصال، وطبيعة الدين الإسلامي، وينحصر ذلك الدفع فيما يلي:

---

(١) ولأن الشِعْر لا يعود إلى التخيل المُلْبِس لشخصية جبريل عليه السلام بغيره، وكذلك لم يُتَكَلم عن الكهانة لأنها ترجع إلى التخيل بسبب الجن أو السحر، فتُكُلِّم عن أصلها.

(٢) انظر في هذا الباب: نكت الانتصار للباقلاني، مرجع سابق، فقد أنشأه مؤلفه لمثل ذلك.

١ - بالضمان الإلهي بالحفظ لكتابه: وهذا ضمانٌ عامٌ، إثباتاً للقرآن، ونفياً لما عداه عنه، ومستنده قوله جل وعز ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾[الحجر:٩].

وتقدم أن الحفظ يقتضي الحراسة والمراقبة[١]، وهو مدلوله هنا، وفي هذه الآية جيء بالجملة الاسمية مؤكدةً بتوكيدين، ونسب فيها الحفظ المحذوف متعلَّقه إفادةً للعموم إلى ضمير العظمة، وفي ذلك من الدلالة على الاعتناء بأمر القرآن ما فيه[٢].

٢ - بالضمان الإلهي بعدم تطرق شائبةٍ من الباطل إليه: وهذا ضمانٌ خاصٌ يدحر عوامل السلب، بعد الضمان العام بالمحافظة الشاملة لإثبات كلام الله جل وعز في كتابه، ونفي أن يتطرق إليه غيره، فكان هذا الضمان تأكيداً ثانياً على نفي عوامل السلب من أن تتطرق لكتاب الله جل جلاله، كما قال جل وعز ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ۝٤١ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤١-٤٢]، والمراد استمرار النفي، لا نفي الاستمرار[٣].

وإثبات هذا النفي يعتمد على إحدى مقدمتين:

إما أن يثبت للمدعو صدق الرسول ﷺ في دعوى الرسالة بغير بينة القرآن الكريم، لِيُصَدَّق -بعدُ- في هذا الضمان.

وإما أن يثبت للمدعو كون القرآن بلفظه، أو بمعناه، أو بهما معاً ليسا من بشرٍ، بل من الله جل جلاله من خلال بضعِ حديثٍ من القرآن يُتْلَى، فَيُصَدَّقَ الرسول ﷺ في بقية القرآن، . وقد تحققت كلا المقدمتين[٤].

٣ - بمعرفة طبيعة الوحي القرآني: إذ حقيقته كلام الله جل جلاله الذي أنزل إلى الأرض لينذر به من حضر، ومن بلغ، وهذا يقتضي الديمومة والبقاء والهيمنة، وإذا

(١) انظر: المبحث الخامس من الفصل الرابع ص٢٣٥.

(٢) انظر: روح المعاني ١٤/ ١٢، مرجع سابق.

(٣) انظر: روح المعاني ١٧/ ٢٧١، مرجع سابق.

(٤) راجع مثلاً: القاضي عياض بن موسى اليحصبي: الشفا تعريف حقوق المصطفى، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، وغيرها من كتب السيرة أو الإعجاز القرآني البياني والعلمي والتشريعي،.

كانت هذه ماهيته، فيستحيل طروء تغيير فيه من خارج مكان إنزاله، ولذا ورد في سورة التكوير الربط بين نفي ما وجه إلى الرسول الأكرم ﷺ وبين طبيعة الوحي ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾[التكوير: ٢٧]، وكذلك في سورة النجم حيث نفى طعن الطاعنين في الوحي الذي يتلوه رسول الله ﷺ بقوله جل وعز ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾[النجم: ٢-٣]، ثم بَيَّنَ طبيعة الوحي بقوله جل جلاله ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾[النجم: ٤]، فدعوى التخيل فيه مضاد لطبيعته، وهذا التقرير يكون لمن يُسَلِّمُ بالوحي ابتداء، ثم يعتريه إرجاف المرجفين؛ إذ لو استجاب للشبهة لوصل إلى خُلْفٍ من القول: بأن يُسَلِّمَ بالوحي القرآني ويعرف طبيعته، ثم ينقضه بقبول المرجفات حوله.

وما سبق كان حفظاً للمُنزل، ونفياً لأي دخل من خلال القرآن المُلْقَى، فتصوره كافٍ في نفي ما يظنه المتخرص رجماً بالغيب، وثَمَّ حفظٌ للنازل به، والمُنزل عليه، ونفيٌ لأي قدحٍ في صحة تلقي اللفظ القرآني، ودقته من خلال ذلك، وهو ما يأتي:

٤ - بتأكيد الاتصال الحسي بين جبريل عليه السلام والنبي ﷺ وهو ما تراه في قوله جل وعز: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ۝١١ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾[النجم: ١١-١٢].

فالكذب يطلق على التخيل والتلبيس من الحواس، كما يقال: كذبته عينه[1]، وهم ولجوا له من باب التخيل مجادلة أو جحوداً، إذ قراءة ﴿**تُمَارُونَهُ**﴾[2] من المراء وهي المجادلة، وقراءة ﴿**تَمْرُونَهُ**﴾من مراه إذا جحده، كأنه قال: بعضكم يجادله، وبعضكم يجحده، كما هو المعتاد في توزيع الأدوار المخطط أو التلقائي في عالم المعاندين.

(١) التحرير والتنوير ٢٦/ ٩٩، مرجع سابق.

(٢) قرأ (تمارونه) بإثبات الألف أبو عمرو وابن كثير ونافع وابن عامر وأبو جعفر وعاصم من العشرة، والبقية بحذف الألف. انظر: طيبة النشر في القراءات العشر، مرجع سابق، عند قول الناظم في سورة النجم: (تمروا تماروا حبر عم نصنا).

فالأظهر أن قوله تعالى ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴾[النجم: ١١]، تدور حول معنيين:

أحدهما: أن هذا ردٌ لتكذيبٍ من المشركين فيما بلغهم من الخبر عن رؤية النبي ﷺ الملَك جبريل عليه السلام، وهو الذي يؤذن به قوله -بعد- ﴿ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾ و﴿ال﴾ في قوله ﴿ٱلْفُؤَادُ ﴾ عوضٌ عن المضاف إليه، أي فؤاده، وعليه فيكون تفريع الاستفهام في قوله ﴿ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴾ استفهاماً إنكارياً لأنهم ماروه.

والآخر: أن يكون ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴾ تأكيداً لمضمون قوله ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ لرفع احتمال المجاز في تشبيه العرب، أي هو قربٌ حسيٌّ، وليس مجرد اتصالٍ روحاني، فيكون الاستفهام في قوله ﴿ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ﴾ مستعملاً في الفرض، والتقدير: أفستكذبونه فيما يرى بعينيه، كما كذبتموه فيما بلغكم عن الله جل وعز [(١)].

والمعنى: رآه بعينه، وعرفه بقلبه، ولم يشك في أن ما رآه حق[(٢)]، ويمكن للباحث أن يقول: إن قراءة التشديد ﴿كَذَّبَ﴾ تفيد يقينه مما رآه، وقراءة التخفيف ﴿كَذَبَ﴾ تفيد صدقه فيما نقل [(٣)]، وفي ذلك تنويهٌ بمدى الدقة، وطمأنينةٌ بحقيقة الواقع المحكي، وتعدية الفعل بحرف الاستعلاء لتضمنه معنى الغلبة أي: هبكم غالبتموه على عبادتكم الآلهة، وعلى الإعراض عن سماع القرآن، ونحو ذلك، أتغلبونه على ما رأى

---

(١) انظر: التحرير والتنوير ٢٦/ ٩٩، مرجع سابق.

(٢) انظر: البحر المحيط ٨/ ١٥٨، مرجع سابق، وقد قيل: إن المرئي هو الله جل في علاه ، ويكفيه ضعفاً حديث عائشة -رضي الله تعالى عنها- المتقدم لفظه في المبحث الأول من الفصل الثالث ص٧٧ وما قبلها-، والحديث في صحيح مسلم ١/ ١٥٩، مرجع سابق. لا جرم أن نقدم خبر عائشة على تأويل ابن عباس؛ فترجيحه ظاهرٌ من حيث إنها سألت رسول الله ﷺ ، أما ابن عباس فظاهر كلامه أنه مجرد استنتاج، فتطرق الاحتمال إلى روايات غيرها لا إلى حديثها كما هو ظاهر، وانظر: البحر ٨/ ١٥٨، مرجع سابق، تفسير ابن كثير ٤/ ٢١٠، مرجع سابق، وانظر: المبحث الأول في الفصل الثالث.

(٣) قرأ بالتثقيل هشام عن ابن عامر، وأبو جعفر من العشرة، وبقية العشرة بالتخفيف،انظر: (ابن الجزري) محمد بن محمد بن محمد بن علي ت ٨٣٣هـ: طيبة النشر في القراءات العشر ص٩٧، مرجع سابق، عند قول الناظم: (كذب الثقيل لي ثنا).

ببصره[1]، فهذا المقطع يؤكد تلقي الرسول ﷺ عن جبريل عليه السلام تلقي رؤيةٍ، وتمكنٍ ودقةٍ، لا رؤية قلبٍ، وعينٍ فحسب، وخص الفؤاد؛ لأن رؤية الفؤاد لا يتأتى معها تخيل، بخلاف رؤية العين التي قد تخدع خداع نظر[2]، وقد تقدم مراراً[3] أن رؤية النبي ﷺ لجبريل عليه السلام وسماعه له حال إلقاء الوحي يكون متصلاً بمركز السمع والبصر في الفؤاد مباشرة.

٥- برؤية النبي ﷺ لجبريل عليه السلام في صورته التي خلقه الله جل جلاله عليها عياناً كما قال جل وعز: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾ [التكوير: ٢٣]، وقال: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ [النجم:١٣]: أي إن كنتم تجحدون رؤيته ﷺ لجبريل عليه السلام في الأرض، فلقد رآه رؤية أعظم من حين يأتي إليه للوحي إذ رآه في العالم العلوي، وأكد ذلك بالقسم، فضمير الرفع في رآه عائد إلى صاحبكم، وضمير النصب عائد إلى جبريل عليه السلام، وأكد ذلك بقوله ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم:١٧]، أي: رأى جبريل عليه السلام رؤية لا خطأ فيها، ولا زيادة على وصف، أي لا مبالغة فيها[4].

ومن حكم رؤية النبي ﷺ لجبريل عليه السلام في هيئته التي خلق عليها: أن يَطْمَئِنَّ في ذاته إلى ملائكية جبريل عليه السلام فرآه على هيئته الحقيقية مرتين، وأكد ذلك بالقسم؛ إذ اللام في قوله ﴿وَلَقَدْ﴾ موطئةٌ للقسم، أي: وبالله لقد رآه[5].

فالمرة الأولى: بالأفق المبين، قيل: بعد أمر غار حراء، حين رآه على كرسيٍ بين السماء والأرض له ستمائة جناح[1]، والأفق: الفضاء الذي يبدو للعين من الكرة

---

(١) انظر: حاشية الصاوي ٤/ ١٧٥، مرجع سابق، التحرير والتنوير ٢٦/ ٩٩، مرجع سابق، وقيل: إن المراد أمر الإسراء والمعراج، والسياق وسبب السورة يُعدان ذلك، وتقدم نوع إشارة لذلك، انظر : المبحث الأول من الفصل الثالث ص٧٢.

(٢) انظر: ظلال القرآن ٦/ ٣٤٠٥، مرجع سابق.

(٣) انظر –مثلاً-: المبحث الأول من الفصل الثالث ص٧٧.

(٤) انظر: التحرير والتنوير ٢٦/ ١٠٠، مرجع سابق.

(٥) روح المعاني ٣/ ١٠٦، مرجع سابق.

الهوائية بين طرفي مطلع الشمس ومغربها من حيث يلوح ضوء الفجر ويبدو شفق الغروب، وهو يلوح كأنه قبة زرقاء، والمعنى: رآه بين السماء والأرض، وقيل في معنى الأُفق غير ذلك[2]... وأياً كان فوصفه ب ﴿ٱلۡمُبِينِ﴾ أي الأُفق الواضح البين، والمقصود: نعت الأُفق الذي تراءى فيه جبريل عليه السلام للنبي ﷺ بأنه أُفقٌ واضحٌ بينٌ لا تشتبه فيه المرئيات، ولا يتخيل فيه الخيال، وجعلت تلك الصفة علامةً على أن المرئي ملك، وليس بخيالٍ؛ لأن الأخيلة التي يتخيلها المجانين إنما يتخيلونها على الأرض تابعةً لهم على ما تعودوه من وقت الصحة[3]، وقد وصف النبي ﷺ الملَك الذي رآه عند نزول سورة المدثر بأنه على كرسيٍ بين السماء والأرض[4]، ولهذا تكرر ذكر ظهور الملَك بالأُفق في سورة النجم في قوله جل وعز ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٖ فَٱسۡتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ -إلى أن قال- ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢ وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ﴾ [النجم: ٥-١٨].

والمرة الأخرى عند سدرة المنتهى[5]، وتكرار الرؤية للتأكيد؛ لئلا يكون للوهم سبيل إلى نفسه وسائر من بلغ من الخلق أجمعين، وقد كانت الأخرى في مكانٍ لا يُشَكُّ فيه، ولا يزيغ البصر عنده، ولا يطغى.

٦ - عصمته ﷺ من التقول على الله جل وعز عمداً، أو خطأ، أو سهواً، وكل ذلك محالٌ في حقه ﷺ، وقد اجتمعت الأمة على عصمته فيما طريقه البلاغ من الأقوال، وأنه معصومٌ عن الإخبار عن شيءٍ منها بخلاف ما هو به لا قصداً ولا

(١) انظر: البخاري ١/ ٣، مرجع سابق.

(٢) انظر: التحرير والتنوير ٢٦/ ١٠٠، مرجع سابق، والغير المذكور ليس المراد منه المغايرة الكلية (التباين) بل من حيث الخصوص، أي اختلف في تحديد مكان جهة الأُفق.

(٣) التحرير والتنوير ٣٠/ ١٥٩، مرجع سابق.

(٤) انظر: البخاري ١ / ٣، مرجع سابق.

(٥) راجع: البحر المحيط ٨/ ٤٣٥، مرجع سابق.

عمداً، ولا سهواً، ولا غلطاً"[1]، ولذا قال الحلبي -رحمه الله تعالى- في سيرته: "عُلِمَ وتقرر في النفوس من عصمة الأنبياء من الشيطان، واختص نبينا ﷺ من بين سائر الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- بالختم[2] في المحل المذكور مبالغةً في حفظه من الشيطان، وقطع أطماعه"[3].

ولا يعني ذلك نفي سهوه، أو نسيانه مطلقاً، بل يحدث ذلك منه لمكان الاقتداء بما يترتب على سهوه، أو نسيانه، لكنَّ المنفي بقاء ذلك بما لا تُحْكَمُ معه كلمات الله جل وعز، وذا شبيهٌ بما كان يصدر منه ﷺ من السهو في الصلاة، فكذلك سهوه في قراءة القرآن بعد الإبلاغ، ومكان التفصيل في ذلك بعد قليل -إن شاء الله تعالى-[4].

٧ - تدخل القدرة الإلهية مباشرةً عند حصول تقول من النبي ﷺ سهواً، أو عمداً مع عدم من يستطيع إثبات ذلك التقول، وهذا تنزلاً وإلا فهو غير واقعٍ، ولا متوقعٍ، ودليله قوله جل وعز ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾[الشورى: ٢٤]. وقد شمل قوله جل جلاله ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٧]، حالة التقول عمداً، أو سهواً، وهو ما عبر عنه الشيخ إبراهيم

---

(١) الشفا تعريف حقوق المصطفى ينظر ٢/ ٢٠ وما بعدها، مرجع سابق.

(٢) يعني الخاتم الذي كان بين كتفيه ﷺ المعروف بخاتم النبوة.

(٣) (الحلبي) علي بن برهان الدين ت ١٠٤٤هـ: السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون ١/ ١٦١، دار المعرفة – بيروت ١٤٠٠هـ، وقد ألف في عصمة الأنبياء: الإمام شمس الأئمة الكردري الحنفي المتوفى سنة ٦٤٢هـ، ببخارى

كتاب: "تأسيس القواعد"، قال حاجي خليفة: "وهو كتاب عصمة الأنبياء" انظر: كشف الظنون لحاجي خليفة ١/ ٣٣٣، مرجع سابق، وفي ٢/ ١١٤١: "عصمة الأنبياء" لفخر الدين الرازي، و"عصمة الأنبياء وتحفة الاصفياء" للشيخ أحمد بن الشيخ مصلح الدين الشهير بالمركز وابن السيف الكرمياني مبوبةً على أبوابٍ ثلاثة، ومفصلةً على ستين فصلاً، كل بابٍ يحتوى عشرة فصول.

(٤) انظر: المبحث الثاني من هذا الفصل ص٢٧٥.

الكوراني -رحمه الله تعالى- بقوله: "السلطان المنفي عن العباد المخلصين، هو الإغواء أعني التلبيس المخل بأمر الدين، وهو الذي الإجماع على أن النبي ﷺ معصومٌ منه".

٨ - استحالة تغيير هيئةٍ من هيئات أدائه ﷺ فضلاً عن حرف من حروفه؛ لقوله جل وعز ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ﴾ [يونس: ١٥]، وللأمر الإلهي المقترن بالوعد في قوله جل وعز ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٧]، كما تقدم(١).

٩ - بحراسة الرسول ﷺ من أن يأتيه عدوٌ غيبيٌ يناله بسوءٍ في نفسه أو وحيه: هذه الحراسة تُثَبِّتُ قلب النبي ﷺ، وتزيد المؤمنين إيماناً، وتدحر تخرصات المشركين، وذلك كما قال جل وعز: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا﴾ [الجن: ٢٦- ٢٨].

فقوله جل وعز: ﴿فَإِنَّهُۥ﴾ عائد إلى الله جل جلاله، ﴿يَسْلُكُ﴾ وهو لا محالة عائد إلى الله جل جلاله، كما عاد إليه ضمير ﴿فَإِنَّهُۥ﴾، والثالث والرابع ضميرا ﴿مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ﴾ وهما عائدان إلى ﴿رَّسُولٍ﴾، أي فإن الله يسلك، أي يرسل للرسول ﴿رَصَدًا﴾ من بين يدي الرسول ومن خلفه، أي ملائكةٌ يحفظون الرسول ﷺ من إلقاء الشياطين إليه ما يخلط عليه ما أطلعه الله جل جلاله عليه من غيوبه، والمراد بـ﴿مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ﴾ الكناية عن جميع الجهات، والمراد من تلك الكناية السلامة من التغيير والتحريف.

---

(١) انظر: المبحث السادس من الفصل الثالث ص١١٣.

والرصد: اسم جمعٍ، ونصب على أنه مفعولٌ به للفعل ﴿يَسۡلُكُ﴾، ويتعلق ﴿لِّيَعۡلَمَ﴾ بقوله ﴿يَسۡلُكُ﴾ أي يفعل الله جل وعز ذلك ليبلغ الغيب إلى الرسول، كما أرسل إليه لا يخالطه شيء مما يُلْبِسُ عليه الوحي، ويعلم الله جل وعز أن الرسل أبلغوا ما أوحي إليهم، كما بعثه دون تغيير.

وفُهم من قوله ﴿أَن قَدۡ أَبۡلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾ أن الغيب المتُحدَث عنه هو الغيب المتعلق بالشريعة وأصولها من البعث والجزاء، ورأس ذلك الوحي القرآني، وقوله جل جلاله ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيۡهِمۡ وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا﴾ الواو واو الحال فالجملة حاليةٌ، أو أن الجملة اعتراضية؛ لأن مضمونها تذييلٌ لجملة ﴿أَن قَدۡ أَبۡلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾ أي أحاط بجميع ما لدى الرسل من تبليغ وغيره، وأحاط بكل شيءٍ مما عدا ذلك، فقوله جل جلاله ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيۡهِمۡ﴾ تعميمٌ بعد تخصيص ما قبله بعلمه، وتبليغهم ما أُرسِل إليهم، وقوله ﴿وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا﴾ تعميمٌ أشمل بعد تعميم.وعبّر عن العلم بالإحصاء على طريقة الاستعارة تنبيهاً بعلم الأشياء بمعرفة الأعداد، وذلك دالٌ على دقة وشمول العلم الإلهي[1].

وهذا الحفظ يشمل الرسول الملَكي، والرسول البشري لعموم ﴿مِن رَّسُولٍ﴾، والضمير في ﴿لِّيَعۡلَمَ﴾ صالحٌ لمعنىً آخر: هو العودة على الرسل، أي ليعلم الرسل، والمراد هنا زيادة اطمئنانهم بأن ما أمروا بتبليغه هو ذاته ما بلَّغوه لم يستطع أحدٌ أن يزيد فيه أو ينقص للحراسة الغيبية من العالم الغيبي المعادي، كما يصلح الضمير لمعنىً ثالث هو العودة على المشركين، والتقدير: ليعلم أهل الشرك أن الرسل قد أبلغوا رسالات ربهم[2].

---

(١) انظر: التحرير والتنوير ٢٩/ ١٥٤، مرجع سابق.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير ٤/ ٣٦٧، مرجع سابق.

١٠- (وهو كليةٌ لما قبله) بتفصيل صفات الرسول الذي يحمله، والرسول الذي يُبَلِّغه والتأكيد عليها: إذ يلزم عنها لذاتها نفي تسرب الخلل وهماً، أو تخيلاً، نقصاً أو زيادة، وقد تقدمت مؤهلات المعلم التي يلزم عنها لذاتها نفي كل ريبٍ، ودحر كل وسواسٍ[(١)]، كما تقدمت التهيئة الخاصة بالرسول ﷺ [(٢)].

١١- (وهو كليةٌ لما قبله أيضاً) إكمال الدين، فقد قال جل جلاله ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾ [المائدة: ٣]، وهو كافٍ في منع الزيادة أو النقصان في اللفظ، ومن ثم فلا مجال لزيادة آيةٍ أو نقصانها في القرآن إلا ما جاء من قائل هذه الآية، أي من الله جل وعز مما نزل بعد تلك الآية، والتعبير بالإكمال للدين دون الإتمام فيه مزيد مزيةٍ لأنه يعني الإكمال المطلق، أما التمام فهو التمام الإضافي النسبي.

١٢- إجمالٌ لنفي جميع العوامل: بأن يقال: الخللُ المقدوح به في تلقي اللفظ القرآني: إما أن يكون تخيلا دائماً، أو طارئاً،

فالأول وهو التخيل الدائم باطلٌ برؤية المشركين وشهادتهم؛ إذ لم ير المشركون له نداً في عقله أفيتهمونه بعد إذ بلغ أشده، وبلغ أربعين سنة؟[(٣)].

والثاني وهو التخيل الطارئ: إما أن يكون غير متعمدٍ، وإما إن يكون متعمداً.

فالأول وهو الطارئ غير المتعمد فليس إلا الجنون، أو الضلال في التفكير، فأما الجنون فهو ما قالوه ﴿مُعَلَّمٞ مَّجۡنُونٌ﴾ [الدخان:١٤] نفاه الله جل وعز عنه في سورة التكوير، ويأتي ذكره بأكثر من هذا بعد قليل[(٤)]، وأما الضلال في التفكير فنفاه عنه في

(١) انظر: الفصل الأول من هذه الدراسة ص١٤

(٢) انظر: المبحث الأول من الفصل الثاني من هذه الدراسة ص٥٠.

(٣) وفي ذلك قال النضر بن الحارث –وهو من ألد المشركين عداوة للنبي ﷺ -: "يا معشر قريش! قد نزل بكم أمرٌ ما أتيتم له بحيلةٍ بعد، قد كان محمد فيكم غلاماً حدثاً: أرضاكم فيكم، وأصدقكم حديثاً، وأعظمكم أمانة،حتى إذا رأيتم في صدغيه الشيب، وجاءكم بما جاءكم به قلتم ساحر! لا والله ما هو بساحر، وقلتم كاهن! لا والله ما هو بكاهن! وقلتم شاعر! لا والله ما هو بكاهن، وقلتم مجنون! لا والله ما بمجنون،يا معشر قريش! فانظروا في شأنكم، فإنه قد نزل بكم أمر عظيم". انظر: أنساب الأشراف للبلاذري ١/ ١٣٩.

(٤) انظر ص ٢٦٠ من هذه الدراسة.

سورة النجم؛ إذ قال: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ﴾، وبينهما تقارب؛ لأن المجنون لا يهتدي إلى وسائل الصواب، وهو معنى ﴿ضَلَّ﴾.

والثاني وهو الطارئ المتعمد: فإما أن يكون الشعر؛ كما قالوا ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ [الطور : ٣٠]، وإما أن يكون السحر؛ كما قالوا ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ [المدثر:٢٤]، وإما أن يكون الكذب؛ كما قالوا ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾ [ص: ٧]، وكلها زعمه المشركون المبطلون في رسول الله ﷺ فنفاها الله جل وعز صراحةً على وجه الخصوص في غير ما موضع كما قال جل جلاله ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾[الحاقة:٤٠-٤٢]، وعلى وجه العموم بإرجاعها إلى أصلها؛ إذ السحر والكذب ضلالٌ وغوايةٌ فنفاه في سورة النجم، والشعر المتعارف بينهم غواية كما قال جل جلاله ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ [الشعراء: ٢٢٤] أي يجبذون أقوالهم لأنها غواية[(١)]...فقد نفى عموماً وخصوصاً، وشرد بهم آراءهم، وقَذَفَ الشياطين في عقولهم.

ثم دحض أساس المتعمد بأنواعه بالتزكية له ولما ينطق به، فقال: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾[النجم: ٣]؛فإن المراد استمرار نفي النطق لا نفي استمرار النطق[(٢)]، وهنا نأخذ صراحة التوقيف في القراءة؛ فقد قال قتادة -رحمه الله تعالى- في معناها: "أي ما ينطق بالقراءة عن هواه"[(٣)].

والهوى ميل النفس إلى ما تحبه أو تحب أن تفعله دون أن تقتضيه العقل السليم... ونفى النطق عن هوىً يقتضي نفي جنس ما ينطق به عن الاتصاف بالصدور عن

(١) انظر: التحرير والتنوير ٢٦/ ٩٣، مرجع سابق.
(٢) انظر: تفسير أبي السعود ٥/ ٢١٨، مرجع سابق.
(٣) انظر: الشوكاني٥/ ١٣٠، مرجع سابق.

هوى سواء كان القرآن أو غيره، ولكن القرآن هو المقصود لأنه سبب هذا الرد عليهم[1].

المطلب الثاني: دفع تهمة التخيل في تلقي ألفاظ القرآن من حيث تفصيل العوامل المتهمة بإحداث التخيل:

وهي أربعة عوامل:

أولاً: دفع تهمة التخيل بسبب الضلالية التفكيرية:

إذ ربما قال قائل: إن اعتكافه وتحنثه ﷺ، ثم اعتزاله لعوائد قريش قد أوصله إلى خطوطٍ ضالةٍ في التفكير، وإن قصد الخير ورام الحُسْنَ، فيبدأ بكلامٍ حسنٍ لينتهي بعده إلى ما لا يُرْتضى، أو ربما سولت له عُزْلَته طَرْقاً غوياً يُحَسِّنُ ابتداءه بما يقول من بديع الكلم، ثم يستبين عِوَجُ سيره بعوج قصده، لذا كان القسم في سورة النجم كالاستئناف البياني بعد أن ذكر في سورة الطور اتهامهم إياه بما تصوره كافٍ في إبطاله، فكأن بعض القلوب قد مالت إلى النبي ﷺ ثم اعتراها التفكير المُسَطَّر قبل قليل، فكان الجواب على وسوستها:

١ - ﴿ مَاضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَاغَوَىٰ ﴾: **فالضلالة** عدم الاهتداء إلى الطريق الموصل إلى المقصود، وهو مجازٌ في سلوك ما ينافي الحق، **والغواية**: فساد الرأي وتعلقه بالباطل[2]، وفي تفسير الجلالين: "الغوى جهل عن اعتقاد فاسد"[3].

٢ - ببيان طبيعة الوحي: كما في سورة التكوير وسورة النجم، ففي سورة التكوير بَيَّن طبيعة الوحي ببيان غايته، فقال: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [التكوير: ٢٧]، وفي سورة النجم بين طبيعته من حيث إن الذكر الحق مطلقاً الذي لا شائبة ضلال

---

(١) التحرير والتنوير ٢٦/ ٩٣، مرجع سابق.

(٢) انظر: التحرير والتنوير ٢٦/ ٩٢، مرجع سابق.

(٣) تفسير الجلالين، وبهامشه حاشية الصاوي ٤/ ١٧٥، مرجع سابق، وقال الشنقيطي ٧/ ٧٠١: "الضلال يقع من الجهل بالحق، والغي هو العدول عن الحق مع معرفته، أي ما جهل من الحق، وما عدل عنه، بل هو عالمٌ متبعٌ له".

فيه، ولا غواية تعتريه لا يكون إلا عن وحي ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾[النجم: ٤]، وهو استئنافٌ بيانيٌ لجملة ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴾[النجم: ٣]؛ كأنه قيل بعد نفي الضلال، والغواية، ونفي النطق عن الهوى: فما هو الإثبات؟ ماذا هو كائنٌ إن لم يكن مفترىً، أو سحراً، أو اختلاقاً، أو أساطير الأولين؟ فقال: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾، فالضمير في ﴿هُوَ ﴾ عائدٌ إلى المنطوق به المأخوذ من فعل ينطق كما في قوله جل جلاله ﴿ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ أي العدل المأخوذ من فعل ﴿ٱعْدِلُوا۟﴾ [1]، ووضح الشوكاني - رحمه الله تعالى- ذلك بقوله: "﴿يُوحَىٰ﴾ صفةٌ لـ﴿وَحْيٌ﴾ تفيد الاستمرار التجددي، وتفيد نفي المجاز، أي هو وحيٌ حقيقةٌ لا مجرد التسمية"[2].

وقد حدث نوعُ تكرارٍ هاهنا لما سبق في رقم[3] من المطلب الأول، فإنما ارتكب ذلك للأهمية، على أن المكرر هو فحوى الفكرة، لا تفصيلها.

ثانياً:دفع تهمة التخيل بتأثير الجنون:

شهادة الخصم للرسول ﷺ كافيةٌ لدحض هذه التهمة: حيث قال جل جلاله نافياً لهذه التهمة ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴾ [التكوير: ٢٢]: ففي التعرض لعنوان الصحبة مضافةً إلى ضميرهم تكذيب لهم بألطف وجه؛ إذ هو إيماءٌ إلى أنه ﷺ نشأ بين أظهرهم من ابتداء أمره إلى الآن، فأنتم أعرف به، وبأنه ﷺ أتم الخلق عقلاً، وأرجحهم قيلاً، وأكملهم وصفاً، وأصفاهم ذهناً، فلا يسند إليه الجنون إلا من رُكِّبَ من الحمق والجنون، وبهذا أبطل قولهم إبطالاً مؤكداً ومؤيداً، فتأكيده بالقسم وزيادة الباء بعد النفي، وتأييده بما أومأ الله جل وعز إليه، ووصفه بأنَّ الذي بلَّغه صاحبُهم ﷺ، والصاحب حقيقته ذو الصحبة، وهي الملازمة في أحوال التجمع والانفراد للمؤانسة، والموافقة، ومنه قيل للزوج: صاحبة، وللمسافر مع غيره:

---

(١) كما في التحرير والتنوير ٢٦ / ٩٤، مرجع سابق.

(٢) انظر: الشوكاني٥/ ١٣٠، مرجع سابق.

صاحب، وقد يتوسعون في إطلاقه على المخالط في أحوال كثيرة، ولو في الشر[1]، ولما سبق عدل عن اسم العلم إلى وصفه ﷺ بـ﴿صَاحِبُكُمْ﴾، وقد تقرر هذا أيضاً في مقام إثبات طبيعة القرآن المجيد، وأنه منزل من عند الله جل جلاله في سورة النجم، حيث قال تعالى عنه ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾[النجم: ٢].

ثم نفى أن تكون وسوسةً ذاتيةً لأن الخلل إما من الرسول الذي حمله، أو الذي تلقاه، أو من أمرٍ خارجيٍ قذفه غيرهما بينهما، وهو الشيطان لا غير، أومن تخيلاتٍ ذاتيةٍ طرأت على التلقي من البشر، فنفى كل ذلك، وفي قوله ﴿وَمَا صَاحِبُكُم ..﴾ والمعنى: ليس القرآن من وساوس المجانين، فسلامة مُبَلِّغه من الجنون تقتضي سلامة قوله عن أن يكون وسوسةً[2].

ودُفِعت هذه التهمة ببيان طبيعة الوحي؛كما قال جل وعز عنهم ﴿مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ﴾ [الدخان: ١٤]، فأجاب جل جلاله ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾ [الطور: ٣٤]، فالمجانين يمكن تقليد كلامهم حتى على الصبيان.

ثالثاً:دفع تهمة التخيل بتأثير الجن:

وأصل هذه الشبهة في عقول أصحابها: عائدٌ إلى أمرين:

١- أن الجن عالم غيبي كالملائكة، فيحتمل عندهم أن يكون ملك الوحي من الجن لا من الملائكة لاستواء الاحتمالين؛ إذ هما غيب بالنسبة للبشر، ولذا أورد ابن الأثير -رحمه الله تعالى- رواية لحديث بدء الوحي، قالت فيها خديجة -رضي الله عنها-: (أخاف أنْ يكون عُرِض له: أي عَرَض له الجِنّ، أو أصابَه منهم مَسٌّ)[3].

(١) انظر: روح المعاني ٣٠/ ١٠٥، ونحوه عند أبي السعود ٥/ ٤٨٩، والشوكاني٥/ ٤٨١، والتحرير والتنوير ٣٠/ ١٥٧، مراجع سابقة.

(٢) انظر: التحرير والتنوير ٣٠/ ١٥٧، مرجع سابق.

(٣) النهاية في غريب الحديث ٣/ ٢١١، ولم يعثر الباحث على مخرج الحديث بهذا اللفظ بعد لأيٍ.

٢- تشبيه حالة الوحي الشديدة بحالة الكهان، قال ابن خلدون رحمه الله تعالى: "ولأجل هذه الغاية في تنزل الوحي كان المشركون يرمون الأنبياء بالجنون، ويقولون له رئيٌ أو تابعٌ من الجن، وإنما لبس عليهم بما شاهدوه من ظاهر تلك الأحوال، ومن يضلل فما له من هاد"[1]. ولذا فبعد وصف القرآن الكريم للرسول المُلْقِي، والرسول المُلْقَى عليه القرآن بصفاتهما اللائقة التي تزيل وطأة الشبهة المستحكمة لكل ذي عقل – نفى طروءَ تدخلٍ خارجيٍ يُضَيِّعُ على الملَك عليه السلام تأدية أمانته، وعلى الرسول ﷺ تبليغ وحي ربه، ولا يكون ذلك في الإنس لأنهم أضعف من أن يحصل منهم التدخل؛ إذ حوكموا إلى قوانينهم ومواضعاتهم فعجزوا، وذاك إذعانٌ للقرآن الكريم[2]، فالتدخل الخارجي لا يكون إلا من الجن. ودفع هذا العامل يكون بما سبق، بالإضافة إلى الآتي:

١- التأكيد على صدق الرؤية والاتصال الحسي بين النبي ﷺ ومعلمه الملائكي جبريل عليه السلام: وقد تمثل هذا التأكيد في عدة مظاهر تثبيتاً لقلب النبي ﷺ، ودرءاً لتكذيب المكذبين، ووسوسة المتخرصين، وهذه المظاهر تُجْمَلُ في الآتي:

أ- ببيان مكانة جبريل عليه السلام عند الله جل وعز، واستعداده الفطري والفعلي لأداء رسالة الوحي، وقد مضى تفصيل ذلك[3].

ب- النفي المؤكد المتكرر لأن يكون الوحي القرآني كلام شيطانٍ، ذلك بأن تدخل العالم الغيبي المقابل للملائكة -وهو الشياطين- آتٍ من كونهم عالماً غيبياً، ولأنهم كذلك فطريق علمهم مصدر العلم الغيبي لا ريب-وهو النقل-حيث قال جل وعز: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾[التكوير: ٢٥]، وقال في الشعراء: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾[الشعراء: ٢١٠ -٢١١].

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص٩٢، مرجع سابق.

(٢) ولما نسبوا شبهتهم إلى وضع البشر، أتوا بما أضحك عليهم الصبيان ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾[النحل: ١٠٣].

(٣) انظر: الفصل الأول ص١٤، فهو معقودٌ لذلك.

وكما في قوله جل جلاله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾ [الحج: ٥٢-٥٤]، ولتؤخذ هذه الآيات في سورة الحج نموذجاً لبيان عناصر هذا النفي، المزيل للشبهة المثبت لفؤاد المبلغ، ومن ثَمَّ لفؤاد أتباعه وطالبي الحق من بعده، وذلك بعد إكمال بقية بنود الدفع لهذه الشبهة حتى لا تنفصم عرى الأفكار المتسلسلة.

٢- بقوله تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتۡ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمۡ وَمَا يَسۡتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّمۡعِ لَمَعۡزُولُونَ﴾[الشعراء: ٢١٠-٢١٢]: وفيها منعهم منعاً جازماً من قربان الإلقاء في القرآن، ونحو قوله جل جلاله: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٖ﴾[التكوير: ٢٥] أي: إنما هو ملَك لا مثل الذي يتراءى للكهان(١).

٣- قوله ﷺ: «من رآني في المنام فقد رآني فإن الشيطان لا يتمثل في صورتي»(٢)، وليس منع الشيطان أن يأتي بصورة النبي ﷺ إلا لمكان خصوصية كونه مصدر نقل الوحي من بين البشر، فمصدر نقل الوحي السماوي أولى بالمنع، ولذا قال الآلوسي-رحمه الله تعالى-: "وإذا لم يتمثل مناماً؛ فلأن لا يتمثل يقظةً من بابٍ أولى، وعلله الشراح بلزوم اشتباه الحق بالباطل"(٣).

٤- ما قاله القاضي عياض -رحمه الله تعالى-: "لا يصح أن يتصور الشيطان بصورة الملَك ويُلبس عليه، واعلم أن الأمة مجتمعة على عصمة النبي ﷺ من الشيطان وكفايته منه... "(٤)، وقيده الشيخ إبراهيم الكوراني -رحمه الله تعالى-: بأن لا يلبس

(١) انظر: البحر المحيط ٨/ ٤٣٠، مرجع سابق.
(٢) صحيح البخاري ١/ ٥٢، مرجع سابق.
(٣) روح المعاني ١٧/ ٢٧٤، مرجع سابق، وهو بحثٌ طويل الذيل محله أصول الفقه، ومنه قرر العلماء أن الإلهام ليس مصدراً للأحكام عند غير النبي ﷺ . راجع نهاية السول ٤/ ٤٥٧، مرجع سابق، قسم الأدلة المختلف فيها، وكذلك: نثر الورود ٢/ ٢٢٥، مرجع سابق.
(٤) الشفا ٢/ ١١٧، مرجع سابق.

عليه تلبيساً قادحاً[1]، ولم يقع استقراءً، وقال ابن العربي:"تصور الشيطان في صورة الملَك ملبساً على النبي ﷺ كتصوره في صورة النبي ملبساً على الخلق"[2]، وقيده الكوراني بما قيد به كلام القاضي عياض، ولا يظهر لتقييد الكوراني وجه نظر؛ إذ من البدهي إن كان الشيطان لا يستطيع التصور بصورة النبي ﷺ ألا يستطيع التصور بصورة من هو أعلى منه من حيث مكان تلقي الوحي لا من حيث الأفضلية[3]، ولذا لا يتصور أن يأتي الشيطان بصورة ملَك؛ إذ لا تعرف حقيقة صورة الملَك، فضلاً عن رب العزة سبحانه وتعالى [4].

فإن اعتُرِض بأنه: قد عرف النبي ﷺ الهيئة الحقيقية لجبريل عليه السلام، فلا يمتنع مجيء الشيطان بها، **فالجواب:** يمتنع مجيئه من باب القياس الأولوي على النبي ﷺ كما سبق.

٥- ومما يُدْفَع به توهم الإلقاء الشيطاني في لفظ القرآن الكريم: فردانية الملَك الموكل بالوحي، وهو جبريل عليه السلام، فليس ثم ملك آخر يأتي إلى النبي ﷺ إلا عبره. وقد تقدم هذا[5].

ومن أعظم مقتضياته المنهجية: أَمْنُ أن يأتي الشيطان متقمصاً شخصية الملَك، ويزعم أنه ملك، فيصدق لعدم اطلاع النبي ﷺ على كامل العالَمين الغيبين

---

(١) روح المعاني ١٧/ ٢٦٥، مرجع سابق، وأراد أن غير القادح مثله كالنسيان الطارئ كما سيأتي تقريره – إن شاء الله- في المبحث الثاني من هذا الفصل ص٢٧٥.

(٢) (ابن العربي) أبو بكر محمد بن عبد الله: أحكام القرآن ٣/ ١٢٩٩، تحقيق: علي محمد البجاوي – دار الجيل- بيروت.

(٣) فلا يرد على الكلام هنا بحث مسألة تفضيل الملائكة والبشر، وانظرها في: شرح العقيدة الطحاوية ص٣٠١، مرجع سابق.

(٤) ويكثر في أحاديث القُصَّاص المتأخرين عن القرون الفاضلة ذكرٌ لرؤية الله سبحانه وتعالى ،وليس القَصَّاص مصدراً من مصادر المعرفة في هذا الباب، وانظر كلام الكوراني بإسهاب في: روح المعاني ١٧/ ٢٦٩، مرجع سابق.

(٥) راجع: المبحث الرابع من الفصل الأول ص٤٠.

الآخرين، ولذا فالصحيح الذي لا لبس فيه أنه لم يقترن به ملكٌ آخر غير جبريل عليه السلام كما مضى(١).

فإن اعتُرِض بما أورده ابن الأثير -رحمه الله تعالى- في النهاية؛ إذ قال: "وفيه -أي في الحديث- «يَأتينِي أنْحاءٌ من الملائكة» أي ضُروبٌ منهم، واحدُهم نَحوٌ يعني أن الملائكة كانوا يَزُورُونه سِوى جبريل عليه السلام"(٢)، فهذا يدل على تعدد الملائكة الذين يأتون النبي ﷺ.

فالجواب: هذا الحديث رواه ابن خزيمة من حديث أبي سعيد رضي الله عنه وفيه: "وقعنا في تلك البقلة الثوم، فأكلنا أكلاً شديداً -قال- وناس جياع، ثم قمنا إلى المسجد، فوجد رسول الله الريح، فقال: «من أكل من هذه الشجرة الخبيثة فلا يقربنا في مسجدنا» فقال الناس: حرمت حرمت. فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «يا أيها الناس إنه ليس لي تحريم ما أحل الله، ولكنها شجرة أكره ريحها، وإنه يأتيني أنحاءٌ من الملائكة فأكره أن يشموا ريحها»(٣)، فالشأن أولاً في صحته، وقد سكت عليه ابن حجر

---

(١) وتذكر بعض الأخبار أنه قد قُرِن به ملكٌ آخر غير جبريل عليه السلام ، ففي الطبقات الكبرى ١/١٩٠، مرجع سابق، عن عامر ؓ أن رسول الله ﷺ أُنزلت عليه النبوة، وهو ابن أربعين سنة، وكان معه إسرافيل ثلاث سنين، ثم عُزِل عنه إسرافيل، وقُرِن به جبريل عشر سنين بمكة، وعشر سنين مهاجره بالمدينة، فقبض رسول الله ﷺ وهو ابن ثلاث وستين سنة.قال محمد بن سعد -رحمه الله تعالى-:"فذكرت هذا الحديث لمحمد بن عمر - يعني الواقدي -، فقال: ليس يعرف أهل العلم ببلدنا أن إسرافيل قُرِن بالنبي ﷺ وإن علماءهم، وأهل السيرة منهم يقولون: لم يقرن به غير جبريل عليه السلام من حين أنزل عليه الوحي إلى أن قبض ﷺ.
ويكفي في الدلالة على بطلانها: قصة عبد الله بن سلام ؓ حين سأل اليهود رسول الله ﷺ عن صاحبه من الملائكة، فأخبره أنه جبريل عليه السلام ، ولو كان ثم متسعٌ لذكر غيره لذكره لنفرة يهود من جبريل عليه السلام ، ولا يعني هذا أن لا زائر له من الملائكة سوى جبريل عليه السلام ، بل تأتيه الملائكة لكن وسيطه في التعرف عليهم جبريل عليه السلام كما تقدم في الفصل الأول من هذه الدراسة ص٤٣، ونفى الآلوسي -رحمه الله تعالى- في روح المعاني ١٩/ ٢٦٣، مرجع سابق صدق اقتران إسرافيل عليه السلام في روح المعاني، فقال: "وذلك لم يثبت أصلاً".

(٢) النهاية في غريب الأثر ٥/ ٣٠، مرجع سابق.

(٣) رواه ابن خزيمة ٢/ ٣٤٥، مرجع سابق.

في التلخيص الحبير مع أن أورده عَرَضاً لا غَرَضاً، وثانياً: لا مراء في أنه كان يأتيه غير جبريل عليه السلام لكن مدار النزاع في أنه كان يأتيه من يأتيه من الملائكة دون واسطة جبريل عليه السلام فمن زعم ذلك فليبرز الدليل، فإنه قاطعٌ للتأويل، وتقدم ما يشير لتعريف جبريل عليه السلام النبي ﷺ بالملائكة الذين يأتونه[1]، كقوله «فنزل منه ملك لم ينزل»، وقوله «وأنا جبريل، وهذا ميكائيل»[2]، وسِرُّ هذا الامتناع عن مجيء الملائكة دون تعريف جبريل عليه السلام بهم: أن الملائكة عالمٌ غيبيٌ كذلك الشياطين، وقد جعل الله جل جلاله لكلٍ قدرةً على التصور والتشكل، وما قامت الدلائل على ملائكية غير جبريل عليه السلام عند رسول الله ﷺ إذ استقر في قلبه العلم اليقيني على مَلَكيته بعد أن لم يكن كذلك أول لقاء، فصار وسيطه إلى العالم الغيبي حتى لا يختلط عليه الملَك بالشيطان.

فرع: تحليل آيات سورة الحج:

وهي قوله سبحانه وتعالى ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٥٢﴾ لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ فَتُخۡبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الحج:٥٢-٥٤].

تتجلى العناصر التي تؤخذ من هذه الآيات رداً لشبهة قذف الجن بما يلي:

أ - سُننية هذه الشبهة في الأمم: فهي سنةٌ ماضيةٌ من سنن الله جل جلاله فيمن خلا ومن تلا، وذلك أنه لم يسلم نبيٌ من الأنبياء، ولا رسولٌ من الرسل من محاولة قذف الشيطان في سعيه الحثيث لأسلمة الأمة لرب العالمين، فهي شنشنة الأمم الظالمة،

(١) راجع: الفصل الأول من هذه الدراسة خصوصاً ص٤٣.

(٢) صحيح البخاري ١/ ٤٦٦، مرجع سابق.

وعادة فعل الشيطان، وذا معنى قوله جل جلاله ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾، فقوله ﴿نبيٍّ، رَسُولٍ﴾ نكرةٌ في سياق النفي فأفادت العموم، ثم أُكِّد عمومها ثانياً بحرف الجر الزائد، فـ (من) مزيدةٌ لاستغراق الجنس، فصارت نصاً مؤكّداً للعموم، ثم أُكّد ذلك ثالثاً من حيث شمول ذلك لأصناف المكلفين من الله سبحانه وتعالى بإصلاح أمور قومهم سواء كانوا أنبياء أو رسل(١)، ثم أُكّد ذلك رابعاً من القصر المستفاد من النفي والاستثناء، فهو قصر موصوفٍ على صفةٍ، وهو قصرٌ إضافيٌّ، أي دون أن نرسل أحداً منهم في حال الخلو من إلقاء الشيطان ومكره(٢)، والآية مسوقةٌ لتسلية النبي ﷺ بأن السعي في إبطال الآيات أمر معهود، وأنه لسعي مردود(٣).

ويرى المتأمل في الآية أن هذا التتابع للمؤكدات من أعظم وسائل ترسيخ اليقين بكلام رب العالمين؛ إذ يقع في فؤاد المتحمس استلزام أن تنقطع أفئدة المعاندين عن إظهار العناد على الأقل في كلام الله جل وعز، إما لضرورة غِيرة الله جل وعز على كلامه، أو لضآلة مكرهم بالغاً ما بلغ إزاء جبروت الله جل جلاله، فتتالت المؤكدات إمعاناً في ترسيخ سنن الله سبحانه وتعالى الخاصة بهذه الدار التي لا تزن عند الله جل وعز جناح بعوضة(٤).

ب- الوصف الدقيق لهيئة إفساد الشيطان عقول القوم وقلوبهم عندما يريد الأنبياء إصلاحهم: إذ إن إصلاح الناس أمر عزيزٌ عسير المنال فسماه الله جل جلاله أمنية(٥)، ثم إن الأنبياء عند ممارسته يضادهم الشيطان في سعيه الحثيث لإعدام الخير،

---

(١) اختُلِفَ في الفرق بين النبي والرسول على أقوال: من أظهرها أن الرسول من جاء بشريعة جديدة ناسخة، والنبي من جاء مجدداً للشريعة السابقة. راجع: التحرير والتنوير ١٧ /٢٩٦، روح المعاني ١٧/ ٢٥٦، تفسير أبي السعود ٤/ ٣٥ فتح القدير ٣/ ٥٧٧مجموع فتاوى شيخ الإسلام٣/ ٣٦٥، مراجع سابقة.

(٢) التحرير والتنوير ١٧/ ٢٩٩، مرجع سابق.

(٣) انظر: التحرير والتنوير ١٧/ ٢٩٩، مرجع سابق، وروح المعاني ١٧/ ٢٥٧، مرجع سابق.

(٤) إشارةً إلى الحديث المشهور، أخرجه: البخاري ٤/ ١٧٥٩، مرجع سابق، ومسلم ٤/ ٢١٤٧، مرجع سابق.

(٥) عند الآلوسي١٧/ ٢٥٧: "التمني نهاية التقدير"، قال: "والأمنية الصورة الحاصلة في النفس من التمني".

أو الحيلولة بينه وبين الناس يلقي وسوسة في نفوس الناس تفسد محاولة الإصلاح، ورشح استعارة الإلقاء -ويكون للأمر المحسوس- للأمر غير المشاهد شِدَّةُ فعله، وقوة تأثيره حتى كأنه أمرٌ محسوسٌ، وتقدير الآية: أدخل الشيطان في نفوس الأقوام ضلالاتٍ تفسد ما قاله الأنبياء من الإرشاد، ومعنى إلقاء الشيطان في أمنية النبي والرسول: إلقاء ما يضادها، كمن يمكر فيلقي السم في الدسم، فإلقاء الشيطان بوسوسته: أن يأمر الناس بالتكذيب والعصيان، ويلقي في قلوب أئمة الكفر مطاعن يبثونها في قومهم، ويروج الشبهات بإلقاء الشكوك التي تصرف نظر العقل عن تذكر البرهان، وذلك هو الصبر على الآلهة المذكور في قوله سبحانه وتعالى ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ﴾ [ص: ٦]، وقال الآلوسي -رحمه الله تعالى-: "إذا قرأ شيئاً من الآيات ألقى الشيطان الشبه والتخيلات فيما يقرؤه النبي ﷺ على أوليائه ليجادلوه بالباطل، ويردوا ما جاء به كما قال جل وعز ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ﴾[الأنعام:١٢١]، ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾[الأنعام: ١١٢]"(١).

جـ- الإلقاء الشيطاني معنويٌ وليس لفظياً: وذلك ببث الشبهات، وتضخيم الوساوس، وينفى الإلقاء اللفظي لضعف مقدرة الجن في حالتهم الغيبية عن إظهار ألفاظ يسمعها البشر في الحالات المعتادة(٢)، لا إذا تمثلوا في هيئة إنسية، فإن فعلوا فالإلقاء اللفظي عليهم أعز وأعسر من حيث خضوعهم لقوانين الطبيعة البشرية، وهاهم أشد الناس عناداً لرسول الله سبحانه وتعالى لم يستطيعوا فعل ذلك مع حرصهم كل الحرص.

---

(١) روح المعاني ١٧/ ٢٥٧، مرجع سابق.

(٢) أما في غير الحالات المعتادة فقد يستطيع الشيطان إسماع الإنسان، انظر: رفاعي سرور: عندما ترعى الذئاب الغنم ص١١٤، ط٢١٤١٢هـ-١٩٩٢، مكتبة الحرمين للعلوم النافعة.

وإذ قد تقرر أن الإلقاء معنويٌ، فلا مكان له في القدرة على الخلط في ألفاظ القرآن، ويُرَشِّحُ هذا بقوله سبحانه وتعالى ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٥].

د- الوسائل الوقائية والاجتثاثية لإلقاء الشيطان المعنوي في عقول الناس:

١- المعية العلمية الإلهية الحاكمة: إذ ليست الساحة للشيطان ليصول فيها كما يشاء، بل وجوده فيها طارئٌ نسبيٌ إذا ما قورن بعلم الله جل جلاله، ثم إن الأمر كله لله سبحانه وتعالى فهو بحكمته وتدبيره جل وعز مَكَّن الشيطان من إلقاء تلك الشبهة، ثم في حكمته في أسلوب إزالة آثاره، ومن هنا يظهر سر التذييل بقوله جل جلاله ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الحج: ٥٢]، كما أن إظهار اسم الجلالة في مقام الإضمار دالٌ على التأكيد على إرادة ذلك، ووصفه سبحانه وتعالى بوصف (فعيل) مبالغة في العلم بكل ما من شأنه أن يُعْلَم، ومن جملته ما صدر عن العباد من قول وفعل، عمداً أو خطأً[1].

٢- إزالة آثار الشبهة الشيطانية بالقدرة الإلهية المباشرة: وذلك إذا تعلق الأمر بكتاب الله جل جلاله، فالله سبحانه وتعالى بهديه وبيانه ينسخ ما يُلْقِي الشيطان، أي يزيل الشبهات التي يلقيها الشيطان ببيان الله جل وعز الواضح، ويزيد آيات دعوة رسله بياناً، وذلك هو إحكام آياته، أي تحقيقها وتثبيت مدلولها وتوضيحها بما لا شبهة بعده إلا لمن رين على قلبه[2]، قال الآلوسي -رحمه الله تعالى-: "فيبطل ما يلقيه من تلك الشبه، ويذهب به بتوفيق النبي ﷺ لرده، أو بإنزال ما يرده"[3].

---

(١) تفسير أبي السعود ٤/ ٣٤، مرجع سابق.

(٢) انظر: التحرير والتنوير ١٧/ ٢٩٩، مرجع سابق، وراجع لتفصيل خارطة عمل الشيطان: عندما ترعى الذئاب الغنم ص٢٣، مرجع سابق.

(٣) روح المعاني ١٧/ ٢٥٧، مرجع سابق.

فائدة: واستبعاد كثير من العلماء وقوع الشبهة اللفظية في القرآن الكريم دالٌ على مدى أهمية الألفاظ في مقابل المعاني في القرآن الكريم، وذلك لأن التحريف إن وقع في اللفظ فقد وقع في أصل المعنى.

٣- إحكام الله سبحانه وتعالى آياته: فيزيد جل جلاله آيات دعوة رسله بياناً،، وإحكام الآيات أهم من نسخ ما يلقي الشيطان؛ إذ بالإحكام يتضح الهُدى، ويزداد ما يلقيه الشيطان نسخاً، وصيغة المضارع في الفعلين للدلالة على الاستمرار التجددي.

٤- بيان حكمة الله سبحانه وتعالى من تمكين الشيطان من ترويج شبهاته، حتى يبقى المؤمنون على ثقةٍ بمعية الله جل وعز، وذلك ما بينه في قوله سبحانه وتعالى ﴿لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقِۭ بَعِيدٖ﴾؛ مما يزيد إيمان المؤمنين، وإخبات المخبتين.

٥- تكفل الله سبحانه وتعالى بالهداية الدائمة للمؤمنين، وبعصمة نبيهم من الخطأ في الأمر المعنوي الحال فضلاً عن الأمر اللفظي الدائم التلاوة، وعصمة مجموع الأمة عن الخطأ، يُبْعِد التَمَكّنِ من قذف أي تخيلٍ يحاوله الشيطان في ما يتلوه النبي ﷺ من الوحي؛ ومن هنا كان التذييل بقوله سبحانه وتعالى ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾، ولا يقدح في ذلك بقاء الشبهة تفعل فعلها في نفوس الذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم؛ إذ لا يزال ترددهم باقياً إلى أن تأتيهم الساعة بغتة، أو يأتيهم عذاب يوم عقيم، ولا يخل شكهم هذا بالوثوق بالقرآن عند الذين آمنوا والذين أوتوا العلم.

وبهذا التأويل يظهر مقدار جلالة السلك البديع الذي انتظمت فيه هذه الآيات[1]، ووَهَى ما أُولِع به بعض المفسرين الذين يميلون إلى الإكثار من الغرائب من إيراد قصة الغرانيق، مع أنَّ ضعفها واضح سنداً ومتناً[2]، فلا يشتغل البحث بإيرادها،

---

(١) وهو التفسير الذي رجحه بل فسر به هذه الآيات عددٌ من المفسرين منهم :الطاهر بن عاشور ١٧/ ٢٩٩، مرجع سابق، والآلوسي ١٧/ ٢٥٧، مرجع سابق، وأبو حيان ٦/ ٣٨٢، مرجع سابق، ونحوه أبو السعود ٤/ ٣٤، مرجع سابق.

(٢) على أنه يقال تنزلاً: لو صحت هذه القصة فإنه يسري عليها ما ذكر هاهنا من وسائل الاجتثاث للأمر المعنوي، إذ سريانه على الأمر اللفظي أولويٌ، كما يكون الجواب عنها بما ذكر قبل وبعد، وبما أجاب به عنها من قالوا بصحتها.

مكتفياً بالإحالة على موارد ذلك في الهامش[1]. وليس في هذا اتهامٌ للمفسرين الذين أوردوا هذه القصة؛ لأنه ليس كلهم أورد هذه القصة، ووقوع بعضهم في الغلط يوجبه النظر الشرعي والعقلي، ووَلَعُ البعض في فترةٍ بالغرائب أمرٌ متقررٌ لدارسي علم تأريخ العلوم، ومحاولة العدو الدسَّ في عقائد المسلمين فضلاً عن تراثهم في

(١) انظر: التحرير والتنوير ١٧/ ٣٠٦، مرجع سابق، وردها البيهقي وقال: "هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل"، ورده القاضي عياض في الشفا ٢/ ١١٧، مرجع سابق، وقال: "وإنما أولع به وبمثله المفسرون والمؤرخون المولعون بكل غريب، المتلقفون من الصحف كل صحيحٍ وسقيم"، وقال الآلوسي ١٧/ ٢٦٣، مرجع سابق: "وفي كتاب (الأتقياء) لأبي منصور الماتريدي: أن قوله (تلك الغرانيق العلى) من جملة إيحاء الشيطان إلى أوليائه من الزنادقة حتى يلقوا بين الضعفاء وأرقاء الدين، ليرتابوا في صحة الدين، وحضرة الرسالة بريئةٌ من هذه الرواية"، وذكر الآلوسي أوجه ردها، بعد أن فسرها بما يشبه التفسير الذي ارتضاه الباحث، وأورد هذه القصة: ابن حجر في فتح الباري ٨/ ٤٤١، مرجع سابق كالمؤيد لثبوت أصلها؟! وقال: "وكلها سوى طريق سعيد بن جبير إما ضعيفٌ، وإما منقطعٌ، لكن كثرة الطرق تدل على أن للقصة أصلاً، ،.ورد على عياض وابن العربي إبطالهما لأصل القصة، وقال في نقدهما لها: "وجميع ذلك لا يتمشى على القواعد، فإن الطرق إذا كثرت وتباينت مخارجها دل ذلك على أن لها أصلاً، وقد ذكرت أن لها ثلاثة أسانيد منها على شرط الصحيح، وهي مراسيل يحتج بمثلها من يحتج بالمرسل، وكذا من لا يحتج به لاعتضاد بعضها ببعض،ثم تأول من ظاهرِها –بعد أن سلم بأن لها أصلاً– ما يستحيل كقولهم فيها: ألقى الشيطان على لسانه، وهذا فيه غرابةٌ من حيث عدم تطبيق موازين المتن بعد تطبيق موازين السند، والقصة أوردها ساكتاً بل مقراً السيوطي –الذي يجعل ابن حجر مثله الأعلى– في شرح سنن ابن ماجة، وابن الأثير في النهاية ٣/ ٣٦٤، وابن قتيبة في تأويل مختلف الحديث ص١٧٩، مرجعان سابقان، قال الآلوسي –رحمه الله تعالى-: "وذهب إلى صحة القصة أيضاً خاتمة المتأخرين الشيخ إبراهيم الكوراني ثم المدني"، ثم قال تعقيباً على كلام الكوراني: "لكن إثبات صحة الخبر أشد من خرط القتاد، وتأويل جميع الظواهر الكثيرة لقول شرذمةٍ قليلةٍ بصحة الخبر المنافي لها مع قول جمٍ غفيرٍ بعد الفحص التام بعدم صحته مما لا يميل إليه القلب السليم ولا يرتضيه ذو الطبع المستقيم ، -ثم قال: وتوسط جمعٌ في أمر هذه القصة فلم يثبتوها كما أثبتها الكوراني، ولم ينفوها بالكلية، وإليه أميل" وقال ابن كثير٣/ ٢٠٤، مرجع سابق: "ولم أرها مسندةً بوجهٍ صحيحٍ". وقال الشوكاني في فتح القدير ٣/ ٥٧٧، مرجع سابق: "ولم يصح شيء من هذا، ولا ثبت بوجهٍ من الوجوه، ومع عدم صحته بل بطلانه فقد دفعه المحققون بكتاب الله سبحانه، قال تعالى ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٦]، وقوله ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾[النجم: ٣-٤]، وقوله ﴿وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾[الإسراء:٧٤]، فنفى المقربة للركون فضلاً عن الركون، وقال إمام الأئمة ابن خزيمة: إن هذه القصة من وضع الزنادقة "، وقال أبو حيان ٦/ ٣٨٢، مرجع سابق ناقداً إيراد المفسرين لها: "وقد ذكر المفسرون في كتبهم ما لا يجوز وقوعه من آحاد المؤمنين منسوباً إلى المعصوم صلوات الله عليه،وهي قصةٌ سئل عنها محمد بن إسحاق جامع السيرة فقال: هذا من وضع الزنادقة، وصنف في ذلك كتاباً"، وقد ألف الشيخ الألباني كتاباً في هذا الباب هو: "نصب المجانيق لنسف قصة الغرانيق".

المجالات الأُخَر، قد بدأ في فجر الإسلام، على أنه لم يستطع أن يمس لفظ القرآن، ولـذا حاول الإكثار من وضع الآثار، والأخبار الـتي يتلقفهـا فاضـلٌ وغـيره، ثـم تُتَناقَـل في حدود الغفلة الأصلية أو الطارئة عن موازين نقل الأخبار الصارمة(١).

رابعاً: دفع التخيل بشبهة السحر:

هذه مجموعة أسس بين يدي هذه المسألة:

١- لم ترتفع صبغة البشرية عن النبي ﷺ بعد نبوته بـل ظلـت هـي الأصـل فيـه، ولكنه كان يرتفع عن الصبغة البشرية في أوقات محدودة بتهيئة خاصة من الله جل وعـز له فيما يتميز فيه عن البشر وهو الوحي، وهذا معلومٌ من الدين بالضرورة، ومـن أدلـة ذلك قوله جل جلاله ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ﴾ [الكهف:١١٠]، ثم بين الجزئية الـتي تميـز بها ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾، وكقوله ﷺ: «فمن رغب عن سنتي فليس مني»(٢) في معرض الإنكار على من عد طبعه مختلفاً عن طباع البشر. ولولا هذه الحقيقـة لمـا كـان محطاً للاقتداء ﷺ.

٢- وإذا كانت هذه مسَلَّمةً دينيـة؛ فـإن الـنبي ﷺ يعتريـه مـا يعـتري البشـر مـن المرض والنصب والوصب والهم والحزن، بما لا يقدح في نبوته، ولا يمس ما أمـر بـه أن يبلغـه، وهـذا داخـل في عمـوم قولـه سـبحانه وتعـالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧].

٣- ليس مقام البحث مقاماً صـالحاً لمناقشـة مسـألة سـحر الـنبي ﷺ مـن حيـث الإثبات والنفي، وقصـارى القـول في هـذا المقـام أن تُـدحض شـبهة تـأثير السـحر في الوحي القرآني على قول من يثبت أن النبي ﷺ قد سحر(٣).

---

(١) وأنى يستغرب ذلك وقد درجت مجموعةٌ غير قليلةٍ من أفاضل المفسرين على إيراد خبر فضائل القرآن الشهير المنسوب إلى أبي ابن كعب رفعه، مثل: الكشاف للزمخشري، وكتفسير البيضاوي، والخازن.

(٢) صحيح البخاري ٥/ ١٩٤٩، مرجع سابق.

(٣) انظر في هذا الباب: تأويل مختلف الحديث ص١٨٢، مرجع سابق.

٤- من أثبت ذلك يتفق مع النفاة في عصمة النبي ﷺ وهو يلقي الوحي الإلهي قرآناً كان أو غيره من تطرق تأثير السحر عليه، واستدلوا بما رواه البخاري:عن عائشة -رضي الله تعالى عنها- قالت: سُحِر النبي ﷺ حتى كان يخيل إليه أنه يفعل الشيء وما يفعله، حتى كان ذات يومٍ دعا ودعا، ثم قال: «أشعرتِ أن الله أفتاني فيما فيه شفائي، أتاني رجلان فقعد أحدهما عند رأسي، والآخر عند رجلي فقال أحدهما للآخر: ما وجع الرجل؟ قال: مطبوب. قال: ومن طبه؟ قال: لبيد بن الأعصم. قال: في ماذا؟ قال: في مشطٍ، ومشاطةٍ، وجَفَّ طَلْعَةِ ذكْرٍ. قال: فأين هو؟ قال: في بئر ذروان». فخرج إليها النبي ﷺ ثم رجع، فقال لعائشة حين رجع: «نخلها كأنه رؤوس الشياطين. فقلت: استخرجته؟ فقال: لا، أما أنا فقد شفاني الله، وخشيت أن يثير ذلك على الناس شراً ثم دفنت البئر»[1].

وذكر الإسماعيلي مدة ذلك فروى: أنه أقام أربعين ليلة، وعند أحمد: ستة أشهر، ويمكن الجمع بأن تكون الستة أشهر من ابتداء تغير مزاجه والأربعين يوماً من استحكامه[2].

٥- السحر الذي وقع عليه ﷺ تسلط على جسده فقط، كما كانت الحمى تتسلط عليه، والسم الذي سمته به يهود، وتَسَلُّطِ السحر على جسده ظهر في عدة مظاهر، منها:

أ- كان يخيل إليه أنه يفعل الشيء ولا يفعله: كما في هذه الرواية، وصُرِّح بمدلول ذلك في رواية أخرى للبخاري، ولفظها: «حتى كان يرى أنه يأتي النساء ولا يأتيهن»، وفي لفظ: «أنه يأتي أهله ولا يأتيهم»[3]، قال المازري: "وهذا كثيراً ما يقع تخيله للإنسان في المنام، فلا يبعد أن يخيل إليه في اليقظة".

---

(١) صحيح البخاري ٣/ ١١٩٢، مرجع سابق، وانظر: تفسير ابن كثير ٤/ ٥٧٥، مرجع سابق.

(٢) فتح الباري ١٠/ ٢٢٣، مرجع سابق.

(٣) صحيح البخاري ٥/ ٢١٧٥، مرجع سابق.

ومعنى (يرى)، قال الداودي: (يـرى) بضـم أولـه: أي يظـن، وقـال ابـن الـتين: ضبطت يرى بفتح أوله، وهو من الرأي لا من الرؤية، فيرجع إلى معنى الظن(١).

ب- التسلط على بصره: ففي مرسل يحيى بـن يعمـر عنـد عبـد الـرزاق: سُـحِر النبي ﷺ: «حتى أنكر بصره»، وعنده في مرسل سعيد بـن المسـيب: «حتـى كـاد ينكـر بصره»(٢). قال عياض -رحمـه الله تعـالى-: "فظهـر بهـذا أن السـحر إنمـا تسـلط علـى جسده، وظواهر جوارحه لا على تمييزه ومعتقده"(٣).

جـ- نوع مرضٍ جسدي: فإن صون النبي ﷺ من الشياطين لا يمنع إرادتهم كيـده فقد جـاء في الصـحيح: «أن شـيطاناً أراد أن يفسـد عليـه صـلاته فأمكنـه الله سـبحانه وتعالى منه»، فكذلك السحر لم ينله من ضرره ما يدخل نقصاً على ما يتعلـق بـالتبليغ، بل هو من جنس ما كان يناله من ضرر سائر الأمـراض مـن ضـعفٍ عـن الكـلام، أو عجزٍ عن بعض الفعل، أو حدوث تخيلٍ لا يستمر، بل يزول ويبطل الله جل وعز كيـد الشياطين، واستدل ابن القصار على أن الذي أصابه كان مـن جـنس المـرض بقولـه في آخر الحديث: «أما أنا فقد شفاني الله»، وفي الاستدلال بذلك نظر لكـن يؤيـد المـدعي أن في رواية عمرة عن عائشة عند البيهقـي في الـدلائل: «فكـان يـدور، ولا يـدري مـا وجعه»، وفي حديث ابن عباس رضي الله عنه عند ابن سعد: مرض الـنبي ﷺ وأخـذ عن النساء والطعام والشراب، فهبط عليه ملكان، الحديث، قال المازري: "أنكـر بعـض المبتدعة هذا الحديث، وزعموا أنه يحط منصب النبوة ويشـكك فيهـا، قـالوا: وكـل مـا أدى إلى ذلك فهو باطل، وزعموا أن تجويز هذا يعدم الثقة بما شرعوه مـن الشـرائع؛ إذ يحتمل على هذا أن يخيل إليه أنه يرى جبريل عليه السلام وليس هو ثـم، وأنـه يُـوحَى إليه بشيءٍ، ولم يوح إليه بشيء، قال المازري: وهذا كلـه مـردودٌ؛ لأن الـدليل قـد قـام

(١) انظر ما سبق في: فتح الباري ١٠ / ٢٢٧، مرجع سابق.
(٢) انظر في تخريج الآثار السابقة: فتح الباري ١٠ / ٢٢٦، مرجع سابق.
(٣) الشفا ٢/ ١٤٧، مرجع سابق.

على صدق النبي ﷺ فيما يبلغه عن الله جل جلاله، وعلى عصمته في التبليغ، والمعجزات شاهدات بتصديقه، فتجويز ما قام الدليل على خلافه باطلٌ، وأما ما يتعلق ببعض أمور الدنيا التي لم يبعث لأجلها، ولا كانت الرسالة من أجلها فهو في ذلك عرضةٌ لما يعترض البشر كالأمراض، فغير بعيدٍ أن يخيل إليه في أمر من أمور الدنيا ما لا حقيقة له مع عصمته عن مثل ذلك في أمور الدين"[1].

وقال ابن قتيبة: "وأما قول الله جل وعز ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ﴾ [فصلت: ٤٢] فإنه سبحانه وتعالى لم يرد بالباطل أن المصاحف لا يصيبها ما يصيب سائر الأعلاق والعروض، وإنما أراد أن الشيطان لا يستطيع أن يُدْخِلَ فيه ما ليس منه قبل الوحي وبعده"[2].

هذا كلام الله الحق، وذا رسول الله ﷺ المبلغ لكلامه، وذا حفظ الله -تعالى ذكره- لكلامه، وروح القدس جبريل عليه السلام هو الواسطة؟ فأين -في الدنيا- كهذا، وذا، وذا..؟

وقال الله: قد أرسلت عبداً   يقول الحق ليس به خفاءُ
وقال الله: قد يسرت جنداً   هم الأنصار عرضتها اللقاءُ
وجبريل رسول الله فينا   وروح القدس ليس له كفاءُ

المبحث الثاني: دفع العوامل الداخلية (الذاتية):

عالج القرآن الكريم العوامل الإنسانية الذاتية التي تؤدي إلى تغيير اللفظ كإجراء ضروري للحفاظ على نصه سالماً من يمسه التغيير في أدائه فضلاً عن جوهر لفظه، وكانت معالجة الكتاب الكريم لهذه المشكلة مُبَكِّرَة، تناسب تبكيرها مع حدوث التلقي الأول للقرآن الكريم في الأرض من جبريل إلى النبي ﷺ ويأخذ المبحث نموذجين

(١) فتح الباري ١٠/ ٢٢٧، مرجع سابق.
(٢) تأويل مختلف الحديث ٣١٠، مرجع سابق.

يتنميان لهذه العوامل، للنظر في كيفية معالجة القرآن الكريم لهما في تلقي النبي ﷺ من جبريل ألفاظ القرآن الكريم، ويشكل النموذجان مطلبي هذا المبحث، وهما:

المطلب الأول: معالجة مشكلة النسيان.

المطلب الثاني: معالجة مشكلة التهمة بقصور العاطفة البشرية والتفكير البشري.

المطلب الأول: معالجة مشكلة النسيان:

النسيان: ضد الذكر والحفظ[1]، وهو عدم خطور المعلوم السابق في حافظة الإنسان برهة، أو زماناً طويلاً[2]، وقال الزركشي -رحمه الله تعالى-: "قيل السهو: الذهول عن المعلوم، وظاهر كلام اللغويين ترادفه مع النسيان"[3]، وقال ابن قتيبة -رحمه الله تعالى-: "النسيان ضد الحفظ، كقوله تعالى: ﴿فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلۡحُوتَ﴾ [الكهف: ٦٣]، وقال: ﴿لَا تُؤَاخِذۡنِي بِمَا نَسِيتُ﴾ [الكهف: ٧٣]، والنسيان الترك، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدۡ عَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبۡلُ فَنَسِيَ﴾ [طه: ١١٥] أي فترك، وقوله ﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَآ﴾ [السجدة:١٤] أي بما تركتم الإيمان بلقاء هذا اليوم ﴿إِنَّا نَسِينَٰكُمۡ﴾ أي تركناكم، وقوله ﴿وَلَا تَنسَوُاْ ٱلۡفَضۡلَ بَيۡنَكُمۡ﴾[البقرة: ٢٣٧] أي ولا تتركوا ذلك[4].

فقد جعل ابن قتيبة النسيان في حقيقته اللغوية نوعين بعد الشيوع:

ضد الحفظ، وهو المعنى الأصلي، والترك[5] الذي يجعل المتروك كالمنسي، فهو تركٌ كليٌّ فقد صار في حقيقته نسياناً بعلاقة الغياب، إلا أن الغياب في النسيان مؤقتٌ،

---

(١) انظر: لسان العرب١٤/ ١٣٢، مرجع سابق.

(٢) التحرير والتنوير ٣٠/ ٢٨٠، مرجع سابق.

(٣) البحر المحيط ١/ ٨٠، مرجع سابق.

(٤) تأويل مشكل القرآن ص٣٩٠، مرجع سابق.

(٥) وانظر فتح الباري ٩/ ٨٠، مرجع سابق.

والغياب في الترك كليٌّ من حيث التذكر للمنسي لا من حيث الوجود في الحافظة، وعند إضافة مفهوم كلام اللغويين إلى ذلك نجد أن النسيان لا يكون إلا في شيءٍ معلومٍ.

ويكمن دفع هذا العامل في لفظ القرآن، وأدائه عن تلقي الرسول ﷺ فيما تلقاه من جبريل عليه السلام في البنود التالية:

١- قد اتضح من خلال ما سبق أن معالجة هذه المشكلة ظهر من أول نزول القرآن الكريم، كما مر ذلك عند تحليل حديث المعالجة وغيره، فقد كانت المعالجة لقضية النسيان في المرحلة المكية، ولبدهية هذه الحقيقة استدل على أن سورة الأعلى مكية بورود ما يدل على معالجة مشكلة النسيان فيها، وهو قوله سبحانه وتعالى ﴿سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ [الأعلى: ٦]؛ إذ إن ما اشتملت عليه من المعاني يشهد لكونها مكية، "وحسبك بقوله تعالى ﴿سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾"(١)، فقد صارت الآيات المعالِجة لهذه المشكلة مقياساً لمعرفة المكي والمدني.

٢- من أبرز الآيات التي عالجت هذه المشكلة آيات سورة الأعلى، وكتقريرٍ للحقيقة السابقة فسورة الأعلى ثامنةٌ بحسب ترتيب النزول عند جابر بن زيد، وروي عن ابن عباس وعكرمة والحسن –رضي الله تعالى عنهم– أنها سابعة(٢).

٣ - لأن مشكلة النسيان مشكلة فطريةٌ تتعلق بخلق الإنسان فقد ربط القرآن الكريم بينها وبين القوانين التي وضعها خالق الإنسان في الكون، ثم في الإنسان، ومن هنا ندرك سراً من أسرار الاستهلال في سورة الأعلى بجذب النظر إلى الآيات الكونية، وخلق الله جل وعز لها، ثم تحكمه بها، فمتى ما شاء اطردت تلك القوانين، ومتى ما شاء منعها من الاطراد، وعطلها عن السريان؛ فإذا أراد الإنسان التخلص من مشكلة النسيان، فليسبح باسم ربه الأعلى الذي بيده مقاليد أمر الخلق، وأسبابه، وقوانينه، والذي تعالى عن أن يحكمه شيء، أو يعجزه أمر؛ إذ يغدو القضاء على مشكلة النسيان

(١) التحرير والتنوير ٣٠ / ٢٧٢، مرجع سابق.

(٢) انظر: الإتقان ص٢١، مرجع سابق.

آيةٌ في ذاته تخالف قوانينها، القوانين المألوفة عند البشر، وإن كانت تسير وفق قوانين أخرى في ذاتها[^1]؛ وإذ هي كذلك آية فلا بد لتحقيقها من إذن الله سبحانه وتعالى الذي يشمل أمره الابتدائي وإذنه المستمر ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [غافر:٧٨]، والافتتاح بأمر النبي ﷺ بأن يسبح اسم ربه بالقول، يؤذن بأنه سيلقي إليه عقبه بشارةً وخيراً له، وذلك قوله جل جلاله ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ الآيات، ففيه براعة استهلال[^2]، وفيه قال القرطبي:"وهذه بشرى من الله تعالى، بشره بأن أعطاه آية بينة، وهي أن يقرأ عليه جبريل عليه السلام ما يقرأ عليه من الوحي، وهو أميٌّ لا يقرأ، ولا يكتب، فيحفظه ولا ينساه"[^3]، "وهي بشرى لأمته من ورائه، تُطَمْئِنُ بها إلى أصل هذه العقيدة؛ فهي من الله جل جلاله، والله كافلها وحافظها في قلب نبيها"[^4].

وفي هذا تأكيدٌ على المصدرية الإلهية.

٤- ولإزالة أي آثارٍ تشكيكيةٍ نابعةٍ من احتمال نسيان الرسول ﷺ لشيءٍ من الوحي، فقد قُطِّعتْ أنواط هذه المشكِّكات بتقعيدين: عامٍ وخاصٍ:

فأما العام فهو: عصمة الشرع الإسلامي المطهر من غوائل النقص، والتغيير، والنسيان، من حيث كونه شرعاً إلهياً خاتماً تكفل منزله بالحفاظ عليه، ثم من حيث كونه شرعاً ميسراً، ومن أهم أوجه تيسيره: تيسير المحافظة عليه، ولذا قال سبحانه وتعالى: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ﴾[الأعلى:٨]، فاشتمل الكلام على تيسيرين:

تيسير ما كُلِّفَ به النبي ﷺ أي جعله يسيراً مع وفائه بالمقصود، فمما ذكره القرطبي في تأويلها قوله: "أي نهون عليك الوحي، حتى تحفظه وتعمل به"[^5].

[^1]: (١) قرر الإمام الشاطبي في الموافقات أن الخوارق ليست خارجةً عن جملة قوانين الكون، وإن كانت خارجةً عن مألوف القوانين المعروفة لنا، انظر الموافقات ١/ ٣٧٤، مرجع سابق عند كلامه على الأحكام الوضعية.
[^2]: (٢) انظر: التحرير والتنوير ٣٠ / ٢٧٢، مرجع سابق.
[^3]: (٣) تفسير القرطبي٢٠/١٨، مرجع سابق، ونحوه في الكشاف٤/ ٢٠٤، مرجع سابق.
[^4]: (٤) ظلال القرآن ٦/ ٣٨٩٢، مرجع سابق.
[^5]: (٥) تفسير القرطبي ٢٠/١٨، مرجع سابق.

وتيسير النبي ﷺ للقيام بما كُلِّفَ به، حيث قال الآلوسي: "نوفقك توفيقاً مستمراً للطريقة اليسرى في كل بابٍ من أبواب الدين، علماً، وتعليماً، واهتداء، وهداية، فيندرج فيه تيسير تلقي طريقي الوحي"[(١)].

فقوله جل وعز: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ﴾[الأعلى:٨]:

مستعارٌ للتهيئة، والتسخير، أي نهيئك للأمر اليسير في أمر الدين، وعواقبه من تيسير حفظ القرآن لك، وتيسير الشريعة، .

أو يكون المعنى: ونيسر لك اليسرى على القلب، وفي وصفها باليسرى إيماءٌ إلى أنها يسرى من حيث ذاتها، فلم يبق إلا حفظه من الموانع التي يشق معها تلقي اليسرى.

٥ - وأما التقعيد الخاص فهو الوسيلة التي تقضي قضاءً مبرماً على مشكلة نسيان الرسول ﷺ للقرآن الكريم بعد أن يلقيه علي جبريل عليه السلام قبل أن يبلغه، إذ تكفل الله جل وعز بتعطيل قانون النسيان في ذات الرسول ﷺ في هذه المرحلة، وفي المعجم الكبير للطبراني ما يزيد حديث ابن عباس رضي الله عنه في المعالجة إيضاحاً في هذا الموضوع، فقد قال ابن عباس رضي الله عنه: (كان النبي ﷺ إذا أتاه جبريل عليه السلام بالوحي لم يفرغ حتى يَزْمُل[(٢)] من الوحي، حتى يتكلم النبي ﷺ بأوله مخافة أن يغشى عليه)، فقال له جبريل:لم تفعل ذلك؟ قال:مخافة أن أنسى فأنزل الله جل جلاله ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾"، ولذا قرر الشوكاني أن: "السهو والنسيان فيما طريقه البلاغ غير جائز"[(٣)]، وقد سبق تعميم هذه الجزئية في عصمته ﷺ[(٤)].

---

(١) روح المعاني ٣٠/ ١٩٢، وانظر الكشاف ٤/ ٢٠٤، مرجع سابق.

(٢) زمل يزمل زمالاً: عدا وأسرع معتمداً على أحد شقيه رافعاً جنبه الآخر، انظر: لسان العرب ٦/ ٨١، مرجع سابق.

(٣) فتح القدير ٣/ ٥٧٩، مرجع سابق.

(٤) انظر: المبحث الأول من هذا الفصل ص٢٥٣.

وفي قوله جل جلاله ﴿سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾"، الفاعل ضمير مستتر تقديره نحن يعود على الله جل جلاله، وفي ذلك فوائد:

أولها: التكفل بإقرائه ﷺ، وذلك ضمان بأن يصل إلى النبي ﷺ كما أراد الله سبحانه وتعالى أن يصل لا كما تتحمله قوى البشر، فإيثار وصف ﴿ٱلۡأَعۡلَى﴾ في هذه السورة لأنها تضمنت التنويه بالقرآن والتثبيت على تلقيه.

وثانيها: دفع فطرة النسيان الخلقي في الرسول ﷺ في فترة إلقاء القرآن عليه إلى أن يبلغه، فهذا موقع البيان الصريح بوعده بأنه سيعصمه من نسيان ما يقرئه، فيبلغه كما أوحي إليه ويحفظه من التفلت عليه[1].

وثالثها: أن التكفل بالأمرين تكفلٌ إلهيٌ مباشِرٌ ليس لجبريل عليه السلام فيه شيءٌ إلا قراءة القرآن عليه لحكمةٍ عظيمةٍ هي تثبيت مبدأ التلقين في نقل القرآن الكريم، وقد مضت الإشارة إليها[2]، أما إقراؤه بمعنى جمع القرآن في صدره، ودفع النسيان عنه في الفترة المذكورة فأمرٌ إلهيٌ محضٌ، ودليله ما سبق[3]، والضمير في قوله سبحانه وتعالى ﴿سَنُقۡرِئُكَ﴾، وما ذكر في تحليل آيات سورة القيامة[4]، ومبدأ استشعار المصدرية الإلهية.

فقد تعين أن قوله سبحانه وتعالى ﴿سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾[الأعلى: ٦] وعد من الله جل جلاله بعونه على حفظ جميع ما يُوحَى إليه[5]، وافتتاح سورة الأعلى بقوله ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾[الأعلى: ٢-٣] مُؤْذِنٌ بتقرير الحقيقة السابقة من حيث كمال التقرير؛ "لأن لهذين الوصفين مناسبة بما اشتملت عليه السورة، فإن الذي يسوي

(١) انظر: التحرير٣٠/ ٢٧٩، مرجع سابق.

(٢) انظر: المبحث السابع من الفصل الثالث ص١٣٥ وما بعدها.

(٣) انظر: حديث المعالجة في المبحث السادس من الفصل الثالث ص١١٣.

(٤) انظر: المبحث السادس من الفصل الثالث ص١١٦.

(٥) انظر: التحرير٣٠/ ٢٧٩، مرجع سابق.

خلق النبي ﷺ تسويةً تلائم ما خلقه لأجلـه مـن تَحَمُّـلِ أعبـاء الرسـالة، لا يفوتـه أن يهيئه لحفظ ما يوحيه إليه، وتيسيره عليه، وإعطائـه شـريعةً مناسـبةً لـذلك التيسـير"[1]، وقال الإمام الآلوسي: " ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ بيانٌ لهدايته تعالى شـأنه الخاصـة برسـوله، إثر بيان هدايته العامة لكافة مخلوقاتـه سـبحانه، وهـي هدايتـه لتلقـي الـوحي وحفـظ القرآن"[2]، أي سنقرئك فلا تنسى أصلاً من قوة الحفظ والإتقان، مع أنك أمـيٌ لم تكـن تدري ما الكتاب، وما القراءة، ليكون ذلك لك آيةً مع ما في تضـاعيف مـا تقـرأه مـن الآيات البينات"[3].

٦- إذا كانـت آيـات سـورة القيامـة قـد أرسـت أسـاس جمـع القـرآن في صـدر النبي ﷺ بأن يلقيه عليه جبريل عليه السلام، وحددت لـه قواعـد الـتلقين؛ فـإن هـذه الآيات ترسي أساس بقاء ذلك المُلْقَى إلى حين أدائه تبليغاً للناس، وإنمـا ابتـدئ بقولـه ﴿سَنُقْرِئُكَ﴾ تمهيداً للمقصود الذي هو ﴿فَلَا تَنسَىٰٓ﴾، وإدماجاً، للإعلام بـأن القـرآن في تزايدٍ مستمرٍ، فإذا كان قد خاف من نسيان بعض ما أُوحي إليه على حـين قلتـه؛ فإنـه سيتتابع ويتكاثر فلا يخشى نسيانه، فقد تكفل له عدم نسيانه مع تزايده، والسين علامـة استقبال مدخولها، فهي دالةٌ على أن الإقراء يستمر، ويتجدد، وقوله ﴿فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ خـبرٌ مرادٌ به الوعد والتكفل له بذلك[4].

---

(١) التحرير٣٠/ ٢٧٩، مرجع سابق.

(٢) وقريبٌ من هذا قرر الإمام الشوكاني في فتح القدير ٤/ ٥٢٢، مرجع سابق، والصاوي في حاشيته٤/ ٤١١، مرجع سابق، وتفسير أبي السعود ٥/ ٥١٧، مرجع سابق.

(٣) روح المعاني ٣٠/ ١٨٨، مرجع سابق، ولعله نقل هذه العبارات من أبي السعود ٥/ ٥١٨، مرجع سابق.

(٤) انظر: التحرير والتنوير ٣٠/ ٢٨٠، مرجع سابق، وانظر: روح المعاني ٣٠/ ١٨٨، مرجع سابق، فقد ذكر قولاً غريباً في معنى ﴿سَنُقْرِئُكَ﴾ هو تعلم النبي القراءة دون كتابة، ثم رده، وقيل: إن قوله تعالى ﴿فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ نهي، أو خبر أريد به النهي وهو قول ضعيف مردود، انظر: القرطبي٢٠/ ١٩، مرجع سابق، وروح المعاني ٣٠/ ١٨٨ مرجع سابق.

على أنه يُلمَحُ من خلال الوعد بذلك الأمر بما تضمنه الوعد، ولعل هذا هو مراد من فسر الآية بالنهي، إذ الوعد لا ينفي الأمر بفعل الأسباب التي تؤدي إلى عدم النسيان بل هو مقتضٍ له.

٧ - وحتى لا يخرج الرسول ﷺ عن صفاته البشرية بهذه الكفالة الإلهية، فقد أُخِذتْ هذه الكفالة الإلهية قدرها الضروري، وذلك من وقت سماع النبي ﷺ القرآن من جبريل عليه السلام إلى الانتهاء من تبليغه، وحفظه بوسائل الحفظ من قراءة، وكتابة بحيث لا يمكن نسيانه من مجموع الأمة لكفالة الله جل جلاله لها بالعصمة عن الخطأ، فإذا ما تم ذلك فإن النبي ﷺ يعود إلى حالته الطبيعية البشرية فيعتريه النسيان، وهذا هو معنى الاستثناء في قوله جل وعز: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي أن بعض القرآن ينساه النبي ﷺ إذا شاء الله أن ينساه، ويدخل في هذا: نوعان يرجعان إلى الحقيقة اللغوية لمادة "نسي":

أولهما: النسخ في العمل: وسماه الآلوسي: (نفي نسيان المضمون)، فقال: "أي سنقرئك القرآن فلا تغفل عنه، فتخالفه في أعمالك"[(١)]، وقال القرطبي:"وقيل: النسيان بمعنى الترك، أي يعصمك من أن تترك العمل به، لا ما شاء الله أن تتركه لنسخه إياه، فهذا نسخ في العمل"[(٢)]، وقال به الجنيد، وأقره ابن كيسان النحوي[(٣)]، ويجعل هذا المفهوم للنسيان في حيز الثبات ما قرره أحمد بن يحيى ثعلب في قول الله جل جلاله ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة:٦٣]: "لا ينسى الله عز وجل، إنما معناه تركوا الله فتركهم، فلما كان النسيان ضرباً من الترك وضعه موضعه، وقوله تعالى: ﴿فَنَسِيَهَا﴾

(١) تفسير روح المعاني٣٠/١٨٨، مرجع سابق، وانظر: تفسير الطبري ٣٠/ ١٥٤، مرجع سابق، فإنه أورد أسماء القائلين بالنسخ العملي.
(٢) تفسير القرطبي ٢٠/١٩، مرجع سابق.
(٣) لسان العرب١٤/ ١٣٢، مرجع سابق.

﴿وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ﴾ [طه:١٢٦] أي تركتها فكذلك تترك في النار"([1])، ومثله قوله تعالى ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡ﴾، وقوله -تعالى ذكره- ﴿وَلَا تَنسَوُاْ ٱلۡفَضۡلَ بَيۡنَكُمۡ﴾[البقرة: ٢٣٧].

ويُرَسِّخ هذا المفهوم في معنى النسيان المستثنى مطابقته، لقوله -تعالى ذكره-: ﴿مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا نَأۡتِ بِخَيۡرٖ مِّنۡهَآ أَوۡ مِثۡلِهَآ﴾ [البقرة: ١٠٦]، قال ابن منظور: "﴿نُنسِهَا﴾ أي نأمركم بتركها، يقال أنسيته أي أمرت بتركه، ونسيته تركته، ثم نقل عن الفراء نحواً من التقرير السابق"([2]).

وثانيهما: ما يعرض نسيانه للنبي ﷺ نسياناً مؤقتاً: كشأن عارض الحوافظ البشرية، ثم يقيض الله جل جلاله له ما يُذَكِّرُه به، ففي صحيح البخاري عن عائشة -رضي الله تعالى عنها- قالت: سمع النبي ﷺ رجلاً يقرأ من الليل بالمسجد فقال: «يرحم الله فلاناً! لقد أذكرني كذا وكذا آية أسقطتهن، أو كنت أنسيتها من سورة كذا وكذا»([3])، وفيه أيضاً: أن رسول الله ﷺ أسقط آيةً في قراءته في الصلاة فسأله أبي بن كعب: أَنُسِخَتْ؟ فقال: «نسيتها»([4]).

فدخل في هذا قول من قال: "الاستثناء بمعنى القلة"([5])، وتظهر بذلك مناسبة قوله جل جلاله ﴿إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ وَمَا يَخۡفَىٰ﴾[الأعلى: ٧] تذييلاً للجملة السابقة في أن ما يقرؤه النبي ﷺ من القرآن هو من قبيل الجهر فالله سبحانه وتعالى يعلمه، وما ينساه فيسقطه

---

(١) لسان العرب١٤/ ١٣٢، مرجع سابق.

(٢) لسان العرب١٤/ ١٣٢، مرجع سابق، وذهب إلى أن معنى الآية يشير إلى النسخ قتادة والحسن وغيرهما، انظر روح المعاني ٣٠/ ١٨٨، مرجع سابق، وحكاه صاحب الكشاف قولاً ٤/ ٢٠٤، مرجع سابق، وارتضاه في تفسير الجلالين وأيده الصاوي في حاشيته عليهما ٤/ ٤١١، مرجع سابق، وكذا في البحر المحيط ٧/ ٤٥٨، مرجع سابق، وانظر تفصيل تلك الأقوال في: فتح القدير ٤/ ٥٢٣، مرجع سابق.

(٣) رواه البخاري ٥/ ٢٣٤٥، مرجع سابق.

(٤) رواه البخاري ٥/ ٢٣٤٦، مرجع سابق.

(٥) راجع: التحرير والتنوير ٣٠/ ٢٨١، مرجع سابق، وروح المعاني ٣٠/ ١٩٠، مرجع سابق، وانظر: ابن كثير ٤/ ٤٢٨، مرجع سابق.

هو من قبيل الخفي، فيعلم الله جل جلاله أنه اختفى في حافظته حين القراءة، فلم يبرز إلى النطق به[(١)]، وقال القرطبي: "الجهر ما حفظته من القرآن في صدرك، وما يخفى هو ما نسخ من صدرك"[(٢)].

وعدم جواز نسيانه على مجموع الأمة، هو ما عبر عنه القرطبي بعدم النسيان الكلي في قوله: "وقيل إلا ما شاء الله أن ينسى، ثم يذكر بعد ذلك، فإذاً قد نسي، ولكنه يتذكر ولا ينسى نسياناً كلياً"[(٣)]، وقال عنه الآلوسي: "ثم إنه ﷺ لا يقر على نسيانه القليل أيضاً، بل يذكره الله تعالى أو يُيَسِّرُ من يُذَكِّرُه، ثم إن المراد من نفي نسيان شيءٍ من القرآن:نفي النسيان التام المستمر مما لا يقر عليه ﷺ "[(٤)]، وقرر الإمام النووي ذلك فقال: "قوله ﷺ «كنت أنسيتها» دليل على جواز النسيان عليه ﷺ فيما قد بَلَّغه إلى الأمة، وقال القاضي عياض: "جمهور المحققين: جواز النسيان عليه ابتداءً، فيما ليس طريقه البلاغ، واختلفوا فيما طريقه البلاغ والتعليم، ولكن من جوَّز قال: لا يُقَر عليه، بل لا بد أن يتذكره، أو يذكره"[(٥)].

وقال الإسماعيلي:"النسيان من النبي ﷺ لشيء من القرآن يكون على قسمين:

أحدهما: نسيانه الذي يتذكره عن قرب، وذلك قائم بالطباع البشرية، وعليه يدل قوله ﷺ في حديث ابن مسعود رضي الله عنه في السهو: «إنما أنا بشر مثلكم أنسى كما تنسون»[(٦)].

---

(١)انظر: التحرير والتنوير ٣٠/ ٢٨٢، مرجع سابق.

(٢)تفسير القرطبي ٢٠ / ٢١، وأشار الزمخشري إلى نحو من ذلك ٤/ ٢٠٤، مرجع سابق.

(٤) تفسير القرطبي ٢٠/ ١٩، مرجع سابق، وبهذا التقرير يُجْمَعُ بين الأقوال المختلفة في معنى قوله سبحانه وتعالى : ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ حال كون هذه الجملة القرآنية تتسع لكل تلك التآويل، وتحتملها من حيث الأصيل الشرعي واللغوي، وبذا لا يكون مبررٌ لاستظهار الإمام الطاهر بن عاشور -رحمه الله تعالى- لكون معنى الاستثناء ينصرف إلى النسخ في التلاوة، انظر: التحرير والتنوير ٣٠/ ٢٨٠، مرجع سابق. وثَمَّ قولان ضعيفان ذكرهما القرطبي في آخر تأويل هذه الجملة ٢٠ / ١٩، مرجع سابق.

(٤) روح المعاني ٢٠/ ١٩٠، مرجع سابق.

(٥) شرح صحيح مسلم ٦/ ٣٢٣، مرجع سابق.

(٦) البخاري ٢/ ٩٠٠، مرجع سابق.

والثاني: أن يرفعه الله عن قلبه[1].

فأما القسم الأول فعارض سريع الزوال لظاهر قوله سبحانه وتعالى ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾[الحجر:٩] "[2]، وقال ابن حجر:"وفي الحديث حجة لمن أجاز النسيان على النبي ﷺ فيما ليس طريقه البلاغ مطلقاً، وكذا فيما طريقه البلاغ، لكن بشرطين: أحدهما أنه بعدما يقع منه تبليغه، والآخر أنه لا يستمر على نسيانه، بل يحصل له تذكره، إما بنفسه، وإما بغيره، فأما قبل تبليغه فلا يجوز عليه فيه النسيان أصلاً، وزعم بعض الأصوليين وبعض الصوفية أنه لا يقع منه نسيان أصلاً، وإنما يقع منه صورته ليُسَنَّ -أي ليُشَرِّع لمن بعده من المسلمين ما يصنعون إن وقع لهم النسيان، قال عياض: لم يقل به من الأصوليين أحدٌ إلا أبو المظفر الاسفراييني، وهو قولٌ ضعيفٌ"[3].

فقد تضافرت[4] عبارات العلماء على جواز النسيان غير الكلي على النبي ﷺ، وإنما أُكثر من إيرادها للأهمية.

وبهذا التقرير يُجْمَعُ بين الأقوال المختلفة في معنى قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ حال كون هذه الجملة القرآنية تتسع لكل تلك التآويل، وتحتملها من حيث الأصيل الشرعي واللغوي، وبذا لا يكون مبرر لصاحب التحرير والتنوير -رحمه الله تعالى- لكون معنى الاستثناء ينصرف إلى النسخ في التلاوة[5].

---

(١) يعني كنسخ العمل المذكور.

(٢) فتح الباري ٩/ ٨٦، مرجع سابق، والذي قرأ بضم أوله من غير همزة هم الكوفيون وابن عامر ونافع من السبعة، وقرأ أبو عمرو وابن كثير بفتح أوله بهمزة ﴿ **ننسأها**﴾ انظر: متن الشاطبية في القراءات السبع، مرجع سابق عند قول الناظم في فرش سورة البقرة: (وننسخ به ضم وكسر كفى، وننسها مثله من غير همز ذكت إلى).

(٣) فتح الباري ٩/ ٨٦، مرجع سابق.

(٤) فائدة: تضافر وتظافر وتظاهر بمعنىً واحد هو التعاون والاجتماع. انظر: لسان العرب ٨/ ٧١، مرجع سابق.

(٥) انظر: التحرير والتنوير ٣٠/ ٢٨٠، مرجع سابق. وثم قولان ضعيفان ذكرهما القرطبي في آخر تأويل هذه الجملة ٢٠/ ١٩، مرجع سابق.

وعلى هذا التقرير يحمل قول الفراء-رحمه الله تعالى- في وجه الاستثناء: "﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾[الأعلى: ٧] وهو لم يشأ أن تنسى شيئاً، كقوله سبحانه وتعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ [هود: ١٠٧]، ولا يشاء[1]، ويقال في الكلام: لأعطينك كل ما سألت إلا ما شئت، وإلا أن أشاء أن أمنعك، والنية على أن لا يمنعه شيئاً، فعلى هذا مجاري الأيمان، يستثنى فيها، ونية الحالف التمام"[2]؛ إذ لا وجه لنفي النسيان مطلقاً[3]، وقد ثبت من طريقٍ صحيحٍ، إلا على سبيل نفي النسيان الكلي كما سبق تقريره، وكما يُحْمَلُ عليه قوله ﷺ في حديث بدء الوحي الذي رواه الحارث في مسنده: «فما نسيت شيئاً بعد»[4].

ومن أعظم فوائد الاستثناء ومقتضياته المنهجية في تعليم القرآن الكريم ما قرره الآلوسي من: "أن الله -تعالت قدرته- يُعْلِمُ عباده بضعفهم وقدرته، حتى يعلم النبي ﷺ أن عدم النسيان من فضله تعالى، وإحسانه لا من قوته، أي حتى يتقوى على ذلك جداً، أو ليعرف غيره ذلك"[5].

---

(١) أظهر منه قوله تعالى: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٦]، ولم يشأ -سبحانه- ذلك، وصرَّح بذلك من أئمة اللغة أبو إسحاق، ثم ذكر في توجيه الآية قريباً مما قُرِّر هاهنا فقال: "ويجوز أن يكون (إلا ما شاء الله) مما يلحق بالبشرية، ثم يتذكر بعد، ليس أنه على طريق السلب للنبي ﷺ شيئاً أوتيه من الحكمة". انظر: لسان العرب ١٤/ ١٣٢، مرجع سابق، وانظر في ورود كلام مستثنى منه ولا يقتضي التحقق: شرح العقيده الطحاوية ص٤٢٥، مرجع سابق.

(٣) (الفراء) أبي زكريا يحي بن زياد ت ٢٠٧هـ: معاني القرآن ٣/ ٢٥٦ دار السرور – تحقيق: أحمد يوسف نجاتي، محمد علي النجار، وقريبٌ منه قول من قال: "الاستثناء بمعنى القلة، وأريد بها النفي مجازاً، وقيل الكلام عليه من باب: ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم..." انظر: روح المعاني ٣٠/ ١٩٠، مرجع سابق.

(٣) حتى أن الإمام أبا حيان -رحمه الله تعالى- في البحر المحيط ٨/ ٤٥٨، مرجع سابق، نعى على من زعم أن الاستثناء غير مراد، وقال: "يجعل الاستثناء كلا استثناء، وهذا لا ينبغي أن يكون في كتاب الله، ولا في كلام فصيح"، وهو كلامٌ فصيحٌ، ولكن يسَّاقط تثريبه، ثم تثريب الآلوسي -رحمه الله تعالى- عليه بما جُمِع به بين تلك الأقوال في التقرير أعلاه.

(٤) مسند الحارث ٢/ ٨٦٧، مرجع سابق.

(٥) انظر: روح المعاني ٣٠ / ١٩١، مرجع سابق، وانظر: البحر المحيط ٨/ ٤٣٠، مرجع سابق.

وهو تأكيدٌ على المصدرية الإلهية، ومقتضياتها.

المطلب الثاني: معالجة مشكلة التهمة بقصور العاطفة البشرية، والتفكير البشري:

أما العاطفة البشرية التي يحتمل اتهام الرسول ﷺ بها فيمكن أخذ التهمة بالخوف من عدم قبول الكفار لبعض القرآن نموذجاً؛ إذ قد يُتهم بأن ذلك دفعه إلى كتم بعض القرآن، وهو ربما الذي دفع بعض القُصَّاص المتأخرين ليدبجوا مهازيل من الأحاديث بأن النبي ﷺ كان يود ألا ينزل ما ينفر الكفار منه.

فيؤخذ هذا النموذج في نفي هذه التهمة:

حيث يقول الله جل وعز ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾[التكوير: ٢٤]، وقد ورد في هذه الآية تأويلان بحسب القراءتين الواردتين فيها(١)، وكل قراءةٍ تتضمن معنىً ثانياً بحسب النظر إلى حرف الاستعلاء (على)، فصارت هذه الكلمة نافية لأربعة معانٍ، ترجع إلى الشبهة المذكورة في المطلب بأعظم الأساليب إعجازاً:

فالقراءة الأولى ﴿بِضَنِينٍ﴾ أي ببخيلٍ، بل هو مُبَلِّغٌ الوحيَ كله، و﴿بِظَنِينٍ﴾ بمتهمٍ، فنفى الله سبحانه وتعالى عنه النقص، واعتوار الشك في الأمانة، تأكيداً لقوله ﴿أَمِينٍ﴾ إن كان المراد(٢) جبريل عليه السلام، وإن كان المراد النبي ﷺ فكذلك، لا يبخل بالوحي، ولا يقصر في التبليغ والتعليم.

أما الصفة الثانية المنفية في قراءة الضاد فهي الحرص، وتلوح من بين ثنايا التعبير عن عدم التقصير بقوله ﴿بِضَنِينٍ﴾ أي ببخيل، مع أنه أمكن أن يقول بمقصر؛ إذ إن البخيل إنما يبخل بما عنده نظير ما يزعمه مصلحةً له إلى وقت الحاجة، فلو كان

---

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ورويس عن يعقوب بالظاء، وقرأ الباقون بالضاد. انظر: طيبة النشر، مرجع سابق، عند قول الناظم: (بظنين الظا رغد حبر غنا ،).

(٢)انظر: تفسير القرطبي ١٩/ ٢٤٢، مرجع سابق، فقد ذكر أن أهل التأويل اختلفوا في صاحب هذه الآية ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ جبريل عليه السلام أو محمد ﷺ .

النبي ﷺ لا يُصَرِّح لهم بجميع الوحي بقصد المصلحة، فيتأول تأخير بعض الوحي لعدم حلول وقته كالبخيل، ومما يمكن التمثيل به: ما فيه تبكيتٌ لهم، أو توبيخٌ له مما قد يشينه في قلوبهم (كما في سورة عبس)، فقد يقال: للمعرفة بأن المصلحة الدعوية تقتضي كتم هذه الآيات خوف الفتنة -كما يطرأ على تفكير بعض الدعاة- فسيكتمها لذلك بفعل عاطفته البشرية، ولكن الله سبحانه وتعالى نفى عنه هذه العاطفة القاصرة، فلا يبخل بالوحي لأجل المصلحة الظاهرة، فكيف لو عدمت؟.سواءً كان هذا تابعاً في وصف جبريل عليه السلام أو كان وصفاً للرسول الجليل ﷺ، ويؤيد ما قُرِّر هاهنا: أن فعل البخل لا يتعدى بـ﴿عَلَى﴾ إلا على تضمينه معنى الحرص ونحوه[1]، ولذا قال ابن زيد في هذه الآية: "الغيب القرآن الذي لم يضن به على أحدٍ من الناس، أداه وبلغه، بعث الله به الروح الأمين جبريل عليه السلام إلى رسول الله ﷺ فأدى جبريل عليه السلام ما استودعه الله جل جلاله إلى محمد ﷺ وأدى محمد ﷺ ما استودعه الله جل وعز وجبريل عليه السلام إلى العباد ليس أحدٌ منهم ضنَّ، ولا كتم، ولا تخرص"[2].

والقراءة الثانية: ﴿بِظَنِينٍ﴾ بالظاء المشالة معناها: ما هو على الغيب بمتهمٍ، تأكيداً لقوله ﴿أَمِينٍ﴾، والتهمة مطلقةٌ، ونفيها مطلقٌ، فتشمل ما قيل في معنى الظنة به: تقصيراً، أو ضعف قوةٍ على التبليغ[3]، فكل ذلك منتفٍ عنه.

والصفة الثانية المنفية بقراءة الظاء هي التجرؤ: حيث يظهر تضمين ﴿بِظَنِينٍ﴾ "بالظاء المشالة" معنى المتجرئ عند عدم الرضا بالقرآن المنزل، بقرينة قيام ﴿عَلَى﴾ مقام في، والمعنى: ليس بمتهمٍ في أمر الغيب -وهو الوحي- ولا متجرئٍ عليه، فيقول من

(١) وهو ما قال به الآلوسي -رحمه الله تعالى-، انظر: روح المعاني ٣٠/ ١٠٧، مرجع سابق، ومثله قرر صاحب التحرير والتنوير ٣٠/ ١٦٢، مرجع سابق، في إحدى المعاني التي وجه بها الآية.

(٢) فيما خرجه ابن جرير في تفسيره عنه ٣٠/ ٨٢، مرجع سابق.

(٣) انظر: روح المعاني ٣٠ / ١٠٦، مرجع سابق.

عند نفسه شيئاً فيدعي أنه الوحي، بل ما بلغه هو الغيب لا ريب فيه، ولذا فعكسه يتعدى بعلى كقولك: ائتمنه على كذا.

وعلى ما ذكر في تأويل القراءتين لا يظهر مُسَوِّغٌ لترجيح الآلوسي هذه القراءة الأخيرة على الأولى بأنها أنسب بالمقام لاتهام الكفرة له ﷺ [1]، إذ قد ظهر ما في القراءة الأولى من حِكَمٍ بالغةٍ بادي الرأي، وربما يظهر للمتأمل -بعدُ- أيضاً في هذه، وفي غيرها - ما لا تنقضي معه عجائب القرآن - على أن الطبري رجح القراءة الأخرى بالضاد[2].

كما يظهر في هذه الآية: نفي تسرب شكٍ في ذات المَلَك من حيث التهمة أو من حيث الخلل"النقص" على قراءة ﴿بِظَنِينٍ﴾، أو تسرب شكٍ في ذات النبي ﷺ من الحيثية ذاتها، وهو الأقرب أن يكون المراد، لأن المَلَك معروفٌ بطاعته لربه بلا دخلٍ ولا خللٍ فطرةً قد فُطِر عليها، وهذا معلومٌ حتى عند كفرة العرب، وكذلك من حيث سياق السورة.

وسبحان الله بحمده، سبحان الله العظيم،

والحمد لله رب العالمين.

---

(١) روح المعاني ٣٠ / ١٠٦، مرجع سابق.

(٢) انظر: تفسير الطبري ٣٠/ ٨٣، مرجع سابق.

ملحق

مناقشة علمية لتعريف القرآن الكريم

يرمي هذا الملحق إلى بيان ماهية القرآن من حيث أصله اللغوي، وبيان حدوده في الوضع الشرعي، من حيث لفظه؛ إذ إن القرآن هو موضوع تلقي النبي ﷺ من جبريل عليه السلام، ولذا يتألف هذا الملحق من مبحثين:

المبحث الأول: القرآن في الوضع اللغوي، ومقتضياته.

المبحث الثاني: القرآن في الوضع الاصطلاحي، ومقتضياته.

المبحث الأول: "القرآن" في الوضع اللغوي، ومقتضياته:

يهدف هذا المبحث إلى استخراج معطيات وذاتيات الحقيقة اللغوية لمادة (قرأ) في أصل الوضع اللغوي، ومقتضيات ذلك، ولذا فهو ينقسم إلى مطلبين:

المطلب الأول: أقوال العلماء في الوضع اللغوي للقرآن.

المطلب الثاني: مقتضيات مادة (القرآن) لغة.

المطلب الأول: أقوال العلماء في الوضع اللغوي للقرآن:

اختُلِفَ في أصل هذه اللفظة على قولين عامين:

قولٍ جعله علماً شخصياً غير مشتق، وقولٍ جعله مشتقاً، ثم اختلف القائلون باشتقاقه على أقوالٍ خمسةٍ في أصل ذلك الاشتقاق، وتفصيل ذلك مبسوط فيما يلي[1]:

١ - فقيل: هو اسمٌ غير مشتقٍ خاصٍ بكلام الله جل وعز، فهو غير مهموز، والراء محركةٌ بالفتح، وبه قرأ ابن كثير[2]، وهذا مروي عن الشافعي رحمه الله تعالى[3]،

---

(١) وسيلمس القارئ نوع تطويلٍ في هذا الملحق، وعذر الباحث أن ذلك مما استلزمه سبيل التحقيق العلمي في هذه المسألة لربط ذلك بمحور البحث، وهو لفظ القرآن الكريم وكيفية تلقي النبي ﷺ له .

(٢) وحمزة وقفاً.

(٣) (الحاكم) أبو عبد الله محمد بن عبد الله ابن البيع النيسابوري (٣٢١ هـ، ت٤٠٥ هـ): المستدرك على الصحيحين ٢/ ٢٥٠، مراجعة: مصطفى عبد القادر عطا، ١٤١١هـ -١٩٩٠م، دار الكتب العلمية - بيروت،

قال الشافعي: "وقرأت على إسماعيل بن قسطنطين، وكان يقول: القرآن اسمٌ، وليس بمهموزٍ، ولم يؤخذ من قرأت، ولو أُخِذَ من قرأت كان كلما قُرِئَ قرآناً[١]، ولكنه اسمٌ للقرآن مثل التوراة والإنجيل" ويهمز قرأت ولا يهمز القرآن، واختار هذا القول الإمام السيوطي -رحمه الله تعالى- في الإتقان[٢]، فالقرآن على هذا قد وُضِعَ علمًا مرتجلاً[٣]،على هذا الكتاب الكريم كما أن التوراة علمٌ على الكتاب الذي أنزل على موسى عليه السلام، والإنجيل علمٌ على الذي أنزل على عيسى عليه السلام.

- وذهب الجمهور إلى أنه مشتق، ثم اختلفوا في أصل اشتقاقه:

٢- فرجح الأشعري -رحمه الله تعالى- أنه مشتقٌ من قرنت الشيء بالشيء: إذا ضممت أحدهما للآخر، وسُمي القرآن بذلك لأنه تضم حروفه وكلماته بعضها إلى بعض، كما تضم أحكامه في العلم والعمل فلا تجزأ[٤].

وهذا هو القول الاشتقاقي الأول(١)، ويومئ له حديث ابن مسعود رضي الله عنه: (إنا قد سمعنا القراءة، وإني لأحفظ القرناء التي كان يقرأ بهن النبي ﷺ

الطبعة لم تذكر. وفيه عن: محمد بن إدريس الشافعي حدثنا إسماعيل بن عبد الله بن قسطنطين قال: قرأت على شبل، وأخبر شبل أنه قرأ على عبد الله بن كثير، وأخبر عبد الله أنه قرأ على مجاهد، وأخبر مجاهد أنه قرأ على ابن عباس رضي الله عنه وأخبر ابن عباس رضي الله عنه أنه قرأ على أبي بن كعب، وقال ابن عباس رضي الله عنه :قرأ أبي على النبي ﷺ.

(١) ليست هذه النتيجة مستلزَمة للمقدمة، إذ يصح أن يؤخذ من قرأت، ولا يسمى كل ما قُرِئ قرآناً من حيث تخصيص الشرع، أو العرف للعام، وإن بقي اسمه عاماً.

(٢) الإتقان في علوم القرآن ١/ ٥١، مرجع سابق. وانظر: لسان العرب١١/ ٧٨، مرجع سابق.

(٣) **العلم المرتجل**: ما لم يسبق له استعمال قبل العلمية في غيرها كسعاد وأُدَد. انظر: (ابن عقيل) بهاء الدين عبد الله ابن عقيل العقيلي (٦٩٨ هـ، ٧٦٩ هـ): شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك ١/ ١٠٠، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد في حاشيته عليه المسماة: منحة الجليل بتحقيق شرح ابن عقيل، لم تذكر الطبعة ولا الدار.

(٤) الإتقان في علوم القرآن ١/ ٥١ ،مرجع سابق، وانظر: (أبو البقاء) أيوب بن موسى الحسيني الكفوي الكليات ٧٢١، ١٤١٢هـ – ١٩٩٢م، قابله على نسخة خطية، وأعده للطبع، ووضع فهارسه: د. عدنان درويش – محمد المصري – مؤسسة الرسالة –بيروت ط١، تفسير التحرير والتنوير١/ ٧١، مرجع سابق. ثم انظر إلى ذم القرآن لمن يجزئه في قوله تعالى ﴿**الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْءَانَ عِضِينَ**﴾ "كالحجر/ ٩١". راجع فيها: فتح القدير ٣/ ١٨٠، (الشوكاني) محمد بن علي ابن محمد الشوكاني ١٢٥٠ هـ: فتح القدير الجامع بين الرواية والدراية من التفسير ط١، ١٤١٥ – ١٩٩٥م، اعتنى به، وراجع أصوله: يوسف الغوش – دار المعرفة بيروت.

ثماني عشرة سورة من المفصل، وسورتين من آل حم)[٢]، وقد ينازَع في هذا الاستدلال.

٣- وقيل: أنه مشتقٌ من القرينة، وأنه اسم جمعٍ لها، والقرينة العلامة، قالوا: لأن آياته يُصَدِّقُ بعضها بعضًا، فهي قرائن على الصدق[٣]، ونسبه السيوطي للفراء -رحمه الله تعالى[٤].

وهذا هو القول الاشتقاقي الثاني.

وعلى كل الأقوال المتقدمة فإن [قرآن] وزنه فُعال، ونونه أصلية.

وعلى القولين الاشتقاقيين السابقين: فإن أصلهما واحد هو القَرْن[٥]؛ إذ القرينة ترجع إليه، ومنه: صدق فلانٌ بقرينة كذا أي بضميمة كذا، والمراد ما اقترن بصحة صدقه، وهذا هو المطلوب الأول[٦].

- وقيل بل هو مشتقٌ من قرأ، ثم اختلف القائلون بذلك في أصل المدلول اللغوي لكلمة قرأ.

٤- فقال قومٌ منهم الزجاج -رحمه الله تعالى-: "تدور كلمة (قرأ) على معنى الجمع والضم. ومنه قرأت الماء على الحوض أي جمعته[٧]، قال ابن منظور-رحمه الله تعالى-: "قرأه يقرَؤه ويقرُؤه، الأخيرة عن الزجاج قرءاً وقراءة، وقرآناً، الأولى عن اللحياني فهو مقروء".

---

(١) ويظهر من صنيع البخاري -رحمه الله تعالى- في الصحيح تأييده، إذ أورد في معنى القرآن: "سمي القرآن لجماعة السور، وسميت السورة لأنها مقطوعة من الأخرى، فلما قرن بعضها إلى بعض سمي قرآناً". انظر: صحيح البخاري ٤/ ١٧٧٠، مرجع سابق.

(٢) صحيح البخاري ٤/ ١٩٢٤، مرجع سابق.

(٣) تفسير التحرير والتنوير١/ ٧١، مرجع سابق.

(٤) الإتقان١/ ٥١، مرجع سابق

(٥) ومنه اقترن قراناً ومقارنة. انظر لسان العرب ١١/ ١٣٤، مرجع سابق.

(٦) في اصطلاح الباحث.

(٧) الإتقان١/ ٥١، مرجع سابق

قال أبو إسحاق النحوي -رحمه الله تعالى-:"يسمى كلام الله جل وعز الذي أنزله على نبيه ﷺ كتاباً وقرآناً وفرقاناً، ومعنى القرآن معنى الجمع، وسمي قرآناً؛ لأنه يجمع السور فيضمها"[1]، وإلى نحو ذلك مال ابن فارس -رحمه الله تعالى-، وقال أبو عبيدة: "لأنه جمع السور بعضها إلى بعض"[2]، وقال الراغب:" لأنه جمع ثمرات الكتب السالفة المنزلة، وقيل لأنه جمع أنواع العلوم كلها"[3].

وهذا هو القول الاشتقاقي الثالث.

وعلى هذا فالقرآن مصدرٌ بمعنى اسم الفاعل، أي الجامع[4].

وقد غَلَّطَ الزجاج القول السابق: باشتقاق القرآن من قَرَن، وقال:"هو سهو"[5]، مع مع أن التأمل قاضٍ بأن الخلاف لفظي بين هذا القول، والقول الذي جعل اشتقاق القرآن من القَرْن من حيث إن حاصل كل منهما الضم والجمع: فضم حرفٍ إلى حرفٍ، وضم كلمةٍ إلى كلمةٍ، وضم سورةٍ إلى سورةٍ، يصدق عليه أن يُجعل المصدر (قَرْن) مكان المصدر (ضم)، فإذا المعنى واحد، وهذا هو المطلوب الثاني.

فقد تحصل من المطلوب الأول والثاني: أن القرآن مأخوذ من القَرْن أو الجمع، وهما آيلان إلى معنى واحد.

٥- وقال قومٌ: قرأ بمعنى تلا، والقرآن مصدر بمعنى اسم المفعول (المقروء أو المتلو) زيدت فيه الألف والنون، كما زيدتا في الغفران والرجحان[6]. وإلى هذا المعنى

---

(١) لسان العرب١١/ ٧٨، مرجع سابق، وانظر: (ابن فارس) أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا الرازي: معجم المقاييس في اللغة ٢/ ٧٨، بتحقيق وضبط عبد السلام هارون، ط١، ١٤١١هـ – ١٩٩١م، دار الجيل.

(٢) (أبو عبيدة) معمر بن المثنى التيمي: مجاز القرآن٣، ط١، الخانجي الكتبي بمصر١٩٥٤م. حققه د. محمد فؤاد سزكين.

(٣) (الراغب) أبو القاسم الحسين بن محمد الأصفهاني ت ٥٠٢هـ: المفردات في غريب القرآن ٣٩٨، تحقيق محمد سيد كيلاني، دار المعرفة - بيروت.

(٤) (الشنقيطي) محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي: نثر الورود على مراقي السعود١/ ٨٨ - تحقيق وإكمال تلميذه الدكتور: محمد ولد سيدي ولد حبيب الشنقيطي - الناشر: محمد محمود محمد الخضر القاضي - دار المنارة جدة ط١، ١٤١٥ - ١٩٩٥م.

(٥) الكليات١/ ٧٢١، مرجع سابق .

(٦) نثر الورود١/ ٨٨، مرجع سابق، وانظر الكليات ص٧٢٠، مرجع سابق.

مال رأيُ الإمام عبد الرحمن الثعالبي -رحمه الله تعالى-، وقدمه على المعنى الأول، قال:"ومنه قول حسان رضي الله عنه:

ضحوا بأشمط عنوان السجود به ... يقطع الليل قرآنا وتسبيحاً

أي قراءة"[1].

وقد أيد هذا المعنى إمام المفسرين الطبري -رحمه الله تعالى-، فقال:"والواجب أن يكون تأويله على قول ابن عباس رضي الله عنه:التلاوة والقراءة"[2]، وكذا رجح هذا المعنى صاحب كتاب"النبأ العظيم"[3].

ويؤيده أن أول ما بدئ به الرسول من الوحي القرآني ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ الآية، وقد قال تعالى: ﴿وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ﴾ [الإسراء: ١٠٦]، فهمزة (قرآن) همزةٌ أصلية[4].

وهذا هو القول الاشتقاقي الرابع.

وقد جمع بعض العلماء المعاصرين[5] بين المعنيين السابقين (القرن، أو الضم وهو ما ذكر في حاصل المطلوب الأول والثاني، والتلاوة والقراءة) في معنى واحد: هو الجمع ذاته، فيكون أصل كلمة (قرأ) هو الجمع، ثم صار استعمال مصدر (القرآن) -بعد- مُشْتَهَراً في التلاوة، وهي ضم الألفاظ بعضها إلى بعض في النطق، كما أن استعمال الكتاب في خصوص الرسم، وهو ضم الألفاظ بعضها إلى بعض في الخط، ومادتا (كتب) و(قرأ) تدوران على معنى الجمع والضم مطلقًا، وبلمح هذا الأصل

---

(١) (الثعالبي) عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الجزائري: الجواهر الحسان في تفسيرالقرآن١/ ٣٢، دار القلم، بيروت.

(٢) (الطبري) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت٣١٠): تفسير الطبري المسمى جامع البيان في تأويل القرآن ١/ ٤١، ط٣ ١٣٨٨هـ -١٩٦٨م، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر.

(٣) د. محمد عبد الله دراز: النبأ العظيم ص٥، اعتنى به وخرج أحاديثه: عبد الحميد الدخاخني ط١ ١٤١٧هـ-١٩٩٧م، دار طيبة الرياض.

(٤) المراد بالأصلية هنا أنها ليست ساقطة سقوطاً كاملاً من الكلمة، لا المراد الصرفي؛ إذ يصدق على كونه مأخوذاً من قراءة لا من القرن، وغاية البحث منصبة على جمع أصل التفكير في أصل الكلمة على القولين.

(٥) هو الدكتور محمد عبد الله دراز ذاته في كتابه النبأ العظيم ص٦، مرجع سابق .

الأول يكون كل من اللفظتين ملاحظًا فيه وصف الجمع، إما على معنى اسم الفاعل فيكون معناه (الجامع)، أو اسم المفعول فيكون معناه (المجموع)، وهذا اللقب لا يعني فقط أن هذا المسمى جامع للسور والآيات، أو أنه مجموع تلك السور والآيات من حيث هي نصوص مؤلفة في صفحات القلوب، أومن حيث هي نقوش مصفوفة في المصحف والألواح، أو من حيث هي أصوات مرتلة منظومة على الألسنة، بل يعني شيئًا أدق من ذلك كله، وهو أن هذا الكلام قد جمع فنون المعاني والحقائق، وأنه قد حشدت فيه كتائب الحكم والأحكام؛ كما قال جل جلاله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾[النحل: ٨٩].

وأكد أبوبكر الأنباري -رحمه الله تعالى- ذلك بقوله جل وعز ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٨]، إذ قال في معناه:"إذا ألفنا منه شيئاً،فضممناه إليك، فخذ به، واعمل به، وضمه إليك"[1]؛ إذ إن التأليف هو جمع كائن هاهنا بالألفاظ وهو التلاوة، وبالنقوش وهو الكتابة[2]. وهذا هو المطلوب الثالث.

واستلزام الجمع التلاوة في مادة (قرأ) كاستلزام الجمع الكتابة في مادة (كتب)، وبذا اجتمع على سلكٍ واحدٍ المعنى الذي ارتضاه الطبري للقراءة وهو التلاوة، والمعنى الآخر الذي نسبه إلى قتادة،وهو التأليف فلا يكون-بعد- لقوله -رحمه الله تعالى-: "ولكلا القولين، أعني قول ابن عباس رضي الله عنه وقول قتادة اللذين حكيناهما وجهٌ صحيحٌ في كلام العرب، غير أن أولى قوليهما بتأويل قول الله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٧-١٨]، قول ابن عباس

(١) (الأنباري) أبو بكر محمد بن القاسم: الزاهر في معاني كلمات الناس ١/ ٧١، تحقيق: د. حاتم صالح الضامن، اعتنى به: عز الدين البدوي النجار - ط١ ن ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م، مؤسسة الرسالة - بيروت.

(٢) هذا استطرادٌ -لا يذم-في معنى كتب بجانب قرأ ليتضح معنى الكتاب إلى جانب القرآن من حيث دلالة قرأ على الجمع القرائي، ودلالة كتب على الجمع الخطي .

رضي الله عنه"[1] -مكانٌ في قوانين الترجيح؛ لأن أقل أحوال الترجيح أن يكـون فـرع فرع التغاير؛ إذا كان الترجيح ترجيحاً أولوياً ولا تغاير هنا.

فقد التقت المعاني الأربعة (القرن، القرينة، الضم، التلاوة) في الجمع، لكنه قرن، وضم، وجمع خاص بالحروف القرآنية وهو معنى التلاوة، فالمعاني الأولى باعتبار المعنى العام، والتلاوة باعتبار المعنى الخاص. وهذا واضح من المطلوبات الثلاثة.

وقد تحصل مما سبق أن القرآن يعني في ذاته الجمع، وقد أُريد به جمعٌ مخصوصٌ هـو جمع الحروف في النطق، وهو الذي اصطلح على تسميته بالتلاوة، وهـي حالـةٌ خاصـةٌ من القراءة ترتبط غالباً بالقرآن الكريم، ولهذه النتيجة أهميتها البالغة كمـا سـيأتي -إن شاء الله تعالى- في المطلب الثاني من هذا المبحث.

٦- وقال قطرب -رحمه الله تعالى-: "إنما سمي القـرآن قرآنـاً لأن القـارئ يظهـره، ويبينه، ويلقيه من فيه أخذاً من قول العرب: ما قرأت الناقـة سـلى قـط، أي: مـا رمـت بولد[2]، قال حميد ابن ثور:

أراها غلاماها الخلـى فتشـذرت مراحًا، ولم تقرأ جنينًا ولا دماً"[3]

دمـــــــــــــــــــــاً"[3]

وهذا هو القول الاشتقاقي الخامس (القرآن: البيان، والإظهار).

المطلب الثاني: مقتضيات مادة (القرآن) لغة:

بالعودة المتأملة إلى المقررات اللغوية في المطلـب السـابق يمكـن اسـتخراج ذاتيـات ومعطيات مادة (قرأ)؛ فما كان اختيارٌ قدريٌ لها لتقترن بكلام رب العالمين علمـاً عليـه إلا لدلالات تضمنتها مادتها:

---

(١) تفسير الطبري ١/ ٤٢، مرجع سابق.

(٢) (التبريزي) الإمام الخطيب أبي زكريا يحي بن علي التبريزي (ت٥٠٢): شرح القصائد العشر ص٣٨٠ - علق عليه: السيد أحمد الخضر - مكتبة الثقافة الدينية - القاهرة. وانظر: الإتقان في علوم القرآن١/ ٥١، مرجع سابق.

(٣) الزاهر في معاني كلمات الناس١/ ٧٢، مرجع سابق.

فأما أولاً: فإن قاعدة التفكير في الأصل اللغوي لكلمة (قرآن) هي:

أ- من حيث القولان العامان: أن لفظ (قرآن) هـو مصـدرٌ (وصـفٌ مهمـوزٌ)[1]، من (قرأ) على ما ذهب إليه الجمهور، ولكنه نُقِل وجُعِل علماً شخصياً علـى الكتـاب الكريم، ومن باب الاشتراك اللفظي فإنه يطلـق علـى بعضـه، أو علـى جميعـه، وكونـه صار علماً شخصياً هو عين ما ذهب إليه الشافعي ومحققو الأصوليين[2].

وبذا لا يتعارض القولان العامان الواردان في الأصل اللغـوي للفـظ (قـرآن) مـن حيث أصل فكرتهما، بعد سلوك هذه السبيل التوفيقية في الجمع بينهما.

فالقرآن على وزن فُعلان، وزنة فعلان وردت في المصادر مثل غفـران، وشـكران، وبهتان، كما وردت زيادة النون في أسماء الأعـلام، مثـل عثمـان وعـدنان، وحسـان. واسم (قرآن) صالح للاعتبارين؛ إذ هو مشتقٌ مـن معنـى الضـم والجمـع سـواء كـان أصل الاشتقاق قراءة، أو قَرْناً؛ لذا اتفق أكثر القراء على قـراءة لفـظ (قـرآن) مهمـوزاً أنى وقع في التنزيل، ولم يخالفهم إلا ابن كثير،وحمزة وقفاً، حيث قرآه بفتح الراء بعـدها ألف وإسقاط الهمز على تخيف المهموز، وهي لغة حجازية، والأصل توافـق القـراءات في مدلول اللفظ المختلفة قراءته[3]، ويؤكد هذا المعنى أن الإمام أبـا عمـروٍ المقـرئ قـد قرأ على ابن كثير، فهو من جملة شيوخ أبي عمرو في القراءات، لكـن اختيـاره المنقـول إلى يومنا هو قراءة لفظ (القرءان) بالهمز[4]، ومعلومٌ مكانه من النحو واللغة،كما هـي

(١) المراد شبيه بالوصف، لا أنه وصف حقيقي وذلك بمشابهة المصدر للوصف في عمل الفعل ونحوه.

(٢) روح المعاني١/ ٦٢، مرجع سابق، النبأ العظيم ص٧، مرجع سابق.

(٣) التحرير والتنوير١/ ٧١، مرجع سابق. وإنما مال الشافعي إلى أنه علمٌ خاصٌ بالقرآن غير مشتقٍ لأن سنده في القراءات يتصل بابن كثير -رحمه الله- انظر: الكليات ص٧٢٠، مرجع سابق، ولسان العرب١١/ ٧٨، مرجع سابق.

(٤) خلافاً لما نقله في لسان العرب١١/ ٧٨، مرجع سابق من أنه لا يهمز،انظر: (الشاطبي) أبو القاسم أو أبو محمد القاسم بن فيرة بن خلف بن أحمد الرعيني الشاطبي ت ٥٩٠ هـ: حرز الأماني ووجه التهاني (متن الشاطبية)، ط١، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م، المكتبة الثقافية - بيروت، عند قول الناظم في فرش سورة البقرة: (ونقل (قرآن) والقرآن دواؤنا)، وانظر: (ابن الجزري) محمد بن محمد بن محمد بن علي ت ٨٣٣هـ: طيبة النشر في القراءات العشر ص٩٧، عند قول الناظم في باب نقل الهمز: (كيف جا القرآن دف)، ضبطه وصححه وراجعه: محمد تميم الزعبي، توزيع مكتبة دار الهدى، المدينة المنورة.

في الإقراء، فلو لم يستقر عنده اتحاد المعنيين مهموزًا، أو مخففًا لكان أجدر أن ينقل الوجه الذي ارتضاه شيخه.

فقد تقرر أن لفظة (قرآن) مصدرٌ مشتق من (قرأ، أو قرن) صار علمًا شخصيًا على ذلك الكتاب الكريم[1]، وهما القولان العامان.

كما تقرر على القول الاشتقاقي الأول، والثاني، والثالث، والرابع أن القرآن مأخوذ في أصل معناه من الجمع والضم[2](وهو القرن)، لكنه جمعٌ مخصوصٌ لجملة أصواتٍ خارجةٍ من مخارجها، تصير بضمها وجمعها لبعضها قرآناً، ويسمى النطق بها تلاوة، فهي نوعٌ خاصٌ من القراءة، صارت مقترنة بالقرآن، وهذه الأحرف تخرج مُظْهَرَة، مُبَيَّنة، مُحْدَدة كما حددها الشارع[3]، وهو القول الاشتقاقي الخامس.

وبهذا يكون أصل التفكير في الأصل اللغوي لكلمة (قرآن) قد اتحد، وإن اختلفت عبارات المعبرين عنه، وهو معنى الجمع والضم، ولكن بعضهم عبر عن ذلك بما يؤول إليه جمع الحروف، وقَرْنِها ببعضها عند نطق القارئ بها في خصوص القرآن فسماه تلاوة، وبعضهم نظر إلى أن حروف القرآن لا تكون كذلك حال التلفظ بها إلا أن تخرج محددة مُبَيَّنة مُظْهَرة، فجعل الاشتقاق آتياً من ذلك.

---

(١) هاهنا إشكالان: **أولهما**: متعلقٌ بصحة التعبير في هذه الجملة؛ إذ لا يقال مصدرٌ مشتقٌ على مذهب البصريين السائد، مع اتفاقهم على أن المصدر جامد، وهو أصل المشتقات. قال الحريري في ملحة الإعراب: والمصدر الأصل وأي أصل ومنه يصح اشتقاق الفعل إلا أن يراد بالاشتقاق هنا معنى أعم من الاشتقاق الاصطلاحي، وهو رد لفظة إلى لفظة، **وثانيهما**: إن قررنا أن القرآن علم فكيف يجتمع ال والعلمية في كلمة،ويجاب عليه بأنه لا إشكال فقد قال ابن مالك: وبعض الأعلام عليه دخلا للمح ما قد كان عنه نقلا.
كالفضل والحرث والنعمان فذكر ذا وحذفه سيان.
انظر: نثر الورود١/ ٨٨-٨٩، مرجع سابق.

(٢) وصرح ابن الأثير في النهاية بذلك فقال: "قد تكرر في الحديث ذِكر القَراءة، والاقْتِراء، والقارئ، والقُرآن، والأصل في هذه اللَّفظة الجمعُ، وكلُّ شيء جَمعْتَه فقد قَرَأْتَه"، انظر: (ابن الأثير) المبارك بن محمد بن محمد بن عبد الكريم ابن الأثير الجزري: النهاية في غريب الأثر ٣/ ٣٥٨ مراجعة طاهر أحمد الزاوي + محمود محمد الطباخي، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م، دار الفكر - بيروت.

(٣) هذا هو أصل فكرة التوقيف.

ولمعرفة الأصل التفكيري في اشتقاق هذه الكلمة أهمية بالغة، كان ما سبق أول ملامحها.

وأما **ثانياً**: فإن كون الخطاب الشرعي وارداً بأصل الوضع العربي، فتفهم مفرداته من خلال مقتضيات الدلالة في اللغة العربية[1]... يسوغ لنا -إن لم يحتم علينا- أن ننظر في مقتضيات الدلالة اللغوية لمادة (قرأ)، ونعتمد تلك الدلالات كحقائق ما لم يخصصها -تعديلاً أو إلغاء- قرين شرعي.

فمن ذلك:أن كون (قرآن) قد صارت علماً شخصياً يحتم قراءة ألفاظها، وفق خصوصيتها، ولا تصح فيها كل قراءة يطلق عليها قراءة.

وأما **ثالثاً**: فإن كلمة (قرآن) تدل في أصل معناها على الجمع كما سبق، وهذا يقتضي أن تكون الحروف مجموعة في كلمتها حال النطق، فلا يجوز نطق كل حرف في الكلمة مستقلاً عن قرينه في الكلمة ذاتها، كما لا بد من قدر من اجتماع الكلمات أثناء التلاوة، ويُحَدِّد هذا القدرَ التلقينُ الشرعي الذي هو أساس الأداء القرائي، ويُبْنى على هذا أن قراءة القرآن حرفاً حرفاً -على معنى الحرف الهجائي- أي لكل حرف على حدة باطلة، وكذا القراءة لكل كلمة على حدة باطلة -من حيث هي قراءةٌ للقرآن- إلا أن تصح لصارف خارجي[2]؛ إذ لا يسمى ذلك قرآناً لمنافاته المقتضى اللغوي لمادة (قرآن). وصرح بما يشبه هذه النكتة الإمام التفتازاني -رحمه الله تعالى- فقال: "يدخل في الحد -يعني تعريف القرآن- الحرف، أو الكلمة، ولا يسمى قرآناً في عرف الشيوع"[3]، ذلك بأنه لم يجمع إلى غيره.

---

(١) انظر: الموافقات في أصول الشريعة ٢ /٨٩، مرجع سابق، عند الكلام على مقاصد الشريعة في وضع الشريعة للإفهام.

(٢) كأن تكون الكلمة آية بأكملها ﴿ مُدْهَآمَّتَانِ ﴾ [الرحمن: ٦٤]، والمراد بالكلمة هاهنا: الكلمة العرفية، وهي ما التصقت حروفه، لا المعنى النحوي....

(٣) (التفتازاني) سعد الدين مسعود بن عمر الشافعي - ت٧٩٢ هـ: التلويح على التوضيح لمتن التنقيح في أصول الفقه - ضبطه، وخرج آياته، وأحاديثه: الشيخ زكريا عميرات ط١، ١٤١٦هـ -١٩٩٦م، دار الكتب العلمية، بيروت، وتزيد الثقة بصحة هذا المستَنْتَج بتصريح العلماء بنظيره في الناحية المعنوية، حيث قالوا: لم

ومن جهةٍ أخرى فإن لفظة الجمع، ومعنى (الجامع) و(المجموع) على ما تقرر سابقاً يقتضي بطلان قراءة الآيات أو الكلمات معكوسة حروفها إذ لم تنزل -من حيث هي قرآن- إلا بهذه الهيئة المعينة من الجمع فجمعها على غير ذلك مبطل لكونها قرآناً، وجاز تقديم بعض السور على بعض لأنها قد أُنزلت كذلك مقدماً بعضها على بعض، ثم تُلقيت عن الرسول ﷺ مع جواز تقديم بعضها على بعض نقلاً، بخلاف الآيات أو الكلمات.

وأما **رابعاً**: فإن قراءة القرآن غير كائنةٍ في حقيقتها قراءة للقرآن إلا إذا اقترنت باللفظ، وذا يستلزم الصوت، فكان لابد من الصوت في قراءة القرآن سواء كان خفياً أو جهرياً. وأُخِذَ هذا المستَنْتَج مما أورده ابن منظور في لسان العرب، حيث قال: "معنى قرأت القرآن: لفظت به مجموعاً أي ألقيته"(١).

وأما **خامساً**: فالقراءة الحقيقية للقرآن من حيث هي قراءةٌ للقرآن هي التي يكون الصوت فيها مجهورًا مسموعًا، ولا يرد على هذا الأصل ورود القراءة السرية في الشرع؛ ذلك أنه لا إشكال في تسميتها قراءة، لكن لا يطلق عليها هذا الإطلاق إلا وهي مقيدة به، أما مطلق القراءة دون قيد فتصرف إلى القراءة المجهور بها، ويدل على هذا الأصل حديث ابن عباس رضي الله عنه قال: قرأ النبي ﷺ فيما أُمِر، وسكت فيما أُمِر ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤] ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]، وأوله: «سمع قوماً يتقارؤون»(٢)، معناه:أنه كان لا يجهر فيها، أو لا

يسم قرآناً إلا لجمعه ثمرات الكتب السالفة، وقال ابن الأثير: لأنه جمع القصص، والأمر، والنهي، والآيات، والسور بعضها، إلى بعض ، فإن كان هذا في الناحية المعنوية، فليكن كذلك من حيث اللفظ.

(١) لسان العرب٢٢/٧٨، مرجع سابق، وفي ١١/ ٨٠ منه: "قال أبو إسحاق النحوي: وقرأت القرآن لفظت به مجموعاً".

(٢) صحيح البخاري ١/ ٢٦٨، مرجع سابق، والذي عند ابن منظور لفظه: «كان لا يقرأ في الظهر والعصر».

يُسْمِعُ نفسه قراءته، وقال ابن منظور:"كأنه رأى قوماً يقرؤون فيسمعون نفوسهم ومن قرب منهم"[١].

فأشعر الكلام بمنطوقه أن المخافتة في قراءة القرآن ليست هي الأصل، بل تكون مقيدة بالمخافتة عند طلبها لتكون كذلك، ويبقى هذا الاستنتاج بحاجة إلى غربلة وقوة بحث ليكون كسابقيه[٢]، من حيث قوة الثبوت[٣].

وأما **سادساً**: فمن المقتضيات اللغوية الهامة لمادة قرأ من حيث هي متعلقة بألفاظ القرآن الكريم: حتمية البيان ليعتد بالخارج من الفم قرآناً، فلا يكفي اللفظ (مجرد التصويت) حتى يقترن بالبيان في القراءة، وهذا يستفاد لغةً من القول الاشتقاقي الخامس، ونقلاً من قول ابن عباس رضي الله عنه في قوله سبحانه وتعالى ﴿فَإِذَا قَرَأْنَهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٨]: "فإذا بيناه لك بالقراءة فاعمل بما بيناه لك"[٤].

وهذا تقعيدٌ حسنٌ للتجويد من حيث إنه مخارجٌ وصفاتٌ ذاتية، أي من حيث إعطاء الحرف حقه، كما أنه رافد لاقتضاء لفظة (القرآن) ذاتياً لأداء محدد من قبل الشارع، وقد تظاهرت عبارات أهل العلم على دلالة لفظ (القرآن) على هذا المعنى، فأورد ابن القيم – رحمه الله تعالى– ذلك في الفوائد المشوّق إلى علوم القرآن[٥]، وقال

---

(١) لسان العرب١١/ ٧٩، مرجع سابق، وهو ما قرره ابن الأثير في معناها، انظر النهاية ٣/ ١٢٣، مرجع سابق .

(٢) لعل في قوله عز وجل ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾[الإسراء: ١١٠] إشارةٌ إلى هذه المسألة. وغير خافٍ أن الجهر المتحدَث عنه هو المعتدل لا المزعج المستقبَح، ثم هو في كل حالٍ بحسبه. انظر: روح المعاني١٥/ ٢٧٨، مرجع سابق.

(٣) وتقدم في الفصل الرابع ص٢٣٢ أن أول أسس حفظ القرآن حفظه في الصدر، وقد تقرر أن القراءة المجهورة هي المناسبة للفظ والفهم، في حين تقتصر القراءة الخفية على قدر من الفهم فحسب غالباً. انظر: مقال (ظاهرة النسيان) مجلة البيان، العدد ١٠٥، جمادى الأولى١٤١٧ هـ.

(٤) انظر حديث المعالجة في المبحث السادس من الفصل الثالث، وانظر: لسان العرب١/ ٧٩، مرجع سابق.

(٥) انظر: (ابن القيم) شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر: الفوائد المشوقة إلى علوم القرآن ٣٣٣، ١٩٨٧م، دار مكتبة الهلال، بيروت. لكنه خص الإظهار والبيان لشيء معنوي ههنا حيث قال: "البيان لأنه أظهر سائر العلوم المحتاج إليها في أمر الدين والدنيا وجمع بينهما،" فليكن ذلك اللفظ حيث خصه بالمعنى دون مخصص.

في زاد المعاد: "وأما المهموز -عنى مادة قرأ- فإنه من الظهور والخروج على وجه التوقيت والتحديد، ومنه قراءة القرآن؛ لأن قارئه يظهره ويخرجه مقدارًا محدوداً لا يزيد ولا ينقص، ويدل عليه قوله جل وعز ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٧]، ففرق بين الجمع والقرآن، ولو كان واحدًا لكان تكريرًا محضًا، ثم استدل بقول ابن عباس رضي الله عنه السابق[١]، وهو الذي ختم عليه الآلوسي -رحمه الله تعالى- بطابع التصديق، فقال: "فمعنى القرآن: المقروء المتلو، أو المُظْهَر المُبْرَز"[٢]، وقرره في (نشر الورود) بنحو هذه العبارة[٣].

وأما **سادسًا**: فإن القراءة تستلزم حبس النفس، ورياضة الفك، قال أبوعمرو ابن العلاء -رحمه الله تعالى-: "دفع فلان جاريته تُقَرِّئُها: أي تمسكها حتى يتحقق الاستبراء"[٤].

وقبل الانتقال إلى التعريف الاصطلاحي للقرآن الكريم، فإن الناظر فيما سبق يتضح له سبب الاختيار القدري والشرعي للفظة (قرآن) لتقترن بكلام الله جل جلاله؛ إذ كان بسبب تضمنها لمقتضيات ذاتية تجعل لفظها وهيئة أداء هذا اللفظ توقيفية، وهو ما قام جبريل عليه السلام بتعليمه للنبي ﷺ بأمر من الله جل وعز، لا فرق في ذلك بين أصل اللفظ، ولا هيئة أدائه، وقد رأيت أن أول أدلة ذلك هو المقتضيات اللغوية للفظة (قرآن).

---

(١) (ابن القيم) شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر : زاد المعاد في هدي خير المعاد٥/ ٦٣٥، حقق نصوصه وخرج أحاديثه، وعلق عليه: شعيب الأرنؤوط، وعبد القادر الأرنؤوط، ط٨، ١٤٠٥هـ -١٩٨٥م، مؤسسة الرسالة، بيروت. ويُلاحَظُ أنه عتب على أبي عبيدة -قال -: "لزعمه أن القرآن مشتقٌ من الجمع"، ولا عتب على أبي عبيدة ولا ملامة؛ إذ إن تفريق ابن القيم بين (قرى) المعتل و(قرأ) المهموز فيه نظر؛ فإن ابن فارس قد قال بعد كلامه عن المعتل: "فإذا همز هذا الباب فهو والأول سواء". انظر: معجم المقاييس٢/ ٧٨، مرجع سابق،ولا شك في تقديم كلام ابن فارس -رحمه الله تعالى- من حيث هو فارس هذا الميدان في هذا الشأن.

(٢) روح المعاني ١/ ٨٨، مرجع سابق.

(٣) انظر نثر الورود: ١/ ٨٩، مرجع سابق.

(٤) لسان العرب١١/ ٨١، مرجع سابق.

المبحث الثاني: "القرآن" في الوضع الاصطلاحي، ومقتضياته:

يرمي هذا المبحث إلى بيان المراد بالقرآن من حيث الوضع الاصطلاحي، ومقتضيات ذلك من حيث ألفاظه تحديداً وتبييناً لهيئة القراءة، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: بواعث تعريف القرآن اصطلاحاً.

المطلب الثاني: أقوال العلماء في الوضع الاصطلاحي لكلمة (قرآن).

المطلب الثالث: إشارات عامة حول علاقة التعريف الاصطلاحي بألفاظ القرآن الكريم.

المطلب الأول: بواعث تعريف القرآن اصطلاحاً:

تناول العلماء تعريف القرآن لا بسبب الجهل به، أو عدم وضوحه للناس، بل لأمور:

أولها: ضبط ما تعبد به تلاوةً.

ثانيها: ضبط ما تجوز به الصلاة وأقله، وما لا تجزئ قراءته فيها.

ثالثها: ضبط الأدلة الشرعية الكلية، والتفصيلية التي يستدل بها على مواضعها من علوم الشرع، وجزئيات الحياة العلمية، والعملية.

رابعها: تحديد القطعي ثبوتاً ودلالة، وغيره من الوحي المنزل ليُبْنى عليه تفصيلات الاجتهاد العلمي، وطرائق التعادل والترجيح.

خامسها: بيان الحدود التي أذن للعقل البشري التصرف فيها من لفظة بحسب ما أنزل وجوبًا أو جوازًا، إلزامًا أو اختيارًا[1] في مادة اللفظ القرآني وهيئته الصوتية.

سادسها: بيان ما يُكَفَّر به جاحده من لفظه، وما لا يكفر بجحده.

---

(١) وجوباً: كأداء لفظ السور في هيكله الصوتي الأصلي، وجوازاً كالاختيار بين الإتيان بالبسملة أو عدمها، إلزاماً كالتزام مد تقوم به ذات الحرف في المد الأصلي، وإلا أخل بطبيعة الحرف، واختياراً كاختيار أحد القراءات لأداء لفظ القرآن أو أحد الأوجه من ثلاثة العارض للسكون مثلاً.

سابعها: تحديد المعجز من لفظه ومعناه، وغيره؛ إذ هو المعجزة التي لم تزل حجة قائمة على العباد إلى قيام الساعة[١].

ولشهرة القرآن الكريم، ووضوح حدوده اللفظية الظاهرة لعامة الناس؛ فقد رأى البعض أنه من غير المستساغ اللهث وراء الحدود المنطقية لتبيان الماهية، أو المميزات الشخصية في القرآن للجمهور، ولذا يكفي للتعريف بالقرآن آنئذ أن يقال: هذا المصحف، أو أن يقال: القرآن الكريم هو القرآن الكريم، حذوَ كل الواضحات التي يزيدها التعريف خفاء، والحد المنطقي إلباسًا، ولذا أعرض البعض عن تعريفه أوحَدِّه[٢]، وحَدَّه البعض بما لا حاصل تحته للمتخصص فضلاً عن الجمهور إلا زيادة التأكيد على المعنى الذي يتبادر إلى ذهن المسلم فور سماعه لفظ (قرآن)[٣]، لكنه يستدرك على هذا الرأي: بأن هذه الدراسة ترتبط ارتباطاً لا يخفى بمسألة تعريف القرآن الكريم من حيث معالجتها المتخصصة لقضايا مصادره اللفظية، وهيئات أدائها عند هذه المصادر، ومن ثم وجب أن يسير البحث في سبيل التعريف بالحدود المنطقية دون إيغال، حتى يتحقق المراد، وتنجلي الأهداف المستقرأة من ذكر علماء علوم القرآن وأصول الفقه للتعريف المنطقي للقرآن الكريم[٤] المحدد لماهيته، ولذا فإن الطبيعة العلمية للبحوث بصفة عامة، والمنهجية لهذا البحث بصفة خاصة تفرض أن تذكر أقوال العلماء السابقين في المسألة مناط البحث، ثم تُحَلَّل وتُنَقَّح، ثم تحقق.

(١) أشار إلى بعض هذا صاحب التفسير المنير١/ ١٤، لكن بغير هذا البيان، انظر: د. وهبة الزحيلي: التفسير المنير، ط١، دار الفكر.

(٢) انظر الدراسات القرآنية المتكاثرة حول القرآن الكريم التي لم تُعِر الحد المنطقي للقرآن الكريم بالاً، وفي مقدمتها: تفسير الطبري ١/ ٤٠، مرجع سابق؛ إذ اكتفى بتأويل اسم القرآن من حيث اللغة.

(٣) كما عرفه أبو زهرة في كتاب أصول الفقه ص٣٠ – والأصل في هذا الكتاب ونحوه أنه كتاب متخصص – بقوله: "هذا الكتاب الذي نزل على النبي ﷺ ". تأليف: محمد أبو زهرة: أصول الفقه، دار الفكر العربي.

(٤) سبق الإشارة إليها آنفاً .

المطلب الثاني: أقوال العلماء في الوضع الاصطلاحي لكلمة (قرآن):

ويتضمن هذا المطلب بعض الإشارات التفصيلية لعلاقة التعريف الاصطلاحي بألفاظ القرآن الكريم، وذلك فيما يلي:

عرف الإمام الغزالي -رحمه الله تعالى- القرآن الكريم بقوله: ما نقل إلينا بين دفتي المصحف على الأحرف السبعة المشهورة نقلاً متواترًا[١].

شرح التعريف: ما: اسم موصول بمعنى الذي.

النقل: هو تحويل الشيء من موضع إلى موضع[٢]، وهو مطلق فيشمل النقل بالشفاه، والنقل بالكتابة، وإليه يشير تسمية القرآن باسم القرآن، وباسم الكتاب، ولكن النقل بالشفاه هو المراد الأول من النقل هنا، وقد يعبر عنه بالسند القرائي، وعلى هذا فالمشافهة هي سبيل إقراء القرآن، وفي تحليل آيات سورة القيامة -كما تقدم- يتضح أن هذا المعنى هو السبيل الوحيد الذي قرأ به النبي ﷺ على جبريل عليه السلام.

الدفتان: الدَّف والدفة: الجنب من كل شيء بالفتح لا غير، والجمع دفوف، ودفتا الرحل والسرج والمصحف: جانباه وضمامتاه[٣]، ويقال: بات يتقلب على دفيه، وعلى دفتيه، وهما جانباه، ومنه: رماك الله بذات الدف: أي ذات الجنب[٤].

---

(١) (الغزالي) حجة الإسلام أبو حامد محمد بن محمد الغزالي: المستصفى من علم الأصول ١/ ١٠١، دار الفكر - بيروت.

وهذا الحد هو الحد ذاته الذي أورده صدر الشريعة في التنقيح١/ ٤٦، بيد أنه لم يذكر قيد (على الأحرف السبعة المشهورة)، وهذا الأخير هو عين التعريف الذي أورده (ابن قدامة) موفق الدين أبي محمد عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي الدمشقي (ت٦٢٠هـ): روضة الناظر وجنة المناظر، مكتبة المعارف – الرياض. وهو قريب من تعريف التفتازاني الآتي، وهو التعريف الرابع عند (الشوكاني) محمد بن علي بن محمد (ت ١٢٥٠هـ): إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول ص٢٦ - دار المعرفة - بيروت.

(٢) لسان العرب ١٤/ ٢٤٦، مرجع سابق.

(٣) والضمامة: ما تضم به شيئاً إلى شيء. انظر : لسان العرب٨/ ٨٨، مرجع سابق .

(٤) لسان العرب٤/ ٣٧٤، مرجع سابق، وجعل الزمخشري -رحمه الله تعالى- (دفتي المصحف) من المجاز، مع أن الدف الجنب من كل شيء مصحفًا، أو غيره، فهو فيه حقيقة لغوية، لا مجاز مستعمل، انظر: (الزمخشري) جار الله أبي القاسم محمود بن عمر: أساس البلاغة ص١٩٠، دار الفكر بيروت ١٤١٥-١٩٩٤م.

المصحف: هو الجامع للصحف المكتوبة بين الدفتين، كأنما أُصحف أي جعل جامعاً للصحف المكتوبة بين الدفتين. قال أبو عبيدة: "تميم تكسر الميم، وقيس تضمها، ولم يذكر من يفتحها"(١).

والصحف: جمع صحيفة وهي: التي يكتب فيها، وتجمع على صحائف وصحف أيضاً. وتخالف الورقة في أنها وجه؛ ولذا قيل فيها هي ما أقبل عليه منه، وجعل الزمخشري –رحمه الله تعالى–من المجاز قولهم: صن صحيفة وجهك(٢).

والفرق بين المصحف والكتاب: استلزام المصحف للدفتين، بخلاف الكتاب فهو حقيقة لغوية صادقة على كل ما يكتب فيه صفحة كان أو أكثر؛ ولذا قال أبو عمرو ابن العلاء:"قال بعض العرب –وذكر إنساناً–: فلان لعوب، جاءته كتابي فاحتقرها؟ فقلت: أتقول جاءته؟ قال:نعم! أليس بصحيفة؟"(٣).

فقد استبان أن لفظة (المصحف) عربية صريحة(٤).

على الأحرف السبعة المشهورة: عنى الأحرف المذكورة في حديث (أقرأني جبريل على حرف فلم أزل استزيده حتى أقرأني مع سبعة أحرف).

متواتراً: التواتر هو الخبر الثابت على ألسنة قوم لا يتصور تواطؤهم على الكذب(٥). وخرج به ما نقل بطريق الآحاد كقراءة ابن مسعود رضي الله عنه (والذكر والأنثى)، أو بطريق الشهرة العرفية كقراءة ابن مسعود رضي الله عنه (فاقطعوا أيمانهما) وقد خرجتا بما سبق من قيد، لكن استلزام مساواة المعرِّف للمعرَّف أوجب إيراده.

---

(١) لسان العرب ٧/ ٢٩١، مرجع سابق.

(٢) أساس علم البلاغة ص٣٤٩، مرجع سابق.

(٣) لسان العرب ٧/ ٢٩١، مرجع سابق.

(٤) إنما أورد هذا ليكون بياناً أولياً دالاً على ضعف الروايات الواردة في استيراد لفظة (مصحف)من الحبشة، وقد اتكأ بعض الكتاب عليها مصاحباً أسلوبه العلمي المزعوم بتجاهلٍ مريب لضعف هذه الروايات، ثم ألزم الصحابة باستيراد هذه اللفظة من الحبشة. وسترد لفظة المصحف على لسان رسول الله ﷺ ، ويعني بها القرآن.

(٥) (الجرجاني) علي ين محمد بن علي: التعريفات ص٩٤، حققه، وقدم له، ووضع فهارسه: إبراهيم الأبياري – دار الكتاب العربي – بيروت ط١، ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م، تدريب الراوي ٢/ ٤٣، مرجع سابق.

فإذا اعتُرِض على ذلك بأن علماء الأصول خاصة قد اعتدوا بتعريف الكتاب لا القرآن، فهل من فرق؟.

فيُجاب: لا فرق، إنما هو تقليدٌ درجوا عليه، فبعضهم يُعَرِّف الكتاب تعريفاً لفظياً بالقرآن، ثم يُعَرِّف القرآن بعد؛ من باب تعريف الشيء بما هو أشهر منه[1]، وبعضهم يجعل تعريف الكتاب هو القرآن و ما بعده؛ لأن القرآن علم أشهر من الكتاب.

وبناءً على ذلك: فهل يجوز إطلاق لفظ القرآن أو الكتاب علماً على غير الكتاب الكريم؟.

أما مطلقاً فلا يجوز، ولذا يظهر نوع حصرٍ أظهره القصر[2] في قوله جل جلاله ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ [البقرة: ٢]؛ إذ تعريف الطرفين مفيدٌ للقصر، لكأنه قال: ذلك الكتاب الكامل الحقيق بأن يخص به اسم الكتاب لغاية تفوقه على بقية الأفراد في حيازة كمالات الجنس[3].

- أما إطلاق لفظة (الكتاب) مقيدةً بقيدٍ لفظيٍ أوحالي[4] فجائز، وقول ابن منظور: "إذا أطلق الكتاب فالمراد به التوراة لقوله تعالى ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾[البقرة:١٠١][5] يُصرَف إلى إرادة نطق لفظة (كتاب) مقيدةً بقيدٍ حاليٍ، هو كلام المسلمين عن غير المسلمين، أو نحو ذلك من القيد الحالي.

فالكتاب من حيث الأصل صادقٌ على كل ما كتب فيه، ثم صار علماً شخصياً حال الإطلاق على القرآن الكريم، ولذا قال أبو البقاء:"والكتاب قد غلب في العرف

(١) انظر مثلاً: شرح التلويح١/ ٤٦، مرجع سابق.

(٢) في تعريف (القصر) في علم المعاني وطرقه، انظر مثلاً: العلامة أحمد الدمنهوري: حلية اللب المصون١٠٤، مكتبة اليمن الكبرى - صنعاء، الطبعة لم تذكر.

(٣) روح المعاني ١/ ١٧٤، مرجع سابق، وما بعدها.

(٤) كنحاة يذكرون الكتاب، عنوا به "كتاب سيبويه".

(٥) لسان العرب١٢/ ٢٣، مرجع سابق.

العام على جمع من الكلمات المنفـردة بالتـدوين"[1]، فإيقـاع اللـبس مـانع مـن إطـلاق الكتاب على غير القرآن إلا بقرينة مذكورة أو مقدرة. فإن كـان هـذا في الكتـاب، فهـو في القرآن أولى بالتفصيل ذاته.

إيرادات على التعريف:

فإن اعْتُرِض على التعريف السابق بأنه: يلزمه الدور[2]، لأنه عَرَّف القرآن بما نقل في المصحف، فإذا سئل عن المصحف قالوا هو القرآن، فتوقف المعـرِّف علـى المعـرَّف، وهو الدور ذاته[3].

والجواب: لا دور، ذلك لأن المصحف معلوم عرفاً، فلا يحتاج إلى تعريف. وقـال التفتازاني -رحمه الله تعالى-: "معرفة المصحف إنما تتوقف على القـرآن، بمعنـى المجمـوع المشخص، وهو معلومٌ معهودٌ بين الناس يحفظونه ويتدارسونه، فلا يشـتبه علـيهم فـلا دور"[4]، ويمكـن القـول بـأن الـلام في (المصـاحف) للجـنس، ولا يضـر تعميمـه لغـير القرآن، لأن القيد الأخير يخرجه للعهد، والمعهود مصاحف القراء[5].

وقال ابن قدامة: "وقيدناه بالمصاحف لأن الصحابة -رضـي الله عـنهم- بـالغوا في نقله، وتجريده عما سواه، حتى كرهوا التعاشير والنقط لكـيلا يختلط بغـيره، فـنعلم أن

---

(١) الكليات ص٦١٠، مرجع سابق.

(٢) **الدور** هو: توقف الشيء على ما يتوقف عليه، وهو نوعان: مصرحٌ، ومضمر، والفرق بين الدور، وبين تعريف الشيء بنفسه هو: أنه في الدور يلزم تقدمه عليها بمرتين إن كان صريحاً، وفي تعريف الشيء بنفسه يلزم تقدمه على نفسه بمرتبة واحدة. انظر: التعريفات ص١٤٠، مرجع سابق.

(٣) أورد هذا الاعتراض الآلوسي -رحمه الله تعالى- في روح المعاني١/١٩-٢٠، مرجع سابق، إرشاد الفحول ص٢٦ مرجع سابق، (المحبوبي) عبد الله بن مسعود المحبوبي البخاري الحنفي: التوضيح لمتن التنقيح في أصول الفقه، ١/٤٦، ضبطه وخرج آياته وأحاديثه: الشيخ زكريا عميرات، ط١، ١٤١٦- ١٩٩٦م، دار الكتب العلمية - بيروت، (المهدي) أحمد بن يحي بن المرتضى (٧٦٤ هـ- ت٨٤٠ هـ): منهاج الوصول إلى معيار العقول في علم الأصول ط١ ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م، دار الحكمة اليمانية - صنعاء، (الطبري الزيدي) علي بن صلاح بن علي بن محمد: شفاء غليل السائل عما تحمله الكافل ط١، ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م، مكتبة اليمن الكبرى – صنعاء.

(٤) شرح التلويح١/٤٦ مرجع سابق.

(٥) (ملاجيون) أحمد بن أبي سعيد بن عبيد الله الحنفي الصديقي الميهوي (ت١١٣٠هـ): نور الأنوار وبهامشه كشف الأسرار ١/١٨، ط١ ١٤٠٦هـ- ١٩٨٦م، دار الكتب العلمية – بيروت.

المكتوب في المصاحف هو القرآن، وما خرج منه فليس منه؛ إذ يستحيل في العرف والعادة مع توفر الدواعي على حفظ القرآن أن يُهْمَل بعضه، فلا ينقل، أو يخلط ما ليس منه"[1].

فإن اعتُرِض بالقول: لم اقتصر على ذكر النقل في المصاحف تواتراً دون غير ذلك من الخصائص؟.

فالجواب: لأن ذلك لحصول الاحتراز به عن جميع ما عدا القرآن؛ إذ سائر الكتب السماوية وغيرها، والأحاديث الإلهية والنبوية[2] لم ينقل منها شيءٌ بين دفتي المصاحف؛ لأنها أسم لهذا المعهود عند الناس حتى الصبيان[3].

فإن سئل عن هذا التعريف: هل هو حد أم رسم؟.

فالجواب: قد كاد منظرو المناطقة أن يجمعوا على أن تعريف القرآن لا يكون إلا رسماً، ويتعذر حده؛ لأنه علم شخص فيمكن تشخيصه ببيان سماته المميزة لا ببيان ذاتياته[4]. ولذا لا سبيل إلى حده على طريقة الحدود المنطقية إلا بالإشارة إليه، أو باستحضاره معهوداً في الذهن، فيقال القرآن: هو هذا، أو يقال: القرآن هو بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله، إلى أن يصل إلى الجنة والناس، فما يعرفه العلماء به إنما هو رسم[5] لا حد.

(١) روضة الناظر ١/ ٤٣، مرجع سابق.

(٢) ومنسوخ التلاوة على قول من يثبه.

(٣) (الأسنوي) جمال الدين عبد الرحيم بن الحسن الشافعي: نهاية السول في شرح منهاج الأصول ٢/ ٣ - للقاضي ناصر الدين عبد الله بن عمر البيضاوي، عالم الكتب.

(٤) سبب كونه علماً شخصياً أحد أمرين: إما لأن جبريل عليه السلام نزل به مشخصاً، وإما لأنه عبارة عن هذه الكلمات المركبة تركيباً خاصاً، سواء قرأه جبريل عليه السلام أو زيد أو عمرو، والمركب تركيباً خاصاً كالعلم الشاخص. انظر شرح التلويح ١/ ٤٦، مرجع سابق.

(٥) **الرسم**: هو الذي لم يشتمل التعريف فيه على شيء من الذاتيات، أو اشتمل على شيء ولكن لم يكن به فصل الشيء المعرّف، وتمييزه عن غيره، وإنما اشتمل على عرضيات بها كان تعريف الشيء وتمييزه عن كل ما سواه، وينقسم إلى: **رسمٍ تام**: وهو ما كان تعريفاً للشيء بذكر جنسه القريب مع خاصته اللازمة الشاملة، **ورسم ناقص**: وهو ما كان تعريفاً للشيء بذكر خاصته اللازمة الشاملة وحدها.

وقد جرى على التعريف السابق ثلةٌ من العلماء، وعليه دارت عباراتهم، وثم تعاريف أخر ارتضاها ثلة أخرى من العلماء، ولكن أشهر تعريفٍ يغاير التعريف السابق في صيغته هو تعريف الإمام الطبري الزيدي في شرح الكافل؛ إذ قال: هو الكلام المنزل على نبينا محمد ﷺ للإعجاز بسورة منه(1).

شرح التعريف: **الكلام**: جنس دخل فيه سائر الكلام.

المنزل: فصل أول، خرج به الكلام غير المنزل في السماء كالباقي في اللوح المحفوظ، أو كلام الملائكة، أوفي الأرض ككلام الناس، أو الأحاديث النبوية على القول بأن لفظها لم ينزل، وكذا خرج الكلام النفسي عند القائلين به.

ويجوز في هذه اللفظة (المنزل) التخفيف أي المنزل دفعة واحدة؛لأن القرآن نزل دفعة واحدة من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا أولاً، ويجوز أن يقرأ مشدداً على أن نزوله في الواقع قطعاً قطعا، في أزمنة مختلفة مدة النبوة(2).

وقد يعترض بأن: الألفاظ لا تنزل؟.

تعريف الحد: هو الذي يشتمل على الذاتيات، ويكون شرح المفرد التصوري بها، وينقسم إلى: **حدٍ تام**: وهو ما كان تعريفاً للشيء بذكر تمام ذاتياته، أي بذكر جنسه وفصله القريبين،**وحدٍ ناقص**: وهو ما كان تعريفاً للشيء بذكر البعض الذي بفصله عن غيره من ذاتياته، وسُمي الحد حداً لأن الحد في اللغة المنع، والحد المنطقي يمنع من دخول غيره فيه. انظر: ضوابط المعرفة ص١٤٣، مرجع سابق، وانظر: جمال الدين الحسن بن الحسين بن القاسم بن محمد: شرح التهذيب في علم المنطق ص٤٠ مع الحاشية، ط١، ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م، مركز الدراسات والبحوث – صنعاء.

(١) انظر شفاء غليل السائل١/ ٣٠، مرجع سابق، وعلى هذا التعريف دارت عبارات جماعة من العلماء فهو التعريف الذي أورده الإمام المهدي في معيار العقول وشرحه ص٢٣٩، مرجع سابق، وهو الذي أورده الإمام الزركشي في البحر إلا أنه قال: "بآية منه"، ولم يذكر لفظ (نبينا)، وزاد المتعبد بتلاوته، وهو الذي أورده الحسين بن أمير المؤمنين المنصور بالله القاسم بن محمد في هداية العقول إلى غاية السؤل في علم الأصول١ / ٤٣٢، إلا أنه قال: "بسورة من جنسه"، وهو الذي أورده صاحب مراقي السعود في منظومته، إلا أنه قال: لفظٌ منزل على محمد،لأجل الإعجاز وللتعبد، انظر: نثر الورود١/ ٩٠، مرجع سابق، وهو تعريف (الأسنوي) جمال الدين عبد الرحيم ابن الحسين الأسنوي (٧٠٤ هـ- ٧٧٢ هـ): زوائد الأصول ص٢٠٢، ط١ ١٤١٣- ١٩٩٣م، دراسة وتحقيق: محمد سنان سيف الجلالي، مكتبة الجيل الجديد-صنعاء .

(٢) نور الأنوار١/ ١٨، مرجع سابق .

فالجواب: لا تقبل الألفاظ حقيقة النزول حساً، ولكن المراد المجاز الصوري[1]؛ لأنه نزل بها روح القدس بالحق من ربك.

على نبينا محمد ﷺ: خرج ما نزل على غيره الأنبياء والتوراة والإنجيل.

للإعجاز بسورةٍ منه: خرج ما نزل عليه لا للإعجاز،كالأحاديث النبوية والقدسية، وقال البعض: بآية منه بدل بسورة منه لأن مقتضى قوله تعالى ﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ ﴾ [الطور: ٣٤] حاكمٌ بأن التحدي واقع بأقل من السورة[2]، لكن الخطاب هاهنا محمولٌ على العرف، فالتنوين في قوله جل وعز ﴿بِحَدِيثٍ ﴾ إما عوض عن كلمة، أو جملة أي بحديث يصح أن يسمى حديثاً، أو حديث معهود بينكم تسميته حديثاً؛ إذ لا إعجاز بالكلمتين يقينياً مع صحة إطلاق لفظة حديث عليه، فتحصل أن مقتضى الآية ما يصح تسميته حديثاً كانت آية أو أكثر صدق عليها ذا اللفظ. كما أوردوا هذا القيد "سورة" لدفع إيهام أن الإعجاز بكل القرآن فقط[3].

فإن اعتُرِض بأن: الإعجاز ليس من خصائص المعرف لأنه علامة على صدق الرسول ﷺ لا على كون هذا الكلام من عند الله جل جلاله ؛ إذ يتصور الإعجاز بما ليس بكتاب الله سبحانه وتعالى [4].

---

(١) (الزركشي) بدر الدين محمد بن بهادر بن عبد الله الشافعي: البحر المحيط١/ ٤٤٠، قام بتحريره عبد القادر عبد الله العاني، راجعه: د. عمر سليمان الأشقر – ط٢، ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م، دار الصفوة .

(٢) هكذا جاء في: الحسين بن أمير المؤمنين المنصور بالله القاسم بن محمد، حواشي هداية العقول إلى غاية السؤل في علم الأصول١/ ٤٣١ –لم تذكر بقية المعلومات.

(٣) السورة: "كلامٌ مترجمٌ من أوله وآخره توقيفاً مسمىً باسمٍ خاصٍ يتضمن آيات قرآناً كان أو غيره" فخرجت آية الكرسي بقوله يتضمن آيات، ويندفع ما قيل بأن السورة موقوفة على معرفة القرآن فيدور؛ إذ السورة عامة، وقد ذكر في الكشاف أن في الإنجيل سورة الأمثال، انظر: شفاء الغليل ١/ ٣٠، مرجع سابق، كذا قال وهو ناقل عن شرح غاية السؤل ١/ ٤٣٣، لكن آية الكرسي قد اختلف في عدها إذ من علماء العدد من عدها آيتين، وهو العدد المكي، فتخرج على كلامه بشرط إرادة الجمع الحقيقي في قوله "آيات".. ويمكن اختصار ذلك بأن الحديث المراد السورة العرفية، فلا دور.

(٤) هذا إيراد الغزالي على التعريف في المستصفى١/ ١٠١، مرجع سابق.

فالجواب: ظاهرٌ أنه لا يكون علامة على صدق الرسول إلا لكونه من عند الله جل وعز ؛ إذ هذه خاصة الإعجاز فيه، وبيان هذا أن يقال: قد ادعى الرسول ﷺ أن علامة صدق كون هذا الكلام من عند الله سبحانه وتعالى، وبرهانه عجز العالمين عن معارضته، فصحت الدعوى، ولم يكن القرآن علامة على صدقه إلا لكونه من عند الله جل جلاله، فالإعجاز دال على خاصة هي أهم خصائص القرآن، وكون الإعجاز قد يحصل من غير القرآن غير قادحٍ في كون الإعجاز صفة ذاتية للقرآن، إذ الاشتراك العام لا ينفي الخصوصية الذاتية، ومن أجل ذلك جيء بالجنس، ثم الفصل في التعريفات.

فإن اعتُرِض: بأن التعريف إنما يكون بالأجلى لا بالأخفى[1]، ويخفى على العامة معرفة كونه معجزاً، فتطرح هذه الصفة من التعريف[2].

فالجواب: بل الإعجاز من أوضح خصائص القرآن التي يجب ألا يعرى تعريف القرآن عنها؛ ذلك لأن كون القرآن معجزاً إما لازم بين بالمعنى الأعم؛ إذ من تعقل القرآن علم لزوم الإعجاز له قطعاً، أو لازم بين المعنى الأخص؛ إذ من تعقل حقيقة الإعجاز علم لزوم الإعجاز للقرآن قطعاً[3]، فهذا أقل أحواله، وتمام هذا القول أن يقال: يوضح ذلك أن التحدي لعموم الثقلين لا استثناء فيه فقد صار عاماً لا خاصاً، فيكون من لوازمه التي يعرفه بها من بعد ومن قرب.

ربط ما سبق بموضوع البحث:

وإنما كانت هذه الإطالة في مناقشة ذاتية وصف الإعجاز للقرآن، ليعلم منه أن النقل بالمشافهة في أداء لفظ القرآن أحق بتثبيت كونه ذاتياً للقرآن، إذ هو متفق عليه بين العلماء، بل يُذْكَرُ في أول التعريف، ولأن هذه بدهية عند العلماء، بل عند عامة المسلمين، فإن المراد هو تثبيت مقتضياتها من دخول النقل في أصل اللفظ، وهيئة

---

(١) انظر شرح التهذيبص ٤٣، وقد أصر على هذا الإيراد الآلوسي -رحمه الله تعالى- في روح المعاني ١/ ٣٠.
(٢) انظر: شرح الغاية ١/ ٤٣٣، مرجع سابق، شفاء الغليل ١/ ٣٠، مرجع سابق.
(٣) انظر: هداية العقول ١/ ٤٣٣، مرجع سابق، شرح الكافل١/ ٣٠، مرجع سابق .

أدائه، وهو ما يتجلى أكثر بدراسة كيفية تعليم جبريل عليه السلام للنبي ﷺ ألفاظ القرآن، وتلقي النبي ﷺ لها .

فهذان هما التعريفان المشتهران عند العلماء(1)، ويمكن الاستدراك على ما سبق من كلامٍ بالآتي:

١- لابد في التعريف من مساواة المعرِّف للمعرَّف، ولا مساواة هنا؛ إذ ثم خصائص للقرآن بارزة لم تذكر فيه،فقد أغفل البعض بيان الغاية من إنزال القرآن بشكل صريح، مع أنه قد جاء صريحاً في قوله تعالى: ﴿ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴾ [الشعراء: ١٩٤]؛ إذ قدم بيان الغاية من إنزال القرآن على اللسان الذي نزل به، وهو دال على الاعتناء به، وقد يقال قد أشير إلى ذلك ضمناً في قولهم للإعجاز، أو أن هذه غاية وهم يتكلمون عن الأعراض الذاتية في التعريف، وذا الأخير مستبعد إذ يرد عليه إيراد غير الأعراض الذاتية كما هو واضح، كما يرد عليه عدم التسليم بأن الإنذار ليس عرضاً ذاتياً، والأمر ضائقٌ عن الاسترسال في ذا المجال.

وكما أغفل البعض الغاية التي يحملها القرآن في ذاته، وهي جعل الرسول ﷺ من المنذرين، فقد أغفل البعض وسيلتها، وهي التدبر وكلاهما صفتان ذاتيتان للقرآن(1).

---

(١) وثم تعريفاتٌ أخر تجمل فيما يلي:

فمنها تعريف الإمام التفتازاني في التوضيح شرح التلويح ١/ ٤٠، مرجع سابق: الكتاب هو القرآن المنزل على الرسول، المكتوب في المصاحف، المنقول إلينا نقلاً متواتراً بلا شبهة.

وقوله "الكتاب" هو القرآن، تعريف للكتاب بالمرادف الأشهر وهو المسمى التعريف اللفظي، فما بعده تعريف للقرآن لأن المجموع تعريف الكتاب، وهذا على جعل القرآن علماً وإلا فإن كان بمعنى المقرون، أو المقروء فهو جنس وما بعده فصل بلا تكلف. انظر: شرح الأنوار١/ ١٧، مرجع سابق.

وذكر الشوكاني جملة تعريفات، تقدم بعضها، ومنها: "أنه اللفظ العربي المنزل للتدبر والتذكر المتواتر"، وعرفه بعضهم: "بأنه كلام الله العربي في اللوح المحفوظ للإنزال"، ثم ذكر تعريفه المختار، فقال: "والأولى أن يقال: هو كلام الله المنزل على محمد المتلو المتواتر". انظر: إرشاد الفحول ص٢٦، مرجع سابق، وذكر بأن تعريفه المختار لا ترد عليه الاعتراضات المنطقية التي وردت على سابقيه. وهو محط نظرٍ فإن إيراد الدور عليه بين؛ إذ يقال ما هو المتلو فيرد: القرآن، فاستلزم الدور فالنَصَفُ أن يجاب على هذا الدور كما أجيب على السابق، وعرفه الطاهر بن عاشور في التحرير والتنوير ١٦/ ٣١٤، مرجع سابق: القرآن صار علماً بالغلبة على الوحي المنزل على محمد ﷺ بألفاظ معنية، متعبداً بتلاوتها، يُعْجَز الإتيان بمثل سورة منها.

٢- لم يستبن من التعريف كيفية قراءة هيئات اللفظ القرآني؛ إذ لا يُلْمَح من التعريف إلا مادة اللفظ لا هيئته، وغير خافٍ الفرق بينهما؛ إذ المادة[٢] هي جوهر اللفظ المحسوس، والهيئة هي حليته الخارجية الذاتية والعرضية، وبتعبير آخر: لم يظهر من التعريف تحديد مدى الاجتهاد السائغ في أداء اللفظ المتواتر[٣]. إلا أن يقال: إن تقييد الغزالي -رحمه الله تعالى- بقوله "على الأحرف السبعة المشهورة"يشير إلى ذلك. لكن السمة البارزة في التعريف -عند العمل بعمومه وظاهر لفظه -أنه جعل القرآن الكريم مقيد اللفظ في مادته وهيئته بالنقل، وهو ما يعطي الفكرة العامة عن النقل، كما أنه يمنع عنه تسرب الاجتهاد البشري، وللأهمية البالغة لهذا الوصف الذاتي في القرآن فقد ابتدأ التعريف بذكره.

المطلب الثالث: إشاراتٌ عامة حول علاقة التعريف الاصطلاحي بألفاظ القرآن الكريم:

وبعد هذه الجولة في أقوال العلماء الواردة في تعريف القرآن، تذكر جُمْلَة إشارات يُخْتَم بها هذا الملحق مما يتعلق بموضوع البحث:

أولاً: تُعْقَدُ في هذا الملحق مسألةٌ أصوليةٌ علميةٌ بحتة لا يراد منها إلا وضع الأسس العلمية التي تحدد معايير التعامل مع كتاب الله جل جلاله في نقل ألفاظه، وتحديد ما يطلق عليه كلام الله من غيره، ومن ثم لزم بيان ماهية ألفاظه في مادتها وهيئتها بدقة تضطر الباحث إلى نبذٍ الإلمام التقريبي الجماهيري بعيداً، متى ما كان عائقاً عن الدقة المتوخاة[٤] للمتخصصين.

---

(١) ولم ترد إلا فيما أورده الشوكاني من تعريف.

(٢) ولينطق بتخفيف الهمز مثالاً موضحاً: فقوله جل في علاه ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ نطقها المعتاد من مخارج الحروف هي المادة، أما الهمز ففيه لحمزة وقفاً خمسة أوجه: ثلاثة أوجه الإبدال، والتسهيل بالروم مع المد والقصر،فهل هي متواترةٌ بالنقل أم جائزة القراءة من حيث إحالة القرآن ما لم يرد في نطقه نص إلى العربية، فيعمل فيه بقواعدها.

(٣) فاللفظ متواتر قطعاً بموجب هذا القول، وبقيت الهيئة "الأداء"محل نظر،وهذا الإيراد تمهيد لإقرار مدى أهمية إضافة قيد العربية في التعريف.

(٤) قيل هذا إشارة إلى التقعيد البديع الذي وضعه الإمام أبو إسحاق الشاطبي في موافقاته حول طرائق وضع التعاريف١/ ٥٦، المقدمة السادسة.

ثانياً: أرادت هذه الدراسة - بعد التسليم بتواتر (يقينية) نقل كتاب الله ديناً وواقعاً -أن تكون مقدمة للوصول إلى تحقيق هذا الهدف -تحديد كيفية نقل كتاب الله جل جلاله- من حيث مادته "اللفظ"، ومن حيث صورة هذه المادة "خط اللفظ"، ومن حيث هيئة المادة الصوتية "صوت اللفظ"، وهذه هي الصفات الأصلية للفظ، ومن حيث الهيئة الصوتية الداخلية للحرف، وهذه هي صفاته العارضة مفردة أو مركبة، والأخيران يشكلان ما يعرف بالأداء، ومن ثم تحديد ماهيته بشكل دقيق، وهذا يحتم على الدراسة بذل جهد مضنٍ مصحوب باليقين بالله جل وعز، متمسكٍ بأهداب الحذر العلمي والعملي في نقاش جزئيات المسائل المتعلقة بالتعريف، وبعبارة أخرى أكثر إيضاحاً وتحديداً: هل القرآن الكريم هو المقروء بقراءة واحدة أو رواية واحدة، أو هو مجموع القراءات والروايات؟ فهذا الجهد المبذول في هذه الرسالة هو مقدمةٌ للجواب على ذلك السؤال الكبير، من حيث إن أول مقامات الجواب: معرفة كيف علم جبريل عليه السلام الذي نقل القرآن من السماء النبي ﷺ ألفاظ القرآن، لينقله النبي ﷺ إلى كل الثقلين.

ثالثاً: إن الهيئة العامة لنقل القرآن وهي المشافهة، وصفٌ ذاتيٌ لمدلول القرآن أو لازمٌ له، فلا يتصور إقراء القرآن بغير هذه الهيئة، فالخط تابع للمشافهة، والإجازة العامة تابعةٌ لها أيضاً، ومن ثم فالاعتماد على خط المصحف لمعرفة قراءة هيئة ألفاظ القرآن باطل إن لم يقترن بالمشافهة. وقد أصر علماؤنا على جعل النقل مشافهةً هو أساس إقراء القرآن أو تعلمه، وهذا من أسرار بقاء المصحف على خطٍ مطورٍ تطويراً داخلياً فرعياً لا أساسياً لخطه الأول، ولكنه مخالفٌ نوع مخالفة ظاهرة للإملاء الحديث(1)، وتأكيداً لهذه المسألة فقد صرح العلماء أن السند القرائي الذي يقتضي النقل مشافهة - شرط في أن يسمى ما يقرؤه القارئ قرآناً، وهو ما عبّر عنه الإمام

(1) انظر: د. فضل حسن عباس: إتقان البرهان في علوم القرآن ١/ ٤٨١، ط١ - ١٩٩٧م، دار الفرقان.

الشوكاني -رحمه الله تعالى- بقوله: "المتلو"[1]؛ إذ ينصرف هذا اللفظ انصرافاً أولياً إلى تلاوة الشيخ على تلميذه أو التلميذ على شيخه.

رابعاً: لا نستطيع الآن -كنتيجة لما سبق- وضع التعريف العلمي الدقيق للقرآن الكريم من حيث مادة لفظه، وصورتها، وهيئتها الصوتية، ولا يعترض على هذا البيان بأنه كلام من يريد ركوب صعب دونه قوله جل وعز: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾[الحجر:٩]؛ إذ القرآن أشهر من أن يعرف، والتعريف له تنكيرٌ بل ظلمٌ، واتهامٌ، وطمسٌ بالفم لشعاع الشمس الساطع، وتنطعٌ، قد أتت محذِّرات النهي عنه؛ لأن الباحث إنما عنى صياغة تعريفٍ يُحَدِّد معالم الاتصال بين القرآن الكريم وقراءته باعتبارها وجهه الناطق، ولفظة المسموع، وخطه المكتوب، وصفاته الممثلة لذاته، وأعراضه الناتجة عن صفاته، وقد سبق بين يدي القارئ ذكر لأشهر تعاريف العلماء للقرآن الكريم، وفيها إشارةٌ إلى كيفية صورته اللفظية نطقاً وخطاً بعبارات مختلفة (مثل: النقل، المتواتر وهو يستلزم النقل، المتلقى، المكتوب في الصحف)، وزاد الإمام الغزالي -رحمه الله تعالى- ذلك تحديداً، فذكر اشتراطه النقل على الأحرف السبعة المشهورة، وفيه أنه تعريفٌ للأجلى بالأخفى؛ إذ القراءات أشهر من الأحرف السبعة، وأوضح وأكثر ذكراً لو ذكرها حتى انغرس في ذهن العامة أنها هي القراءات السبعة المشهورة، وفي قول القائل "الأحرف السبعة" في علوم القرآن نوع إبهامٍ ما زال محارةً العلماء إلى يومنا[2]، ومن ثم فغير سائغٍ أن تكون الأحرف السبعة في قائمة

---

(١) انظر تعريفه المذكور قبل قليل .

(٢) والمحارة ليست في مراد الحديث بل في تحديده، أما مراده العام فأوضح من أن يوضح، ولكن تحديد مفهوم العدد في حديث الأحرف السبعة هو المحارة لا تحديد مدلوله العام، وهذا أشبه بمسألة الصفات في علم العقيدة (الإيمان)؛ إذ مفهومها واضح وإن كان تحديد كيفيتها غير ممكن، ومعلوم أن التشبه لا يقتضي تساوي طرفيه في وجه الشبه، وعلى هذا التفصيل يحمل مراد السيوطي في تصريحه بأن الحديث مشكل في ألفيته في مصطلح الحديث ص٣٢، وابن سعدان النحوي كما ذكره عنه أبو شامة، انظر: (أبو شامة) شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل ابن إبراهيم المقدسي: المرشد الوجيز إلىعلوم تتعلق بالكتاب العزبز، حققه: طيار آلتي قولاج ١٣٩٥ه- -١٩٧٥م، دار صادر، بيروت.

مشخصات القرآن الكريم؛ إذ إن التعبير بقول القائل (بقراءاته المنقولة بين المسلمين تواتراً) أوضح.

ولا يُعترض على ما حدث في هذا الملحق من إطالةٍ غير معتادة[1] في بحث مثال هذه المسائل، إذ الخوض في تعريف القرآن الكريم من المنظار القرآني أو الأصولي ليس ترفاً ثقافياً مستهلكاً للوقت غايته إبراز العضلة الكلامية، والقدرة التنظيرية، بل هو ذو خطرٍ لا يقبل مروراً حذوَ عابر السبيل؛ إذ به تحدد معلم شخصية أصل الإسلام الأعظم من حيث توقيف نقله، وتواتر تلقيه، وأُسس ذلك توقيفاً أو اجتهاداً، ويستدعي ذلك كله مكانته التي جعلته أعظم مركز تدار حوله البحوث، وتتجدد في سبيل التبصير بحقائقه الدراسات.

خامساً: اشتراط التواتر يستلزم جملة أمور على ما هو معلوم في كتب علوم القرآن[2]، ومنها:

أ- النقل بالمشافهة: ولذا ينقطع التواتر الحديثي بمجرد تدوين كتاب الحديث غالباً؛ إذ يعتمد بعد ذلك على ثبوت الكتاب لمؤلفه، بخلاف أداء القرآن فباقٍ تواتره أمة عن أمة لا يُغني وجود المصحف عنه، كما هو معمول به عند جميع المسلمين.

ب- اليقين في النقل: حيث تُجمع الأمة خلفاً عن سلف، ولا مجال للانفراد في ذلك، مما يجعل كل ما يثبت بهذا الطريق متيقناً مجزوماً به.

وهذا يقتضي من حيث موضوع البحث أن يُثْبَتَ أن الله تعالى قد حفّ نبيّه ﷺ بسمات جعلت تلقيه ألفاظ القرآن الكريم من جبريل عليه السلام وتعلمه عليه قائماً مقام جهد الأمة بأسرها، كما تجلى ذلك في الفصول السابقة.

وبناءً على ذلك يمكن القول بقبول التعريف بالأحرف السبعة على إرادة المراد منها بغض النظر عن تحديدها؛ إذ تدخل القراءات فيها دخولاً أولياً.

(١) وقد تكرر الاعتذار لاحتياج الأمر لذلك.

(٢) انظر -مثلاً-: الشيخ طاهر الجزائري الدمشقي (١٢٦٨هـ - ١٣٢٨هـ): التبيان لبعض المباحث المتعلقة بالقرآن على طريق الإتقان ص١٠٢، اعتنى به عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية -حلب.

(وإلى الله -تعالى ذكره- جزيل الضراعة والمنة بقبول ما منه لوجهه، والعفو عما تخلله من تزين وتصنع لغيره)[1].

وصلى الله تعالى وسلم على نبينا محمدٍ، وعلى آله وصحبه أجمعين.

والحمد لله رب العالمين.

---

(١) من خاتمة كتاب الشفا للقاضي عياض ٢/ ٣١٢، مرجع سابق.

فهرس المصادر

أبرز المراجع والمصادر الواردة في هذا البحث بعد القرآن الكريم، هي:

١- (أبو حيان) محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان الأندلسي الغرناطي (٦٥٤ -٧٥٤ هـ): البحر المحيط، ط٢ ١٤١١هـ -١٩٩٠م، دار إحياء التراث العربي-بيروت.

٢- (أبو البركات) كمال الدين عبد الرحمن بن محمد الأنباري (٥١٣هـ-٥٧٧هـ): نزهة الألباء في طبقات الأدباء، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ١٩٦٧م، دار نهضة مصر-القاهرة.

٣- (أبو البقاء) أيوب بن موسى الحسيني الكفوي الكليات، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م، قابله على نسخة خطية، وأعده للطبع، ووضع فهارسه: د. عدنان درويش - محمد المصري - مؤسسة الرسالة -بيروت ط١.

٤- (أبو بكر) محمد بن القاسم بن بشار الأنباري (٢٧١هـ-٣٢٨هـ): كتاب إيضاح الوقف والابتداء في كتاب الله عزّ وجل، تحقيق محي الدين عبد الرحمن رمضان، ١٩٧١م، مجمع اللغة العربية - دمشق.

٥- (أبو داود) سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي (٢٠٢هـ-٢٧٥هـ): سنن أبي داود، مراجعة: محمد محيي الدين عبد الحميد.

٦- (أبو شامة) شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل الدمشقي المقدسي: إبراز المعاني من حرز الأماني، دار صادر-بيروت.

٧- (أبو شامة) شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي: المرشد الوجيز إلىعلوم تتعلق بالكتاب العزيز-حققه: طيار آلتي قولاج ١٣٩٥هـ -١٩٧٥م، دار صادر، بيروت.

٨- (أبو عبيدة) معمر بن المثنى التيمي: مجاز القرآن، ط١، الخانجي الكتبي بمصر ١٩٥٤م-حققه د. محمد فؤاد سزكين.

٩- (أبو العرب) محمد بن أحمد بن تميم: الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، القاهرة ١٣١٠هـ.

١٠- (أبو الفتح) بن جني: المحتسَب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها تحقيق: علي النجدي ناصف وآخرون، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤ م، لجنة إحياء كتب السنة – القاهرة.

١١- (أبو نعيم) أحمد بن عبد الله الأصبهاني (ت ٤٣٠ هـ): حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ١٤٠٥هـ، دار الكتاب العربي -بيروت.

١٢- أحمد بن شرف الدين، من علماء اليمن (لم تعرف ترجمته، لكن الكتاب متداول عند الأقدمين من علماء اليمن): حقائق علم العربية، نسخة خطية لدى الباحث.

١٣- (ابن هشام) عبد الله بن يوسف الأنصاري النحوي(ت ٧٦١هـ): مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا-بيروت، طبعة بدون ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

١٤- (ابن أبي داود): أبو بكر عبد الله بن سليمان بن الأشعث السجستاني (ت ٣١٦هـ): كتاب المصاحف، ط١، ١٩٣٦م، صححه آرثر جفري، المطبعة الرحمانية بمصر.

١٥- (ابن أبي العز) صدر الدين محمد بن علاء الدين علي بن محمد الحنفي ت ٧٩٢ هـ: شرح العقيدة الطحاوية، ط٩، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م، خرج أحاديثها محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي - بيروت.

١٦- (ابن أبي عاصم) أبو بكر أحمد بن عمرو بن الضحاك الشيباني (٢٠٦ - ت٢٨٧هـ): الآحاد والمثاني، مراجعة: د. باسم فيصل أحمد الجوابرة، ١٤١١هـ -١٩٩١م، دار الراية الرياض.

١٧- (ابن أبي عاصم) أبو بكر عمرو بن أبي عاصم الضحاك بن مخلد الشيباني (ت ٢٨٧هـ): كتاب السنة، حققه: محمد ناصر الدين الألباني، ط٣، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م، المكتب الإسلامي - بيروت.

١٨- (ابن الأثير) المبارك بن محمد بن محمد بن عبدالكريم بن الأثير الجزري: النهاية في غريب الأثر، مراجعة طاهر أحمد الزاوي + محمود محمد الطباخي، ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م، دار الفكر – بيروت.

١٩- (ابن الأثير) عز الدين علي بن محمد الجزري، أبو الحسن (٥٥٥هـ - ٦٣٠هـ): أسد الغابة في معرفة الصحابة ٢/ ٤٣٥، دار الفكر.

٢٠- (ابن الجزري) شمس الدين أبو الخير محمد بن محمد بن محمد: منجد المقرئين ومرشد الطالبين –دار زاهد المقدسي، تفضل بقراءته بعد طبعه: الشيخ محمد حبيب الله الشنقيطي، والشيخ أحمد محمد شاكر.

٢١- (ابن الجزري) شمس الدين أبو الخير محمد بن محمد بن محمد بن علي ت ٨٣٣هـ: التمهيد في علم التجويد، تحقيق غانم قدوري الحمد - ط٣، ١٤٠٩هـ -١٩٨٩م مؤسسة الرسالة - بيروت.

٢٢- (ابن الجزري) محمد بن محمد بن محمد بن علي ت ٨٣٣هـ: طيبة النشر في القراءات العشر، ضبطه وصححه وراجعه: محمد تميم الزعبي، توزيع مكتبة دار الهدى، المدينة المنورة.

٢٣- (ابن الجزري) أبو الخير محمد بن محمد بن محمد: غاية النهاية في طبقات القراء، بعناية ج. برجستراسر، دار الكتب العلمية – بيروت.

٢٤- (ابن العربي) أبو بكر محمد بن عبد الله: أحكام القرآن، تحقيق: علي محمد البجاوي - دار الجيل - بيروت.

٢٥- (ابن القيم) أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب الزُرعي (٦٩١هـ -٧٥١هـ): تهذيب مدارج السالكين، ط٥، ١٤١٤-١٩٩٤م، وهذبه: عبد المنعم صالح العلي العزي - مؤسسة الرسالة، بيروت.

٢٦- (ابن القيم) شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر: زاد المعاد في هدي خير المعاد، حقق نصوصه وخرج أحاديثه، وعلق عليه: شعيب الأرنؤوط، وعبد القادر الأرنؤوط، ط٨، ١٤٠٥هـ -١٩٨٥م، مؤسسة الرسالة، بيروت.

٢٧- (ابن القيم) شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر: الفوائد المشوق إلى علوم القرآن، ١٩٨٧م، دار مكتبة الهلال، بيروت.

٢٨- (ابن القيم) شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب الزُّرعي الدمشقي: الروح، عالم الكتب - بيروت.

٢٩- (ابن المبارك) أبو عبد الله عبد الله بن المبارك بن واضح المروزي (١١٨ - ١٨١هـ): كتاب الزهد، تحقيق: حبيب الحمن الأعظمي، دار الكتب العلمية - بيروت.

٣٠- (ابن تيمية) أحمد بن عبد الحليم بن تيمية ت ٧٢٨هـ، شيخ الإسلام: مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد ابن تيمية، جمع وترتيب: عبد الرحمن ابن قاسم العاصمي النجدي الحنبلي، ١٤٢١ - ١٩٩١م، دار عالم الكتب الرياض.

٣١- (ابن جني) أبو الفتح عثمان (ت ٣٩٢هـ): سر صناعة الإعراب، تحقيق مصطفى السقا، ١٩٥٤م، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي.

٣٢- (ابن حجر) أبو الفضل شهاب الدين أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني: تهذيب التهذيب، ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م ـ دار الفكر - بيروت.

٣٣- (ابن حجر) أحمد بن علي حجر العسقلاني: هدي الساري مقدمة فتح الباري، والفتح،حقق أصولها: عبد العزيز بن باز رقم كتبها وأبوابها وأحاديثها محمد فؤاد عبد الباقي ط١٤١٠،١هـ -١٩٨٩م، دار الكتب العلمية - بيروت، لبنان. الطبعة الأولى ١٤١٠هـ -١٩٨٩م.

٣٤- (ابن حجر) شهاب الدين أحمد بن حجر العسقلاني ت ٨٥٢هـ: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة. حققه وقدم له: محمد سيد جاد الحق، دار الكتب الحديثة.

٣٥- (ابن حجر): المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية، تحقيق المحدث الشيخ حبيب الرحمن الأعظمي.

٣٦- (ابن خزيمة) إمام الأئمة أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة السلمي (٢٢٣-٣١١هـ): صحيح ابن خزيمة، مراجعة: د.محمد مصطفى الأعظمي (١٣٩٠هـ-١٩٧٠م)، المكتب الإسلامي -بيروت، عدد الأجزاء ٤.

٣٧- (ابن خلكان) أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان ٦٠٨هـ - ٦٨١هـ: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، حققه د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت.

٣٨- (ابن راهويه) إسحاق بن إبراهيم بن مخلد بن راهويه الحنظلي (١٦١، ت ٢٣٨هـ): مسند إسحاق بن راهويه، مراجعة: عبد الغفور بن عبد الحق البلوشي ١٤١٢هـ -١٩٩١م، مكتبة الإيمان، المدينة المنورة.

٣٩- (ابن سعد) محمد بن سعد بن منيع البصري الزهري (١٦٨هـ — ت ٢٣٠هـ): الطبقات الكبرى، دار صادر بيروت، عدد الأجزاء ٨.

٤٠- ابن عطية: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق وتعليق: عبد الله ابن إبراهيم الأنصاري، السيد عبد العال السيد إبراهيم، ط١، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٥م.

٤١- (ابن عقيل) بهاء الدين عبد الله بن عقيل العقيلي (٦٩٨ هـ-٧٦٩هـ): شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد في حاشيته عليه المسماة: منحة الجليل بتحقيق شرح ابن عقيل، لم تذكر الطبعة ولا الدار .

٤٢- (ابن فارس) أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا الرازي: معجم المقاييس في اللغة، بتحقيق وضبط عبد السلام هارون، ط١، ١٤١١هـ - ١٩٩١م، دار الجيل.

٤٣- (ابن فارس): الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها، ١٩١٠م، المكتبة السلفية - القاهرة.

٤٤- (ابن القاصح) أبو البقاء علي بن عثمان بن محمد (ت ٨٠١هـ): تلخيص الفوائد وتقريب المتباعد في شرح عقيلة أتراب القصائد، مراجعة الشيخ عبد الفتاح القاضي، ط١، ١٩٤٩م، مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر.

٤٥- (ابن قتيبة) أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري ت ٢٧٣هـ: في كتابه (تأويل مشكل القرآن)، شرحه ونشره السيد: أحمد صقر، الطبعة لم تذكر، المكتبة العلمية.

٤٦- (ابن قتيبة) عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري ت٢٧٦ هـ: تأويل مختلف الحديث، مراجعة: محمد زهري النجار، ١٩٧٢م - ١٣٩٣هـ، دار الجيل - بيروت.

٤٧- (ابن قدامة) موفق الدين أبي محمد عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي الدمشقي (ت٦٢٠هـ): روضة الناظر وجنة المناظر، مكتبة المعارف-الرياض.

٤٨- (ابن كثير) أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي (ت٧٧٤): تفسير القرآن العظيم، تقديم: محمد عبد الرحمن المرعشلي، إعداد: مكتب تحقيق دار إحياء التراث العربي، أعد فهارسها: رياض عبد الله عبد الهادي ط١، ١٤١٧- ١٩٩٧م، دار إحياء التراث العربي -بيروت.

٤٩- (ابن ماجة) أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني (٢٠٧ -٢٧٥هـ): سنن ابن ماجه، مراجعة: محمد فؤاد عبد الباقي،دار الفكر - بيروت، عدد الأجزاء ٢.

٥٠- (ابن منظور) محمد بن مكرم بن علي، الإمام العلامة، (ت ٧١١هـ): لسان العرب، اعتنى بتصحيحها: أمين محمد عبد الوهاب، ومحمد الصادق

العبيـدي، ط١، ١٤١٦هــ- ١٩٩٥م، دار إحيـاء الـتراث العربـي ومؤسسـة التاريخ العربي - بيروت.

٥١- العلامة أحمد الدمنهوري: حلية اللب المصون، مكتبة اليمن الكبرى - صـنعاء، الطبعة لم تذكر.

٥٢- (الأزهري) أبو منصور محمد بـن أحمـد (٢٨٢هــ-٣٧٠هــ): تهـذيب اللغـة، ١٩٦٤م - القاهرة.

٥٣- (الأسنوي) جمال الدين عبد الرحيم ابن الحسين الأسـنوي (٧٠٤ هــ- ٧٧٢ هـ): زوائـد الأصـول، ط١ ١٤١٣- ١٩٩٣م، دراسـة وتحقيـق: محمـد سـنان سيف الجلالي، مكتبة الجيل الجديد - صنعاء.

٥٤- (الأسنوي) جمال الدين عبد الـرحيم بـن الحسـن الشـافعي: نهايـة السـول في شرح منهاج الأصول - للقاضي ناصر الدين عبـد الله بـن عمـر البيضـاوي، عالم الكتب.

٥٥- (الأصبهاني) إسماعيل بن محمد بن الفضل التيمي (ت٤٥٧هــ – ٥٣٥هــ): دلائل النبوة، تحقيق: محمد محمد الحداد، ١٤٠٩هـ، دار طيبة - الرياض.

٥٦- (الألباني) محمد ناصر الدين: صحيح الجامع الصـغير وزيادتـه، أشـرف علـى طبعـه: زهـير الشـاويش، ط٣ ١٤٠٨هــ - ١٩٨٨م، المكتـب الإسـلامي - بيروت.

٥٧- (الآلوسي) محمود شكري البغدادي، ١٢٧٠هـ: روح المعاني في تفسـير القـرآن العظيم والسبع المثـاني - دار الفكـر - بـيروت، ١٤١٧هــ -١٩٩٧م - قـرأه وصححه: محمد حسين العرب.

٥٨- (الأنباري) أبو بكر محمد بن القاسم: الزاهر في معاني كلمات الناس، تحقيـق: د. حـاتم صـالح الضـامن، اعتنـى بـه: عـز الـدين البـدوي النجـار - ط١ ن ١٤١٢هـ – ١٩٩٢م، مؤسسة الرسالة – بيروت.

٥٩- (الأهدل) محمد بن أحمد بن عبد الباري: الكواكب الدرية، شرح: الشيخ محمد بن أحمد الرعيني الشهير بالحطاب، ط١، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م - مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت.

٦٠- (الباقلاني) محمد بن الطيب ت ٤٠٣هـ: نُكت الانتصار لنقل القرآن، تحقيق د. محمد زغلول سلام، الناشر: منشأة المعارف بالإسكندرية.

٦١- (الباقلاني)أبو بكر بن الطيب: إعجاز القرآن، قدم له وشرحه وعلق عليه: الشيخ محمد شريف سكر، بيروت دار إحياء العلوم، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

٦٢- (البخاري) أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن إسماعيل الجعفي (١٩٤، ٢٥٦هـ): خلق أفعال العباد، مراجعة: د. عبد الرحمن عميرة، دار المعارف السعودية - الرياض ١٣٩٨هـ -١٩٧٨م.

٦٣- (البخاري) أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن المغيرة الجعفي، (١٩٤هـ - ت٢٥٦ هـ): صحيح البخاري،مراجعة د. مصطفى ديب البغا، ١٤٠٧هـ -١٩٨٧م، دار ابن كثير، اليمامة، بيروت.

٦٤- (البقاعي) برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر (ت٨٨٥هـ): نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ١٤١٣هـ، ١٩٩٢م، ط٣، المكتبة التجارية، مكة المكرمة.

٦٥- (البيهقي) أبوبكر أحمد بن الحسين بن علي بن موسى (٣٨٤هـ -ت٤٥٨هـ): سنن البيهقي الكبرى، مراجعة: محمد عبد القادر عطا، ١٩٩٤م-١٤١٤هـ، مكتبة دار الباز - مكة المكرمة.

٦٦- بلاشير: القرآن: نزوله، تدوينه، ترجمته، وتأثيره، نقله إلى العربية: رضا سعادة، ط١، ١٩٧٤م، دار الكتاب اللبناني - بيروت.

٦٧- (التبريزي) الإمام الخطيب أبي زكريا يحي بن علي التبريزي (ت٥٠٢): شرح القصائد العشر، علق عليه: السيد أحمد الخضر، مكتبة الثقافة الدينية - القاهرة.

٦٨- (الترمذي) أبو عيسى محمد بن عيسى السلمي (٢٠٩هـ - ٢٧٩هـ): الجامع الصحيح سنن الترمذي، مراجعة: أحمد محمد شاكر وآخرون، دار إحياء التراث العربي-بيروت.

٦٩- (التفتازاني) سعد الدين مسعود بن عمر الشافعي - ت٧٩٢ هـ: التلويح على التوضيح لمتن التنقيح في أصول الفقه - ضبطه، وخرج آياته، وأحاديثه: الشيخ زكريا عميرات ط١، ١٤١٦هـ -١٩٩٦م، دار الكتب العلمية، بيروت.

٧٠- (الثعالبي) عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الجزائري: الجواهر الحسان في تفسير القرآن، دار القلم، بيروت.

٧١- (الجرجاني) الإمام عبد القادر بن عبد الرحمن الجرجاني: دلائل الإعجاز في علم المعاني، صحح أصله الأستاذ محمد عبده، والأستاذ محمد محمود التركزي، وقف على تصحيح طبعه: السيد محمد رشيد رضا - ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م، دار المعرفة - بيروت.

٧٢- (الجرجاني) علي بن محمد بن علي: التعريفات، حققه، وقدم له، ووضع فهارسه: إبراهيم الأبياري، ط١، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م، دار الكتاب العربي - بيروت .

٧٣- (جولد تسهير): مذاهب التفسير الإسلامي، ترجمة عبد الحليم النجار، ١٩٥٦م، مكتبة الخانجي - مصر.

٧٤- (الجلالين) جلال الدين المحلي، وجلال الدين السيوطي: تفسير الجلالين، وبهامشه حاشية الصاوي، دار الفكر بيروت١٤١٤ هـ - ١٩٩٣م، قدم له وأشرف على تصحيحه: صدقي محمد جميل.

٧٥- جمال الدين الحسن بن الحسين بن القاسم بن محمد:شرح التهذيب في علم المنطق مع الحاشية، ط١، ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م، مركز الدراسات والبحوث – صنعاء.

٧٦- (حاجي خليفة) مصطفى بن عبد الله القسطنطيني الرومي الحنفي (١٠١٧هـ – ت ١٠٦٧هـ): كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، ١٩٩٢م - ١٤١٣هـ، دار الكتب العلمية – بيروت.

٧٧- (الحاكم) أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن البيع النيسابوري (٣٢١ هـ، ت٤٠٥ هـ): المستدرك على الصحيحين، مراجعة: مصطفى عبد القادر عطا، ١٤١١هـ -١٩٩٠م، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة لم تذكر.

٧٨- الحسين بن أمير المؤمنين المنصور بالله القاسم بن محمد: حواشي هداية العقول إلى غاية السؤل في علم الأصول.

٧٩- حسن ضياء الدين عتر: المعجزة الخالدة، ط٢، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م، مكتبة الطالب الجامعي - مكة.

٨٠- (الحلبي) علي بن برهان الدين ت ١٠٤٤هـ: السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون، دار المعرفة - بيروت ١٤٠٠هـ.

٨١- (الحميدي) أبو بكر عبد الله بن الزبير (ت٢١٩هـ): مسند الحميدي، مراجعة: حبيب الرحمن الأعظمي، ١٣٨١هـ، دار الكتب العلمية -بيروت.

٨٢- (دكتور) عبد الصبور شاهين: تاريخ القرآن، دار القلم ١٩٦٦م.

٨٣- (دكتور) عبد الهادي الفضلي: القراءات القرآنية، ط٢، دار القلم- بيروت.

٨٤- (دكتور) فضل حسن عباس: إتقان البرهان في علوم القرآن، ط١، ١٩٩٧م، دار الفرقان.

٨٥- (دكتور) محمد عبد الله دراز: النبأ العظيم، اعتنى به وخرج أحاديثه: عبد الحميد الدخاخيني، ط١، ١٤١٧هـ –١٩٩٧م، دار طيبة – الرياض.

٨٦- (دكتور) مصطفى ديب البغا: التحفة الرضية في فقه السادة المالكية ٤٠، شرح وأدلة وتكملة متن العشماوية، ط١، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م، دار ابن كثير، دمشق - بيروت.

٨٧- (دكتور) وهبة الزحيلي: التفسير المنير، ط١، دار الفكر.

٨٨- (دكتور) إبراهيم أنيس: الأصوات اللغوية، ط٤، ١٩٧١م، مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة.

٨٩- (دكتور) عبده الراجحي: اللهجات العربية في القراءات القرآنية، ١٩٦٩م، دار المعارف بمصر.

٩٠- (دكتور) صبحي الصالح: مباحث في علوم القرآن، ط٣، ١٩٦٤م، دار العلم للملايين - بيروت.

٩١- (دكتور) عبد الفتاح إسماعيل شلبي: الإمالة في القراءات واللهجات العربية ط١، مكتبة نهضة مصر، القاهرة ١٩٥٧م.

٩٢- (الخطيب البغداي) أبو بكر أحمد بن علي ـ ميلاده ٣٩٣، وفاته٤٦٣ هـ: تاريخ بغداد، دار الكتب العلمية، بيروت.

٩٣- (الدارقطني) أبو الحسن علي بن عمر بن أحمد: ذكر أسماء التابعين ومن بعدهم ممن صحت روايتهم عن الثقات عند البخاري ومسلم، دراسة وتحقيق: بوران الضناوي، وكمال يوسف الحوت، ط١، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٥م، مؤسسة الكتب الثقافية.

٩٤- (الدارمي) أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن (١٨١هـ-٢٥٥هـ): سنن الدارمي، تحقيق:أحمد فواز زمرلي، خالد السبع العلمي، ١٤٠٧هـ،دار الكتاب العربي – بيروت.

٩٥- (الداني) أبو عمر وعثمان بن سعيد ت ٤٤٤هـ: الأحرف السبعة، تحقيق د. عبد المهيمن الطحان ١٤٠٨هـ، مكتبة المنارة، مكة المكرمة.

٩٦- (الداني): التيسير في القراءات السبع، صححه أوتوبرتزل.

٩٧- (الداني): المحكم في نقط المصاحف، تحقيق د. عزة حسن، ١٩٦٠م، مديرية إحياء التراث القديم، وزارة الثقافة والإرشاد - دمشق.

٩٨- (الداني): المقنع في معرفة مرسوم مصاحف أهل الأمصار، تحقيق محمد أحمد دهمان، ١٩٤٠م، مكتبة الدراسات الإسلامية - دمشق.

٩٩- (الدمياطي) الشيخ أحمد بن محمد الشهير بالبنا (ت ١١١٧هـ): إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربع عشر، صححه علي محمد الضبّاع، ١٣٥٩هـ مطبعة عبد الحميد أحمد حنفي بمصر.

١٠٠- (الذهبي) الإمام شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان: طبقات القراء للذهبي، تحقيق: د. أحمد خان ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م، دار الفيصل.

١٠١- (الذهبي) شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨هـ): سير أعلام النبلاء، إشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، ط٢، ١٤٠٤هـ -١٩٨٤م، مؤسسة الرسالة.

١٠٢- (الرازي) محمد بن أبي بكر بن عبد القادر ت ٧٢١هـ: مختار الصحاح، مراجعة: محمود خاطر، مكتبة لبنان بيروت ١٤١٥هـ - ١٩٨٥م.

١٠٣- (الراغب) أبو القاسم الحسين بن محمد الأصفهاني ت ٥٠٢هـ: المفردات في غريب القرآن، تحقيق محمد سيد كيلاني، دار المعرفة- بيروت.

١٠٤- رفاعي سرور: عندما ترعى الذئاب الغنم، ط٦١٤١٢هـ-١٩٩٢، مكتبة الحرمين للعلوم النافعة.

١٠٥- (الزرقاني) الشيخ محمد عبد العظيم: مناهل العرفان في علوم القرآن، ط١٩٤٣،٣هـ،دار إحياء الكتب العربية.

١٠٦- (الزركشي) بدر الدين محمد بن بهادر بن عبد الله الشافعي: البحر المحيط١/ ٤٤٠، قام بتحريره عبد القادر عبد الله العاني، راجعه: د. عمر سليمان الأشقر - ط٢، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م، دار الصفوة .

١٠٧- (الزركشي): البرهان في علوم القرآن،تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم،ط١، ١٩٥٧م، دار إحياء الكتب العربية - القاهرة.

١٠٨- (الزركلي) خير الدين الزركلي: الأعلام، الطبعة العاشرة ١٩٩٢م.

١٠٩- (الزمخشري) أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الخوارزمي (٤٦٧ - ت٥٣٨هـ): الكشاف، دار المعرفة، بيروت.

١١٠- (الزمخشري): الفائق في غريب الحديث، تحقيق:محمد أبو الفضل إبراهيم، علي محمد البجاوي، ط٢، توزيع دار الباز.

١١١- (الزمخشري): أساس البلاغة، ١٩٢٢م، دار الكتب المصرية - القاهرة.

١١٢- (الساعاتي) أحمد عبد الرحمن البنا: الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني، مصر ١٣٧٤هـ.

١١٣- (السندي) أبو الحسن نور الدين بن عبد الهادي (١١٣٨هـ): حاشية السندي على النسائي، مراجعة: عبد الفتاح أبو غدة ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م، مكتبة المطبوعات الإسلامية- حلب.

١١٤- (السيوطي) أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، (٨٤٩هـ - ت٩١١هـ): تنوير الحوالك شرح موطأ مالك، ١٣٨٩- ١٩٦٩م، المكتبة التجارية الكبرى - مصر.

١١٥- (السيوطي) أبوالفضل جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (٨٤٩ - ٩١١ هـ): الديباج على صحيح مسلم، مراجعة: أبو إسحاق الحويني الأثري- دار ابن عفان - الخبر - السعودية، عدد الأجزاء ٥.

١١٦- (السيوطي) جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر الشافعي، ت٩١١هـ: الإتقان في علوم القرآن، المكتبة الثقافية، بيروت.

١١٧- (السيوطي) جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر ت ٩١١هـ: المزهر في علوم اللغة وأنواعها، الطبعة لم تذكر، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت.

١١٨- (السيوطي) جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر ت ٩١١هـ: تدريب الراوي في تقريب النووي، ط٤، حققه وراجع أصوله: عبد الوهاب عبد اللطيف الأستاذ المساعد بكلية أصول الدين- جامعة الأزهر، دار نشر الكتب الإسلامية.

١١٩- (السيوطي) جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر ت ٩١١هـ: طبقات الحفاظ، ط١، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م، دار الكتب العلمية - بيروت.

١٢٠- (السيوطي): لباب النقول في أسباب النزول، ط٦، ١٤٠٨هـ -١٩٨٨م، دار إحياء العلوم العربية - بيروت.

١٢١- (الشاطبي) أبو إسحاق إبراهيم بن موسى اللخمي الغرناطي المالكي ت ٧٩٠ هـ: الموافقات في أصول الشريعة، المقدمة الثالثة، توزيع عباس أحمد الباز، الطبعة لم تذكر.

١٢٢- (الشاطبي) أبو القاسم أو أبو محمد القاسم بن فيرة بن خلف بن أحمد الرعيني الشاطبي ت ٥٩٠ هـ:حرز الأماني ووجه التهاني (متن الشاطبية)، ط١، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م، المكتبة الثقافية - بيروت.

١٢٣- (الشنقيطي) محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي: نثر الورود على مراقي السعود- تحقيق وإكمال تلميذه الدكتور: محمد ولد سيدي ولد حبيب الشنقيطي- الناشر: محمد محمود محمد الخضر القاضي-دار المنارة جدة ط١، ١٤١٥- ١٩٩٥م.

١٢٤- (الشنقيطي) محمد الأمين بن محمد المختار الجكني: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، عالم الكتب - بيروت.

١٢٥- (الشوكاني) محمد بن علي بن محمد الشوكاني ١٢٥٠ هـ: فتح القدير الجامع بين الرواية والدراية من التفسير ط١، ١٤١٥ - ١٩٩٥م، اعتنى به، وراجع أصوله: يوسف الغوش - دار المعرفة بيروت.

١٢٦- (الشوكاني) محمد بن علي بن محمد (ت ١٢٥٥هـ): إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول، دار المعرفة - بيروت.

١٢٧- (الشوكاني) محمد بن علي ت١٢٥٠هـ: البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، دار المعرفة -بيروت.

١٢٨- (الطاهر بن عاشور): التحرير والتنوير، بدون ذكر للدار ولا للطبعة.

١٢٩- طاهر الجزائري الدمشقي (١٢٦٨هـ - ١٣٢٨هـ): التبيان لبعض المباحث المتعلقة بالقرآن على طريق الإتقان، اعتنى به عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية - حلب.

١٣٠- (الطبراني) أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب، مسند الدنيا، ميلاده ٢٦٠ هـ، ت ٣٦٠ هـ: مسند الشاميين، ١٤٠٥ هـ -١٩٨٤م، مؤسسة الرسالة، بيروت، مراجعة: حمدي بن عبد المجيد السلفي.

١٣١- (الطبراني) أبو القاسم مسند الدنيا سليمان بن أحمد بن أيوب: المعجم الكبير، مراجعة: حمدي عبد الحميد السلفي، ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٣م، مكتبة العلوم والحكم، الموصل.

١٣٢- (الطبراني)مسند الدنيا أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب (٢٦٠هـ ت٣٦٠): المعجم الأوسط، مراجعة: محمود الطحان، ١٤٠٥-١٩٨٥، مكتبة المعارف -الرياض.

١٣٣- (الطبري) محمد بن جرير الطبري: جامع البيان في تأويل القرآن، ط٣، ١٣٨٨هـ-١٩٦٨م، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر.

١٣٤- (الطبري الزيدي) علي بن صلاح بن علي بن محمد: شفاء غليل السائل عما تحمله الكافل، ط١، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م، مكتبة اليمن الكبرى - صنعاء.

١٣٥- (الطحاوي) أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة ٢٢٩ هـ – ٣٢١هـ: شرح معاني الآثار، مراجعة محمد زهري النجار، ط١، ١٤١٠ هـ – ١٩٩٠م، دار الكتب العلمية –بيروت.

١٣٦- عبد الرحمن بن خلدون ت ٨٠٨ هـ: مقدمة ابن خلدون، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس: خليل شحادة، مراجعة: د. سهيل زكار، ط ١٤١٧هـ، ١٩٩٦م - دار الفكر - بيروت.

١٣٧- عبد الوهاب حمودة: القراءات واللهجات، ط١، ١٩٤٨م، مكتبة النهضة المصرية– القاهرة.

١٣٨- عبد المعطي محمد رياض طليمات: الحلقات القرآنية، دراسة منهجية شاملة، ط١، ١٤١٧هـ –١٩٩٧م، إصدار برنامج تحفيظ القرآن الكريم – جدة.

١٣٩- عياض بن موسى اليحصبي: الشفا تعريف حقوق المصطفى، دار الكتب العلمية،بيروت– لبنان.

١٤٠- عياض بن موسى اليحصبي السبتي، أبو الفضل: ترتيب المدارك، وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، تحقيق د. أحمد بكر محمود، الطبعة لم تذكر، دار مكتبة الحياة، بيروت.

١٤١- عبد الفتاح القاضي: بشير اليسر شرح ناظمة الزهر في علم الفواصل للإمام الشاطبي، ١٣٩٧هـ –١٩٧٧م، مطبوعات الأزهر – مصر.

١٤٢- عبد الفتاح القاضي ت ١٠٣هـ: الوافي في شرح الشاطبية في القراءات السبع، ط٥ -١٤١٤هـ -١٩٩٤م، مكتبة السوادي - جدة، مكتبة الدار - المدينة المنورة.

١٤٣- (العزي) عبد المنعم صالح العلي: أقباس من مناقب أبي هريرة، ط٣، ١٤١٢هـ - ١٩٩١م، دار المنطلق - الإمارات العربية المتحدة.

١٤٤- (العسكري) أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد ت بعد٣٩٥هـ: الفروق في اللغة .

١٤٥- غانم قدوري الحمد: رسم المصحف دراسة لغوية تاريخية – ط١، ١٤٠٢هـ – ١٩٨٢ م.

١٤٦- (الغزالي) أبو حامد محمد ت٥٠٥ هـ: المستصفى من علم الأصول، دار الفكر – بيروت.

١٤٧- (الفراء) أبي زكريا يحي بن زياد ت ٢٠٧هـ: معاني القرآن، دار السرور – تحقيق: أحمد يوسف نجاتي، محمد علي النجار.

١٤٨- (الفارسي) أبو علي الحسن بن أحمد بن عبد الغفار (ت ٣٧٧هـ): الحجة في علل القراءات السبع، تحقيق علي النجدي ناصف، ود. عبد الحليم النجار، ود. عبد الفتاح شلبي، دار الكتاب العربي، ١٩٦٥م، المجلد الأول.

١٤٩- (القرطبي) أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م، دار إحياء التراث العربي – بيروت.

١٥٠- (القضاعي) أبو عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر ت٤٥٤هـ: مسند الشهاب، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي، ط٢، ١٤٠٧هـ - ٢٩٨٦م، مؤسسة الرسالة.

١٥١- (الكسي) أبو محمد عبد بن حميد بن نصر (ت ٢٤٩هـ): المنتخب من مسند عبد بن حميد، مراجعة: صبحي البدري السامرائي ـ محمود محمد خليل الصعيدي، ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م، مكتبة السنة – القاهرة.

١٥٢- (الكيا الهراسي) عماد الدين بن محمد الطبري (ت ٥٠٤هـ): أحكام القرآن، ط١، ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م، دار الكتب العلمية – بيروت.

١٥٣- لبيب السعيد: الجمع الصوتي الأول للقرآن الكريم، دار الكتاب العربي– القاهرة.

١٥٤- الإمام مالك بن أنس: موطأ الإمام مالك، مراجعة: محمد فؤاد عبد الباقي- دار إحياء التراث العربي، مصر.
١٥٥- (المباركفوري) أبو العُلا محمد بن عبد الرحمن بن عبد الرحيم: تحفة الأحوذي شرح سنن الترمذي، ط ١٤١٠،١هـ - ١٩٩٠م، دار الكتب العلمية - بيروت.
١٥٦- (المحبوبي) عبد الله بن مسعود المحبوبي البخاري الحنفي: التوضيح لمتن التنقيح في أصول الفقه، ضبطه وخرج آياته وأحاديثه: الشيخ زكريا عميرات، ط١، ١٤١٦- ١٩٩٦م، دار الكتب العلمية - بيروت.
١٥٧- محمد محمد عبد اللطيف (يلقب نفسه بابن الخطيب): الفرقان، الطبعة لم تذكر - دار الكتب العلمية - بيروت.
١٥٨- محمد الصادق عرجون عميد كلية أصول الدين، جامعة الأزهر: بحث علمي لنقد مزاعم حول قراءات القرآن في رسالة: (أصوات المد في القرآن الكريم) بكلية الآداب - جامعة الإسكندرية،، اتحاد الطلاب بكلية أصول الدين، اللجنة الاجتماعية ١٣٨٦هـ - ١٩٦٦م.
١٥٩- محمد أبو زهرة: أصول الفقه، دار الفكر العربي.
١٦٠- محمد عليان المزروقي الشافعي: حاشيته على الكشاف، دار المعرفة - بيروت.
١٦١- محمد بخيت المطيعي (ت ١٣٥٤هـ): الكلمات الحسان في الحروف السبعة وجمع القرآن، ط١، ١٣٢٣هـ، المطبعة الخيرية - القاهرة.
١٦٢- (المزي) أبو الحجاج جمال الدين يوسف بن الزكي عبد الرحمن (٦٥٤هـ - ٧٤٢ هـ): تهذيب الكمال، مراجعة: بشار عواد معروف، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م، مؤسسة الرسالة -بيروت.
١٦٣- (مسلم): أبو الحسين بن الحجاج النيسابوري: صحيح مسلم، (٢٠٦هـ - ت٢٦١هـ) مراجعة: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي بيروت ١٣٧٤هـ-١٩٥٤م.

١٦٤- (ملا جيون) أحمد بن أبي سعيد بن عبيد الله الحنفي الصديقي الميهوي (ت١١٣٠هـ): نور الأنوار وبهامشه كشف الأسرار، ط١ ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م، دار الكتب العلمية – بيروت.

١٦٥- (المقدسي) أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد بن أحمد الحنبلي (٥٦٧هـ - ٦٣٤هـ): الأحاديث المختارة، تحقيق: عبد الملَك بن عبد الله دهيش،١٤١٠هـ، مكتبة النهضة الحديثة، مكة المكرمة.

١٦٦- (المهدي) أحمد بن يحي بن المرتضى (٧٦٤ هـ- ت٨٤٠ هـ): منهاج الوصول إلى معيار العقول في علم الأصول، ط١، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م، دار الحكمة اليمانية - صنعاء.

١٦٧- (المهدي) أحمد بن يحيى المرتضى ت٨٤٠هـ:البحر الزخار الجامع لمذاهب علماء الأمصار، وبهامشه:جواهر الأخبار والآثار المستخرجة من لجة البحر الزخار للعلامة محمد بن يحيى بن بهران الصعدي ت٩٥٧هـ،أشرف عليها: عبد الله محمد الصديق، وعبد الحفيظ سعد عطية، دار الكتاب الإسلامي - القاهرة.

١٦٨- (الموصلي) أبو يعلي أحمد بن علي بن المثنى التميمي (٢١٠ -ت٣٠٧هـ): مسند أبي يعلى، مراجعة: حسين سليم أسد، ١٤٠٤هـ -١٩٨٤م، دار المأمون للتراث - دمشق.

١٦٩- (الميداني) عبد الرحمن حسن حبنكة: ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة، ط٤، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م، دار القلم - بيروت.

١٧٠- (النسائي) أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب (٢١٥-٣٠٣): السنن الكبرى مراجعة: د. عبد الغفار سليمان البنداري - سيد كسروي حسن، ١٤١١هـ - ١٩٩١م، دار الكتب العلمية - بيروت.

١٧١- (الهيثمي) الحافظ نور الدين: بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث، للحارث بن أبي أسامة،تحقيق د.حسين أحمد صالح الباكري، ١٤١٣هـ-١٩٩٢م، مركز خدمة السنة والسيرة النبوية - المدينة المنورة.

١٧٢- (الوزير) محمد بن إبراهيم الوزير ت ٨٤٠هـ: ترجيح أساليب القرآن على أساطير اليونان، وما بعدها ط١، دار الكتب الثقافية -بيروت.

١٧٣- (الواحدي) أبو الحسن علي بن أحمد النيسابوري (ت ٤٦٨هـ)، تعليق وتخريج: د. مصطفى ديب البغا، ط١، ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م، دار ابن كثير – دمشق.

١٧٤- (اليماني) عبد الباقي بن عبد المجيد: إشارة التعيين في تراجم النحاة واللغويين، تحقيق د. عبد المجيد دياب، ط١، ١٩٨٦م، الدار لم تذكر.

المجلات:

١٧٥- مجلة: جريدة الدستور ٨/ ١٠/ ١٩٩٧م.

١٧٦- مجلة: مجلة جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية، العدد الأول، ذو القعدة ١٤١٥هـ: د. يوسف الخليفة أبو بكر: البحث التربوي واللغوي في مجال تعليم القرآن الكريم.

١٧٧- مجلة: مجلة البيان، العدد ١٠٥، جمادى الأولى١٤١٧هـ.

١٧٨- مجلة: مجلة العربي، نوفمبر ١٩٩٨م.

من منشورات

جمعية المحافظة على القرآن الكريم
المملكة الأردنية الهاشمية

هاتف: ٤٦٢٨٣٣٤ ٦ ٩٦٢+ - فاكس: ٤٦٢٨٣٣٦ ٦ ٩٦٢+
ص.ب: ٩٢٥٨٩٤ - الرمز البريدي: ١١١٩٠
حسابنا لدى البنك الإسلامي الأردني / فرع الحسين (١٧٦٧١)
حسابنا لدى البنك العربي الإسلامي الدولي / فرع الحسين (١٠٢٠٠)
حسابنا لدى بنك الأردن دبي الإسلامي / فرع الشميساني (١٠٥٩٧)
عمان - الأردن
www.hoffaz.org
E-mail: hoffaz@hoffaz.org

9789957571900